
محافظة الاسكندرية
GOUVERNORAT D'ALEXANDRIE
محافظة الاسكند رية
الاسكندرية
ALEXANDRIA
تاريخ الأسكندرية
عبر العصور

تاريخ الإسكندرية .. نشأتها وحضارتها
منذ أقدم العصور

الإهداء

إلى شعب الإسكندرية الحبيب

والشعب المصرى العظيم والشعوب

العربية والأفريقية وشعوب العالم أجمع.

نهدى هذا الكتاب

الهيئة الإقليمية لتنشيط السياحة

محافظة الإسكندرية

إسكندريتنا ...

كم يشق على المرء أن يتحدث بموضوعية عن بلده الذى يعيش فيه ويعيش فينا إلا أنه إذا تعلق الأمر «بالإسكندرية» فلن نهتم بالذاتية إذا ماقمنا بالإشادة بالتاريخ الحضارى العريق، وبالواقع الذى يعكس إشعاع الفنار القديم.

وكما كانت محافظة الإسكندرية حريصة على إشباع تطلع القارىء للإلمام ولو بالقدر اليسير بما يذخر به التاريخ السكندرى من أمجاد - تزهو به على المدن الأخرى فى عالمنا الراهن.

ومن هذا المنطلق كان هذا الكتاب الذى أسهم فى إخراجه للمرة الثانية علماء لهم إحاطة واسعة وإلمام عميق بالإسكندرية - من يوم أن أقامها الإسكندر الأكبر على أطلال قرية راقوده منذ عدة قليلة من القرون فيما قبل الميلاد لتحمل اسمه إلى يومنا هذا.

أيها القارىء الكريم :

هاهى إسكندريتنا تطل علينا من أعماق التاريخ لتتيه بما حباها الله من جمال موقع وصفاء جو وخصوبة أرض وفكر.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته،،،

محافظ الإسكندرية

لواء/ محمد عبد السلام المحجوب

صفحة مضيئة

باسم كلية الآداب أساتذة وطلابا، وباسمى شخصياً أتوجه بالشكر الجزيل، إلى السيد اللواء محمد عبد السلام ،المحجوب محافظ الإسكندرية على إشارته الكريمة بإعادة طبع هذا الكتاب القيم فى ثوب جديد.

كما أتوجه بالشكر كذلك إلى هذه النخبة المتازة من أساتذة كلية الآداب، الذين أسهموا فى كتابة موضوعات هذا الكتاب، التى تتناول تاريخ وحضارة الإسكندرية منذ إنشائها حتى العصر الحديث.

وهذه الموضوعات مقسمة إلى ثلاثة أجزاء، يتناول كل جزء منها تاريخ وحضارة الإسكندرية فى حقبة من الحقب التاريخية.

فالجزء الأول، يتناول العصرين : البطلمى والرومانى.

ويتناول الجزء الثانى العصر الإسلامى.

أما الجزء الثالث، فيتناول العصر الحديث، منذ الفتح العثمانى ثم ثورة ٢٣ يوليو إلى وقتنا الحالى.

ومما يزيد هذه الطبعة أهمية تبسيط موضوعات هذا الكتاب، بحيث تصاغ فى أسلوب سلس واضح، لا يستعصى فهمه على ذهن القارىء غير المتخصص، أو الوافد الأجنبى، وإضافة موضوعات جديدة لم ترد فى الطبعة السابقة.

والواقع أن تاريخ الإسكندرية، لا ينفصل عن تاريخ مصر فهو جزء منها، ومن هنا، أرى أن هذا الكتاب يعد صفحة مضيئة فى تاريخ مصر التليد وحضارتها الأصيلة.

أ. د. محمد عبده محجوب

عميد كلية الآداب ـ جامعة الإسكندرية

لؤلؤة البحر المتوسط

إذا ما كان التاريخ هو المرآة التى تنعكس على صفحتها كل أمجاد الوطن، وإذا ما كانت الحضارة هى حصيلة تراكم المنجزات خلال تعاقب الحقب الزمنية، وإذا ما كان السجل المشرف لجميع ذلك هو الذى يرفع الصوت عاليا ناطقا بكل ما يزهو به بلد.

فإن الإسكندرية لترفع الرأس شموخا بما قدمت للتاريخ والحضارة، وما بين أيدينا من كتاب - كما يراه القارىء - يتوافد على كتابته للمرة الثانية نخبة من كبار العلماء الذين دارت حياتهم حول القديم والحديث من تاريخ هذه المدينة العظيمة وحضارتها واللذين لم تتسع لهما المجلدات.

والطبعة الأولى من هذا الكتاب كانت للمتخصصين أكثر منها للقارىء العادى..

ولذلك؛ فإن الهيئة الإقليمية لتنشيط السياحة رأت بتوجيه من السيد المحافظ أنه يلزم أن يكون هناك طبعة للقارىء غير المتخصص لتكون هناك إطلالة للجميع على الإحاطة بما أوجزه هؤلاء الأساتذة العلماء عن تاريخ وحضارة أقدم أسكندريات العالم قاطبة، بل وأقدم مدن التاريخ، والتى تضرب فى أغوار الزمن بما يزيد كثيرا عن الألفين من السنين.

ولى كل الأمل أن ينجح فكر هؤلاء العلماء فى هذا الكتاب فى أن يخلق لدى القارىء المصرى والعربى - وإن شاء الله - بعد ترجمته إلى اللغات الأخرى ليكون لدى كافة الأجناس موضحا - بعض ما ينبغى أن يحاط به علما عن لؤلؤة البحر المتوسط.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته،،،

رئيس الإدارة المركزية للسياحة والمصايف وتنشيط السياحة

لواء/ حازم أبو شليب

تقديم الطبعة الأولى

(الفضل لأهل الفضل)

بقلم السيد/ حمدى عاشور
(محافظ الإسكندرية ١٩٦٣)

المقصود من تاريخ مدينة بعينها هو تسجيل المجهود البشرى الذى قدمه الإنسان متصلا بهذه البقعة من الأرض.

والهدف من إصدار «الكتب البلدانية» هو رصد الأحداث فى مكان بعينه لإثارة شهية أبنائه إلى الاطلاع وتقريب وقائع الدهور وتقديمها إليهم مرتبطة بآبائهم وأجدادهم فى سلسلة متصلة الحلقات عبر التاريخ. ونحن حين نحاول كتابة التاريخ على هذا النحو لا نضيف شيئا إلى التاريخ، ولكننا نضع الأساس لدراسة منهجية تيسر قراءة التاريخ على الخريطة وتربط وقائعه بالناس.. ويتكامل هذا العمل إذا وجد كل بلد من أبنائه المزودين بالمعرفة والوعى من يعنى بتسجيل أحداثه وإبراز ملامحه التاريخية عبر العصور حتى تتكون لنا فى النهاية حصيلة وافية من التاريخ المفهرس المرتبط بالأماكن والبلاد.

وقد نجحت هذه المحاولة فى محافظة دمياط التى كان لى الشرف أن أكون محافظا عليها عام ١٩٦١ عندما أصدرنا بها كتابا جامعا عن تاريخ دمياط منذ أقدم العصور إلى الآن. فقد كان هذا الكتاب تقريبا لتاريخ المدينة وتيسيرا لقراءته وجمعا لوقائعه المبعثرة.. وكان لهذا العمل أثره فى تعميق الوعى بقضايانا الواقعة واستلهام الدروس المستفادة من مشاكل الماضى القريب والبعيد على السواء.

إن تاريخ الوطن هو تاريخ المواطنين، وكلما امتد تاريخ المجتمع وضرب فى أعراق الزمان كان لهذا المجتمع تقاليده الموروثة التى تؤثر فى شكل حاضره من قريب أو بعيد وبصورة ما.. سواء عرفنا ذلك أم لم نعرف، فإذا توثب المجتمع وثارت كوامنه وانبعثت طاقاته وانطلقت إمكانياته فهو فى حاجة إلى مثل هذه الوجبة التى نقدمها له بين دفتى هذا الكتاب ليتمثل الأمثلة ويقتدى بالنماذج، ويرفع الشعارات التى تلهب إحساسه وتدفعه قدما إلى الأمام.

ومن الحق ما يقال من أن المدائن كالناس.. لها أعمار وأقدار.

ولكن هذه المقولة ليست صحيحة على إطلاقها لأن الإنسان يقطع رحلة الحياة مرة واحدة من الطفولة إلى الفتوة إلى الكهولة فالشيخوخة.. والأيام لا تعود بالنسبة للإنسان ولكن الأمر يختلف عن ذلك بالنسبة للمدينة فقد تصيبها الشيخوخة مبكرة وربما انتهت إلى الفناء والعدم... وقد يعود إليها شبابها ويعاودها صباها فتستعيد نضارتها وازدهارها وتسترجع أيامها. ولا شك أن من أكبر المدائن التاريخية مدينة الإسكندرية عروس البحر الأبيض المتوسط وميناؤه العتيد وعاصمته

الكبرى التى ظلت ردحا طويلا من الزمان وهى تصدر العلم والمعرفة علاوة على تاريخها التجارى الاقتصادى المجيد.

ولو لم يأمر الإسكندر المقدونى مهندسه «دينوقراط» ببناء الإسكندرية لبنيت الإسكندرية على نحو ما.. فقد خلق هذا الموقع الممتاز ليكون عاصمة من عواصم الدنيا.

وقد ظلت الإسكندرية عاصمة لمصر أيام حكم البطالمة وطوال أيام الحكم الرومانى.. حتى إذا كان الفتح العربى انتقلت العاصمةإلى الفسطاط وضعف اتصال مصر بجنوب أوروبا بعد انهيار الدولة الرومانية وبدأ اتجاه الشمال الأفريقى يتحول إلى العالم العربى وعادت للبحر الأحمر أهميته ونزلت الإسكندرية عن مكانتها ودخلت فى منطقة الظل بعد أن كانت الأضواء مسلطة عليها فزايلتها حيويتها وفتر نشاطها ثم أجهز على البقية من نشاطها انطمار الفرع الكانوبى فيما انطمر من فروع النيل السبعة. وكان الفرع الكانوبى يربط الإسكندرية بالدلتا وسائر مدن الإقليم المصرى، فلما انقطع هذا الشريان توقفت الحياة فى الإسكندرية وهاجر النشاط إلى الموانى النهرية الأخرى كدمياط ورشيد. ودخلت الإسكندرية مرحلة الشيخوخة ولكنها لم تنته، فقد بقيت لها عناصر الحياة الخالدة والشباب المتجدد ممثلة فى أهمية موقعها الفريد الممتاز. ولهذا سرعان ما استعادت حيويتها بعد إنشاء ترعة المحمودية وربطها بداخل البلاد عن طريق هذا الشريان.

والإسكندرية مدينة تدخل التاريخ من أوسع الأبواب.

شهدت أضخم أحداث الدنيا، وكانت دائما الصف الأول من صفوف نضالنا الموصول وكانت طليعة نضالنا ضد الاحتلال الفرنسى سنة ١٧٩٨ كما كانت طليعة نضالنا ضد الاحتلال الإنجليزى الذى دخل بلادنا عن طريقها على ظهر الخديوى توفيق. وظللنا أجيالا متعاقبة ونحن ندفع ثمن هذه الخيانة من أموالنا وأرواحنا حتى سنة ١٩٥٦..

وشهدت الإسكندرية خروج الملك السابق فاروق كما شهدت خروج جده إسماعيل من قبل.

ومن الإسكندرية ارتفع صوت مصر معلنا تأميم شركة قناة السويس.

وسبقت الإسكندرية إلى معاناة الحكم المحلى على نحو ما بمجلسها البلدى العريق سنة ١٨٩٠ الذى كان أول مجلس محلى فى مصر.. كما كانت بورصة القطن بها أقدم مثيلاتها فى العالم..

وأخيرا ينبغى أن يسجل للإسكندرية احتضانها للحركات التحررية والجمعيات الوطنية التى اندفع إليها شباب الثغر فى فجر الحركة الوطنية.

والإسكندرية مدينة تعتمد فى ازدهارها على مصدرين أساسيين... مينائها العتيد، وصيفها الجميل الأمر الذى يجعل ازدهارها موسميا... وتتضافر الجهود الآن لملء أيامها بالحركة ووصلها بالازدهار على مدار العام حتى نستغل شتاءها الرائع كما نستغل صيفها الجميل.

وإذا كانت الإسكندرية فى حاجة إلى تضافر الجهود للنهوض بها فإن ارتفاعنا إلى مستوى

أعباء إنعاش الإسكندرية اقتصاديا يجب أن يكون الأساس ـ لأن مسئولية هذه الأعباء تقع اليوم على كاهل السكندريين أنفسهم بعد إرساء دعائم الحكم المحلى وتنفيذ قانون الإدارة المحلية. ولهذا كان لابد من شحذ العزائم وتعبئة الكفايات وتجنيد الرأى العام وتزويده بالفهم والوعى وتعميق إحساسه بالمسئولية وإدراكه للعلاقة بين الوطن وبين المواطنين فى المجتمع الاشتراكى الجديد.

وهذا الهدف ـ هو فكرة إصدار هذا الكتاب. وحتى تتوافر لهذه الخطوة عناصر النجاح وبعد أن لاحظنا رغم كثرة ماكتبه الكتاب فى مختلف العصور عن مدينة الإسكندرية أننا بحاجة لجمع شتات هذا كله ووضعه فى صورة متكاملة..

أقول : رأيت من واجبى أن أنتدب إلى الفضل ذويه، فتركت لأساتذة كلية الآداب فى جامعة الإسكندرية أن يتداولوا تقديم هذه المدينة الخالدة فيما بينهم ليتناوله كل واحد من زاوية اختصاصه. وكانت نتيجة جهدهم هذا الكتاب.

وبعد فإذا كان يسعدنى بصفتى محافظا للإسكندرية أن أهدى هذا الكتاب إلى العاصمة الثانية لجمهوريتنا الفتية فإنه يسرنى أن أنوب عن أهلها وطوائفها وهيئاتها فى إهدائه إلى قائد نهضتنا وزعيم ثورتنا السيد الرئيس جمال عبد الناصر.

والله ولى التوفيق

محمد حمدى عاشور

محافظ الإسكندرية

سنة ١٩٦٣

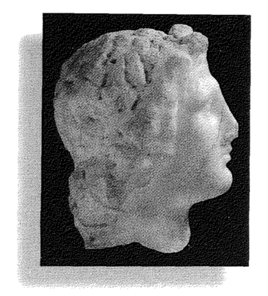
بسم الله الرحمن الرحيم

شكر

الهيئة الإقليمية لتنشيط السياحة بالإسكندرية تتقدم بخالص الشكر وعظيم التقدير للسادة الأساتذة العلماء الأجلاء الذين أسهموا بعلمهم وجهدهم فى إنجاز هذا المرجع الذى يعبر عن تاريخ وحضارة مدينة الإسكندرية العريقة وهم طبقا لما ورد فى فصول هذا الكتاب :ـ

أ.د. محمد عبده محجوب	عميد كلية الآداب
اسم المرحوم أ.د. محمد عواد حسين.	
أ.د. عزت زكى قادوس	رئيس قسم الآثار اليونانية الرومانية
أ.د. لطفى عبد الوهاب.	أستاذ التاريخ والحضارة الرومانية المتفرغ
أ.د. مصطفى العبادى	أستاذ التاريخ والحضارة اليونانية الرومانية المتفرغ
أ.د. فوزى الفخرانى	أستاذ الآثار اليونانية الرومانية المتفرغ
اسم المرحوم أ.د. داود عبده داود	
أ.د. محمد محمد مرسى الشيخ	أستاذ تاريخ العصور الوسطى المتفرغ
أ.د. محمود سعيد عمران	أستاذ تاريخ العصور الوسطى المتفرغ
أ.د. السيد عبد العزيز سالم	أستاذ التاريخ الإسلامى والحضارة المتفرغ
أ.د. سعد زغلول عبد الحميد	أستاذ التاريخ الإسلامى والحضارة المتفرغ
أ.د. أحمد مختار العبادى	أستاذ التاريخ الإسلامى والحضارة المتفرغ
أ.د. عمر عبد العزيز عمر	أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر المتفرغ
أ.د. حسن محمد صبحى	أستاذ التاريخ الحديث المتفرغ
أ. أحمد عبد الفتاح	مدير عام متاحف وآثار الإسكندرية
أ.د فاروق عثمان أباظة	أستاذ التاريخ الحديث المتفرغ
أ.د محمد محمود السروجى	أستاذ التاريخ الحديث المتفرغ

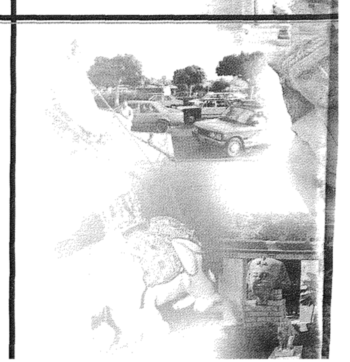
الإسكندرية منذ نشأتها إلى الفتح العربي ٣٣٢ قم - ٦٤١م





- تخطيط الإسكندرية القديمة
- فى عهد البطالمه
- فى العصر الرومانى
- الاسكندرية والفن فى العصرين اليونانى والرومانى
- فن الإسكندرية فى العصر البيزنطى

الجزء الأول





مقدمة

تروى فصول هذا الكتاب قصة مدينة الإسكندرية منذ أرسى الإسكندر الأكبر أساسها فى الخاس والعشرين من شهر طوبة عام ٣٣١ ق.م. إلى يومنا هذا، وهى قصة مجيدة تكشف للقارىء عن الدور الهام الذى أسهمت به مدينتنا فى بناء الحضارة الإنسانية، فما أن استكملت المدينة مقوماتها حتى اتخذها بطليموس الأول عاصمة لملكه الجديد الذى ساده على جنبات الوادى، ثم أخذ يضفى عليها هو وأبناؤه من بعده كل أسباب المجد والعظمة حتى غدت أكبر ميناء فى البحر الأبيض المتوسط حينذاك، بل غدت عاصمة العالم القديم بأسره. وظلت الإسكندرية تتمتع بمكانتها الرفيعة هذه طوال العصر البطلمى، حتى فتح الرومان مصر وحولوها إلى ولاية من ولايات امبراطوريتهم الواسعة فى عام ٣٠ ق.م.، بقيت الإسكندرية مركزا لحكم الوادى أكثر من ستة قرون أخرى انتهت بالفتح العربى.

ومن حق القارىء علينا أن نوضح له الظروف التى أتت بالإسكندر إلى مصر، وجعلت المصريين يقابلونه بترحاب لم يظفر به غيره من الغزاة الفاتحين.

ترجع علاقة مصر ببلاد الإغريق إلى ماقبل مجىء الإسكندر بعدة قرون، عندما قام تجار مدينة ميليتوس الإغريقية - بآسيا الصغرى - بدور الوسطاء بين المملكة الليدية وشعوب البحر المتوسط، فقد تمكنوا فى أواخر القرن الثامن قبل الميلاد من تأسيس محلة لهم فى دلتا النيل، هى التى عرفت فيما بعد باسم «تقراطيس» وهى قريةكوم جعيف الحالية بمحافظة البحيرة.

وكانت ظروف مصر السياسية آنذاك هى التى عاونت هؤلاء التجار الإغريق على دخولها، ذلك أن أبسماتيك الذى أسس الأسرة السادسة والعشرين الفرعونية، لم يستطع أن يحرر البلاد من الاستعمار الآشورى إلا بفضل المرتزقة الإغريق فكان حريا به أن يرد الجميل بالتودد إلى الإغريق والسماح لتجارهم بالإقامة فى مصر.

وحين وقعت البلاد فريسة فى أيدى الفرس، وهب المصريون ثائرون يريدون استرداد حريتهم المسلوبة، ووجدوا العون كل العون من الإغريق، فقد أمدهم الآثينيون بقوة بحرية كبيرة، ولم يتوان الجند الإغريق عن الانتظام فى صفوف الثوار المصريين كلما طلب إليهم ذلك، على حين كانوا يرفضون الاشتراك فى صفوف القوات الفارسية التى تحشد لإخماد الثورات المصرية.

وظلت علاقة المصريين بالإغريق قوية وطيدة طوال أعوام الاستعمار الفارسى لوادى النيل، برغم كل التفكك والانحلال الذى كانت بلاد الإغريق تعانيه آنذاك. فلما استطاعت مقدونيا أن توحد الإغريق وأن تخلق منهم قوة متماسكة مترابطة، عزم ملكها فيليب على القيام بغزوة كبرى يحطم بها الإمبراطورية الفارسية، لكن الأقدار لم تمهله، فقضى نحبه قبل أن ينفذ مشروعه العظيم تاركا المهمة لابنه وخليفته الإسكندر الأكبر.

وبدأ الإسكندر حملته الكبرى فانتصر على قوات الملك الفارسى عند نهر جرانيكوس فى آسيا الصغرى، ثم التقى به بعد ذلك بستة أشهر عند لسوس فى كيليكيا (نوفمبر سنة ٣٣٣)، فظفر بنصر جديد شتت شمل قوات الملك الفارس دارا وجعله يفر فزعا إلى قلب آسيا. وكان فى وسع الإسكندر أن يغتنم هذه الفرصة المواتية فيتبع خصمه وهو مبعثر القوى وينزل به الهزيمة النهائية فى عاصمة ملكه.

ولكن الإسكندر برغم صغر سنه كان يتمتع بعقلية السياسى المحنك وكفاية القائد الماهر، فأدرك أن اقتفاء أثر الملك الفارسى سوف يؤدى إلى النصر حقيقة، لكنه سوف يكون نصرا براقا غير مأمون العاقبة، مادامت قوات هذا الملك تسيطر على البحر وشواطئه الشرقية، ومن ثم تصبح سهما مصوبا نحو ظهره، لهذا آثر أن يستولى أولا على تلك الشواطئ حيث قواعد الأسطول الفارسى، ومن ثم اتجه جنوبا فاحتل كل موانى ومدن الساحل الشرقى للبحر المتوسط.

ووصل بعد ذلك إلى مصر فى خريف عام ٣٣٢ ق.م. فسلم له الوالى الفارسى دون مقاومة، وتقدم الإسكندر إلى منف بين مظاهر الترحيب الشديد من أبناء مصر الذين كانوا يتوقون إلى الخلاص من الحكم الفارسى البغيض، ذلك الحكم الذى أنزل بهم صنوف العسف والإرهاق، وازدرى ديانتهم أشد الازدراء.

ولا يسع المؤرخ المنصف إلا أن يلتمس العذر للمصريين فى ترحيبهم الشديد بالإسكندر وقواته، فهم لم يعتبروه مستعمرا جديدا، وإنما نظروا إليه كحليف وصديق جاء يعاونهم على استخلاص حريتهم من براثن الفرس كما عاونهم الإغريق من قبل أيام ثوراتهم المتكررة ضد هؤلاء المستعمرين. وكانت الصداقة التى توطدت أواصرها بين الإغريق والمصريين طوال فترة الاحتلال الفارسى على نحو ماذكرنا، ثم المسلك الكريم الذى سلكه الإسكندر تجاه أبناء الوادى وعقائدهم الدينية، كفيلان بتبديد نظرة المصريين هذه إلى الإسكندر وقواته، ولاسيما بعد أن توج نفسه على نهج الفراعنة الأقدمين وحمل لقب «ابن آمون» فاعتبر مؤسساً لأسرة فرعونية جديدة.

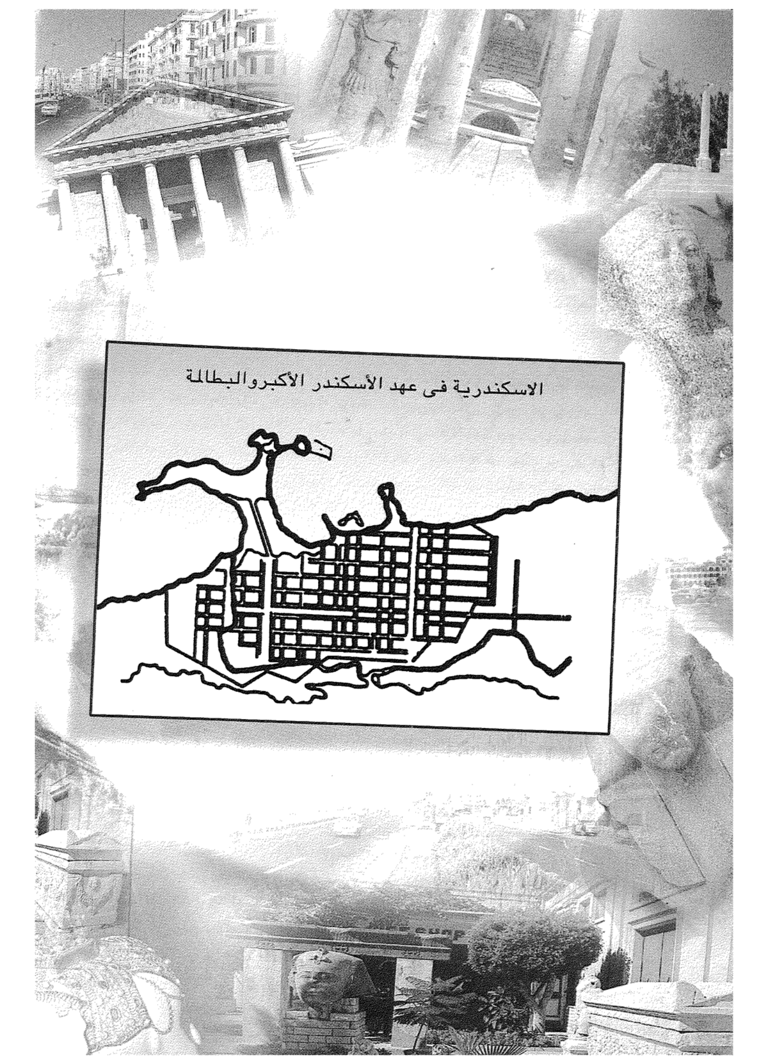
وكان أبقى وأعظم عمل قام به الإسكندر فى مصر هو تأسيس المدينة التى حملت اسمه فخلدته على مر الزمان، وتوفى الإسكندر فجأة فى بابل حوالى منتصف يونيو ٣٢٣ ق. م. وهو بعد فى الثالثة والثلاثين من عمره فقسمت امبراطوريته بين قواده، وكانت مصر من نصيب القائد بطليموس بن لاجوس الذى حكمها أول الأمر كوال يصرف الشئون باسم السلطة المركزية، ثم أعلن استقلاله بها فى عام ٣٠٦ ق. م. وحمل لقب «ملك».

ومنذ اللحظة الأولى وجه بطليموس الأول عناية كبرى نحو مدينة الإسكندرية، فنقل عاصمته إليها وأضفى عليها هو وخليفته بطليموس الثانى من رعايتهما ما جعلها أعجوبة العالم حينذاك ترتفع فى مينائها ـ فوق جزيرة فاروس ـ هذه المنارة الشهيرة التى خلعت اسمها من بعد على مثيلاتها فى كثير من اللغات الحديثة، وفى المكان المعروف باسم «سيما» كان يرقد جثمان الإسكندر الأكبر، وفى منطقة راقودة القديمة كان معبد السرابيوم الشهير يقوم شاهدا على أن سرابيس كان إلها مصريا، وبها أيضا أقيم معهد للتربية وميدان للألعاب الرياضية وحلبة لسباق الخيل ومسرح كبير، كما شيد القصر الملكى الرئيسى فوق جزيرة صغيرة شرقى الميناء، وإلى جواره دار العلم والمكتبة التى جمع لها البطالة أكثر من نصف مليون لفافة بردية، وقد نزل بها وبدار العلم عدد من العلماء الذين وضعوا أسس علوم التصنيف ونقد النصوص، كما وضعوا قوائم للمؤلفات الإغريقية الأدبية، ونقحوا مؤلفات هوميروس، وابتكروا علامات الاستفهام والتعجب وما إليها من فواصل الكلام، وفى الإسكندرية استطاع أريستارخوس أن يكشف دوران الأرض حول الشمس، كما استطاع اراتوستنيس أن يقيس محيط الكرة الأرضية دون أن يخطىء فى أكثر من خمسين ميلا، وفيها كتب اقليدس كتاب المبادىء فى علم الهندسة، واخترع هيرون الآلة البخارية، وذاع صيت مدرسة الطب السكندرية ولاسيما فى التشريح والجراحة.

هذه هى الإسكندرية التى بهرت أبصار كل من رآها بجمالها وبهائها وثرائها، ولقد تغنى بها الكتاب والشعراء منذ نشأتها الأولى ووصفوها بأنها المدينة التى يجد الإنسان فيها كل ما تشتهيه نفسه، وقد عرف سكانها - إلى جانب الجد فى مكتبتها ومتحفها - ضروب اللهو والمتعة التى اجتذبت إليها كثيرا من الأجانب وأهل الأقاليم حتى لقد شبهها أحد الكتاب المحدثين بمدينة فلورنسا فى عهد أسرة مديتشى، حيث نجد النشاط الفنى والأدبى والعلمى جنبا إلى جنب مع المسرح والبهجة والاستمتاع بملذات الحياة.

ولا تزال الإسكندرية فى أيامنا هذه أكبر ميناء فى جمهورية مصر العربية، ومركزا لنشاط علمى وتجارى وصناعى هائل، وثورتنا المجيدة لا تدخر جهدا فى سبيل النهوض بها وإحلالها المكان المرجو لها.

أ، د. محمد عواد حسين


الاسكندرية فى عهد الأسكندر الأكبروالبطالمة

تخطيط مدينة الإسكندرية القديمة

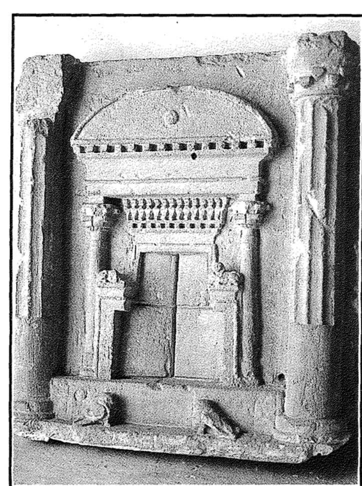
أ. د. عزت زكى قادوس

تقديــــم :

يفتح البحر المتوسط ذراعيه ويحتضن عروسه الخالدة (الإسكندرية) وهى تختال وتتكسر أمواجه على صخورها. الدنيا كلها تشهد على ذلك العرس الذى عقده التاريخ منذ نحو ٢٣٣٠ عاما عرسا مهيبا معطرا بعبق التاريخ ينعقد فخره بلواء الإسكندر الأكبر. كان التاريخ أيامئذ ينظر ويسجل خروج الإسكندر من مقدونيا يقود جيوشه الظافرة لتتهاوى ممالك الفرس وبلدان الشرق تحت سنابك خيول الإسكندر محرزا النصر العظيم على الفرس القوة العظمى فى الشرق فى موقعة اسوس عام ٣٣٢ ق.م. ويتربع على عرش العالم القديم.

قبل ذلك آثر الإسكندر أن يتجه صوب مصر بعد سقوط آسيا الصغرى وبلاد الشام فى يديه وهدفه من الإبحار إلى مصر الشمالية فى البحر المتوسط وضمان الحصول على القمح اللازم لبلاد اليونان ولأفراد جيشه.

يصل الإسكندر إلى بلوزيوم (بالوظة الحالية) ومنها إلى منف (ميت رهينة الحالية) وتصبح مصر كلها فى قبضته وأهلها يظهرون له الود والترحيب وهو يقابل ذلك منهم بإظهار التوقير والاحترام لآلهتهم وشعائرهم ويتم تنصيبه فرعونا على الطريقة المصرية ويزمع الإسكندر الرحيل إلى الغرب لزيارة معبد الإله آمون إله مصر الأعظم فى سيوه ويخوض غمار رحلة طويلة شاقة.



باب إحدى المقابر القديمة بالإسكندرية

بداية الفكرة:

وفى الطريق على ساحل البحر المتوسط يسترعى انتباه الإسكندر بقعة من اليابسة تفصل البحر المتوسط عن بحيرة مريوط ويفكر الإسكندر مليا فى تلك البقعة أن لها مواصفات عجيبة تصلح لإنشاء مدينة عظمى على أحدث الطرز فى ذلك الوقت ومن هذه المواصفات:

١ ـ إمكان وصول مياه الشرب العذبة من النيل عن طريق الفرع الكانوبى.

٢ ـ وجود جزيرة صغيرة فى مواجهة تلك البقعة لا تبعد عنها أكثر من ميل واحد مما يمكن، وصلهم معا.

٣ ـ تعتبر هذه الجزيرة جبهة دفاعية أمامية للمدينة.

٤ ـ وجود بحيرة مريوط جنوب هذه اليابسة يشكل تحصينا دفاعيا من ناحية الجنوب.

وهذه المواصفات أقنعت الإسكندر بضرورة إنشاء مدينة فى هذا الموقع تحمل اسمه وتخلد ذكراه على مر الزمان وتكون ميناء يخدم التجارة الدولية فى هذه المنطقة.

جدير بالذكر أن الطرف الغربى من هذه المنطقة وهو عبارة عن قرية تسمى «راكوتيس» كان مأهولا بالسكان ،الذين كانوا يعملون بالصيد.

اختمرت الفكرة فى ذهن الإسكندر وأراد تحقيقها على وجه السرعة فعهد إلى مهندسه اليونانى الشهير دينو قراطيس بتخطيط هذه المدينة الجديدة.

تخطيط المدينة:

اختار المهندس دينو قراطيس النمط الهيبودامى لهذه المدينة وهو عبارة عن شارعين رئيسيين متقاطعين بزاوية قائمة، ثم تخطيط شوارع أخرى فرعية تتوازى مع كل من الشارعين مما يجعل مساحة الأرض أشبه بقطعة الشطرنج، وهو التخطيط الذى شاع استخدامه فى العديد من المدن اليونانية منذ القرن الخامس ق.م وبدأ المهندس دينوقراطيس بمد جسر يربط بين الجزيرة التى سميت فيما بعد بجزيرة فاروس نظرا لانشاء فنار الإسكندرية ـ إحدى العجائب السبع فى العالم القديم ـ على الطرف الشرقى بها وبين اليابسة، كان طول هذا الجسر ٧ استاديوم أى ما يقارب ١٣٠٠ متر مما يجعله يكتسب اسم هيبتا ستاديوم أى السبعة ستاديات ـ ونتيجة لإنشاء هذا الجسر أصبح هناك ميناءان أحدهما شرقى يسمى بالميناء الكبير Portus magnus والآخر غربى ويسمى ميناء العود الحميد Portus Eunostos وكان الميناء الشرقى أكثر أهمية فى العصرين البطلمى والرومانى.

تقسيم المدينة:

تم تقسيم المدينة إلى خمسة أحياء حملت حروف الأبجدية اليونانية الأولى والتى تمثل الحروف الأولى من خمس كلمات يونانية هى: شيدها الإسكندر الملك ابن الإله ومن هذه الأحياء: الحى الملكى (البروكيون)، الحى الوطنى، حى اليهود وهو أهم الأحياء فى المدينة القديمة.

ويمتد المسرح الرئيسى من الشرق إلى الغرب فى وسط المدينة وهو المعروف بشارع كانوب (شارع فؤاد حاليا) ويحده من الشرق بوابة كانوب ومن الغرب باب سدرة، أما الشارع الطولى الذى يمتد من الشمال إلى الجنوب فهو يقابل الآن شارع النبى دانيال وكان يحده من الشمال بوابة القمر ومن الجنوب بوابة الشمس.

مقبرة الإسكندر الأكبر:

يعد موقع مقبرة الإسكندر الإكبر لغزا محيرا يشغل الرأى العام العالمى إلى يومنا هذا، ويسعى أكبر علماء الآثار سعيا للتوصل إلى التحديد الدقيق لموقعها وإمكانية العثور عليها.

ويحدثنا الجغرافى استرابون الذى زار مصر فى عام ٢٤ ق.م أن المقبرة كانت تقع فى منطقة السوما فى وسط المدينة حيث يصف طبوغرافية هذا المكان بأن به حدائق وأحراش مقدسة، وبه مرتفع عال (صناعى) يطل على المدينة ككل، يعلوه معبد للآله بان اليونانى حامى الطبيعة (البانيوم) وبه المحكمة. ولما كان الرأى قد استقر فى الإسكندرية على دفن جثمان الإسكندر الأكبر عند تقاطع أكبر وأعرض شارعين فيها ولما كان هذا الموضع ليس بالارتفاع الكافى ليكون بارزا عن أى جزء من أجزاء المدينة فقد تقرر عمل تومبا على هيئة تيمفوس وذلك لوضع علامة جنائزية للدلالة على وجود مقبرة أسفل هذا التل الصناعى الذى عرف فى هذا المكان باسم كوم الديماس (تل الجسد أو تل الدفن). وكان شاهد قبر الإسكندر هو أشهر معالم الإسكندرية وفى وسطها وفى أخطر موقع استراتيجى عند تقاطع أكبر شارعين فى المدينة.

وفى القرن العشرين قام العديد من العلماء أمثال فون سيجلين وبارثى ونيرو تسوس وادريانى وغيرهم بالعديد

من الحفائر في مدينة الإسكندرية، ألا أن الحفائر التي قام بها محمود باشا الفلكي في القرن الماضي عام ١٨٦٦ تظل - في رأيي - أهم وأوثق هذه الحفائر نظرا لأنها أجريت في وقت كانت المدينة لاتزال قليلة المباني والعمران وكذلك لم يكن طريق الكورنيش قد خطط بعد./

وقد أستطاع الفلكي تقدير السور الخارجي للمدينة بحوالي ١٥.٨ ك.م بكل ما فيه من تعرجات بالإضافة إلى ٦٠٠ متر أخرى كانت امتداد التيمونيوم (مقر إقامة القائد الروماني ماركوس انطونيوس في الإسكندرية.) أما طول المدينة القديمة فقد حدده الفلكي بـ ٥.٠٩ ك.م بينما تراوح عرض المدينة بين ١.١٥ ك.م من ناحية الغرب و١.٤ ك.م من ناحية الشرق في حين وصل العرض إلى ١.٧ ك.م في الجزء الأكبر (الأوسط) من المدينة وهذا الوصف يتطابق مع وصف الجغرافي اليوناني استرابون.

أما فيما يتعلق بشبكة الشوارع بالمدينة فقد حدد الفلكي ١٨ شارعا رئيسيا منها ٧ شوارع طولية و١١ شارعا عرضيا، وتبدأ الشوارع العرضية من أسفل رأس لوخياس ممتدة من الشرق إلى الغرب، في حين تبدأ الشوارع الطولية من الشمال إلى الجنوب، وقد حدد الفلكي مستوى عرض جميع الشوارع بشكل عام فبلغ حوالي ٧ أمتار فيما عدا الشارعين الرئيسيين اللذين يمثلان محورا رئيسيا للمدينة فكان عرض كل منهما نحو ١٤ مترا وجدير بالذكر أن أغلب هذه الشوارع كان مرصوفا.

ويذكر الفلكي أن شارع كانوب كان يبلغ عرضه ١٤ مترا بدءا من رأس لوخياس حيث كان يوجد القصر الملكي ثم يمر قريبا جدا من ميناء السفن الملكية والترسانة لينتهي عند ميناء آخر على الترعة تحف به قناة تحت الأرض من ناحية الشرق، وظيفتها توصيل ماء الترعة العذب إلى القصر وإلى المدينة لكي يتم تزويد الخزانات بها.

ومن المعروف أن المنطقة الساحلية التي نشأت فيها مدينة الإسكندرية تتميز بمظهر تضاريسي يتلخص في مجموعة سلاسل تلالية جيرية تمتد موازية لساحل البحر، هذه السلاسل التلالية مرتبة من البحر صوب اليابس على النحو التالي:

(أ) **سلسلة التلال الساحلية:** وتبدأ من رأس العجمي ثم تسير في اتجاه الجنوب الغربي، ويعتقد أن الجزر الغارقة خارج ميناء الإسكندرية هي الامتداد الشرق لها.

(ب) **سلسلة التلال الوسطى:** وتعرف أحيانا باسم سلسلة المكس - أبوتلات وتبرز هذه التلال بشكل واضح في جنوب المدينة.

(ج) **سلسلة التلال الداخلية:** وتعرف بجبل مريوط وهي لا تمتد نحو الشرق كثيرا ولذلك فهي تختفي في مدينة الإسكندرية.

وقد تمكن محمود باشا الفلكي من تحديد أماكن العديد من المباني والمنشآت داخل المدينة ومن ذلك أنه حدد:

١ ـ موقع الميناء الملكي على الشريط الساحلي فيما يجاور رأس لوخياس إلى الشرق من القصر الملكي.

٢ ـ مبنى التيمونيوم، المقر المخصص للقائد الروماني ماركوس أنطونيوس عشيق الملكة البطلمية الشهيرة - كليوباترا السابعة. وكان موقعه على اللسان الممتد داخل البحر غرب القصر الملكي.

٣ ـ مبنى القيصرون (ابن الملكة كليوباترا السابعة من يوليوس قيصر) وكان موقعه إلى الشمال من الشارع الكانوبي.

٤ ـ المسرح البطلمي الذي كان يقع إلى الجنوب من القصر الملكي وكان يعد أحد المعالم الرئيسية في مدينة الإسكندرية البطلمية حيث ذكر يوليوس قيصر أنه كان مجاورا للقصر الملكي، كما ذكر استرابون أنه كان يقع إلى أعلى التل الصناعي بالقرب من معبد الإله بوسيدون، وقد حدد الفلكي هذا المسرح على خريطته في المربعات ل ٢ - ل ٣ - ص٣ - ص٤ وبذلك فالمسرح كان يشغل المكان الذي توجد فيه حاليا المستشفى الجامعي لكلية طب الإسكندرية (الأميري).

٥ ـ الجيمنازيوم وكان يشغل المنطقة المجاورة لتقاطع الشارعين الرئيسيين للمدينة وكان يحده من الشمال الشارع الكانوبى ومن الشرق الشارع الطولى (النبى دانيال)، وإلى الغرب من الجيمنازيوم كان يقع تل البانيوم وهو التل الذى يطلق عليه كوم الدكة حاليا، والذى يوجد به المدرج الرومانى (الأوديون) والحمامات الرومانية وأماكن للسكن فى حين تم الكشف عن الطبقة البطلمية التى كانت تحتوى على مدرسة هى الفريدة من نوعها فى الإسكندرية البطلمية.

٦ ـ وكان على خط العرض نفسه وإلى الغرب من تل البانيوم تقع المقابر الملكية (السوما) التى كانت طبقا للعادات اليونانية تقع داخل أسوار المدينة القديمة وليست خارجها أى أنها تقع فى المربعات ص٤ ـ ص٥ ـ مع ل١.

٧ ـ وإلى جوار السوما كان يقع الموسيون (المتحف ودار ربات الفنون) فى المربعات ص٥ ـ ص٦ مع ل١.

٨ ـ وفى الجهة الجنوبية الغربية من المدينة القديمة كان يقع معبد السرابيوم الذى كان مخصصا للإله سيرابيس أحد آلهة الثالوث المقدس للإسكندرية (سيرابيس ـ إيزيس ـ حربوقراط) وكان يقع فوق قمة تل أطلق عليه الأكروبول نظرا لارتفاعه عن مستوى المدينة بالكامل وكان هذا المعبد يحتوى على المكتبة الصغرى وإلى الشرق من هذ المعبد أقيم فى فترة لاحقة عامود السوارى الذى يعتبر رمزا لمدينة الإسكندرية حيث يبلغ ارتفاع هذا العامود نحو ٢٧ مترا وهو لايزال قائما حتى الآن.

٩ ـ وإلى الغرب من هذه المنطقة التى كانت تشغلها قرية راقودة قبل انشاء مدينة الإسكندرية تقع مدينة الموتى (نيكروبوليس) ومن أهم مقابرها مقابر كوم الشقافة التى تعتبر من المقابر الفريدة فى مصر حيث أنها من نوع الكتاكومب أى المقابر المنحوتة تحت الأرض فى ثلاثة طوابق وهى ترجع إلى نهاية القرن الأول والقرن الثانى الميلادى.

ويحد المدينة بالكامل من جهة الجنوب قناة شيديا التى كانت متفرعة من الفرع الكانوبى للنيل والتى كانت تغذى المدينة بالمياه العذبة.

أما جزيرة فاروس كما سبق القول فهى تقع فى الشمال من المدينة فى الجهة الغربية وكانت متصلة باليابسة عن طريق جسر يسمى الهيبتاستاديوم ومن أهم المبانى التى نجح الفلكى فى تحديدها على هذه الجزيرة موقع فنار الإسكندرية القديمة التى فاقت شهرته كل المبانى التى تزخر بها مدينة الإسكندرية وقد كان هذا الفنار يضم ٣ طوابق يصل ارتفاعها إلى أكثر من ١٢٠ مترا وذلك لإرشاد السفن للدخول إلى الميناء الرئيسى آنذاك وهو الميناء الشرقى، ويحتل هذا الفنار الطرف الشرقى من الجزيرة فى الموقع نفسه الذى تشغله الآن قلعة قايتباى. أما على الطرف الغربى للجزيرة فتقع مقابر الأنفوشى التى ترجع إلى القرن الثالث ـ الثانى ق.م.

هذا ولم يعثر حتى الآن على معابد هذه الجزيرة رغم أن جميع المصادر القديمة تحدثنا عن معبد ايزيس ـ فاريا ومعبد للإله بوسيدون.

وعند التقاء الهيبتاستاديوم مع الساحل من الناحية الغربية كان يقع ميناء الصندوق أو الكيبوتوس الذى يعتقد أنه يرجع الى ماقبل انشاء الإسكندر الأكبر لمدينة الإسكندرية. وجدير بالذكر أن المقابر كانت تقع خارج حدود أسوار المدينة حيث نجد مقابر الشاطبى التى تقع بالقرب من الساحل أمام كلية سان مارك وهى من أقدم المقابر فى الإسكندرية حيث ترجع إلى نهاية القرن الرابع ق.م وتمثل أولى المقابر فى الجبانة الشرقية للإسكندرية القديمة والتى شملت مقابر سيدى جابر ومقابر مصطفى كامل وقد امتد العمران فى العصر الرومانى إلى منطقة مصطفى كامل حين أسس الإمبراطور الرومانى أوكتافيوس (أوغسطس) مدينة النصر (نيكوبوليس) بها.

تلك نظرة سريعة على أهم المناطق والمبانى التى شملتها مدينة الإسكندرية القديمة التى كانت عاصمة العالم القديم ومركزا ثقافياً عالمياً كان له أكبر الأثر فى توجيه دفة الحضارة فى العالم أجمع خلال العصرين الهيللينستى والرومانى.

الإسكندرية فى عهد البطالمة

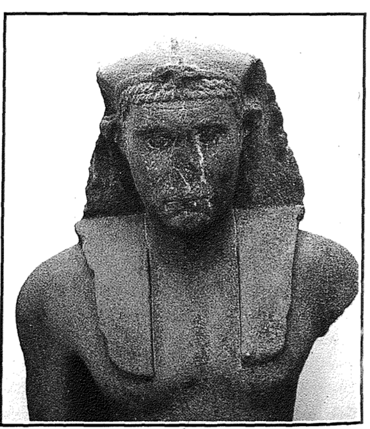
أ. د. لطفى عبد الوهاب

فى أواخر عام ٣٣٢ ق.م. وصل الإسكندر المقدونى إلى مصر، وفى أوائل العام التالى، بعد شهرين من وصوله، وضع تصوره لإقامة مدينة الإسكندرية وعهد إلى مهندسه دينوكراتيس Denocrates بوضع التخطيط المناسب لتنفيذ هذا التصور ثم غادر البلاد ليستكمل فتوحاته فى الشرق. وإذا كان الاسكندر لم يعد إلى مصر فيما تبقى من حياته ليرى المدينة التي تسمت باسمه، فإن القدر كان يحتفظ لهذه المدينة بدور كبير فى تاريخ مصر والعالم المتحضر آنذاك، لم يقتصر على الفترة التى شهدت عهد البطالمة، خلفاء الإسكندر على حكم مصر، وإنما استمر زمنا طويلا بعد نهاية هذا البيت الحاكم فى ٣٠ ق.م.

العاصمة

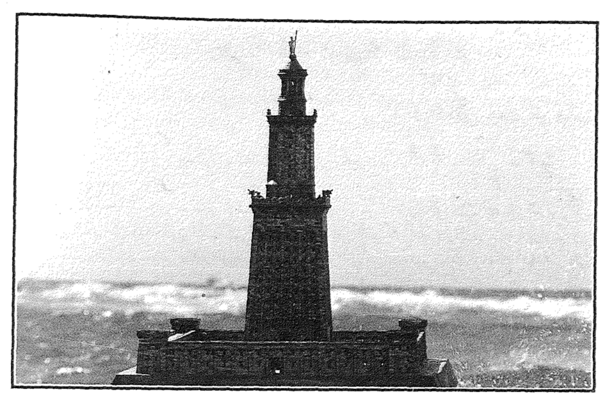
ومحور هذا الدور هو أن الإسكندرية، التى اتخذها البطالمة عاصمة لملكهم، شكلت نقطة التقاء وإشعاع حضارى بين عالمين: أحدهما شرقى فى قيمه ومعتقداته ونظمه وممارساته وأسلوبه فى الحياة والفكر بشكل عام، يضم مصر والمناطق التى تمتد من الشواطىء الشرقية للبحر المتوسط حتى أواسط القارة الآسيوية، والآخر غربى يختلف اختلافا بيناً فى كل هذه الأشياء، ويضم الشطر الأوروبى من المنطقة التى كان يسيطر عليها الإسكندر قبل وفاته وهى مقدونيا وبلاد اليونان وبقية الجزر وأشباه الجزر الواقعة فى القسم الشرقى للبحر المتوسط.

وإذا كانت سيطرة الإسكندر على المنطقة التى تضم هذين القسمين شرقا وغربا قد هيأت الظرف التاريخى اللازم للالتقاء الحضارى بين أرجاء هذه المنطقة، فإن ظروفا تتصل بميزات مصر وتراثها الحضارى عامة، وبموقع الإسكندر وطبيعة تكوين سكانها ونشاط البطالمة خاصة، قد أدت إلى أن تتبلور فى الإسكندرية، أكثر من غيرها من مدن القسم الشرقى للبحر المتوسط، المقومات التى ميزت هذا اللقاء الحضارى بين الشرق والغرب بحيث أصبحت علما على عصر بأكمله - هو العصر المتأغرق أو الهلنستى Hellenistic الذى جسد هذا اللقاء الحضارى وامتد ثلاثة قرون كاملة.



تمثال لأحد البطالمة الأواخر (المتحف اليونانى الرومانى)

وقد كان هناك عدد من الأسباب التى أدت ببطليموس سوتير Soter، مؤسس الأسرة البطلمية الحاكمة إلى



نموذج لفنار الإسكندرية القديمة

أن ينقل عاصمة مصر إلى الإسكندرية بعد فترة وجيزة من بداية حكمه - وهى أسباب تتعلق بالظروف التى أحاطت بالقسم الشرقى للبحر المتوسط بعد موت الإسكندر فى ٣٢٣ ق.م. لقد تناحر قادة الإسكندر، الذين أصبحوا خلفاء له، على تقسيم المنطقة التي كان يسيطر عليها والتى كان الجزء الأساسى والمؤثر منها يطل على القسم الشرقى للبحر المتوسط بجوانبه الثلاثة: الشمالى والشرقى والجنوبى الذى كانت تقع عليه مصر والذى قامت فيه دولة البطالمة. على أن هذا التناحر المبدئى على تقسيم المنطقة لم يكد ينتهى حتى بدأ صراع جديد مستطير ومرير حول مناطق النفوذ بين حكام الدول الجديدة التى قامت على شواطىء هذا البحر. وقد امتد هذا الصراع الشرس على كافة الجبهات: العسكرية والسياسية والاقتصادية وفى مجال الدعاية اللازمة لتدعيم الممالك الجديدة فى كل هذه الجوانب.

وفى إطار هذه الظروف كانت الإسكندرية هى خير مكان يصلح لأن يكون عاصمة لمصر فى العصر الجديد: فالموقع المطل على البحر المتوسط هو أقرب موقع لساحات القتال الذى كان يمكن أن ينشب فى أية لحظة بين القوى المتصارعة فى المنطقة. والموقع ذاته كان، كذلك، أنسب مكان للتعامل مع الوضع السياسى الدولى المتغير دائما المتسارع دائما المتشابك دائما فى المنطقة ومن ثم كان يستوجب المتابعة عن كثب لكل ما كان يدور فى المنطقة من تيارات وتوجهات. والميناءان الشرقية والغربية، اللتان نشأتا لدى تأسيس الإسكندرية نتيجة لربط شاطىء راقودة، المدينة المصرية القديمة، بجزيرة فاروس الموازية لها، شكلتا ميزة لايمكن تجاهلها فى مجال حجم التعامل مع الأسواق التجارية المختلفة، وأهمها آنذاك هى السوق التجارية النشطة فى القسم الشرقى للمتوسط وفوق ذلك، وبدرجة لا تقل فى أهميتها عن هذه الجوانب، كان موقع الإسكندرية فى توسطه وإشرافه على القسم الشرقى للمتوسط خير مركز للدعاية التى أرادها البطالمة، وسط هذه الظروف جميعا، لتكتسب أهمية متزايدة كمركز للثقل الحضارى للمنطقة - وهى دعاية اتخذت أوجه عديدة كان من بينها: الاستقبالات المستمرة لوفود الدول التى كان البطالمة يرغبون فى إقامة علاقات معها على مستوى أو آخر، والاحتفالات أو الاعياد الرسمية التى كانت تدعى إليها بعثات تمثل دول المنطقة، وهى احتفالات وأعياد كانت تمثل فى حقيقة الأمر معرضا للتفوق الحضارى فى كل جوانب الانجاز المادى وغير المادى فى مصر. كما كان

من بين أوجه الدعاية العمل على نشر عقيدة الآله المصرى سرابيس Serapis فى كافة أرجاء المنطقة فى وقت كانت تقوم فيه العقائد، إلى جانب رسالتها الروحية، بدور الايديولوجيات التى تطرح القيم الفردية والاجتماعية وتدعو إليها. وقد اتخذ البطالمة مدينة الإسكندرية مركزا لنشر هذه العقيدة، ونجحوا فى مهمتهم إلى حد كبير.

الميناء

وإذا كان مركز الإسكندرية قد أهلها لأن تكون عاصمة لمصر فى عصر البطالمة، فإنها قد أصبحت كذلك الميناء المصرية الأولى فى المياه العميقة من حيث أنها تقع على البحر مباشرة. ومن هنا فإنها تكون قد فاقت الميناءين الأساسيين القديمين وهما بلوزيون Pelousion الواقع عند الطرف الشرقى للدلتا، ونقراطيس Nau-cratis التي كانت تقع على أحد الفروع الغربية للدلتا - وكلاهما كانتا بعيدتين عن البحر. ومن خلال هذه الميزة أصبحت الإسكندرية فى فترة وجيزة نقطة الالتقاء والعبور لطرق التجارة التى تصل مصر بالمناطق التى تتعامل معها.

وقد ساعد على الارتقاء بميناء الإسكندرية لتشغل هذا المركز الأول عاملان آخران: أحدهما هو منارة الإسكندرية التى أقامها المهندس سوستراتوس Sostratos على الطرف الشرقى لجزيرة فاروس Pharos وأصبحت تعرف بنفس اسم الجزيرة. وقد بدأ بنائها في عهد بطليموس الأول سوتير Soter وانتهى منه فى عهد خلفه بطليموس الثانى فيلادلفوس Philadelphus حوالى ٢٨٠ ق.م. بعد أن ارتفع به أكثر من ١٣٥ مترا لتصبح المنارة بعد ذلك نقطة إرشاد للملاحين الذين يحملون تجارة البحر المتوسط من شواطئه المختلفة. أما العامل الآخر الذى زاد من قيمة ميناء الإسكندرية فهو ترعة شيديه التي كانت تتفرع من الفرع الكانوبى، آخر فروع الدلتا غربا آنذاك وتصل إلى الإسكندرية عبر خليج بحيرة مريوط عند الحدود الجنوبية للمدينة والذى اقيمت عليه ميناء فرعيه تخدم الميناء الأساسيه. فقد هيأت هذه الترعة، إلى جانب ميناء بحيرة مريوط، سبيل الاتصال المباشر بين الإسكندرية وطرق القوافل الموصلة إلى أعماق القارة الافريقية.

وهكذا اصبحت الإسكندرية هى المركز الأول للمعاملات التجارية المصرية استيرادا وتصديرا مع الشمال حيث القسم الشرقى للبحر المتوسط بما فى ذلك بحر إيجه، ومع الشرق حيث شبه جزيرة العرب ثم الهند، ومع الجنوب حيث المناطق الافريقية المطلة على مداخل البحر الاحمر. وعلى طول هذه الطرق كانت مصر تحصل على وارداتها لتغطية بعض احتياجاتها ولتصنيع قسم من هذه الواردات وإعادة تصديره مع صادراتها المحلية.

وفى هذا المجال كانت مصر فى حاجة متزايدة إلى الاخشاب الجيدة المستقيمة الصالحة لصناعة السفن بعد أن اتجهت سياسيا وعسكريا إلى منطقة البحر المتوسط على نحو ما أسلفت، ومن ثم كان لابد لها من أسطول قوى يحمى سواحلها. وهكذا اتجهت إلى استيراد خشب الأرز من شمال البلقان إلى جانب ما كانت تستورده منه من بلاد الشام عن طريق ميناء بلوزيون. كذلك كان البطالمة يستوردون القطران من مقدونيا ومن آسيا الصغرى، وكان القطران يمثل جانبا هاما من واردات مصر لا يمكن الاستغناء عنه فى صناعة السفن. كما كان اقتناء هذه المادة يشكل أمرا حيويا بالنسبة لصانعى الفخار فى دهان الأوعية التى كان البطالمة يصدرون فيها الزيت، وهو من صادراتهم الأساسية.

كذلك كانت مصر فى حاجة إلى استيراد قدر غير قليل من المعادن إلى جانب ما كان موجودا لديها بالفعل. وهكذا استورد البطالمة الذهب من اسبانيا والهند، والفضة من اسبانيا وبلاد اليونان والحديد من جزر بحر إيجه ومن أرمينيا ومداخل البحر الأسود. هذا بخلاف واردات أخرى مثل الرخام الذى كان يأتى من الجزر اليونانية والمنسوجات الحريرية التى كانت تأتى من فينيقيا. وإلى جانب هذه السلع هى وواردات أخرى، كانت مصر تستورد بعض المواد الأولية لتصنع قسما منها ثم تصدره إلى الغرب مثل الاحجار النفيسة

والطيور والعاج وريش النعام، التى كانت تستوردها من الهند والجزيرة العربية والصومال ومناطق أعالى النيل، لتصنع منها الحلى والمجوهرات والعطور وغير ذلك. هذا، بطبيعة الحال، إلى جانب صادراتها الأخرى مثل الزّيت والقمح وورق البردى والمصنوعات الزجاجية التى كانت تمثل انتاجا مصريا من الأساس.

مركز العلم والثقافة

وليكن حديثنا الآن عن جانب ثالث من جوانب دور الإسكندرية التى كانت عاصمة مصر وميناءها الأولى فى آن معاً على عهد البطالمة. وسيكون الحديث عن جامعة الإسكندرية أو الموسيون (دار ربات الحكمة) Mouseon، كما كانت تدعى، وعن مكتبتها الكبرى (وهى غير المكتبة الصغرى التى كانت ملحقة بمعبد السرابيون Serapion،(بالقريب من عامود السوارى بكوم الشقافة) ـ وهما مؤسستان أثارتا اهتمام العالم كمركز للاشعاع العلمى والثقافى على مدى سبعة قرون على الأقل، قبل أن ينتقل هذا المركز إلى بغداد والأندلس خلال العصر الإسلامى.

ونحن لا نعرف على وجه التحديد المكان الذى كانت تقع فيه المؤسستان، وإن كنا نعرف بشكل عام أنهما كانتا تقومان فى الحى الملكى قرب قصور البطالمة، أى فى الامتداد الواقع بين منطقة السلسلة (حيث كانت تقوم هذه القصور) وبين منطقة محطة الرمل وما جاورها حاليا. وربما كان موقعهما فى المكان الذى يشغله مجتمع الكليات النظرية لجامعة الإسكندرية وموقع مكتبة الإسكندرية الكبرى Bibliotheca Alexandrina. كذلك فإننا لا نعرف السنة المحددة التى قامت فيها كل من المؤسستين، وإن كنا نعرف أن ذلك كان بين عامى ٢٨٨ و ٢٨٠ ق.م. أى بين أواخر عهد بطليموس الأول وأوائل عهد بطليموس الثانى.

وقد استدعى بطليموس الأول لتخطيط وتنفيذ هذا المشروع الثقافى بشقيه، ديمتريوس Demetrius الفاليرى (نسبة إلى حي فاليرون، أحد أحياء أثينا)، وهو سياسى أثينى سابق ولكنه كان إلى جانب ذلك أحد مثقفى عصره المهتمين بأمور الثقافة وبنشرها بوجه خاص.

وقد كان القائمون على الدراسة فى هذه الجامعة يمثلون الصفوة من أهل العلم والفكر والأدب فى جميع أنحاء العالم المتأغرق. وكان البطالمة يستقدمونهم من كلّ مكان استطاعوا أن يمدّوا إليه نفوذهم أو ينثروا فيه ذهبهم، حتى لقد بلغ عدد هؤلاء فى إحدى فترات العصر الذهبى لحكم البطالمة نحو مائة مفكّر. ومن بين هؤلاء كان هيروفيلوس Herophilus، الجرّاح الذى كان أوّل من كوّن فكرة علميّة واضحة عن الجهاز العصبى، ومنهم هيبارخوس Hipparchus، أوّل من حدّد الاعتدالين الربيعى والخريفى بصفة علميّة، وإراتسطين Eratosthenes الجغرافى الذى قدر محيط الكرة الأرضية تقديرا مذهلا بالنسبة لعصره وأرشميديس Archi-medes عالم الفيزياء وصاحب النظرية المشهورة فى الكثافة النوعية. وقد بلغ من قدرة علماء هذه الجامعة أن مؤرخا مثل أميانوس ماركلينوس Ammianus Marcellinus، الذى كتب فى القرن الرابع الميلادى (أى بعد إنشاء الجامعة بسبعة قرون)، يذكر أن خير تزكية كان فى إمكان أيّ طبيب أن يحصل عليها ليحظى بثقة مرضاه هى أن يكون قد أتمّ دراسته الطبية فى جامعة الإسكندرية.

وانتقل الآن إلى الحديث عن المكتبة التى كانت تغذّى هذه الجامعة والتى حظيت بقدر هائل من الشهرة فى العصر القديم لاتزال أصداؤها تتردّد حتى هذه اللحظة. وسأقتصر فى حديثى على المكتبة الأساسية التى كانت موجودة فى الحيّ الملكى، ولن أتحدث عن المكتبة الصغرى التى أسلفت الإشارة إليها. وأوّل ما نلمحه فى هذا المجال هو أن المكتبة، تماما مثل الجامعة التى كانت تتبعها، كانت مؤسسة عامّة تتبع الدولة وتنفق عليها الدولة على نمط ماكان سائدا فى «دور الحياة» أو المعاهد العلمية فى مصر القديمة. وهى بذلك تبتعد عمّا كان معروفا فى بلاد اليونان حتى ذلك الوقت حين كانت المعاهد العلمية والمكتبات الملحقة بها ملكاً خاصاً لأصحابها الذين أنشاوها كما كان الحال، على سبيل المثال، فى معهد الأكاديمية الذى أنشأه أفلاطون فى أثينا أو معهد

«اللوقيون» الذى أسسه أرسطو فى المدينة ذاتها. وقد سلك البطالمة كل طرق ممكنة لتزويد هذه المكتبة بالنسخ الأصلية للمؤلفات التى وجدت فى عصرهم، وهكذا ضمّت المكتبة أكبر عدد من المجلدات أو اللفائف المكتوبة biblia عرفته مكتبة واحدة فى العالم القديم. فقد بلغ هذا العدد عند مجىء يوليوس قيصر، القائد الرومانى، إلى مصر فى ٤٨ - ٤٧ ق. م.، نحو سبعمائة ألف لفافة أضافت إليها كليوباترا السابعة، آخر حكام البيت البطليمى، نحو مائتى ألف لفافة أخرى. ونحن نقدر أن اللفافة العادية كانت تساوى نحو سُبع مجلّد من المجلدات الحديثة التى يقع الواحد منها فى نحو ثلاثمائة صفحة من القطع الكبير، وفي ضوء هذا التقدير نستطيع أن نقول إن ثروة مكتبة الجامعة فى الإسكندرية القديمة كانت تبلغ مايقرب من ١٢٨ ألف مجلّد حديث بالحجم الذى سبقت الإشارة إليه.

على أن قيمة مكتبة الإسكندرية لم تقتصر على العدد الذى حوته من الكتب بمقاييس ذلك العهد، وإنما رفعت من هذه القيمة سلسلة من الأمناء الذين عهد إليهم بالإشراف عليها، كانوا أبعد مايكون عن كونهم مجرّد موظفين يقتصر دورهم على العمل الإدارى وإنما كانوا بحق سلسلة من العلماء برز كلّ منهم فى ميدانه كأبرع مايكون التبريز. ونحن نعرف من بين هؤلاء على سبيل المثال: زينودوتوس Zenodotus، أول من نشر ملحمتى الإلياذه والأوديسة على أساس علمى من النقد والتحليل، وشاعر الملاحم أبوللونيوس Apollonius، وإراتسطين، العالم الفلكى والجغرافى الذى سبقت الإشارة إليه، وأريستارخوس Aristarchus الذى نشر كلّ الأشعار الغنائية التى كانت معروفة آنذاك من هوميروس إلى بنداروس.

المجتمع

وإذا كان العصر المتأغرق الذى افتتحه الإسكندر والذى شهد قيام دولة البطالمة فى مصر قد تميّز بأنّه عصر اللقاء الحضارى بين الشرق والغرب، فإن ذلك قد انعكس بشكل واضح فى تكوين سكان مدينة الإسكندرية. وفى الواقع فإن المتجوّل فى شوارع الإسكندرية آنذاك كان يشعر أن سكانها، سواء منهم المقيمون أو العابرون، كانوا يشكّلون نسيجاً عالميا متعدّد الأجناس واللغات، فهناك المصريون، السكان الأصليون للموقع الذى قامت عليه مدينة الإسكندرية، وهناك اليونانيون والمقدونيون والقادمون من المناطق المختلفة فى آسيا الصغرى والفرس والعرب والسوريّون والأحباش والزنوج. بل إن هذا المتجوّل كان من الممكن أن يلتقى بفئات متعدّدة من عنصر واحد، مثل العنصر المصرى أو العنصر اليونانى، تتحدث بأكثر من لهجة من لهجات اللغة الواحدة.

وقد كان أحد أسباب هذا التعدّد هو أن البطالمة كانوا يريدون أن يدعموا حكمهم بأكبر قدر من الكفاءات الممكنة. وهكذا فتحوا باب الهجرة إلى مصر والإسكندرية على مصراعيه أمام اليونان، وهم من بنى لغتهم وأحد فصائل عنصرهم، لكى يعملوا فى كافة المجالات سواء أكانت إدارة أم تجارة، أو فى صفوف العمل العسكرى كجند مرتزقة أو فى مجالات العلم أو الفن أو غير ذلك. كما كانت الفرص الواسعة التى قدمتها الإسكندرية. عاصمة أغنى دولة متأغرقة آنذاك، وراء تدفق أعداد كثيرة من الأجناس الأخرى إلى هذه المدينة.

على أنى أبادر هنا فأقول إنه إذا كانت شوارع المدينة تموج بهذه العناصر المتعددة، إلا أن كلا من هذا العناصر كان يسكن فى حى من الأحياء الستة التى انقسمت المدينة إليها، فكان المصريون يسكنون فى الحى المصرى الموجود فى فاروس وراقودة إلى غرب الإسكندرية وعمقها، وكان اليونان والمقدونيون يسكنون فى الحى الملكى الواقع إلى شرقى الحى المصرى، بينما كان اليهود يسكنون فى حى الدلتا الواقع إلى شرقى الحى الملكى وهكذ. ومع ذلك فإن هذا التقسيم السكنى لم يكن ليحول دون امتزاج هذه العناصر فى مواقع التعامل اليومى، كما كان الحال فى حى راقودة، على سبيل المثال، وهو مطل على الميناء حيث كان الصناع وأصحاب الحرف المصريون يلتقون بالضرورة مع تجار اليونان الذين كانوا يشترون قسما من السلع

المصنوعة لتصديرها. كما كان اليونانيون والمصريون يذهبون إلى معبد سرابيس فى الحى ذاته.

ويمكننا أن نقول إن أهم عناصر التكوين السكانى لمدينة الإسكندرية وأكبرهم عددا فى الوقت ذاته ثلاثة، هم المصريون واليونانيون واليهود. وقد كان المصريون هم أصحاب العدد الأكبر بين هذه العناصر وإن لم تكن لهم حقوق المواطنة السكندرية التى تمتع بها اليونانى، وإنما كانوا، مثل بقية العناصر من غير اليونان، رعايا الملك وحكومته المركزية بشكل مباشر. وقد كانوا يتكونون بشكل أساسى من أهل الصناعة وأصحاب الحرف الصغيرة، وإن كان بعضهم، مثل الكهنة القائمين على عقيدة سرابيس، قد وصلوا إلى مركز اجتماعى ممتاز. كما كان منهم كذلك من شغل بعض وظائف البلاط الملكى فى الشطر الأخير من حكم البطالمة، وهؤلاء كانوا، على ما يظهر من إحدى الحالات على الأقل، من بين الذين اصطبغوا بالثقافة اليونانية إلى جانب ثقافتهم المصرية.

وقد كان العنصر اليونانى يشكل، من الناحية الرسمية، أعلى السلم الاجتماعى، وإذ كان أفراد هذا العنصر يتمتعون بالمواطنة السكندرية وتطلق عليهم تسمية «السكندريين». وكانت هذه الصفة تعطيهم عددا من الحقوق والميزات على بقية العناصر، منها عضوية المجالس التشريعية بالمدينة وشغل الوظائف الإدارية العليا والإعفاء من أعمال السخرة ومن بعض الضرائب. وكان الاتجاه الغالب لديهم هو الاشتغال بالأعمال التجارية. كذلك كانوا ينقسمون إلى عدد من القبائل التى كانت كل منها تنقسم إلى عدد من العشائر ثم تنقسم كل من هذه إلى عدد من الأحياء. وكان حصول كل فرد من افراد هذا العنصر على حق المواطنة لدى بلوغه سن الرشد رهن بتسجيله فى قائمة الحى الذى ولد فيه ثم بقضائه فترة من التثقيف والتدريب العسكرى فى منظّمة الشباب Ephebeia.

أما العنصر اليهودى الذى كان يقيم فى الإسكندرية فقد بلغ أفراده أعدادا كبيرة، كما أسلفت، منذ بداية عهد البطالمة. ولم يتمتعوا بحق المواطنة، شأنهم فى ذلك شأن المصريين وغيرهم من العناصر غير اليونانية، ومع ذلك، فبسبب ديانتهم التوحيدية، كان لجاليتهم مجلس ملّى خاص ورئيس من بينهم لهذا المجلس وقانون ينظم أحوالهم الشخصية، كما كانت لهم نقاباتهم الخاصة. وهى غير نقابات العنصر اليونانى.

التنظيم السياسى

وأنتقل أخيرا، وليس آخرا، إلى الحديث عن التنظيم السياسى للإسكندرية. وربما كان من الخير فى هذا المجال أن أبدأ بالإشارة إلى حقيقة مؤداها أن الإسكندرية كانت ذات صفتين سياسيتين فى الوقت ذاته. فمن جهة كانت الإسكندرية عاصمة لدولة تسير على نظام الحكم المركزى، وهو النظام الذى كانت تتبعه مصر فى عصر الفراعنة كما ازدادت أسباب بقائه فى العصر الجديد. ذلك أن ظروف هذا العصر الذى قامت فيه دولة البطالمة، وما ساده من صراع رهيب ومنافسه شرسة فى كافة الميادين بين الدول المتأغرقة، قد وجه مصر آنذاك، شأنها شأن غيرها من هذه الدول، إلى اتباع النظام المركزى فى حكمهم حتى يستطيعوا القبض على ناصية الأمور وتوجيهها بما يضمن بقاء دولتهم فى مواجهة ذلك الصراع وتلك المنافسة.

من جهة أخرى وجد البطالمة أنفسهم مضطرين. إلى أن يتضمن التنظيم السياسى للإسكندرية مقومين سياسيين آخرين إلى جانب وضعها كعاصمة لدولتهم المركزية. فالبطالمة كانوا محتاجين للمقدونيين الذين كانوا يشكلون فى البداية عصب القوة العسكرية البطلمية. وفى الوقت ذاته كانوا محتاجين لكفاءات اليونان، على نحو ما أسلفت، لدعم قسم كبير من أنشطة دولتهم عسكريا ومدنيا. ومن هنا كان يهمهم إلى حد كبير

الحصول على ولاء هذين العنصرين وضمان استقرارهم فى مصر وعلى وجه الخصوص فى الإسكندرية عاصمة البلاد. وفى سبيل التوصل إلى ذلك عمل البطالمة على إغرائهم، بإدخال مقومات مقدونية ويونانية فى التنظيم السياسى للمدينة إلى جانب مقوم الحكم المركزى. وقد ظهر هذان المقومان أساسا فى مجلسين: أحدهما اسمه «المقدونيون» والآخر اسمه «السكندريون».

ومع ذلك فإن هذه الازدواجية فى النظام السكندرى، التى كان يفترض أن تجمع بين النظام المركزى والنظام الشعبى، لم تصل فى الحقيقة إلى الوضع المثالى المفترض. فظروف الصراع الدولى التى أسلفت الإشارة إليها كانت خليقة بأن تدفع البطالمة دفعا إلى تغليب المقوم المركزى على المقوم الشعبى فى النظام السكندرى. وقد ظهر ذلك فى أكثر ممن صورة. فنحن من جهة لا نسمع عن اجتماعات هذه المجالس بصفة دورية منتظمة، وإنما نسمع عنها فى مناسبات استثنائية متباعدة. ومن جهة ثانية نجد أن بعض هذه المجالس فقدت صفة الاستمرارية فى وجودها أو الالتزام بالشروط المطلوبة فى عضويتها. هذا، بطبيعة الحال، إلى أن أوجه النشاط الأساسية مثل السياسة الخارجية والاقتصادية والمسائل المتعلقة بالأمن وحتى السياسة العلمية والثقافية، بقيت فى يد الحكومة المركزية ومن ثم لم يتبق لهذه المجالس الشعبية إلا التصرف فى حدود الإدارة المحلية الصرفة، إلى جانب الحالات الاستثنائية التى أشرت إليها بطبيعة الحال.

وأحد هذه المجالس وهو مجلس المقدونيين، والذى تبناه البطالمة، يعود إلى تقليد مقدونى سياسى قديم. وكانت هذه التسمية تطلق على القوات المقدونية المسلحة مجتمعة فى هيئة مجلس. وتلك القوات، بوضعها هذا، هى التى كانت تضفى السلطة الرسمية على الحاكم. وهكذا كان لابد من انعقاد مجلس المقدونيين عند اعتلاء الملوك للعرش. فإذا تربع على العرش ملك قاصر كان من حق هذا المجلس تعيين الأوصياء عليه. كما كان يعقد فى هيئة محكمة فى حالات الخيانة العظمى.

وقد أخذت الإشارات إلى هذا المجلس تقل تدريجيا فى الوثائق والكتابات القديمة التى تناولت تاريخ الإسكندرية، حتى إذا انتهى الشطر الأول من حكم البطالمة لم يعد من الممكن العثور على أية إشارة إليه. وبدأ مصطلح «السكندريين» يحل محل مصطلح «المقدونيين» فى المناسبات التى تظهر فيها حاجة ماسة إلى نوع من التصرف السياسى الاستثنائى، والتى لا يكون فيها الملك أو كبار الدولة، لسبب أو لآخر، هم القائمون بهذا التصرف أو الموجهون له. وهنا نلاحظ أن المناسبات التى ظهر فيها مجلس «السكندريين» ـ إلى حد ما ـ كموجه لسياسة البلاد تكاد تقتصر على فترات الاضطراب التى تصحب انتقال العرش من ملك إلى ملك، أو التى يسببها النزاع الأسرى بين أفراد البيت الحاكم البطلمى وما يتبع ذلك من دسائس ومكائد ومؤامرات. أما فيما عدا ذلك فلا نكاد نشهد مجلس السكندريين هذا يشترك فى تصريف أمور المدينة فى الأوقات التى يسود فيها الاستقرار. بقى أن أشير هنا إلى أن بعض اجتماعات هذا المجلس لم تكن قاصرة على المواطنين السكندريين» الذين كانوا، وحدهم، هم أعضاء هذا المجلس، وإنما ظهر بينهم يونانيون من خارج الإسكندرية أحيانا كما ظهر بينهم جنود يونانيون مرتزقة فى أحيان أخرى.

على أن مجلس المقدونيين ومجلس السكندريين لم يكونا المجلسين الوحيدين اللذين عرفتهما مدينة الإسكندرية، فقد كان هناك كذلك مجلس آخر هو مجلس «الشورى». حقيقة لقد ثار الخلاف حول وجود هذا المجلس أو عدم وجوده، وعن تاريخ اختفائه إذا كان قد وجد أصلا. ومع ذلك فإن كل الشواهد تشير إلى وجود هذا المجلس وإلى أنه كان أحد عناصر المدينة منذ تأسيسها.

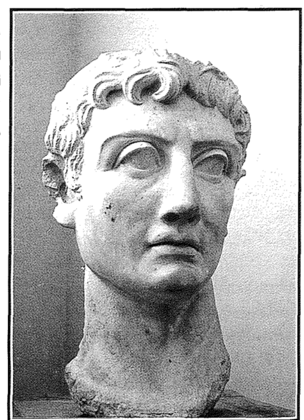
ونحن لا نعرف أية تفاصيل عن تكوين هذا المجلس ولكنه، بالقياس إلى ما كان معروفا فى المدن اليونانية، لن يكون تكوينه على النطاق الواسع الذى عرفته مجالس العامة التى تضم كل المواطنين والتى كان ينتمى إليها مجلس السكندريين الذى سبق ذكره. وإنما ستكون عضويته محصورة فى نطاق ضيق بحيث تقتصر على المواطنين الذين يتميزون بواحدة أو أكثر من مميزات السن أو الثروة أو المكانة.

الإسكندرية فى العصر الرومانى
٣٠ ق.م - ٣٢٣م

أ. د. مصطفى العبادى

لعل خير مدخل لدراسة الإسكندرية الرومانية هو أن نتتبع سلوك الفاتح الجديد الامبراطور أوغسطس (٣٠ ق.م - ١٢م.) عند دخوله المدينة لأول مرة، ففهم سياسته مفتاح لفهم السياسة الرومانية بأسرها لفترة كبيرة ولقد أدرك المؤرخون القدماء هذه الحقيقة فاهتموا بتسجيل ما قاله أوغسطس وما فعله فى الإسكندرية وكلها تكشف عن مسلك حكيم وسياسة عملية رشيدة، إذ أنه أصدر عفوا شاملا عن الإسكندريين والمصريين، على السواء فلم ينتقم من أحد ولم يطلق جنوده للنهب والسلب والتدمير فى المدينة كما كانت العادة قديما عند فتح مدينة معادية غصبا. فيقول المؤرخ بلوتارك مثلا سار (قيصر أوغسطس) إلى المدينة يتحدث مع الفيلسوف اريوس، ممسكا بذراعه الأيمن حتى يكسبه فى الحال مكانة وشرفا بين المواطنين بعد أن أظهر له هذا الاحترام ثم دخل الجمنازيوم (معهد ومنتدى لتربية وتعلم المواطنين) واعتلى منصة كانت قد أعدت، وأخذ الناس بجلال (الامبراطور) المؤله فخروا له ساجدين فأمرهم بالوقوف وقال إنه قد عفا عنهم لأسباب مختلفة، أولا من أجل الاسكندر مؤسس المدينة، ثانيا إعجاباً بجمال المدينة وعظمتها، وثالثا اعترافا بفضل استاذه وصديقه اريوس. ويقال أن أوغسطس ألقى خطبته باللغة اليونانية حتى يسهل على الإسكندريين أن يفهموه.

هناك صورة أخرى يعرضها ديون كاسيوس أقرب إلى الصحة وأكثر مطابقة لما نعرفه عن شخصية أوغسطس. فهو لا يعفو إلا لمصلحة أيضا وحتى فى ذلك بقدر، فهو يفعل ما يفعل فى الإسكندرية وعينه تنظر إلى روما، فالإسكندر من أبطال التاريخ يعرفه الرومان ويجلون قدره، أما البطالمة فهم أعداء روما وكانت أخيرتهم كليوباترا تعتبر أكبر خطر هدد كيان روما بعد هانيبال، فأى بادرة من أوغسطس يستشف منها الإكبار أو الإجلال لأسرة كليوباترا سوف يكون لها أسوأ الأثر فى نفوس الرومان وكذلك من الناحية الدينية فهو مستعد أن يقبل كبير آلهة مصر حينئذ «سرابيس» والذى يمكن تشبيهه بجوبيتر وذيوس، أما أن يقبل كل إله بعد ذلك - وهو يعرف كثرة الآلهة فى مصر وخاصة من الحيوانات - فهذا ما لم تستسغه العقلية الرومانية.



صورة لتمثال الامبراطور أوغسطس المتحف اليونانى الرومانى

نظام المدينة:

هذه بعض الملابسات التى أحاطت بالأيام الأولى للعهد الجديد حينما دخل الحاكم الرومانى الاسكندرية لأول مرة. ولننظر الآن ماذا أصاب نظام الإسكندرية فى العهد الرومانى الجديد. نحن نعرف أن الإسكندرية إلى جانب كونها عاصمة مصر كانت لها صفة المدينة اليونانية المستقلة ومعنى هذا أن لها من النظم ما يمكن أهلها من تدبير شئونهم الخاصة

حسب إراداتهم. نظام المدينة اليونانية معروف يتشابه فى أسسه بين المدن المختلفة رغم اختلافات فرعية. فكلها تشتمل على مجلس للشورى ومجلس للعامة ووظائف تمثل السلطة التنفيذية إلى جانب نظام قضائى، والأدلة التاريخية لدينا ترجح أن الإسكندرية تمتعت منذ نشأتها بمعظم أركان هذا النظام.

فيما يتعلق بمجلس الشورى فقد كان للإسكندرية مجلس شورى ولكن نهاية هذا المجلس يحيط بها الغموض. فالأرجح أنه استمر قائما طوال العصر البطلمى، رغم أن بعض العلماء يرون أنه ألغى على أثر بعض الاضطرابات التى حدثت فى المدينة زمن الملك يوراجتيس الثانى (١٤٥-١١٦ ق.م.) وسواء بقى مجلس الشورى فى الإسكندرية حتى نهاية الأسرة البطلمية أو ألغى قبل ذلك فمن المؤكد أن الإمبراطور الرومانى الجديد أوغسطس كان جازما قاطعا فى عدم السماح بقيام هذا المجلس وأمر الإسكندريين «أن يدبروا شئون مدينتهم دون أن يكون لهم مجلس شورى» فإذا صح أن أوغسطس هو أول من ألغى ذلك المجلس فقد اعتبر الإسكندريون ذلك العمل طعنة فى كبريائهم لأنه أضعف كثيرا من شخصية الإسكندرية كمدينة يونانية واعتبروا الإلغاء رمزا لفقدانها استقلالها الذاتى ودليلا على تبعيتها لروما. ولم يهدأ الإسكندريون منذ ذلك الوقت عن المطالبة باسترداد مجلس شورى على رأس ما طالبوا به الأباطرة الرومان من امتيازات وحقوق. ولدينا أكثر من وثيقة خلدتها أوراق البردى تصور وفود الإسكندريين أمام الإمبراطور فى روما مطالبين بإعادة مجلس الشورى موضحين أن ذلك المجلس سوف يخدم مصالح المدينة كما يخدم مصالح الإمبراطور نفسه. ولكن الإمبراطور كان يعتذر فى كل مرة بلباقة عن إجابة هذا المطلب العزيز.

حتى إذا كان عام ٢٠٠ ميلادية وبدأت حالة البلاد الاقتصادية تتدهور أصبح من الصعب العثور على عدد كاف من المواطنين ليشغلوا مناصب المدينة لأن هذه المناصب كانت غير مأجورة ويتحمل أصحابها نفقات كثيرة. ولما زار الإمبراطور سبتميوس سفيروس مصر فى ذلك العام ومنح الإسكندرية وسائر عواصم الأقاليم حق تكوين مجلس شورى لكل منها لم يسعد الإسكندريون بهذه المنحة الإمبراطورية لأنها أولا كانت إجراء عاما شمل القطر المصرى بأسره، ولم تكن الإسكندرية هى المقصودة به. وكذلك لأن نظام المجلس الجديد أشعرهم فى الحال بأن المنحة كانت لحاجة النظام الإدارى للولاية وليست لصالح المدن. فكان أعضاء هذا المجلس من أثرياء المدينة، وكان لزاما عليهم تحمل مسئولية ملء مناصب المدينة بحيث إذا لم يوجد عدد كاف من الموظفين كان عليهم تعيين واحد من صفوفهم، كما كانوا ملزمين بدفع نفقات الوظيفة من مالهم الخاص. كل هذا أشعر الإسكندريين أن المجلس الجديد كان غرما لا غنما إلى جانب كونه طعنة جديدة فى كبرياء الإسكندرية التى سويت الآن بعواصم الاقليم.

أما هيئة الموظفين من حكام المدينة (أى السلطة التنفيذية) فقد بقيت كما كانت فى العصر البطلمى وإن كانت معلوماتنا عنهم قد زادت كثيرا فى العصر الرومانى . هؤلاء الموظفون هم: «أكسيجيتيس» Exgetes (ومعناها لغويا «المفسر» ويمكن تشبيه منصبه بمنصب محافظ المدينة الآن) و «جمناز يارخس» أو رئيس الجمنازيوم و «كوزميتيس» Cosmetes وهو بمثابة مسجل الجمنازيوم و «أجورانوموس» Agoranomus وهو المشرف على السوق ونيوكورس Neocorus وهو المشرف على معبد المدينة ثم يوثينارخيس Eutheniarches وهو المشرف على تموين المدينة. هذه المناصب جميعها كانت دون أجر وكان توليها يعتبر شرفا عظيما يتسابق إليه المواطنون زمن مجد المدينة ولذلك كان يشترط فيمن يرشح لتولى هذه المناصب أن يكون من ذوى الثراء حتى يمكنه الإنفاق على وظيفته، وبعض المناصب كانت أكثر من بعضها الآخر، فمثلا مناصب رئيس الجمنازيوم (الجمنازيارخس) ومعاونه مسجل الجمنازيوم (الكوزميتيس) كانت تعتبر كثيرة التكلفة، إذ كان عليهم فى ظروف كثيرة أن ينفقوا من أموالهم الخاصة على الجمنازيوم وإصلاحه وإمداده بالزيت اللازم للنشاط الرياضى أو بالوقود اللازم للحمامات، وذلك رغم وجود ميزانية خاصة للجمنازيوم من مالية المدينة، ولكن كان من الضرورى فى أحيان كثيرة أن يسهم الموظف المختص بقدر من المال عند عجز المبلغ المقرر عن

حاجة المعهد. وحتى حين تكفى أموال المدينة، كثيرا ما كان يضطر رئيس الجمنازيوم أن يهدى المعهد تمثالا أو مزولة بقصد التجميل أو سد نقص.

الإسكندرية فى السياسة الرومانية:

لم تكن مصر التى ألحقها أوغسطس بالإمبراطورية الرومانية بمثابة كوكب جديد بزغ فجأة فى أفق السياسة الرومانية، فقد سبقت بين الدولتين علاقات متنوعة سياسية واقتصادية وثقافية ترجع إلى القرن الثالث ق.م. ورغم أن مصر بقيت الدولة الوحيدة فى حوض البحر الأبيض المتوسط المستقلة عن السيادة الرومانية حتى معركة أكتيوم سنة ٣١ ق.م.، إلا أن علاقاتها بروما كانت تزداد على مر الزمن اقترابا وتداخلا مع السياسة الرومانية حتى إذا كان عصر كليوباترا أصبحت مصر جزءا لا ينفصل عن مشاكل الحكم فى روما وخطرا يهدد كيان الإمبراطورية وذلك بسبب الموقف الدى اتخذه أنطونيوس فى الشرق وعلاقته بكليوباترا. لهذا كان أوغسطس على علم تام بأهمية الولاية الجديدة ويعرف طبيعة سكانها وخاصة أهل الإسكندرية وسرعة نزوعهم إلى الثورة.

على أى حال فإن السيادة الرومانية التى فرضها أوغسطس على مصر سلبت الإسكندرية سيادتها وأهميتها السياسية ولم يرض الاسكندريون أبدا عن وضعهم الجديد ولكنهم كانوا غير قادرين على الثورة ضد الحكم الرومانى مباشرة وعلانية، وخاصة بعد أن ذاقوا شدة بطش الجيش الرومانى عند أول محاولة قاموا بها فى هذا السبيل. كان ذلك عند أول عهدهم بالسيطرة الرومانية. فما كاد أوغسطس يغادر مصر وأخذ جباة الضرائب يجمعون الضرائب الجديدة لروما حتى هبت الثورة فى مناطق مختلفة من البلاد. وفى الصعيد والمنطقة الشرقية من الدلتا وفى الإسكندرية. ورغم انتشار الثورة على هذا النحو استطاع الوالى على مصر أن يقود الجيش الرومانى وأن يظهر لأهل الإسكندرية ومصر أن الحكم الجديد يستطيع أن يضرب بيد من حديد كل من تحدثه نفسه بالخروج عليه، فقضى على الثورات فى الحال وعاد الهدوء إلى الولاية ثانية. ولكن الهدوء الذى عاد إلى الإسكندرية كان مؤقتا وظاهريا فقط، إذ ظلت هذه المدينة تغلى بالنقمة على السيطرة الرومانية التى فرضت عليها. وكما يحدث كثيرا حين يعجز المحكومون عن مواجهة من بيدهم السلطان يلجأون إلى وسيلتين للتنفيس عن سخطهم المكبوت، **إحداهما** هى إطلاق ألسنتهم بالسخرية والفكاهة على الحاكمين وأشياعهم، **والأخرى** هى انتهاز الفرصة للانتقام لأنفسهم عن طريق إفراغ غضبهم على الفئة التى تناصر الحاكم والتى تتمتع بعطفه ومحاباته.

وقد لجأ الإسكندريون إلى الوسيلتين معا، فاشتهروا فى العالم القديم بالفكاهة اللاذعة والسخرية المرة، كما وجدوا فى جماعة اليهود فى المدينة هدفا للهجوم عليهم بدلا من الثورة صراحة ضد الرومان. ذلك لأن الرومان وجدوا فى اليهود جالية قوية يمكن الاعتماد عليها فى الإسكندرية ومصر ضد اليونان والمصريين معا. بينما شعر اليونانيون أنهم قد سلبوا سلطانهم كما أن الضرائب الجديدة أرهقت المصريين أشد الإرهاق. أما اليهود فعلى العكس من ذلك رحبوا بالسيطرة الرومانية لأنها قضت على سيادة العنصر اليونانى وأصبح عنصرا خاضعا وبذلك تساوى باليهود أنفسهم كجالية أجنبية. وقد أدرك الرومان هذه الحالة فاصطنعوا الجالية اليهودية وأظهروا لهم كثيرا من العطف والتشجيع. وحاول اليهود فى الإسكندرية استغلال هذه الظروف فبدأوا يدعون لأنفسهم مواطنة الإسكندرية ويقحمون أنفسهم فى مباريات الجمنازيوم. ولكن الإسكندريين لم يسكتوا على ذلك وأخذوا يتحينون الفرص للتنكيل باليهود. فشب صراع بين الجاليتين فى الإسكندرية استمر فترة كبيرة.

وقد وجد الإسكندريون فى إحجام اليهود عن عبادة الإمبراطور ورفضهم إقامة التماثيل له فى معابدهم فرصة لهم فهاجموهم واقتحموا المعابد اليهودية وحاولوا إقامة تماثيل الإمبراطور بها عنوة وبذلك أحرجوا فلاكوس - والى مصر الرومانى - أشد الإحراج وكان هذا الوالى قد سبق أن اضطهد الإسكندريين وأغلق نواديهم ومنعهم من حمل السلاح. فإذا حاول الآن قمع الإسكندريين فربما يؤدى ذلك إلى إثارة الشك حول

ولائه للإمبراطور. وبذلك نجح الإسكندريون فى استمالة فلاكوس إلى جانبهم ولعلهم تمكنوا من رشوته أيضا، فسلط على الحى اليهودى جنود الجيش الرومانى يعاونهم الإسكندريون بالقتل والسلب والنهب والتدمير. وأمام هذه المحنة سعى اليهود إلى الملك اليهودى كى يتوسط لدى صديقه الإمبراطور. وفعلا نجح المسعى وبعث الإمبراطور قوة عسكرية إلى الإسكندرية دخلتها ليلا وألقت القبض على فلاكوس وأخذته إلى روما حيث حوكم ونفى ثم قتل فى منفاه. وفى هذه الأثناء أرسل اليهود إلى روما وفدا يمثلهم برئاسة الفيلسوف فيلون كما أرسل الإسكندريون وفدا آخر يمثلهم برئاسة أبيون. ولكن الإمبراطور شغل عنهم بشئونه الخاصة ولم تسفر هذه السفارات عن نتيجة ذات بال.

بعد كاليجولا تولى الحكم فى روما الإمبراطور كلوديوس، ولما كان الخلاف بين اليهود والإسكندريين لا يزال قائما أرسل الجانبان وفودا أخرى إلى روما، ولدينا بردية هامة قد خلدت رسالة من الامبراطور كلوديوس إلى الإسكندريين يرد فيها على تلك السفارات، ويتضح منهامطالب الطرفين. وتعتبر هذه الرسالة من أهم وثائق الاسكندرية فى العصر الرومانى لأنها تبين مطامع الإسكندريين واليهود من ناحية وتجلو جوانب من نظام المدينة الذى أقره أوغسطس وبقى معمولا به حقبة طويلة بعد ذلك. أما الإسكندريون فقد قدموا لمطالبهم بالتأكيد على مسألة عبادة الامبراطور ليحرجوا موقف الوفد اليهودى، فاقترحوا انشاء معابد خاصة للامبراطور وتعيين كاهن خاص لعبادته الشخصية، وهو أمر لم يحدث من قبل، لأن الأباطرة كانوا يؤلهون ويعبدون بعد وفاتهم ولم تكن لهم معابد خاصة. وقد رفض الإمبراطور هذا الاقتراح قائلا أن ذلك أمر قاصر على الآلهة فقط. وتذكر الرسالة اقتراحات أخرى حققها الإمبراطور، ولكن أهم مطلب للإسكندريين كان من غير شك إنشاء مجلس تشريعي، وكان كلوديوس يعرف أن أوغسطس لم يسمح بقيام هذا النظام فى الاسكندرية ويعرف أيضا أن ما صدر عن أوغسطس كان يعتبر سنة للسياسة الرومانية لا يمكنه هو أن يخرج عنها. ولكنه أمام اصرار الإسكندريين وإلحاحهم لم يستطع أن يرفض هذا المطلب رفضا صريحا، ولهذا حاول أن يؤجل الأمر إلى أجل غير مسمى – كما نقول الآن – وذلك بأن قال لهم أنه سوف يبعث إلى واليه على مصر ليبحث له الأمر. وينهى الإمبراطور رسالته بالتعرض لمشكلة اليهود فى الإسكندرية. وهو يعلم أنه خلاف قديم يتصل بوضع اليهود فى الإمبراطورية بأسرها، إذ كان لهم فى القديم أيضا تلك الوحدة العنصرية التى تنتشر فى العالم كله. لهذا نجد كلوديوس يغير لهجته فى هذا الجزء من الرسالة ويستخدم أسلوبا جافا طابعه النذير والوعيد لكل من اليهود والاسكندريين إذا لم يكفوا عن مشاحناتهم،، فيأمر الإسكندريين بالحلم ولين الجانب بينما ينبه اليهود إلى حقيقة وضعهم فى الإسكندرية. وينهاهم عن السعى وراء مزيد من الحقوق وأن يقنعوا بالتمتع بالحياة ووفرة من النعيم فى مدينة ليست مدينتهم وألا يحضروا إلى الإسكندرية يهودا آخرين من سوريا وداخل مصر، وإلا اضطر إلى الاعتقاد أنهم يحاولون إثارة فتنة فى العالم كله. وأخيرا يعد كلوديوس الإسكندريين أنهم إذا أمسكوا عن المشاحنات فسوف يستمر فى إحسانه إليهم.

هكذا كان موقف هذا الإمبراطور الحازم المعتدل فى كل ما صدر عنه، ثم خلفه نيرون الذى كان الاعتدال أبعد الصفات عن أخلاقه، ولكن إفراطه فيما يتعلق بالإسكندرية ومصر كان فى جانب الإعجاب بها حتى أنه حزم أمره على أن يقوم بزيارة كبرى لمصر بغية مشاهدة آثارها فى الوقت الذى كان يعد فيه حملة إلى ماوراء حدود مصر الجنوبية. ولكن قيام ثورة بواسطة اليهود فى فلسطين منعته من تنفيذ خطته لزيارة مصر. وقد حدث أن ثارت الخصومة بين اليهود والإسكندريين بعدوى من ثورة فلسطين، وفى هذه الآونة كان نيرون قد عين على مصر فى سنة ٦٦ واليا من بين مواطنى الإسكندرية، وهو تبيريوس يوليوس اسكندر الذى كان يهودى الأصل ثم ارتد عن دينه. وحاول هذا الوالى أن ينصح رؤساء اليهود بالتزام الحكمة ولكن دون جدوى، فاضطر إلى أن يستدعى قواته من المعسكر ويسلطها على حى اليهود، حتى ليقال أن خمسين ألفا منهم قتلوا فى هذه المحنة وبعد ذلك كله يبدو أن نيرون لم ينس مصر والرغبة فى رؤيتها فيقال أنه طلب أن ينفى إلى مصر وأن يعين واليا عليها حين علم بإعلان جالبا امبراطورا مكانه.

بعد ذلك هدأت الأحوال فى الإسكندرية ومصر فترة من الزمن باستثناء بعض الاضطرابات التى أعقبت محنة اليهود الكبرى فى فلسطين وتدمير معبد بيت المقدس سنة ٧٠، واستمر الهدوء فى مصر حتى سنة ١١٤ حين نشبت ثورة يهودية جديدة شملت مصر وليبيا وقبرص فقامت كذلك الثورة فى الإسكندرية بين اليهود والإغريق أدت إلى كثير من القتل والتدمير فى المدينة، كانت تلك هى آخر مرة نسمع فيها عن أحداث هامة فى الصراع بين اليهود والإسكندريين ولعله بدأ يخبو أمام انشغال الرأى العام بأحداث أشد خطورة وهى ظهور المسيحية كقوة شعبية..

على أن تاريخ الإسكنرية السياسى أو علاقة الإسكندرية بروما لم يكن يدور حول اضطهاد اليهود ومحاربتهم أو الانتقام منهم كوسيلة من وسائل النقمة على الحكم الرومانى نفسه، فقد كان هناك جانب آخر له طرافته وهو الدور الذى لعبته الإسكندرية فى السياسة الرومانية مباشرة. لم تكن الإسكندرية مجرد عاصمة ولاية بعيدة عن مجريات السياسة فى روما، ففى أكثر من مرة وقفت موقفا ايجابيا وتدخلت فى الصراع حول الحكم فى روما. وكم من مرة آزرت الإسكندرية حركات التمرد ضد الإمبراطور وكم من مرة ناصرت أدعياء الحكم لا حبا فى الثائر المدعى ولكن كرها لكل من يتولى السلطان فى روما وكانت للإسكندرية خاصة ومصر عامة مكانة مرموقة فى روما بسبب محصول القمح الذى كانت ترسله الولاية كل عام لغذاء الشعب الرومانى، بحيث إذا تأخر هذا القمح عاما تعرضت روما للمجاعة، ولهذا كان للسيطرة على مصر مغزاه وقيمته فى الصراع السياسى حول العرش فى روما.

لعل من أهم المناسبات التى لعبت فيها الإسكندرية دورا خطيرا فى شئون الحكم فى روما ما قامت به من أجل وصول فسباسيان إلى العرش فى سنة ٦٩. وذلك ان عام ٦٨ ـ ٦٩ كان عام فتن وفوضى سياسية، تعاقب فيه على عرش روما أربعة أباطرة لم يبق كل منهم سوى أشهر قليلة، وكان هؤلاء الأباطرة يعينون ويعزلون بواسطة الجند فى الولايات الغربية عادة. ولم يكن قد تدخل بعد الجنود فى الشرق فى عملية تعيين الأباطرة وعزلهم. ولكن حدث فى سنة ٦٩ أن كان فسباسيان يقود جيشا فى سوريا وأعلن نفسه امبراطورا، وبقى مركزه غير مؤكد حتى أول يوليو سنة ٦٩ حين أعلن له الولاء حاكم مصر وأخذ له اليمين من الجنود فى الإسكندرية، عند ذلك اتجه نحو الإسكندرية لمحاربة الإمبراطور القائم فى روما عن طريق منع قمح مصر، ولكن لم يضطر إلى تنفيذ هذه الخطة لأن الجنود فى الولايات الغربية وفى روما أعلنوا ولاءهم له بسرعة لم تكن متوقعة. ولعل أهمية انضمام مصر إلى فسباسيان تتجلى فى أنه اعتبر تاريخ بدء حكمه منذ أول يوليو سنة ٦٩ وهو تاريخ إعلانه إمبراطورا فى الإسكندرية رغم أن الإمبراطور الآخر فى روما بقى متربعا على العرش حتى ٢١ ديسمبر من العام نفسه.

تبين الطريقة التي وصل بها فسباسيان إلى الحكم مدى أهمية الإسكندرية فى السياسة الرومانية، ولهذا كانت دائما موضع اهتمام الأباطرة، وفى أكثر من مناسبة حين تعرضت المدينة لأزمة فى الغلال بسبب قلة مياه الفيضان كان الأباطرة يرسلون إلى الإسكندرية غلالا أو يوزعون على المواطنين جزءا من المخصص لروما. ومن أشهر تلك المناسبات حين أرسل الإمبراطور تراجان اسطولا محملا بالغلال من روما إلى الإسكندرية للتغلب على مجاعة حدثت فى البلاد بسبب انخفاض النيل. وإلى جانب ذلك أظهر الأباطرة فى ظروف عديدة عطفهم على المدينة بإقامة المبانى المختلفة والتقرب إلى أهلها. فنعرف أن الإمبراطور هارديان سنة ١٣٧ بنى مكتبة جديدة لحفظ الوثائق الرسمية فى المدينة عندما زارها، كما أنه زار المتحف وتحدث مع رجاله من الفلاسفة، وعين كثيراً من المعلمين المتجولين أساتذة به. وكذلك نعرف أن الإمبراطور سيفيروس زار الإسكندرية سنة ٢٠٠ وبنى بها حمامات وجمنازيوم ومعبدا للآلهة وذلك عندما منح الإسكندرية وعواصم الأقاليم فى الريف حق انشاء مجلس الشورى.

ولكن فترة الرخاء والهدوء التى سادت فى القرن الثانى انتهت فى الجزء الأخير من ذلك القرن وبدأ الصراع السياسى يشتد من جديد فى روما، وبدأت الإسكندرية تعلن عن سخطها على الإمبراطور الرومانى

بمؤازرة الثائرين عليه مرة ثانية. حدث ذلك فى ثورات أثناء حكم ماركوس أوريليوس (١٦١ - ١٨٠) وسيفيروس (١٩٣ - ٢١١). وفى كل مرة لم تكن الإسكندرية تسلم من الانتقام جزاء موقفها. ورغم ذلك ففى سنة ٢١٥ حين زار المدينة الإمبراطور كاراكلا الذى منح سكان الإمبراطورية الأحرار المواطنة الرومانية سنة ٢١٢ سخر منه الإسكندريون على عادتهم فانتقم منهم بأن أطلق جنوده فى المدينة يقتلون ويدمرون.

بعد ذلك جاءت الفترة التى تعرف بالمحنة الكبرى للإمبراطورية الرومانية فى الجزء الأكبر من القرن الثالث، وأخذت الجيوش تلعب دورا متزايدا فى السياسة، يعينون الأباطرة ويقتلونهم، وكم من مرة تقاتل الجنود لانقسام ولائهم بين مرشحين مختلفين للحكم، وقد أصاب الإسكندرية شىء من ذلك عندما وقعت بها حرب بين الجيوش الرومانية سنة ٢٦١ مما أدى الى تدمير أجزاء كثيرة منها وتفشى الأوبئة والأمراض فيها حتى لقد قيل أن عدد السكان من سن أربعة عشر إلى ثمانين أصبح يساوى عدد الافراد من سن أربعين إلى سبعين قبل ذلك. أى أن عدد السكان هبط الى الثلث. وفى أثناء الصراع من أجل السيطرة على الشرق الذى نشب بين زينوبيا ملكة تدمر والإمبراطورية الرومانية قام تحالف بين الإسكندرية وزينوبيا (٢٦٩ - ٢٧١) حين ثار أحد تجار الإسكندرية وهو المدعو فرموس وأعلن نفسه امبراطوراً رومانيا واتخذ جانب تدمر. ولكن سرعان ما تمكن الإمبراطور من السيطرة على الشرق من جديد بما فى ذلك تدمر والإسكندرية.

وكانت آخر ثورة اشتركت فيها الإسكندرية ضد الإمبراطور تلك التى قام بها أحد الضباط الرومان فى المدينة ضد دقلديانوس مما اضطر دقلديانوس إلى الحضور إلى الإسكندرية بشخصه لإخماد الثورة. وفي هذه الحرب أيضا أصاب المدينة كثير من الأذى ولكن دقلديانوس عمل بعد ذلك على إنعاش المدينة من جديد بعد أن توالت عليها الحروب والكوارث أثناء محنة الإمبراطورية هذه. ومن أهم أعمال دقلديانوس أنه أمر بتخصيص جزء من الغلال للإسكندرية من الغلال التى كانت تجمع لروما كل سنة. ومن المحتمل أنه اعترافا بهذا العمل أقام له الإسكندريون ذلك النصب الكبير الذى يعرف الآن بعامود السوارى.

تلك لمحة سريعة عن الإسكندرية فى السياسة الرومانية. ولنتناول الآن جوانب أخرى من تاريخ المدينة أكثر إشراقا وأكثر نفعا لبنى الإنسان ونقصد المجتمع الإسكندرى والدور الذى قام به فى الاقتصاد والثقافة.



سيرابيوم الإسكندرية

الحياة الاجتماعية:

الإسكندرية كما أنشأها الإسكندر وتعهدها البطالمة والرومان من بعده كانت مدينة يونانية أصلا. ولهذا فمن الطبيعى أن جماعة المواطنين كانت من العنصر اليونانى أساسا ثم من الافراد الذين يتفوقون ويطمحون فى الانضمام إلى جماعة المواطنين وتسمح لهم الهيئات المسئولة بالعضوية بعد ذلك. فالطابع الأساسى للمواطنين الإسكندريين هو الإغريقية وذلك لأن الملوك الأوائل أدرجوا كثيرا من الإغريق الذين كانوا فى خدمتهم فى سجل مواطنى المدينة. وليس معنى هذا أن كل الإغريق فى الإسكندرية كانوا مواطنين، فقد وجد كثير من الإغريق خارج جماعة المواطنين والسبب فى ذلك أن حق المواطنة كان يكتسب عن طريق الوراثة فالشخص الذى ينحدر من أب وأم إسكندريين يحق له حسب القانون أن يصبح مواطنا. أما الإغريق الآخرون الذين جاءوا إلى المدينة فى عصور مختلفة ولم يدرجوا فى سجل المدينة، فقد بقوا هم وأبناؤهم من بعدهم رعايا مباشرين للحكومة المركزية شأنهم فى ذلك شأن سائر سكان مصر.

ولنتحدث أولا عن جماعة المواطنين فى الإسكندرية، كيف يصبح الشخص مواطنا إسكندريا وما هى حقوقه أو امتيازاته التى تميزه عن غيره من السكان.

ولنبدأ بالاجابة على الشق الأول من السؤال وهو كيف يصبح الشخص مواطنا. إن القول بأن حق المواطنة يكتسب عن طريق الوراثة قول ناقص لا يفى بالواقع لأن الوراثة فقط لم تكن كافية بطريقة آلية لأن يصبح الابن مواطنا للمدينة مثل والديه كما هو الحال الآن. وذلك لأن المدينة القديمة كانت فكرة حضارية بقدر ماهى نظام سياسى أيضا. ولهذا فكان لزاما على كل فرد استكمل شرط الوراثة أساسا أن ينخرط فى سلك المعهد التعليمى والتربوى للمدينة وهو الجمنازيوم ليتعلم ويتثقف بثقافة المدينة ويعرف مقومات نظمها ومثلها قبل أن يصبح مواطنا. وكان يوم تخرج الفرد من الجمنازيوم يقترن بيوم إعلانه مواطنا للمدينة ويتم ذلك فى حفل واحد ويكتب اسمه على لوح حجرى يقام فى سوق المدينة. فالوراثة وحدها غير كافية لتجعل من الفرد مواطنا. ولكن لابد من الحصول على شهادةالجمنازيوم التى كانت الوراثة تخوله للحصول عليها وكان هذا يتم عادة عند سن الرابعة عشر وبعد ذلك يصبح مواطنا كاملا له حق ممارسة الحقوق السياسية والاجتماعية للمدينة.

هذا هو الطريق الطبيعى للحصول على المواطنة فى الإسكندرية فى العصر الرومانى ولابد أنه استمرار لنظام العصر البطلمى. ولكن هناك طريق آخر يعتبر استثناء، وهو منح المواطنة لشخص ليس من أبوين اسكندريين، وكان هذا من سلطة الإمبراطور فى العصر الرومانى ولعله كان من سلطة الملك فى العصر البطلمى. وهؤلاء الأشخاص الجدد الذين يمنحون المواطنة كانوا عادة ممن يتفوقون ويتأغرقون من أبناء العناصر الأخرى من المصريين واليهود وغيرهم.

وفى العصر الرومانى لم تفقد مواطنة الإسكندرية شيئاً من أهميتها بل لعلها ازدادت أهمية فى ذلك العصر أيضاً، لأن الرومان كانوا حريصين كل الحرص على الانقسام الطبقى فى الولاية. فهو سلاح من أقوى الأسلحة لإخضاعها. لهذا أكد الرومان سمو مركز الإسكندريين بامتيازين جديدين يثبتان وضعهم على قمة الهرم الطبقى فى مصر. أول هذين الامتيازين هو ما يتعلق بضريبة الرأس التى فرضتها روما على سكان مصر كجزية سنوية. هذه الضريبة لم تفرض على جميع السكان بقدر سواء وإنما تدرجت تدريجاً هرمياً على طبقات مصر. ففى أسفل السلم فرضت الضريبة الكاملة وقدرها أربعون دراخمة على المصريين في قرى الريف. وتأتى بعدهم طبقة مواطنى عواصم المديريات وكانوا يدفعون عشرين دراخمة ثم هناك ذكر لفئة أسمى تسمى فئة أعضاء الجمنازيوم وكانوا يدفعون اثنتي عشر دراخمة، وهناك فئة رابعة وكانت تدفع ثمانى دراخمات.

أما المواطنون من أهل الإسكندرية فكانوا فوق ذلك كله وتمتعوا بإعفاء كامل من هذه الضريبة. وكان الإسكندريون يعتزون أشد الاعتزاز بهذا الإعفاء لأنهم بذلك كانوا على قدم المساواة مع المواطنين الرومان.

أما الامتياز الثانى فهو جعل مواطنة الإسكندرية شرطا أساسيا للمصرى قبل أن يحصل على المواطنة الرومانية. ونحن نعرف هذه الحقيقة من بعض الرسائل التى تبادلها الكاتب الرومانى الشهير بلينيوس الصغير مع الإمبراطور تراجان. كان بلينيوس قد مرض مرضا شديدا واستطاع طبيب مصرى ماهر يسمى هاربوكراس أن يشفيه من مرضه فى سرعة وحذق أثارا إعجاب الكاتب الكبير وامتنانه، وأراد أن يكافىء الطبيب المصرى بمنحه المواطنة الرومانية. فكتب إلى الامبراطور راجيا أن يجيب رغبته ولكن تبين عند ذلك أنه لا يجوز أن يمنح المصرى المواطنة الرومانية مباشرة ولابد أن يصبح مواطنا إسكندريا أولا. ولهذا يعد الإمبراطور بتحقيق الأمرين معا وهو منح هاربوكراس مواطنة الإسكندرية أولا ثم مواطنة روما وأنه سيكتب إلى والى مصر فى ذلك.

هذه المناسبة تكشف لنا كيف كان الأفراد من غير المواطنين يحصلون على مواطنة الإسكندرية عن طريق منحة من الإمبراطور. ولكن نظرا لامتيازات المواطنين الإسكندريين سعى كثيرون ممن يدفعون ضريبة الرأس إلى اتخاذ أساليب غير قانونية لإقحام أسمائهم فى سجل المواطنين أو تسجيل أبنائهم بين صفوف طلاب الجمنازيوم. وكثيرا ما سمعنا عن شكاوى من مثل هذه الحالات، مما يكشف أن الرشوة والتحايل كان لهما دورهما فى هذا المجال.

وعلى أية حال فقد ظل الإسكندريون يكونون طبقة ممتازة فى مصر أثناء العهد الرومانى لجميع السكان الأحرار فى الإمبراطورية. وكان هذا معناه أن يصبح الجميع مواطنين رومان. ولا يتسع لنا المجال هنا لتحليل الظروف التى دفعت إلى إصدار هذا القانون الخطير ولا النتائج التى ترتبت عليه، ويكفى أن نقول أن الدافع الحقيقى لم يكن الرغبة فى المساواة وإنما كان ،الاضطراب المالى والإدارى الذى أوشك أن يودى بالإمبراطورية الرومانية في القرن الثالث والنتيجة الحقيقية لهذا القانون لم تكن رفع الطبقات السفلى إلى مستوى الرومان وإنما هو إلغاء امتيازات الرومان ومن دونهم من الأقليات الممتازة فى الولايات الرومانية حتى يتساووا بالطبقات السفلى ونتج عن ذلك فى مصر أن مواطنة الإسكندرية فقدت قيمتها تماما حتى أن الانتماء للإسكندرية فى كثير من الأحيان لم يعد يستحق أن يتمسك به أبناؤها.

أما الجالية المصرية فكانت أكبر جالية بين سكان الإسكندرية من حيث الكثرة العددية ولم يكونوا جميعا من سكان قرية راكودة الأصليين وانما نزح إليهم كثيرون من داخل البلاد عند تأسيس المدينة وفى فترات مختلفة بعد ذلك. وفى بعض الأحيان كان الفلاحون يفرون من الريف هربا من الضرائب ويلجأون إلى الإسكندرية حيث يمكنهم الاختفاء والعثور على عمل أيضا. ولدينا خطاب شخصى طريف ـ حفظته بردية من القرن الثانى الميلادى ـ تكشف لنا إحدى محاولات الهرب من الريف إلى الإسكندرية. ولعل من المناسب هنا أن نورد ترجمة لنص الخطاب (بداية الخطاب مفقودة ولكن من الواضح أنه مكتوب من فتى إلى أحد أقاربه) « .. لقد وصل إلى علمى أن أبى ينوى الفرار. ولهذا السبب أكتب إليك حتى تخبره ألا يفعل ذلك دون علمى. وإذا لم يشأ أن أعرف أين يذهب، فليرسل لى مائة دراخمة حتى أستطيع أن أذهب إلى الإسكندرية وأن أبقى هناك بعض الوقت. لأننى لا أستطيع أن أبقى فى ارسينوى (الفيوم) بعد أن يرحل هو. فالاستراتيجوس (مدير المديرية) وارتميدوروس وجميع من يعمل معه يعرفوننى جيدا ولا مناص من أن يقتص منى. من أجل هذا أكتب إليك ياسيدى لعلك تطلعه على الخطاب حتى يعرف وجهة نظرى. عليك لهذا أن تفعل كما ذكرت (حتى لا يحدث

ما يسبب لوالدى الندم) وحالات الفرار هذه كانت كثيرة بسبب الضرائب الباهظة التى كانت تجبى من المزارعين الصغار. ولم تكن الضرائب وحدها مصدر قلق المصريين ولكن الوسائل القاسية من ضرب وجلد مما كان يستخدم عند عجز أحد الأفراد عن دفعها. ولم يقتصر الأمر على من تجب عليه الضريبة بل كان العقاب والعذاب الشديد يتعداه إلى أبنائه وأفراد أسرته كما يتضح من هذه البردية التى تبين مدى قلق الابن فى حالة اختفاء والده وحرصه هو نفسه على أن يختفى من الإقليم بأسره حتى لا تقتص منه الإدارة. وكما يبدو من هذا الخطاب أيضا كانت الإسكندرية ملجأ مناسبا لهؤلاء الأفراد يختفون فيها نظرا لكبر حجمها وكثرة سكانها. ومن الممكن أن يجدوا بها نوعا من العمل أيضا. ولكن أحيانا أخرى كانوا يبقون متعطلين فى الإسكندرية بينما يلحق القرى ضرر كبير حين يزداد عدد الغائبين. ولهذا كان الحكام يصدرون فى مناسبات مختلفة وخاصة عند إجراء إحصاء عام أوامر بخروج المصريين من الإسكندرية إلا من كانت لهم ضرورة فى المدينة بحكم عملهم وخاصة عمال النسيج ورجال القوارب النهرية والذين يأتون بالوقود للحمامات وتجار اللحوم.

وليس من شك أن بعض المصريين استطاع أن يكتسب مواطنة الإسكندرية بطريق رسمى مثل هاربوكراس أو بطريق غير قانونى، وأصبحوا مواطنين إسكندريين. ولكن من الصعب تتبع مثل هذه الحالات نظرا لأنهم كانوا عادة يتخذون أسماء يونانية. فى أحوال قليلة جدا يمكن أن نكشف الأصل المصرى لبعض الإسكندريين حين يحتفظون بأسمائهم المصرية مثل «سبنثير» و«بساميس» و«فيرموثيريون» و«انوبون»، فهذه يتضح بها الأصل المصرى لأصحابها.

وكانت هناك جالية كبيرة أخرى فى الإسكندرية هى الجالية اليهودية التى وفدت إلى المدينة ومنحت كثيراً من الامتيازات منذ البداية ونظراً لعقيدتهم الدينية الخاصة التى لا تسمح لهم بالمشاركة فى العبادات الوثنية أذن لهم فى أن يتخذوا معابد خاصة بهم، وأن يمارسوا دينهم بحرية تامة. كما سكنوا الحى الرابع (دلتا) من أحياء الإسكندرية الخمسة، ولكنه لم يكن بمثابة «جتو» قاصر على سكنى اليهود بل سكن فيه أناس آخرون، وكان خاضعاً لنظم المدينة مثل سائر الأحياء وقد سمح لليهود أيضاً أن يكون لهم ما يشبه رابطة أو جمعية خاصة تجمعهم، ومحاكم تقضى فى أمر الأحوال الشخصية وتطبق الأحكام الشرعية للعقيدة الموسوية.

وسرعان ما تأغرقت الجالية اليهودية فى الإسكندرية واتخذت اللغة اليونانية والزى اليونانى والأسماء اليونانية وخاصة اسم اسكندر، وكذلك مارسوا عبادتهم باليونانية بعد أن ترجمت التوراة إليها وهى الترجمة المعروفة بالسبعينية. ورغم هذا التطور السريع الذى أصابهم فإنهم لم يندمجوا تماماً فى البيئة المحيطة بهم وظلوا متمسكين بدينهم ونظام رابطتهم التقليدى، كما فعلت جماعات اليهود فى البلاد الأخرى على مر التاريخ.

أما عن الحياة الدينية فقد استمر الثالوث الاسكندرى المكون من سر ابيس وايزيس وحورس والذى كان من صنع البطالمة وظل محتفظا بمكان الصدارة بين الآلهة فى العهد الرومانى. فكان سرابيس هو إله الإسكندرية الأول، واكتسب بفضل التأييد الرسمى له عدة صفات وتشبيهات زادت من قوته وسلطانه. فقد شبه بزيوس كبير آلهة الإغريق وذلك لتؤكد عبادته فى نفوس اليونان، وكذلك شبه من ناحية أخرى بإله مصر الكبير أمون رع لتتأكد صفته المصرية فى نفوس المصريين ونتج عن هذا التشبيه الأخير أنه اكتسب صفة إله الشمس وأنه مصدر النور والهدى للعالم. ثم أخذ يضيف إلى سلطانه صفات إلهية أخرى أهمها صفة سيد البحار بوسيدون اليونانى، فصور سر ابيس ممسكاً بالحربة ذات ثلاث الشعب (رمز بوسيدون). وكان من

الطبيعي أن يكتسب سر ابيس هذه الصفة نظراً لمكانة الإسكندرية كربة البحار، وكذلك تأكدت له صفة إله العالم السفلي بحكم انبثاقه أصلاً من الاله أوزيريس ومن هنا أصبح شبيهاً أيضاً بإله الإغريق المسمى هاديس. وأخيراً ألحقت بسرابيس عصا اسكلبيوس إله الشفاء كما أضيفت إليه صفات الوفرة والخير التي للنيل. هذا الإله على العموم بقى الهاً رسمياً يعبد في المعابد أكثر من كونه الهاً شخصياً يعبده الأفراد في البيوت ومع ذلك فقد انتشر خارج مصر في بقاع العالم الهيلنستي وأخيراً وصل إلى روما رسمياً حين أنشأ الامبراطور دوميتيان-(٨١-٩٦ ميلادية) معابد في روما لعبادة سرابيس وايزيس. وكان ذلك بمثابة اعلان رسمي لقبول آلهة الإسكندرية في روما بعد أن كانت قد وصلت هناك قبل الفتح بصفة غير رسمية خاصة الإلهة ايزيس التي تمثل زوجة سرابيس والإلهة الأم بالنسبة لحورس ولقد احتفظت ايزيس في العصر الروماني بشخصيتها المصرية بالرغم من محاولة تشبيهها بديميتير وأفروديتي اليونانيتين. ولكن شخصيتها المصرية كانت قوية بذاتها خاصة وأنها تكون مع حورس صفة أساسية في الفكر الديني الإنساني، إذ تمثلت في الإلهه ايزيس فكرة الإلهة الأم. بتلك الشخصية استطاعت الإلهة ايزيس أن تفتح روما قبل أن يفتح أغسطس مصر وأن تنافس في اتساع امبراطوريتها روما ذاتها. فقد انتشرت عبادتها كالبرق في سرعة مذهلة إلى وراء حدود الامبراطورية الرومانية في ركب تجارة الإسكندرية. وليس أدل على ذلك من بردية مشهورة من البهنسا ترجع إلى القرن الثاني الميلادي تذكر الأماكن التي انتشرت فيها عبادة ايزيس في أرجاء المعمورة. هذه الأماكن تشمل معظم مدن مصر إذ أن هناك ذكرا لسبع وستين مدينة في الدلتا فقط أما خارج مصر فتذكر أسماء خمس وخمسين مدينة مرتبة حسب البلاد التي تقع فيها. ومن دراسة هذه البردية يتبين أن سلطان الإلهة ايزيس شمل الهند وبلاد العرب وفارس شرقا وسينوب على البحر الأسود شمالا وروما وإيطاليا غربا.

أما عن هاربوكراتيس فقد كان مصري الاصل أيضا باعتباره إحدى صور حورس ولكن سرعان ما اتخذ صورا أخرى لحورس ولآلهة أخرى مصرية وغير مصرية وانتشر خارج مصر في العالم اليوناني وفي خطوط تجارة الإسكندرية وخاصة في ركب ايزيس التي كان يشاركها معبدها أحيانا، إذ لم يعرف أنه تفرد بمعبد خاص، باعتبار أنه حورس الصغير ويجب أن يبقى في رعاية والدته. ومع ذلك فقد كان منتشرا ومحبوبا بين الطبقات الفقيرة ولكنه عبد مستقلا بشخصه في البيوت.

إلى جانب هذا هذا الثالوث الرسمي حلت في الإسكندرية عبادة الأباطرة الرومان محل عبادة البطالمة. ولكن يجب أن نذكر هنا أن الأباطرة عبدوا على أن أشخاصهم مقدسة وليس بوصفهم آلهة. وكانت العبادة قاصرة على الأباطرة بعد موتهم فكان لهم كاهن في الإسكندرية وتقام تماثيلهم في معابد الآلهة الكبرى ولم تفرد لهم معابد خاصة. ولكن عبادة الأباطرة بقيت عبادة رسمية تمارس في المناسبات العامة دون أن يكون لها طابع شخصي في البيوت.

هذه كلمة مختصرة عن الآلهة والعبادات الأساسية في الإسكندرية الرومانية ولا يتسع المجال هنا للاستفاضة في الحديث عن الآلهة الأخرى. فإن العالم لم يشهد فترة اختلطت فيها الأديان وامتزجت كما حدث في ظل الامبراطورية الرومانية. فإن تعدد الشعوب والحضارات التي شملتها الإمبراطورية وسياسة التسامح الديني التي اتبعها الرومان سمح لجميع الأديان أن تزدهر. كما أن السلام الذي ساد العالم في الفترة الأولى من تاريخ الإمبراطورية والنشاط التجاري الذي انتشر بين أرجاء العالم مكن الأديان المختلفة من أن تنتشر وأن تؤثر بعضها في بعض ولقد بدا ذلك واضحا من عرضنا للآلهة سرابيس وايزيس وهاربوكراتيس وكانت روما والإسكندرية من أهم مراكز التقاء هذه الديانات المتباينة كما كانت نقطا لإشعاعها. في هذه البيئة المعقدة نشأت المسيحية وأقامت كنيستها وقضت على جميع الأديان القديمة الأخرى.

الحياة الاقتصادية

إذا كان البطالمة قد أخذوا بسياسة التخطيط العام واحتكار الدولة لمعظم أوجه النشاط الاقتصادى فى سبيل تنمية البلاد فقد مال الرومان نحو السياسة العكسية وهى الأخذ بمبدأ الاقتصاد الحر فى كثير من المجالات من أجل انعاش البلاد اقتصاديا من التأخر الشديد الذى أصابها فى الفترة المتأخرة من العصر البطلمى.

فى مجال الملكية الزراعية كان البطالمة يتوسعون فى مبدأ ملكية الدولة للأرض أما الرومان فقد توسعوا فى مبدأ الملكية الخاصة، فشجعوا الأفراد على شراء الأراضى وخاصة البور منها لإصلاحها وكانوا يمنحونهم امتيازات كثيرة نظير ذلك. ولو أنه كانت هناك محاولات للعمل على زيادة طبقة صغار الملاك والتضييق من طبقة كبار الملاك. ومع ذلك فإن طبقة كبار الملاك استمرت مزدهرة أثناء العصر الرومانى وكان للإسكندريين نصيب وافر فى ذلك ولم تقتصر أملاكهم على المناطق القريبة من الإسكندرية بل شملت جميع أقاليم مصر، وذلك لأن الأسكندريين أثروا كثيرا من وراء التجارة الخارجية بنوع خاص، وقد جرت العادة قديما على تحويل الثروات الناتجة من التجارة والصناعة إلى ملكية الأراضى وهي خير ضمان لحفظ الثروة. وليست لدينا إحصاءات كاملة عن ملكية الأراضى في تلك الفترة ولكن من دراسة أوراق البردى المعاصرة يتضح لنا مدى اتساع ملكية الإسكندريين ففى إحدى الوثائق نجد إسكندرياً ثريا يشترى من أملاك الحكومة حوالى ٦٠٠ فدان فى صفقة واحدة، وفى وثيقة أخرى نجد أبناء أسرة سكندرية يتقاسمون تركة من أبيهم تزيد على الألف فدان وفى وثيقة ثالثة نجد أن عشرة مواطنين سكندريين ورومان يملكون فى إحدى قرى الفيوم أكثر من ثلاثة أضعاف ما يملكه ٧٨ من المزارعين المحليين هذه الأمثلة وحدها بطبيعة الحال لا تقدم دليلاً إحصائياً على حجم الملكية الزراعية التى فى أيدى الإسكندريين ولكنهاوغيرها من الأدلة التى نستنتجها من دراسة أوراق البردى تثبت بما لايدع مجالاً للشك أن الإسكندريين كانوا يكونون أقوى طبقة فى العصر الرومانى.

أما وسائل حصولهم على هذه الأرض فكانت مختلفة متباينة. فى أول العصر الرومانى صادر الرومان كثيرا من الأراضى مثل الأراضى الملكية السابقة وكانت كبيرة جدا كما استولوا على كثير من أملاك المعابد بقصد إضعاف سلطة المعابد والكهنة، كما نص القانون على أن تؤول إلى الدولة جميع الأراضى التى يهجرها أصحابها أو التى يعجز الأفراد عن دفع ضرائبها.

ومجموع هذه الأراضى لم يبق فى حوزة الدولة بل قامت ببيعه للأفراد بأسعار زهيدة (تتراوح بين ٢٠ و ٤٠ دراخمة للفدان في الوقت الذى كان فيه متوسط سعر السوق الحر ١٨٥ دراخمة للفدان) وذلك لتشجيع الرأسمالية الرومانية من أغنياء روما والرأسمالية المحلية وهم أغنياء الإسكندرية على استثمار أموالهم فى إصلاح هذه الأراضى، وكانت هذه الأراضى التى بيعت تتمتع عادة بامتيازات كثيرة، مثلا الإعفاءالكامل من الضرائب لفترة معينة أو التخفيض الجزئى لهذه الضرائب أما الأراضى التى لاتباع فكانت تبقى ملكاً للدولة تؤجرها للأفراد. على أن أغنياء الإسكندرية كثيراً ما سعوا إلى توسيع أملاكهم من طرق أخرى مثل إقراض الديون لصغار الملاك الذين يحتاجون إلى مساعدات مالية لإصلاح أراضيهم. كانوا يقرضون هذه الديون بفوائد باهظة وبضمان مقدار من الأرض يتناسب مع الدين ذاته. وتكشف لنا أوراق البردى عن محاولات خبيثة للاستيلاء على الأراضى المرهونة عندما يتأخر المدينون عن سداد ديونهم.

وعلى أية حال ففى ظل هذه الظروف نشأت الإقطاعات الكبيرة التى عرفت باسم الوسية فى حياة مصر الزراعية أثناء القرن الأول من الحكم الرومانى. ولكن الحال لم يستمر على هذا النحو بل قامت حملة قوية عند نهاية القرن الأول للقضاء على اقطاعات الرومان بقصد القضاء على طبقة الملاك المتغيبين فى روما الذين لا يقيمون بأراضيهم ولا يباشرونها بأنفسهم، وكذلك بقصد تقوية طبقة صغار ومتوسطى الملاك الذين يعيشون على أراضيهم ويستثمرونها بأنفسهم وليس عن طريق الوكلاء. إلا أن هناك ما يدل على أن طبقة كبار الملاك من الإسكندريين لم تتأثر كثيرا بهذه الحملة، واستمرت إلى القرن الثانى الذى كان أكثر استقرارا ورخاء فلم تحدث به أية هزات فى الملكية الزراعية.

ولكن ما إن أوشك القرن الثانى على الانتهاء حتى أخذ الاقتصاد المصرى يتعرض لهزات عنيفة وبدأ النظام الإدارى يعجز عن أن يقوم بالعبء الملقى عليه، مما استوجب إصلاحات سفيروس وكراكلا التى أشرنا إليها من قبل. ولكن المحنة الكبرى التى تعرضت لها الامبراطورية فى القرن الثالث سببت حدوث تضخم مالى وهبوط شديد فى قيمة العملة. ويكفى أن نذكر أن سعر الفدان الذى كان فى القرن الأول ١٨٥ دراخمة بلغ فى القرن الثالث حوالى ٦٠٠ دراخمة. وكان هذا معناه ازدياد قيمة الملكية الزراعية لأنها أثبت وأضمن أنواع الملكية. وفى ظروف التضخم هذه لا يتأثر الاغنياء أما صغار الملاك وأصحاب الدخول المحدودة فإنهم يقاسون كثيرا من الضيق، فيعجزون عن دفع ضرائبهم أو يضطرون إلى الاستدانة من كبار الملاك المجاورين لهم. وهكذا رأينا الدولة تصادر الأراضى التى يعجز أفرادها عن دفع ضرائبهم وتعرضها للبيع بالمزاد العلنى. وكان لأثرياء الإسكندرية فى هذه المزادات نصيب كبير. وكذلك رأينا ظاهرة إقراض الديون تعود من جديد ويغتصب الأثرياء الأراضى المرهونة فى ظل ظروف وشروط قاسية حين يعجز المدينون عن دفع الديون. وهكذا قفزت فى هذا القرن الملكية الإقطاعية على يد الإسكندرية قفزة أخرى لم يسبق لها مثيل مما سيمهد لقيام النظام شبه الإقطاعى فى مصر البيزنطية بعد ذلك.

هذا فى مجال الملكية الزراعية أما فى مجال الحياة الصناعية والتجارية للبلاد فقد كانت الإسكندرية تعتبر أكبر مركز للصناعة والتجارة لا في مصر وحدها ولكن فى الامبراطورية الرومانية بأسرها. ولدينا كثير من الأدلة المعاصرة التى تثبت ذلك، ولعل أهمها وأشهرها هو ذلك الخطاب الذى ينسب إلى الامبراطور هادريان (١١٧ ـ ١٢٨) ويصف فيه الإسكندرية بقوله: «أنها مدينة غنية تتمتع بالثراء والرخاء ولا يوجد بها عاطل عن العمل، فالبعض يعملون فى صناعة الزجاج وآخرون يعملون فى صناعة أوراق البردى وكثيرون يعملون فى صناعة النسيج أو فى أية حرفة أو صناعة أخرى، حتى أصحاب العاهات من العجزة والخصيان والعميان كل له عمله، حتى من فقدوا أيديهم لا يقضون حياتهم عاطلين هناك. الجميع يعبد إلهاً واحداً هو المال، هذا الإله يعبده المسيحيون واليهود وكل طائفة أخرى فى الواقع».

هذه الوثيقة هامة فعلا نظراً لصدق الصورة التى ترسمها عن الحياة الصناعية فى الإسكندرية فالزجاج الذى امتازت مصر بصناعته منذ زمن الفراعنة، اشتهرت الإسكندرية بصناعته وتفنن عمالها فى أنواعه وألوانه مما أكسبها شهرة عالمية. وقد عثر على قطع من الأوانى الزجاجية المصنوعة فى الإسكندرية فى بلاد اليونان وإيطاليا والغالة (فرنسا) وألمانيا. أما أوراق البردى فقد كانت مصر البلد الوحيد فى العالم القديم الذى ينتجه ويصدره للعالم بأسره. كذلك كانت زمن الفراعنة ثم فى العصرين اليونانى والرومانى، وكذلك فى بداية العصر الإسلامى حتى اكتشف استعمال الورق العادى. وإذا كان من المعتقد أن صناعة وتجارة البردى فى العصرين

الفرعونى والبطلمى كان احتكاراً للدولة فإن سياسة الرومان فى تشجيع النشاط الاقتصادى الحر قد سمح لكثير من الإسكندريين استثمار أموالهم فى هذه الصناعة المربحة. ويذكر استرابون أن فئة من المتحكمين فى صناعة البردى كانوا يتبعون الوسائل غير الشريفة للإثراء، وذلك عن طريق استغلال جزء فقط مما تنتجه مزارع البردى حتى يؤدى قلة المعروض من السلعة فى السوق إلى ارتفاع أسعارها. وقد أثبتت بعض الوثائق البردية أن أثرياء الإسكندرية الذين عملوا فى صناعة البردى كانوا يمارسون مثل تلك السياسة. أما الصناعة الثالثة التى وردت فى خطاب هادريان وهى النسيج فمما لا شك فيه أن منسوجات الإسكندرية كانت من أكبر مواد التصدير وخاصة الكتان حتى فى نهاية القرن الثالث بعد الاضطرابات الشديدة التى شملت الإمبراطورية وحدث التضخم المالى. وحين لجأ كثير من التجار إلى التلاعب بالأسعار وتقاضى الأثمان الخيالية عند نقل البضائع من بلد إلى بلد أصدر الإمبراطور دقلديانوس قائمة بتحديد أسعار السلع الأساسية فى أنحاء الامبراطورية منعا للتلاعب وفى هذه القائمة نجد أنواع الكتان الإسكندرى مذكورة أكثر من مرة مما يدل على أنها كانت من سلع التصدير الهامة.

هذه هى أهم الصناعات التى اشتهرت بها الإسكندرية وقد وجدت إلى جانب ذلك كثير من الصناعات الأخرى الصغيرة مثل صناعات الحلى والعطور والصناعات الدقيقة من أعمال العاج وغيره مما كان تستورد خاماته من أفريقيا وآسيا وتصنع فى الإسكندرية ثم يعاد تصديرها إلى روما بعد ذلك بأغلى الأثمان.

هذه الصناعات الهائلة التى قامت فى الإسكندرية كانت بمثابة المحرك لتجارة الإسكندرية التى شملت العالم القديم بأسره حتى غدت كما يقول استربوان «أكبر سوق تجارى فى العالم». هذه السوق كانت ملتقى التجار من كل أمم الأرض يعقدون فيها صفقاتهم ويتبادلون بضائعهم.

ولقد مكنت ظروف الإمبراطورية التى سادت فى القرنين الأولين والتى نتج عنها توحيد العالم وانعدام الحروب أن ازدهرت التجارة كما لم تزدهر من قبل.

وكان موقع الإسكندرية فريدا في الطريق بين الشرق والغرب فهى تشرف على البحر الأبيض المتوسط من ناحية وتصلها بالبحر الأحمر سلسلة متقنة من القنوات بين فروع دلتا النيل من ناحية أخرى، بحيث كانت السفن تسير من البحر الأحمر إلى الإسكندرية مباشرة. ولقد استطاع الإسكندريون استخدام أساطيلهم البحرية فى البحرين الأبيض والأحمر على خير وجه، ففى البحر الأبيض كان لهم أول أسطول تجارى وكانت الإسكندرية مركز اتصال بجميع موانىء هذا البحر. وقد ورد فى مرسوم دقلديانوس الخاص بتحديد الأسعار الذى سبقت الإشارة إليه قائمة بخطوط المواصلات المختلفة بين الإسكندرية وأهم موانىء البحر الأبيض المتوسط التى انتشرت على جميع سواحله فى الشرق والغرب. أما فى البحر الأحمر فقد احتكرت الإسكندرية التجارة الشرقية التى وصلت الى الهند احتكاراً تاماً.

الحياة الثقافية

كانت الإسكندرية فى العصر البطلمى أشهر مركز فى العالم فى مجال الأدب والعلم، قصدها كثير من العلماء والدارسين إما لينضموا إلى هيئة علماء المكتبة ودار الحكمة (المتحف) أو ليغترفوا من معين هؤلاء العلماء. وقد تركت مدرسة الإسكندرية الأدبية أثرها على مراكز الأدب اليونانى الأخرى حتى فى بلاد اليونان نفسها ثم تعدى تأثيرها العالم اليونانى إلى روما، فظهر هناك أدباء وشعراء لاتينيون متأثرون باتجاهات

الأدب السكندرى ويحاكون نماذجه كما يحاكى بعض أدبائنا الآن نماذج الأدب الأوروبى. ومن الغريب أن هذا التأثير على روما بلغ ذروته فى عصر كليوباترا أى فى الفترة التى تم فى نهايتها ضم مصر إلى الإمبراطورية الرومانية، حتى من أراد من أدباء روما أن يخرج على قوالب الأدب السكندرى كان يفعل ذلك بقصد الثورة على سيطرة هذا الأدب على عقول الأدباء الرومان.

لم يكن مستغربا إذن أن يحتضن الرومان مؤسسات الثقافة والعلم فى الإسكندرية بعد الفتح، فبقيت المكتبة ودار الحكمة تلقيان التشجيع والتأييد من الأباطرة وتبذل لعلمائها العطاءات والامتيازات المختلفة كإعفاء من الضرائب وتناول الطعام من دار الحكمة دون مقابل.

يجب أن نذكر أن دار الحكمة هذه كانت بمثابة أكاديمية للبحث وليست جامعة للتدريس، إلا أن بها قاعات يجتمعون فيها ويتباحثون فيها. ونحن نعرف أن الإمبراطور هادريان زار علماء دار الحكمة وشهد بعض ندواتهم واشترك فى مناقشتهم، وبمناسبة زياراته زاد عدد علمائها بتعيين كثير من الأساتذة والفلاسفة ومنهم من كان من الفلاسفة المتجولين الذين لا يقيمون فى الإسكندرية فكانوا أشبه بأعضاء مراسلين لدار الحكمة كما نقول الآن.

وجدت إلى جوار دار الحكمة والمكتبة مدارس وقاعات للمحاضرة يدرس ويحاضر بها من شاء من هؤلاء العلماء أو غيرهم. وكانت هذه المدارس والقاعات تكون ما يمكن أن يسمى بجامعة الإسكندرية كما نفهم الآن معنى الجامعة وكان يقصد هذه المدارس كثير من الطلاب من الإسكندرية وخارجها. والحياة الجامعية بها أشبه بالحياة فى المدن الجامعية الكبرى الآن التى يقصدها الطلاب من جميع الأنحاء. هذه الحياة الجامعية تكشفها لنا بردية من القرن الثانى الميلادى تحتوى على خطاب طريف من طالب يدرس فى الإسكندرية إلى والده فى البهنسا. والخطاب ملىء بالتفاصيل الطريفة التى تلقى ضوءا على طريق التعليم وعلى حياة الطلبة الخاصة حينئذ. واسم الطالب نيلوس ويبدو أنه من أسرة ريفية ذات يسار فهو يذكر في صدر خطابه أنه هشم عربة الأسرة أثناء سباق للعربات اشترك فيه فى المدينة. وهذه الرياضة كانت شائعة بين الطبقة الارستقراطية فى ذلك الحين. بعد ذلك يعرج على الجانب الأكاديمى فينعى قلة هيئة التدريس من ناحية وانخفاض مستوى الاساتذة من ناحية أخرى، وكذلك ارتفاع المصاريف الجامعية. ويعلق على هذه الحالة بقوله: «إلى جانب دفع مصاريف باهظة دون جدوى فليست هناك فائدة ترتجى من المدرس ولهذا فإننى أعول الاعتماد على نفسى. «ثم يدلى برأيه فى مدرس يدعى ديدموس قائلا: » «وعلى أية حال فليس جميع المدرسين على هذه الشاكلة بل هناك طائفة من أمثال بوسيدونيوس يرى صاحبنا الطالب أنه يستفيد من الاستماع إلى محاضراتهم.

هذه الصورة الحية التى يرسمها لنا هذا الطالب عن الحياة الجامعية فى الإسكندرية لها طرافتها وقيمتها، ولكن يجب ألا نتشاءم ونصدق كل ما ذكره خاصا بالأساتذة ومستوى التعليم. فنحن نعرف شكوى الطلبة من الأساتذة وهى وإن صدقت أحيانا يجب ألا تؤخذ على إطلاقها فقد بقيت الجامعة فى الإسكندرية بخير واستمرت تسهم فى مجال الحضارة والعلم الإنسانى طوال تاريخها القديم، رغم أن نوع الإنتاج الفكرى الذى امتازت به الإسكندرية فى العصر الرومانى اختلف عن الطابع الذى تميزت به فى العصر البطلمى. فقد اشتهرت إسكندرية البطالمة بالأدب ودراساته وكذلك بالبحث العلمى الذى أثر أحيانا على الإنتاج الأدبى. وقد رأينا من بين من نبغ فى الإسكندرية عددا من كبار الشعراء أمثال كاليماخوس وثيوكريتوس وكذلك عدداً من كبار العلماء أمثال إقليدس وايراتوستثيس وارشميدس ـ أما إسكندرية العصر الرومانى فلم تحافظ على

تفوقها الأدبى ويبدو أن عدم وجود القصر الملكى البطلمى فى الإسكندرية أفقد الشعراء التشجيع الكافى لبعث إلهامهم. أما فى مجال العلم فقد حافظت الإسكندرية على حمل مشعل التقدم فيه. وأشهر علماء هذه الفترة من غير منازع هو بطليموس الجغرافى الذى اشتهر كثيرا بين العرب فيما بعد وهو من أبناء مصر فى القرن الثانى الميلادى، ويعتبر قمة فى علم الجغرافيا القديمة متميزا على سابقيه من أمثال «استرابون» وذلك لأنه لم يكن مثلهم جغرافيا فحسب بل رياضيا مجددا إلى جانب كونه فلكيا وعالما طبيعيا. وبهذا القدر العظيم من العلم تصدى بطليموس لمشكلة أعجزت القدماء وهى دراسة الجغرافيا على أساس رياضى فلكى وعمل خريطة للعالم وضح عليها الأماكن فى كل بلد بنسبة أبعادها الصحيحة، هذا العمل العظيم أنجزه بطليموس الذى قفز بعلم الجغرافيا قفزة كبرى فى الاتجاه الصحيح، كما أن أخطاءه ذاتها لها قيمتها، لأنها أصبحت فيما بعد بمثابة نقط ارتكاز لتصحيح معلوماتنا الجغرافية، وأصبح عمله كله خير ممهد لعلم الجغرافيا الحديثة. إلى جانب الأبحاث العلمية شاركت الإسكندرية تحت الحكم الرومانى فى التراث الإنسانى بجهد آخر وهو الفلسفة التى تأخر ظهورها فى الإسكندرية إلى نهاية العصر البطلمى.

وأول فيلسوف متميز لمدرسة الإسكندرية هو فيلون اليهودى الذى عاش فى القرن الأول الميلادى. وكان من الطبيعى أن يتصدى لهذا الموقف حينئذ لأن اليهود كانوا الفئة الوحيدة التى تدين بالتوحيد وكانت الدعوة الجديدة بدعوتها إلى التوحيد قد واجهت الموسوية بتحد خطير، كما أن الفلسفة اليونانية كانت تسلب الموسوية أحيانا بعض أبنائها، فقام فيلون بمحاولة تسويغ دينه للعقل الجديد مستعينا بالفلسفة اليونانية على شرح الموسوية. فيبدأ بموقف دينى ثم يتطرق منه إلى الدليل الفلسفى على صدق الدعوة الدينية.

هذا الاتجاه الجديد كان خطيرا جدا على التفكير الفلسفى فيما بعد وسيصبح لمنهجه تأثير كبير على التفكير الفلسفى والدينى فى العصور الوسطى الإسلامية والمسيحية حين يشغل المفكرون أنفسهم بإثبات قضايا الدين عن طريق الفلسفة.

أما الفيلسوف الكبير الآخر الذى تخرج فى الإسكندرية ويعتبر زعيم الافلاطونية الحديثة فهو أفلوطين من أبناء صعيد مصر فى القرن الثالث الميلادى وكانت الوثنية قد بدأت تضعف شوكتها أمام الاتجاه المسيحى الجديد، ولهذا تصدى أفلوطين لحل المشكلة عن طريق الفلسفة مبتدئا هذه المرة بالفلسفة ومنتهيا بالفكرة الإلهية. ولقد حرص أفلوطين على استكمال ثقافته الفلسفية، والتحق بجيش رومانى كان ذاهبا إلى الشرق كى يستطيع أن يلم بحكمة الهند وفارس. ولكنه بعد موت الإمبراطور قائد الحملة عاد مسرعا إلى إنطاكية ومنها إلى روما حيث قضى بقية حياته يحاضر هناك. وكان لما عرف عنه من عفة ونقاء وسلوك تصوفى أثر كبير على أتباعه ومريديه من جميع الطبقات.

لم يكن غريبا إذن أن تجمع فلسفة أفلاطون بين الفلسفة اليونانية والفكر الشرقى فهو يعتمد أساسا على فلسفة أفلاطون والفيثاغورية الجديدة إلى جانب الأخذ بنظرية الفيض الإلهى الشرقية. ومجمل نظريته تدعو إلى وجود عالمين عالم الحس وعالم العقل المجرد ويتوقف علينا أن نتجه بأفكارنا نحو أى العالمين. وعالم العقل المجرد هو الأسمى وينبغى أن يتجه نحوه كل إنسان عاقل. وبقدر ما نتجرد من التعلق بأسباب الدنيا والانطلاق نحو التأمل الفكرى ونقترب من الهدف، وبقدر ما نرتفع فى هذا العالم نزداد اقترابا من الخير المطلق حتى تتم عودة النفس إلى المبدأ الأول والاتحاد بالله.

الإسكندرية والفن
فى العصرين اليونانى والرومانى

أ. د. فوزى الفخرانى

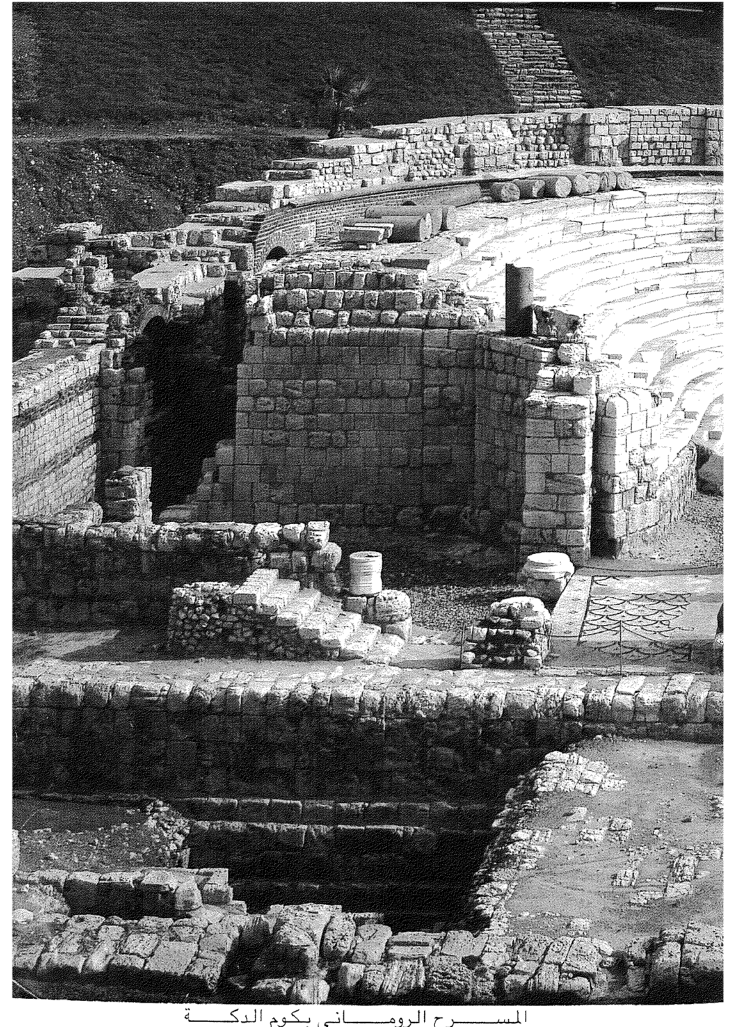
احتلت الإسكندرية كما ذكر ديودور الصقلى فى عصر البطالمة مكان الصدارة بين عواصم العالم القديم بفضل ما قدمت للمدنية من أياد بيضاء فى مختلف ضروب الحضارة من علم وطب وفلسفة وأدب وبفضل ما قام بين أرجائها من مبان وآثار أضحت مثل منارتها وجامعتها حديث الزمان، ولما كانت الحضارة فى البلد الواحد فى أى عصر من العصور وحدة بكامل ألوانها وفروعها يدوى صوتها فى ثمارها الأدبية وتبرز صورها فى انتاجها الفنى الذى ينعكس على ملامحه حياة المجتمع بما يحتوى من أجناس وما يمارس من حياة فيها البؤس والنعمى وفيها الازدهار والذبول. وإن كان للإسكندرية أن تزهو بما خلفت فى حقل العلم والفلسفة فإنه يحق لها أن تفخر أيضا بما أدت للفن من خدمات. وإذا كان الأدب السكندرى قد تخطى حدود موطنه ليترك أثره فيما بعد فى كتابة فطاحل أدباء اللاتين أمثال فرجيل وهوارس وغيرهما فان الفن السكندرى قد تغلغل ببعض أبوابه ونفذ أثره عميقا فى غيره من الفنون اللاحقة.

ولكن لكى نفهم معالم مدرسة الإسكندرية الفنية يجب علينا أولا أن ندرك أن دعامة كل فن ومقوماته ترتكز على البيئة التى خلفته والتى تستسيغه. وهى فى الإسكندرية أغلب ما تكون يونانية، فالإسكندرية في العصر اليونانى الرومانى لم تكن كما هى الآن جزءاً من مصر بل كانت على تعبير اللاتين Alexandread ad Aegyptum أى «الإسكندرية المجاورة لمصر «فلم تكن حضارتها أو نظمها فى ذلك العصر جزءا مماثلا لحضارة بقية بلدان القطر ولكن كانت على العكس أقرب ما تكون لحضارة دول البحر المتوسط والممالك الهلنيستية الأخرى عنها الى حضارة مصر نفسها حتى أن ملوك البطالمة سلكوا فى نظرتهم للمدينة مسلكا يخالف نظرتهم إلى بقية بلدان القطر. فكانت أغلب معابدهم ومبانيهم فيها على الطراز اليونانى بينما أسبغوا على مسلكهم فى بقية أجزاء القطر صبغة الفراعنة. وظهرت لذلك صورهم خارج الإسكندرية تحمل الطابع الفرعونى كما أن معابدهم فى ادفو وكوم أمبو ودندرة وغيرها من بلدان القطر قد بنيت على نمط ذلك الطراز المصرى القديم.

ظهرت بادرة هذه الصبغة اليونانية فى الإسكندرية منذ مقدم الإسكندر الأكبر إذ جاء تخطيط هذه المدينة على الطراز اليونانى ولقد صحب غزو هذا القائد المظفر لمصر وفود الكثير من اليونانيين إلى مدينة الإسكندرية تم استيطانهم بها وزادت اعدادهم بسيطرة البطالمة على دفة الأمور فى البلاد إذ عمل ملوك هذه الأسرة على استمالة الكثير من اليونانيين وتيسير قدومهم إلى البلاد كما اجتذبوا العلماء والأدباء والفنانين إلى مصر من مختلف بقاع العالم اليونانى. بل أن ملوك البطالمة لم يكتفوا بذلك بل شجعوا الوافدين على مصر على البقاء فى البلاد. فليس غريبا أذن أن يحمل الفن فى الإسكندرية طابعه اليونانى وإن كان قد احتضن فى بعض انتاجه الكثير من عناصر فن الفراعنة الامجاد، فن البلاد الأصلى.

ولقد وجد الفن فى الإسكندرية أرضا خصبة لما ناله من تشجيع وتقدير سكانها، ولقد أفصح شعراء الإسكندرية أبان حكم البطالمة عن تقدير السكان للقيم الفنية بما جاء فى كتاباتهم من وصف ونقد للعديد من الآثار والقطع الفنيةوكما ورد فى احدى ابجراميات (قصائد) ليونيداس التى يصف فيها تحفة فنيه من عمل الرسام أبيلس Apelles أو تلك التى أوحت إليه بها رؤيته لتمثال اناكريون أو قصيدة هيروندااس الرابعة التى يصف فيها التماثيل واللوحات الموجودة فى محراب الآله اسكلييوس وما إلى ذلك.





المسـرح الرومـانى بكوم الدكـة

لم يقتصر هذا التقدير على الشعب وحده بل تعداه إلى حكام البلاد من ملوك البطالمة إذ لم يكتف هؤلاء بما جلبوه من آثار وتحف فنيه من إنتاج المدارس الهلينستية الأخرى بل أنهم كلفوا بعض مشاهير فنانى عصرهم بعمل التماثيل لهم ولآلهتهم. فطلبوا من المثالين كيفيسودوتوس وتيمارخوس ابنى الفنان براكسيتليس بصنع تماثيل لهم فى جزيرة كوس كما عهدوا للمثال الاثينى براياكيس بعمل تماثيل للآله سيرابيس. ولدينا نقش من القرن الثانى ق. م. يشير إلى أن ثيون الانطاكى ودمتريوس الرودسى قد عملا فى الإسكندرية تمثالا لأحد الفرسان.

ولكن أهم أيادى البطالمة البيضاء على نشأة الإسكندرية الفنية وتطورها هو تشجيعهم للكثير من الفنانين اليونانيين ـ وهم دعامة الفن فى الإسكندرية ومنتجوه ـ على النزوح إلى الإسكندرية وتيسير سبل العيش لهم بها. وكان أهم من استعان بهم البطالمة هم فنانو مقاطعة اتيكا لما كان بين هذه المقاطعة ومصر من صلات قوية وتضامن أمام مقدونيا العدو المشترك أو لما كان من اضطهاد دمتريوس الفاليرى حاكم أيتكا للفنانين فى مقاطعته حينما حرم تزيين المقابر بالرسوم والنحت فاضطر هؤلاء الفنانون إلى مغادرة البلاد طلبا للرزق وبحثا عن العمل ووجدوا فى البطالمة صدرا يرحب بهم كما وجدوا فى الإسكندرية مجالا للعمل الذى يرضى هوايتهم وللرزق الذى يفيض عليهم.

وفد هؤلاء الفنانون على البلاد مزودين بما تعلموه فى بلادهم على يد أساتذه الفن فى بلاد اليونان فى القرن الرابع ق.م. أمثال براكسيتيليس وسكوباس وليسبوس وبراسوس وابليس Apelles وغيرهم ـ ومثقفين بما شاهدوه من التراث الفنى للقرون السابقة فى بلادهم وفى موطن الفراعنة وما لمسوه من تراث الفن فى العصر الهلينستى سواء كان ذلك فى مدائن مصر والإسكندرية أو فى الدول والبلدان الأخرى كما لمسوا عن قرب عظمة الفن الفرعونى الذى عاشوا فى كنفه وأن كانوا لم يحاولوا فى انتاجهم منافسته من حيث ضخامة التماثيل اللهم إلا فى الأحوال النادرة.

ومنذ بدأت مدرسة الإسكندرية عملها وضحت اتجاهاتها وبرزت معالمها بشكل ميزها عن غيرها من مدارس الفن المختلفة الشهيرة فى العصر الهلينستى مثل مدرسة برجامة أو مدرسة أنطاكية أو مدرسة رودس فظهرت الإسكندرية بشخصيتها فى كل النواحى التى تتحكم فى العمل الفنى سواء كان ذلك فى المادة المستعملة التى يصنع فيها أو منها العمل الفنى أو فى الطريقة أو الطراز المستخدم لتنفيذ ذلك العمل الفنى أو فى الموضوعات التى عبر عنها والتى صورها فى إنتاجه.

ولما كانت التماثيل فى اليونان تصنع عادة من الرخام أو البرونز أو الحجر الجيرى لهذا كان طبيعيا أن يفتقد فنانو اليونان النازحون إلى الإسكندرية ومصر الرخام لعدم وجود محاجر له فى البلاد فانعكست هذه الظاهرة جليا فى انتاجهم من هذه المادة وذلك لأن الرخام كان يستورد بتكاليف باهظة وكانت تحوط نقله صعاب كثيرة فكان ذلك واعزا آخر لفنانى الإسكندرية لأن يتجهوا بانتاجهم إلى عمل تماثيل من الحجم الصغير من الرخام. مثل مجموعة تماثيل أفروديت الرخامية بمتحف الإسكندرية.

ولما كان المصيص معروفا لدى فنانى الفراعنة الذين استخدموه فى عمل التماثيل فقد لجأ فنانو الإسكندرية إلى استعمال نفس المادة فى صناعة بعض التماثيل فى العصر اليونانى الرومانى كما يرى فى المجموعات المحفوظة بمتحف القاهرة. ولقد لجأ فنانو الإسكندرية فى كثير من الأحيان إلى استخدام الرخام فى بعض الأجزاء وتكملة التمثال بالمصيص مستغلين مرونته وليونته وسهولة صناعته وبخاصة عند تشكيل شعر الرأس واللحية. وكان المصيص يمزج أحيانا بمسحوق الرخام المتبقى من عمليات النحت فيكسب الشعر واللحية لمعانا كالرخام عند صقله. وكانت صياغة هذه الأجزاء من الرأس من هذا المزيج تجنبهم ما قد يسببه

استعمال الازميل في الرخام من كسر التحفة الفنية أو تشويه التمثال. ولدينا مثلا لذلك رأس تمثال للآله أسكليبيوس بمتحف إسكندرية.

ولقد استخدم الفنانون الجص فى عمل قوالب للتماثيل الصغيرة التى تعرف باسم التناجرا وفى عمل تماثيل الكاريكاتور أو المشوهين من الطين المحروق (التراكوتا) وكذلك فى عمل نسخ الرسومات البارزة التى كانت تحلى المسارح المصنوعة من الطين المحروق وكذلك لعمل الزخارف البارزة على الأوانى الهلينستية التى كانت من أهم صادرات الإسكندرية فى ذلك العصر أو الزخارف التى كانت تحلى المرايا والأوانى الفضية والمعدنية والتى كادت الإسكندرية أن تكون مركز انتاجها الوحيد ومصدر تصديرها الهام فى ذلك العصر، وكذلك استخدمت القوالب فى عمل الزخارف البارزة للوحات Plaques التى كانت تعلق على الحيطان. ولقد ساعد استعمال السكندريين لقوالب المصيص ونسخها على نشر نفوذ الإسكندرية الفنى حتى حدود الهند مما ترك أثره في إنتاج الفن البوذى فى مدينة جاندارا ومدينة تاكسيلا بالباكستان.

أما الفضل فى إنتاج هذه التماثيل المصغرة والسلع المزخرفة فى كميات كبيرة بهذا الشكل فمرجعه قبل كل شيء إلى المنافسة الشديدة التى سادت بين ملوك البطالمة وغيرهم من ملوك دول العصر الهلينستى كما أن حالة الرخاء الشعبى زادت من الحاجة إلى الإنتاج السريع للتماثيل والقطع الفنية بأقل التكاليف ليتيسر للناس تزيين منازلهم وليأنس موتاهم فى مقابرهم.

ولما كان استعمال الألوان لازما لفن النحت الفرعونى. لهذا انتقلت هذه العادة إلى النحت السكندرى فاستعملت الألوان حتي على الرخام كما نرى آثارها فى رأس الطفلة الموجودة بمتحف كلية الآداب بالإسكندرية وكما ترى فى كثير من تماثيل مجموعة التناجرا التى لاتزال تحتفظ بألوانها الزاهية رغم مر العصور. لم يمنع ذلك كله الفنان السكندرى من أن يفكر في استخدام المواد الصلبة المتوفرة فى مصر والتى طالما نحت الفراعنة منها تماثيلهم وبنوا منها مبانيهم الضخمة ومن هذه المواد البازلت وحجر الجرانيت بألوانه المختلفة حتى لنرى مثالى الإسكندرية ينحتون من البازلت مثلا بعض تماثيل ملوك البطالمة وملكاتهم. ولدينا من البازلت رأس تمثال لبطليموس الثالث فى متحف نى كالسبرج جليبتوتيك بكوبنهاجن وتمثال للملكة ارسينوى زوجة بطليموس الثانى فى متحف الفاتيكان بروما. وكثيرا ما اختير الحجر ذو اللون المناسب للموضوع الملائم فاستخدام البازلت مثلا لتصوير الزنوج أو تصوير الآله سيرابيس آله العالم الآخر، واستعمل حجر البورفير المصرى بسبب لونه الأحمر فى تصوير الساتير وهو مخمور (إنسان خرافى من أتباع الآله ديونيزوس له قرون الجدى وأرجله). وفى متحف الإسكندرية تمثال ضخم (بدون رأس) لشخص جالس مصنوع من البورفير ربما كان للامبراطور دقلديانوس وقد ظن فى وقت ما أنه يمثل المسيح، وكذلك غطاء تابوت من نفس الحجر بالمتحف ولقد استخدم حجر الجرانيت الأحمر والبازلت فى عمل كثير من الأعمدة علي الطراز الكورنثى كتلك الموجودة بالمتحف السكندرى. من هذا يتضح أن الفنان السكندرى دون غيره من فنانى العصر الهيلنستى قد استخدم أيضا الاحجار المصرية الصلبة فى عمل بعض تماثيله أو مبانيه على الطراز اليونانى والرومانى وهو مالم يتوفر لأى مدرسة هيلينستية أخرى.

وإلى جانب ذلك استخدم الفنان السكندرى المعادن المختلفة والاحجار الكريمة لعمل تماثيله أو لعمل الزخارف البارزة. ولدينا فى المتحف السكندرى تمثال من الفضة يمثل الآله أفروديت ـ فينوس عارية كما أن هناك تماثيل من العاج والذهب لوالدى بطليموس فيلادلفوس وأخرى من حجر التوباز للملكة ارسينوى.

ولقد استعمل فنانو الإسكندرية فى عمل الرسومات والزخارف البارزة أحيانا طريقة فناني مصر القدامى. وهى الطريقة الفرعونية فى النحت البارز كما نرى فى بعض شواهد المقابر التى ترجع إلى العصر اليونانى

والرومانى هذا إلى جانب الطريقة العادية المستعملة فى النحت البارز عند اليونان. والطريقة الفرعونية هذه تخالف الطريقة اليونانية فى أن الأشخاص والأشياء المنحوتة لا تبرز عن خلفية الصورة بل تكون فى مستواها فى أعلا أجزائها بينما تحتم الطريقة اليونانية عكس ذلك فتبدو جميع الأشياء والأفراد المصورة بارزة عن مستوى الخلفية بدرجات متفاوتة.

أما عن الطراز فى النحت فلقد ظهر جليا تأثر مدرسة الإسكندرية بفنانى القرن الرابع ق. م. من اليونانيين أمثال براكسيتليس وسكوباس وليسبوس وبراياكيسس وإن كانت الوجوه المنحوتة بأيدى فنانى الإسكندرية تبدو فى الغالب طويلة وبدينة والعينان فى منتصف الوجه تقريباً، ولكن رغم ذلك كله فلقد امتازت مدرسة الإسكندرية فى النحت بخاصيتين اتفق العلماء على استخدام اللفظين الإيطاليين موربيديتسا (Morbidezza) وسفوماتو (Sfumato) للتعبير عنهما.

وترى الخاصية الأولى واضحة فى رأس السيدة المحفوظة فى متحف الإسكندرية بما فيها من رقة التعبير وصقل للسطح أما الخاصية الثانية التى يحويها معنى اللفظ الثانى بما فيه من إشارة إلى أن الأجزاء البارزة من الرأس كعظام الخدين والعينين والجفون غير مؤكدة وكأننا نرى الرأس من خلال لوح معتم من الزجاج فتظهر جلية فى رأس الإسكندر الأكبرالتى اكتشفت فى أبى قير والمحفوظة الآن بمتحف الإسكندرية.

ولقد امتازت أيضا أعمال الفنان براكسيتليس من قبل بكلتا الخاصيتين إلا أن مدرسة الإسكندرية قد بالغت فى تصويرهما مما أصبغ على هذه المدرسة صبغة الطراز التخيلى (Illusionist Style).

لم يقتصر تأثير مدرسة براكستيليس على الوجه فقط بل تعداه إلى الوقفة والرداء فنرى التمثال متكئا على رجل واحدة بينما تبدو الرجل الثانية مثنية قليلاً عند الركبة وهذا واضح فى كثير من تماثيل مجموعة التناجرا المحفوظة بالمتحف السكندرى.

ولعل رأس الشاب الموجودة بمتحف الإسكندرية بما فيها من وقار واتقان وعينين غائرتين وحركة الفم تكشف عن مدى الأثر الذى تركته مدرسة المثال سكوباس على فن الإسكندرية.

أما تأثير ليسبوس فنان الإسكندر الأكبر فيبدو واضحاً فى عملة البطالمة التى صوروا عليها الإسكندر كما أن تمثال الإسكندر الأكبر الذى اكتشف فى أبى قير دليل على أثر ذلك الفنان على فن الإسكندرية.

وتشير رأس الإله أسكليبيوس المحفوظة بمحتف الإسكندرية إلى مدى تأثير التماثيل التى عملها الفنان برایاكسيس للإله سيرابيس.

إلى جانب هذا التقليد للمثالين الشهيرين من فنانى القرن الرابع ق. م. فى بلاد اليونان نجد أن مدرسة الإسكندرية امتازت وحدها دون مدارس العصر الهيلنيستى بامتزاج الطرازين اليونانى والفرعونى فمثلا صورت الألهة ايزيس بملامح يونانية ولا تلبس على رأسها غطاء رأس فرعونى ونجد مثلا فى متحف اللوفر بباريس حفرا على حجرين كريمين يصور احدهما بطليموس الرابع وصدره بالكامل من الامام (de face) بينما صورت رأسه من الجانب (en profile) على الطريقة الفرعونية التى كانت مستعملة منذ الدولة القديمة. وهو الطراز الفنى السائد للنقش فى مصر الفراعنة وظهر الملك نفسه فى القطعة الأخرى منظورا من الجانب صدرا ووجها على طريقة الفن اليونانى منذ العصر الكلاسيكى. ولقد ازداد هذا الامتزاج بين(en profile) الفن الفرعونى واليونانى والرومانى على مر الزمان كما نرى فى تمثالى الرجل والمرأة صاحبى المقبرة الرئيسية فى جبانة كوم الشقافة. فالوقفة فرعونية بينما نجد خصائص الشعر ومعالم الوجه والعينين والرداء كلها من الطراز الرومانى كما نجد على حائط المدخل في الداخل نحتا بارزا للآلهة الفرعونية برءوس الحيوانات منحوتة فى الصخر وهى ترتدى الملابس العسكرية الرومانية.

وكما أن الأدب السكندرى تلمس في البدء طريقه فيما قلد من كتابات الأدباء السابقين أمثال هوميروس وسيمونيدس وغيرهما، كذلك قلد الفن السكندرى فى كثير من انتاجه أعمال مشاهير فنانى القرن الرابع ق. م. من اليونانيين وكذلك أعمال فنانى مصر القديمة ولقد أدت هذه النظرة إلى نتاج العصور السالفة بالفنانين إلى تقليد فن اليونان من العصر الاركى (القديم) أى فن القرن السادس ق.م. فنتج ما يعرف بالفن الركايستى. ولقد اتسم عصر البطالمة بالنظرة العلمية الإكاديمية فيما أجرى فى دار الحكمة والمكتبة من دراسات وبحوث واستقصاء قام بها العلماء والأدباء وكان لهذه الدراسات دوى فيما خلفه ذلك العصر من آثار كما نرى فى المبنى الذى وهبه بطليموس الرابع لهوميروس ـ كما أخبرنا اريان ـ والذى وضع فيه تمثال للشاعر الكبير وللمدينة التى تفخر بميلاده وجاء كذلك تمثال هوميروس هذا دراسة صادقة لما تخيله الفنان السكندرى للكاتب الضرير الذى لم يره قط.

ولقد كانت هذه الدراسات تعبيرا صادقا عن نظرة العصر فكما عمل تمثال لهوميروس كذلك صنعت تماثيل أخرى لغيره من الكتاب والادباء الذين عاشوا فى القرون السالفة لتزيين دار الحكمة والمكتبات. ولم تقتصر هذه النظرة على دراسة الشخصيات فحسب بل أدت بالخيال إلى دراسة الموضوعات والتكوينات فظهر لنا تمثال النيل المحفوظ بالفاتيكان أو ذلك التمثال المصغر لنفس الآله أو زوجته المحفوظ بمتحف إسكندرية وظهرت لنا مثل هذه الأعمال كدراسات لعب فيها الخيال والذوق والثقافة والدين دورا كبيرا فكانت تعبيرا صادقا عن موضوع الحياة فى وادى النيل ولم تكن مجرد تصوير رمزى لشخصية من الشخصيات أو آله من الآلهة. كذلك تبدو هذه النظرة العلمية فى تصوير الفنان السكندرى لمدينة الإسكندرية كما تخيلها وكما يرى فى المزايكو (الفسيفساء) المحفوظ بمتحف المدينة إذ تبدو مدينة الإسكندرية فى شكل امرأة تلبس تاجا كالحصون.

ولقد كانت لهذه النظرة العلمية تأثيرها على الفنان السكندرى فيما عمل من دراسات للموضوعات ولأجزاء الجسم البشرى مثلا مستعينا فى ذلك بثقافة واسعة وفهم لتكوين الجسم بفضل ما تعلمه من علم التشريح الذى مارسه الأطباء فى الإسكندرية منذ عهد البطالمة الأول أمثال هيروفيلوس وايراسزتراتوس. فظهرت دراسات لاجزاء الجسم البشرى تحمل بعض المبالغة أحيانا فى تصوير العضلات، قدمت مثل هذه الأعمال قربانا للآلهة كشكر على انتهاء الرحلة بسلام أو تعبير عن الشكر على خيرات وترى أمثلة لهذه الدراسات فى اليد التى تقذف الكرة أو القدم التى تلبس الصندل الموجودتين بالمتحف.، وفيها نلمس براعة الفنان السكندرى فى اظهار الفرق بين جلد القدم وجلد الحذاء وكذلك تتمثل هذه الدراسات أيضا فى تصوير الحيوان كالضفدع المنحوتة أيضا من الرخام.

ولقد دفعت هذه الدراسات الفنان السكندرى لملاحظة التباين والاختلاف فى الملامح لدى سكان الإسكندرية على اختلاف أجناسهم، خاصة بعد أن وفد على البلاد الكثير من الزنوج والأقزام نتيجة لغزو الملك بطليموس الثانى لأثيوبيا، فصور الفنان لنا النوبى والزنجى والقزم وغيرهم بماتباين فيهم من ملامح وما اختلف من ألوان مستخدما فى تلك المادة المناسبة.

وإلى جانب ذلك كله امتازت مدرسة الإسكندرية كغيرها من المدارس الهلينستية الأخرى بالتصوير الشخصى لملوك البطالمة وملكاتهم فى النحت والعملة. ولقد كان لاهتمام مدرسة الإسكندرية وغيرها من مدارس العصر الهيلنستى بالتصوير الشخصى أثره الكبير على الفن الرومانى حتى بلغ ذلك النوع من النحت أوجه فى عصر الأمبراطورية الرومانية.

لم تقتصر الإسكندرية على إنتاج ذلك الفن الرسمى بل كان هناك ايضا فن شعبى يهدف إلى تصوير

البيئة والمجتمع السكندرى بطبقاته وأجناسه المختلفة. ولقد كان لهذه الخطوة الجريئة التى خطتها مدرسة الإسكندرية كبير الآثر على نظرية الفن ورسالته ليس فقط فى عصر البطالمة بل وفيما تلاه من عصور إذ أصبح الفن للفن بعد أن كان عند اليونان ومصر يخدم أغراضا أخرى معينة كما كانت الحال مثلا بالنسبة لأعمال الفنان اليونانى الكبير فيدياس الذى قيل عنه بأنه أضاف للدين اليونانى بما صنع من تماثيل ولكن فى العصر الهلينستى وخاصة فى الإسكندرية اختلف الوضع إذ اختلط اليونانيون بشعوب أخرى لها ديانتها فقل بذلك الواعز الدينى وانعدمت الثقة فى الآلهة القدامى وأصبح الناس مولعين بالفلسفة وكان ذلك راجعا أيضا للرخاء وحياة الترف والمجون التى عاش فيها الناس ونتيجة لتأليه البشر كما تبدو فى عبادة الناس للملوك البطالمة وملكاتهم وكما خرج الأدب بعيدا عن تأثير الدين ليصور ما يدور بين الناس وما يجرى فى الطرقات كما نرى فى قصائد ثيوكريت أو هيرونداس، كذلك اتجه الفنان بعمله ليتخذ موضوعاته من صميم الحياة ليستمتع الناس وليرضى احساسه بالجمال فظهر لنا لأول مرة الفن الشعبى فن الشارع وفن الواقع ذلك الفن الانطباعى الذى يعبر فيه الفنان عما يراه وما يحس فتوجه الفنان السكندرى إلى دراسة الأفراد على اختلاف طبقاتهم وظروفهم وأعمارهم ومراكزهم الاجتماعية وحتى درجاتهم العقلية والخلقية فصور لنا لأول مرة أطفال البشر لا أطفال الآلهة، فأصبح الأطفال فى فن الإسكندرية يصورون فرادى وحدهم كما نشاهد فى التماثيل المصنوعة من مادة التراكوتا فى المجموعة المحفوظة بالمتحف السكندرى أو من الرخام مثل رأس الطفلة المحفوظ بمتحف كلية الآداب بجامعة الإسكندرية أو الرأس الأخرى المحفوظة بمتحف الإسكندرية. ولقد صور الأطفال كذلك وهم يؤدون أعمالا مختلفة فمنهم من لعب الكعب أو يركب الدرفيل أو يصارع الأوز كما نرى فى تمثال الفنان بويثيوس المحفوظ بمتحف ميونيخ وفى تمثال آخر بالكابيتول بروما أو فى التمثال الذى اكتشف فى الإسكندرية المصنوع من الفضة والذى يرجع تاريخه إلى العصر البطلمى والمحفوظ الآن بالمتحف البريطانى.

وكما صور فن الإسكندرية الأطفال فقد صور كذلك المسنين وأصحاب المهن كالصيادين والمهرجين الذين كانوا يجوبون الشوارع أو مشوهى الخلقة كالآله بس وكل من يقع نظر الفنان عليه فى الشوارع والطرقات، ولما كان شعر الفكاهة من الموضوعات المحببة لدى الإسكندريين كما نرى فى أشعار موسخوس وكالليماخوس لذلك ليس غريبا أن ظهرت هذه اللمسة الفكاهية فيمن صورهم الفنانون من الكاريكاتور والمهرجين ومشوهى الخلقة كما نرى فى بعض التماثيل الصغيرة من التراكوتا والبرونز المحفوظة بمتحف الإسكندرية.

كان لحياة الترف والمجون أثرها فى تدهور الحالة الخلقية بالإسكندرية وكانوب حتى أن شعراء الإسكندرية تغنوا بذلك وأضحوا أئمة لشعر الغرام الصريح. ولما كانت هذه الموضوعات تروق فيما يبدو لأهل ذلك العصر لهذا كان بديهيا أن نرى انعكاسا لها فى الفن. فصورت المرأة لأول مرة تصويرا واقعيا يبرز فيه الفنان محاسن جسمها العارى وجمال تكوينها.

ولما كان تصوير الأطفال من الموضوعات المستحبة لدى الفنان السكندرى وكان يطيب كثيرا لأهالى الإسكندرية مشاهدتها، وحيث أن شعر الغرام الصريح كان أقرب إلى نفوس السكندريين لهذا اتجه الفنان السكندرى لأول مرة إلى تصوير الإله كيوبيد (إله الغرام) فى صورة طفل بعد أن كان يصور فى القرن الرابع ق.م. فى صورة ولد له أجنحة. ولدينا بمتحف الإسكندرية أمثلة من كيوبيد الطفل منحوت من حجر المرمر.

وعلى يد فنانى الإسكندرية ظهر لأول مرة تصوير المناظر المثيرة الخارجة عن حدود الاخلاق فى النحت والرسم، فصور لنا الفنانون مثلا فى رسم من الفرسكو من الإسكندرية الإله مارس (إله الحرب) مضطجعا بجوار فينوس إلهة الجمال فى وضع إباحى. كما ظهرت لنا فينوس وفاون فى نحت بارز فى وضع مقارب للوضع السابق. ولقد ظهر كيوبيد وهو يحتضن بسيخى بشهوة ويقبلها فى رسم بارز على أحد المسارح من التراكوتا محفوظة بالمتحف السكندرى.

وكما اكسبت البيئة السكندرية الفنانين خيالا خصبا وذوقا كبيرا واحساسا مرهفا فى تكويناتهم وتصميماتهم الفنية وفى دراستهم وموضوعاتهم المستقاة من الحياة اليومية وحتى فى احساساتهم الخارجية غير المكبوحة بحدود الأخلاق، كذلك دفعتهم هذه البيئة إلى التعبير عن الاحساسات بما يبدو على الأشخاص والأفراد. وليس أدل على ذلك من رأس تمثال السيدة المحفوظة بالمتحف إذ تبدو في ملامحها امارات الحزن والأسى وكذلك الحال فى رأس الكاهنة التى تلبس غطاء الرأس للإلهة ايزيس المحفوظ بمتحف الإسكندرية.

ومن أهم الموضوعات التى أولاها الفن السكندرى عنايته والتى أحدثت ثورة فنية كبيرة تلك التى طرقها الأدب السكندرى فيما كتبه ثيوكريت وخلفاؤه من شعر الرعاة فلقد تغنى هذا الشاعر الكبير بما رآه من مناظر الطبيعة فى الريف والجبال والمراعى بما فيها من أناس يسعون وأبقار تمشى وتأكل وأشجار باسقة وأنهار تسبح فيها القوارب والأسماك والحيوانات وجبال شامخات ومبانى ضخمة. وكان لذلك الشعر أثره وصداه فى اتجاه ونظرة الفنانين السكندريين خاصة وأن فن النحت والرسم عند الفراعنة لم يغفل تصوير الأشجار والكروم والحيوانات ولو أن الفنان الفرعونى لم يستخدم لذلك طريقة الكاميرا فى التصوير بل كانت له طريقة الزخرفة المتوارثة. وهكذا بدأ تصوير الطبيعة فى فن الإسكندرية نتيجة محتمة سرعان ماانتشرت وازدهرت وتركت صداها فى كل العصور اللاحقة كما انعكس تصويرها فى أغلب فنون العصر السكندرى فلمسنا أثرها فى النحت بما نعرفه من تصوير بارز محفوظ بالمتحف البريطاني من العصر الهلينستى وفيه نرى تصويراً لزيارة الآله ديونيزوس لأحد شعراء الدراما كما نرى تصويراً للطبيعة ممثلة فى الزخارف البارزة من الستكو (المصيص) كما تظهر فى زخارف المنزل الذى بناه يوليوس قيصر لكليوباترا فى روما على نهر التيبر عند زيارتها لتلك المدينة. هذه الزخارف محفوظة بالمتحف الوطنى بروما وتعرف باسم الفرتزينا، كما نرى مناظر الطبيعة قد انعكست فى الرسم على الحيطان على طريقة الفرسكو كمنظر الساقية التى يجرها ثوران والتى اكتشفت فى إحدى مقابر القبارى بالإسكندرية والمحفوظة الآن بمتحف الإسكندرية ولدينا العديد من مناظر الطبيعة ممثلة فى المزايوكو (الفسيفساء) المكتشف فى كانوب (أبى قير) المحفوظ بالمتحف السكندرى وظهرت مناظر الطبيعة فى الحياة اليومية على أوانى البرونز كما نرى فى مجموعة القوالب والنسخ من المصيص المحفوظة بالمتحف السكندرى وكما في مكتشفات بجرام بأفغانستان كما بدت بارزة أيضاً على الأوانى الزجاجية مثل الأوانى الموجودة بمتحف نابولى وحتى علط النسيج المصنوع فى الإسكندرية.

ولقد اشتهرت الإسكندرية فى العالم القديم كذلك بنشأة وازدهار أنواع مختلفة من الفنون خاصة فى العصر البطلمى، إذ توخى فنانو الإسكنرية الدقة والإتقان فيما صكوه من عملة وما حفروه على الأحجار الكريمة حتى أصبحت الإسكندرية بإجماع الآراء مركزاً هاماً لصناعة الكاميو والمجوهرات والزخرفة على الأحجار ولدينا أمثلة معبرة فى الكاميو ذى الثمانى طبقات من حجر الساردونيكس "Sardonyx' المحفوظ بمتحف فيينا والذى يرجع إلى عصر البطالمة وليس أدل على ازدهار قطع الأحجار الكريمة والحفر فيها فى مدينة الإسكندرية من أن الفنان برجوتيليس أحدث تطوراً فى صناعتها وأبدع فى إنتاجه منها لدرجة فاقت الإنتاج فى كل العصور قديمها وحديثها.

أما عن فن الرسم فقد نسب للإسكندرية أغلب طرز الرسم الرومانية على الحيطان على طريقة الفرسكو أن لم يكن كلها - تلك الطرق المعروفة لدى علماء الآثار وأساتذة الفنون باسم الطرز البومبية (نسب لمدينة بومبيى القريبة من نابولى والتى دمرها بركان فيزوف عام ٧٩م) والتى تطور عنها الرسم الرومانى جميعه بل الرسم عامة فى عصر النهضة والعصور الحديثة.

أما عن الرسم على الأوانى الفخارية في عصر البطالمة والرومان فلقد ظهر طرازان فى زخرفة الأوانى فى الإسكندرية فى تلك الأوانى التى صنعت من طينة محلية وأطلق عليها عامة لفظ أوانى الحضرة نسبة إلى المكان الذى اكتشفت فيه وكانت هذه الأوانى تستخدم لحفظ رماد الموتى بعد حرقها.

وفى النوع الأول كان سطح الإناء الأصفر أو الضارب إلى الحمرة يقسم إلى مناطق أفقية Bands منها ما يحيط قاعدة الآناء ومنها ما يحيط البطن يليه ما يحيط الكتف ثم ما يحيط الرقبة فالفوهة وكانت هناك خطوط رأسية تصل بين مناطق الكتف والبطن تزخرف بالفستونات أو اللولبيات أو بسعف النخيل والأزهار وما إلى ذلك وأحيانا بصور بها أسماك أو طيور أو خيل مجنحة أو مناظر مختلفة أو رأس إنسان.

أما النوع الثانى ففيه دهنتِ الآنية بلون أبيض ثم رسمت عليها فستونات أو أزهار أو أسلحة بالوان مختلفة ولم يقتصر الفنان السكندرى على عمل الآنية من الفخار فقط بل استخدم القيشانى المصرى الذى ساد استعماله فى مصر فى عصر الفراعنة. واستفاد الفنان من خبرته التى اكتسبها فى عمل قوالب المصيص لعمل الزخارف البارزة على الأوانى المعدنية والفضية التى اشتهرت الإسكندرية بتصديرها لكل أرجاء العالم القديم. وكانت الإسكندرية المركز الرئيسى لصناعتها ولدينا آنية من القيشانى فى المتحف السكندرى وفى متحف شتوتجارت بألمانيا كما وجدت آنية من القيشانى ذى اللون الأزرق الضارب للخضرة نقشت عليها صورة الملكة ارسنوى. ولما كان القيشانى تطور عن ابتكار القشرة اللامعة المعروفة بالتزجيج glaze على الأوانى والتماثيل الصغيرة التى تقدم قربانا أو تحفظ مع الموتى فى المقابر كذلك كان لهذه القشرة اللامعة اليد الطولى فى اختراع الزجاج. ولقد كانت الإسكندرية البلد الرئيسى أن لم تكن المركز الوحيد لهذه الصناعة ولم تنازعها فى مكانتها هذه سوى سورية. ولقد ابتكرت الإسكندرية طريقة النفخ فى تشكيل الزجاج وكانت هذه الطريقة نقطة التحول الرئيسية فى صناعته. وكانت الإسكندرية حتى فى عصر الامبراطورية الرومانية المركز الرئيسى لصناعة الزجاج وتصديره وزخرفته فأنتجت الزجاج ذى الزخارف المحفورة والبارزة والزجاج المتعدد الألوان. ومن أشهر تطورات انتاجه فى الإسكندرية ذلك الزجاج المعروف باسم ميليفيورى Millefiori ومن أشهر الأوانى الزجاجية التى تنسب للإسكندرية تلك المعروفة باسم اناء بورتلاند بالمتحف البريطانى وتلك المحفوظة بمتحف نابولى.

وكما شاهدنا امتزاج الحضارتين اليونانية والفرعونية فى النحت كذلك ظهر هذا الامتزاج في شواهد المقابر إذ أخذ بعضها شكل المعابد الفرعونية الصغيرة المعروفة باسم نايسكوس Naiskos كما يرى فى متحف الإسكندرية.

من هذا كله نلمس مدى التقدم الفنى الذى أحرزته مدرسة الإسكندرية في عصر البطالمة والرومان ومدى تأثيرها على رسالة الفن فى العصر الهيلينيستى وفى كل العصور اللاحقة خاصة فيما خلفته من موضوعات جديدة صادفت اقبالا وتشجيعا من الفنانين فيما تلا من العصور. ولكن مع ذلك فإن بعض المراكز الفنية الهيلنيستية الأخرى قد اشتركت مع الإسكندرية فى بعض المزايا والخصائص مثل ترك اللحية وشعر الرأس دون نحت فى الرخام لكى يصاغ تشكيلها فى المصيص أو تصوير الأطفال وما إلى ذلك وما هذا كله إلا لأن الفنانين فى العصر الهيلينستى كما يشير نقش من القرن الثانى ق.م. كانوا يتنقلون بين المراكز الفنية المختلفة أسوة بما كان يفعل فنانو القرن الرابع ق.م. وكما كان يفعل أدباء الإسكندرية أمثال ابولونيوس الرودسى وثيوكريت وغيرهما. كما أن الاتصال بين المراكز الهلينستية نتيجة للحروب أو فى وقت السلم عن طريق التجارة والزيارات وتبادل الهدايا كان له أبعد الأثر فى اشتراك الكثير من المراكز الفنية فى بعض هذه العناصر الفنية.

آثار الإسكندرية فى العصر اليونانى (البطلمى)

أ. د. فوزى الفخرانى

احتلت الإسكندرية منذ تأسيسها عام ٣٣٢/٣٣١ ق.م. مركز الصدارة بين بلدان مصر حتى أنها أصبحت بعد استكمال مبانيها زمن بطليموس الأول والثانى عاصمة لمصر وظلت كذلك حتى الفتح العربى عام ٦٤١م وكانت طوال هذه الفترة منارة للحضارة فى العالم القديم فى أكثر من مجال بفضل منشآتها الهامة ومنها منارة فاروس وجامعتها (الموسيون) ومكتباتها الشهيرة وقصورها الفخمة ومعابدها ولكن للأسف لم يكشف عن أى من مبانيها التى تحدث عنها الكتاب القدامى لاختفائها تحت المبانى الحديثة أو تحت سطح البحر بفضل الزلازل ولكن مع ذلك كشف عن بعض آثار المدينة (غالبا بطريق الصدفة) التى ترجع إلى العصور اليونانية والرومانية والمسيحية ومنها:

البوابة البطلمية الغربية: عثر عليها عام ١٩٧٩ بالصدفة عند أناكل الغلال شرق ترعة المحمودية بالقرب من ساحل الميناء الغربى (يونوستوس) ونظرا لأن هذه البوابة أقيمت عند نهاية شارع كانوب التى تخترق سور المدينة البطلمى الذى خططه الإسكندر الأكبر فى نهاية الحى الوطنى الذى خصص للمصريين لذلك بنيت هذه البوابة على نمط البايلون (الصرح) الفرعونى وبطريقة البناء المعروفة فى العصر الفرعونى كما فى مدينة هابو التى استخدمت فى المبانى اليونانية منذ القرن الخامس حتى أوائل القرن الثالث قبل الميلاد - حصل تعديلات على فتحة هذه البوابة على مر العصور حتى الفتح العربى حتى أن علماء الآثار الإسلامية ذهبوا إلى أنها بوابة خوخة الإسلامية.

معبد السيرابيوم: بنى بطليموس الثالث هذا المعبد الذى ترى أساساته فوق تل عامود السوارى (قرية راقودة سابقا) بناه للإله المصرى أزور آبيس الذى اختاره بطليموس الأول لتوحيد اليونانيين والمصريين على عبادته فعبده المصريون بهذا الاسم وفى صورة العجل أبيس وعبده اليونانيون تحت اسم سيرابيس وبصورة تشبه الآله زيوس وبخصائص عديدة أهمها إله العالم الآخر عثر على ودائع أساس هذا المعبد ومحفوظة بالمتحف اليونانى بإسكندرية.

المقابر: عثر على مقابر كثيرة خارج أسوار الإسكندرية وكانت أهمها وأقدمها وأكثرها الجبانة الغربية ولذلك سميت مدينة الموتى،[1] أما مقابر الشاطبى فكانت قاصرة على سكان الحى اليونانى الواقع شرق المدينة ملاصق لرصيف السلسلة (كاب لوخياس قديما) حيث قصور ملوك البطالمة وتنقسم المقابر هناك إلى نوعين أقدمها يرجع لآخر القرن الرابع والقرن الثالث ق.م. وهى متطورة على المقابر اليونانية التى ترجع للقرن الخامس والرابع ق.م. حينما كانت المقبرة تتخذ شكل ومخطط المعبد اليونانى لآلهة اوليمبوس أو ما يرمز لهذا

المعبد ولذلك نجد فى جبانة الشاطبى مقبرة بشكل مذبح أو بشكل شاهد مقبرة تأخذ شكل واجهة معبد يونانى له جمالون مثلث أو بشكل مشكاة محفورة أفقيا فى الجبل سقفها مثلث أى جمالونى الشكل كل ذلك يوضح أن الميت المدفونة جثته أو رماده فى مثل هذه المقابر نشأ وترعرع ومات على ديانة إلهة اليمبوس اليونانية وأغلب ما يكون أنه ولد باليونان وهاجر إلى مصر حيث مات أو على الأكثر ابن مهاجر يونانى تشبث بآلهة أبيه.

أما النوع الثانى من المقابر فنجد المقبرة بشكل منزل تماما سواء منزل مصرى كما فى جبانة الشاطبى والأنفوشى يتكون من فناء مكشوف للسماء تفتح عليه قاعة المعيشة أو قاعة النحيب بالنسبة لزوار المقبرة وفى نهايتها البعيدة حجرة النوم حيث الأريكة (السرير) أو حجرة الدفن كما فى الشاطبى حيث توجد أريكة تشبه السرير يدفن الميت بداخلها والميت الذى يدفن فى مثل هذا المنزل هو يونانى ولد فى مصر وعاش فى خيرها وفقد إيمانه بالآلهة جميعها مصرية أو يونانية فآثر أن يدفن فى مقبرة تشبه منزله والنعيم الذى عاش فيه فى حياته مثل هذه المقابر يونانية ترجع إلى القرن الثانى والأول ق.م.

أما فى مقبرة مصطفى باشا نجد أن المنزل يشبه المنزل اليونانى وله فناء محاط بأعمدة (يربستايل) ومن خلف الأعمدة توجد طرقة تفتح عليها حجرة الدفن حيث توجد أريكة بشكل سرير دفن بداخله الميت مثل هذه المقابر يونانية خالصة ترجع للقرن الثانى والأول ق.م.

جبانة الأنفوشى: تشبه مقابر الشاطبى التى بشكل منزل ولكن متأخرة عنها قليلا ولكن تمتاز بأن بعضها أعيد استعماله فى العصر الرومانى مع تعديل بسيط إذ بنى فى إحداها توابيت من الطوب المحروق أو حفر جدار الحجرة بشكل مشكاوات رومانية فتحتها مربعة كما تمتاز هذه الجبانة بامتزاج الفنون المصرية واليونانية والرومانية خاصة بألوانها وزخرفة جدرانها تقليد للألباستر بطراز الفرسكو البومبى.

آثار الإسكندرية فى العصر الرومانى

بعد انتصار اكتافيوس على مارك انطونى وكليوباترا السابعة فى موقعة اكتيوم البحرية عام ٣١ ق.م. آل لاكتافيوس (الامبراطور أغسطس كما سمى فيما بعد) بموتها حكم مصر ولقد شاء الامبراطور المظفر أن يخلد ذكرى انتصاره هذا فأنشاء مدينة النصر Nicopolis (Juliopolis) فى الجانب الشرقى لمدينة الإسكندرية فى حى الرمل الحالى، وأمدها والإسكندرية بالماء العذب عن طريق قناة حفرها من شديا إلى الإسكندرية، كما أقام فيها المبانى التى اشتهر منها الامفتياتر والاستاديوم. وإذا كان اكتافيوس بعد موقعة اكتيوم قد أعلن فى الإسكندريين الذين جمعهم فى الجمنازيوم أن لن يمس مدينتهم بسوء، فإن الإسكندرية انحدرت كما يخبرنا استرابون من منزلتها التى كانت تحتلها إبان حكم البطالمة، وذلك بعد انشاء مدينة النصر بمبانيها الجديدة، إلا أن الإسكندرية ظلت فى عهد أغسطس نفسه والأباطرة الرومان من بعده، البؤرة المشعة للحضارة الهلينستية، والتى على ضوئها اهتدت روما والإمبراطورية الرومانية الشامخة، لقد أقام الامبراطور

تراجان قوس نصر بالإسكندرية ورمم الامبراطور هادريان بعد زيارته للمدينة الكثير من مبانيها القائمة، وأقام بها مكتبة بمنطقة السيرابيوم.

ولما زار الامبراطور أنطونيوس الورع، الإسكندرية فى منتصف القرن الثانى الميلادى تقريبا، بنى بالمدينة بوابتين تعرفان باسم بوابة الشمس وبوابة القمر.

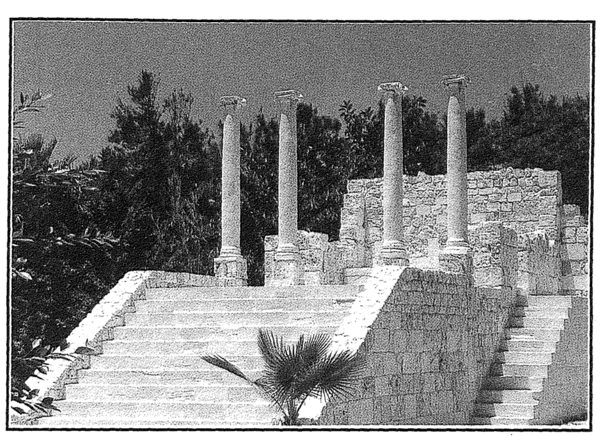
معبد الرأس السوداء :

يكاد يكون هذا المبنى هو المعبد الوحيد المكتشف بالإسكندرية والمقطوع بماهيته ونسبته للعصر الرومانى بالمدينة. ولقد كان اكتشافه بطريق الصدفة فى عام ١٩٣٦. والمعبد فى حالة جيدة إذا ما قورن بكثير من المبانى الآثرية المكتشفة بالإسكندرية. والمعبد من نوع غير مألوف، إذ يبدو من حجمه الصغير إنه معبد خاص مكون من طابقين صمم على أن يكون الطابق السفلى منه للعبادة، والعلوى الذى يقع فى شمال المعبد للسكنى، وإن كان قد اندثر الكثير من أجزائه.

تقوم مبانى هذا المعبد أسوة بكل المعابد الرومانية على أرضية مرتفعة Podium يمكن الوصول إليها بواسطة درجات السلم المبنية فى الأمام وبعرض الواجهة كلها. يؤدى هذا السلم إلى دهليز به صف من الأعمدة الايونية المنحوتة من الرخام الأبيض المعرق قليلا وعددها أربعة. وتقع خلف الدهليز الحجرة الرئيسية للمعبد وهى مربعة الشكل ويمكن الوصول إليها أيضا عن طريق سلم ثانوى جانبى فى حائطه الشرقى. أما الحائط الشمالى لهذه الحجرة، وهو الذى يقع فى مواجهة الدهليز، فتشغله مصطبة كبيرة مبنية بالحجر الجيرى وضعت عليها خمسة تماثيل من الرخام الأبيض لآلهة المعبد وهى بالترتيب التالى من الشرق إلى الغرب: ايزيس ثم تمثالان لاوزوريس كانوب ثم هرما نوبيس فحربوقراط. ووجد بالحجرة أيضا تمثالان لأبى الهول بالقرب من مذبح صغير أقيم أمام المصطبة.

أما الجزء السكنى من المبنى وهو العلوى، فقد بقيت منه حجرتان متهدمتان بعض الشيء، تقعان فى صف واحد مع المعبد وبعرضه، ولا تختلفان فى طريقة بنائهما عن تلك الطريقة التى استعملت فى بناء الدور السفلى مما يدل على أنها من نفس عصر المعبد.

وقد غطى جزء من أرضية الحجرة الخلفية من الطابق العلوى بقطع من الرخام رصت بطريقة مهذبة، أما الجزء الذى لم يغط بقطع الرخام فيبدو أنه قد شغل بأريكتين بدليل وجود حائطين صغيرين فى الحجرة فى مكانهما. ويبدو أن هذه الأرضية الرخامية قد أخذت من قطع رخامية سبق استخدامها بدليل وجود حرف الباء اليونانى منقوشا على إحدى القطع. وتفتح هذه الحجرة عن طريق باب على حجرة أخرى تهدمت بفعل الزمن.



معبد الرأس السوداء فى موقعه الجديد

صهاريج المياه

لضمان انتظام تموين الإسكندرية والمنطقة المحيطة بها بالمياه العذبة للشرب والاغتسال وتغذية الحمامات، كان على المدينة أن تعتمد كما هو الحال فى كل عصور تاريخها الطويل على عملية تخزين المياه التى كانت تصل فى العصر الرومانى إلى الإسكندرية عن طريق ترعة ممتدة من شديا. ولقد بنيت لهذا الغرض صهاريج تحت الأرض لحفظ المياه من التسرب إلى باطن الأرض ولتغطيتها وترشحيها مما يعلق بها من أتربة وأجسام غريبة. ولقد استعملت هذه الصهاريج منذ أواخر العصر البطلمى فى مصر على نطاق كبير حتى أنه فى زمن يوليوس قيصر كان بالمدينة العديد من هذه الصهاريج، ومع ذلك ازداد عددها وكبر حجمها فى عصر الرومان ومن الأمثلة على ذلك:

صهريج الشلالات: (صهريج النبيه)

هو من الصهاريج المنعزلة ويطل على شارع الشهيد صلاح مصطفى (شارع السلطان حسين سابقا) وهو أكبر الصهاريج التى يمكن مشاهدتها وهو مربع الشكل ومكون من ثلاث طوابق ومقسم طولا وعرضا إلى خمسة أقسام بواسطة أعمدة جرانيتية مختلفة الطرز والأشكال. وكان يقام أحيانا بدلا من العامود دعامات تأخذ احيانا شكل نصف عامود قائم كما يرى فى الفتحة المواجهة للزائر عند النزول من السلم المبنى حديثا. وكل عامود أو دعامة تتصل بالعامود أو الحائط المجاور له فى الاتجاهات الأربعة بواسطة عقد ليعطى المبنى صلابة حتى يقوى على مغالبة الزمن للمياه التى توضع فيه من تأثير هدام على المبانى على مر الأيام. أما اختلاف الطراز فيحمل على الاعتقاد بأن المبنى أقيم فى الأصل فى أواخر العصر الرومانى والأعمدة قصيرة وسميكة لتتحمل ثقل الأعمدة التى فوقها. ومن شأن الأعمدة تقسيم المبنى بهذا الشكل إلى ثلاثة طوابق فى العمق وخمسة أجزاء فى كل من الطول والعرض، ويلاحظ أن بعض تيجان الأعمدة تحمل رموزا مسيحية مما يشير إلى تجديدها فى العصر المسيحى أو ربما نسب الصهريج كله إلى أوائل هذا العصر.

عامود السوارى

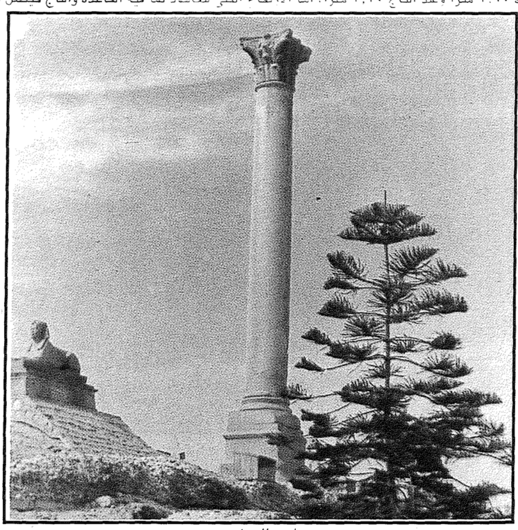
المنطقة التى أقيم فيها:

أقيم هذا النصب التذكارى الهائل فوق تل باب سدره بين منطقة مدافن المسلمين الحالية المعروفة باسم العامود وهضبة كوم الشقافة الأثرية.

أقيم هذا العامود فى مكان متوسط فى بهو معبد السرابيوم أو فى شماله كما جاء فى كتابات افثونيوس الذى زار الإسكندرية فى عام ٣١٥م ـ ذلك المعبد الذى سمى فى أيام العرب «بقصر الإسكندرية» والذى زال من الوجود منذ القرن الثانى عشر ولم يتبق منه سوى بعض صخور أساساته. ويحدثنا المقريزى أن عامود السوارى كان يتوسط رواقا يضم ٤٠٠ عاموداً قذف ببعضها فى البحر أحد الامناء النوبيين للسلطان صلاح الدين عام ١١٦٧ ليزيد من تحصينات المدينة.

عرف هذا العامود خطأ منذ الحروب الصليبية باسم عامود بومبى. ويرجع هذا الخطأ إلى أن الفرنجة وقتئذ ظنوا أن رأس بومبى ـ القائد الرومانى الذى هرب إلى مصر فرارا من يوليوس قيصر وقتله المصريون ـ قد وضعت فى جرة جنائزية ثمينة فوق تاج العامود، تأثرا منهم بما اتبع من وضع رماد جثة الامبراطور الرومانى تراجان فى جرة جنائزية فوق عامود القائم بروما. أما تسمية العامود بعامود السوارى فترجع فى تاريخها للعصر العربى وربما جاءت هذه التسمية نتيجة لارتفاع هذا العامود الشاهق بين الاربعمائة عامود التى تشبه الصوارى والتى أشار إليها الكاتب عبد اللطيف.

صنع من حجر الجرانيت الأحمر، وبدن العامود عبارة عن قطعة واحدة طولها ٢٠.٧٥ مترا وقطرها عند القاعدة ٢.٧٠ مترا وعند التاج ٢,٣٠ مترا. أما الارتفاع الكلى للعامود بما فيه القاعدة والتاج فيصل الى



عامود السوارى

٢٦,٨٥ مترا. ولقد استخدمت فى اقامة أساسات هذا النصب أحجار يرجع بعضها إلى مبان قديمة كما يظهر من النقوش المحفورة على كثير منها. عثر فى جانب قاعدة العامود الغربى على نقش يونانى غير كامل فى بعض أحزائه وترجمته «**إلى الإمبراطور العادل الآله للإسكندرية دقلديانوس الذى لا يقهر. أقام بوستوموس والى مصر هذا العامود**».

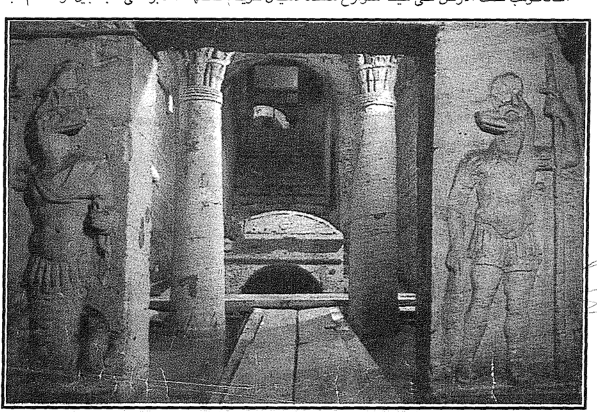
أقيم هذا العامود بعد أن أخمد الإمبراطور دقلديانوس ثورة بالإسكندرية فى النصف الثاني من القرن الثالث وسقطت الإسكندرية بعد حصار دام ثمانية أشهر وكان من جراء هذا كله أن ساد بالمدينة النهب، وخرب جزء منها وقل الرخاء وفسد الزرع وانتشر المرض، ولكن الامبراطور دقلديانوس أقام بالمدينة بعض الوقت وأرجع اليها جزية القمح التى كانت روما تجمعها سنوياً من مصر وأمر بتوزيعها مجانا على الفقراء من سكان المدينة وأصلح من نظام إدارتها مما جعل الناس يتحدثون بفضله، فأقيم له هذا العامود ونقش عليه النص سالف الذكر، تخليدا لذكراه وتعبيرا عن شكر الإسكندريين له وتحدثا بكرمه وفضله.

مقابر الإسكندرية فى العصر الرومانى

جبانة كوم الشقافة:

كوم الشقافة هو الاسم العربى الذى أطلق احياء للاسم اليونانى القديم لوفوس كيراميكوس، وتقع كوم الشقافة فى المنطقة التى قامت فيها قرية راكوتيس، وهو الاسم الذى عرفت به عند الرومان احياء للاسم الفرعونى القديم ر عن قدت Ra-qedit كما هو مذكور فى نقش هيروغليفى من عهد بطليموس الأول. أما الجبانة فقد اكتشفت بطريق الصدفة فى عام ١٨٩٢.

والجبانة من نوع الكاتاكومب، وهو نوع من المقابر انتشر فى القرون الثلاثة الأولى الميلادية فى ايطاليا، وتكاد تقتصر الكاتاكومب، على دفن الموتى من المسيحيين، إذ وجد فيها دعاة الدين الجديد ومعتنقوه ملجأ يحتمون فيه من بطش الأباطرة، كما نرى فى المقابر التى تحت كاتدرائية سان سباستيان بروما، حفرت الكاتاكومب تحت الأرض على هيئة شوارع ممتدة لاميال طويلة، تحفها المقابر على الجانبين، ولكنا لم نجد



جبانة كوم الشقافة (الكتاكومب)

بجبانة كوم الشقافة أى أثر مسيحى واحد، فهى جبانة وثنية منذ نشأتها فى أواخر القرن الأول الميلادى إلى يوم بطل استعمالها للدفن فى القرن الرابع الميلادى كما أنها على شكل ثلاثة طوابق تحت الأرض.

نشأت هذه الجبانة كمقبرة لأسرة واحدة، ولو أنها استخدمت فيما بعد لدفن العديد من الأسرات بعد أن قام بالدفن فيها جماعة من «اللحادين»، كما كان الشأن فى مقبرة البانكراتى بروما. فكانت هذه الجماعة تقوم بحفر المشكاوات Loculi وسد فتحاتها بالشواهد التى من الرخام أو الحجر الجيرى، وكان الاسم يكتب على هذه الشواهد أو ينحت، وأحيانا كان يصمم عليها رسوم لتطلى باللون أو تنحت نظير أجر، كذلك تمتاز هذه الجبانة عن مثيلاتها فى ايطاليا بطرز الفن المستخدمة فيها، فليس الفن يونانيا رومانيا أو مسيحيا كما كان الشأن فى ايطاليا، بل نجد أن الفن فى كوم الشقافة خليط من الفنين الرومانى والفرعونى الذى يتمثل ليس فقط فى عمارة الجبانة بل وفى نحتها وتماثيلها كذلك، وربما جاء هذا المزج بين الفنين الرومانى والمصرى نتيجة لأن الفرصة قد اتيحت فى مصر والإسكندرية للفن اليونانى الرومانى الامتزاج بفن البلاد الفرعونى الذى كان سائدا فى مصر منذ أن وطئت قدم الإسكندر أرضها، أو رغبة من صاحب المقبرة أن يحقق الفنان فى هذه المقبرة المزج بين الفنين الرومانى والمصرى كما حققت المظاهر الدينية التى تبدو من الرسومات البارزة هذا التأثر والمزج بين الدين الفرعونى والدين الرومانى.

وفى كوم الشقافة كان الميت يدلى بالحبال من مسقط نور ذى فتحات فى جدرانه حتى يصل إلى الطابق الذى سترقد فيه الجثة ثم تحمل لتوضع فى مرقدها الأخير. وكان هناك سلم الأحياء الموصل بين سطح الأرض والطابق الأول، حتى إذا وصلت الجثة إلى الطابق الأول أو خلافه أمكن تمرير الجثة من احدى الفتحات.

وكان الميت يدفن فى Loculus حفرت أفقيا فى الحائط أو فى تابوت محفور في الجبل وليس منفصلا عنه أو فى جرة يحفظ فيها رماد الجثة بعد حرقها أو تحنط الجثة وتحفظ في حفرة فى الأرضية على شكل مومياء يعلوها تابوت مستطيل الشكل.

فى السلم الحلزونى الموصل للطوابق الثلاثة أن درجاته السفلى أكثرها ارتفاعا، ثم يأخذ ارتفاع الدرجات فى التناقص تدريجيا حتى يكاد ينعدم، قرب سطح الأرض، والسر فى ذلك أن الصاعد من أسفل بعد زيارة الجبانة يكون أكثر نشاطا وقدرة منه عندما يتقرب من سطح الأرض إذ يكون التعب قد أخذ منه، ولهذا بدت الدرجات العليا وكأن الصاعد لايرتقى سلما بل يسير فى طريق حلزونى قليل الانحدار، وكعامل مساعد على راحة الصاعد، فتحت فى الدور الأول فتحتان قرب السلم أشبه بالمحراب، ولكل منهما مقعد نصف دائرى بشكل الفتحة منحوت فى الصخر ليتسريح عليها الزائر وللحنية سقف نصف قبوى مزخرف على هيئة صدفة محفورة فى الصخر، وزخرفة الصدفة هذه هى رومانية ترجع بشكلها هذا إلى العصر الانطونينى، أى منتصف القرن الثانى الميلادى، أما اضاءة السلم فكانت تأتى عند طريق الفتحات التى عملت فى مسقط النور، أو عن طريق فتحات صغيرة مستطيلة الشكل كانت توضع فيها مسارج من الفخار تضاء بالزيت فلدينا على يسار الفتحة اليسرى ذات المقعدة حجرة الأكل - تشبها بحجرات الأكل فى المنزل - المسماة تركلينوم باللغة اللاتينية أى ثلاثة أرائك. وكان الرومان يجتمعون فى هذه الحجرة، خاصة فى الأيام المقدسة، لعبادة الموتى، وهى أيام البنفسج وأيام الورد ويوم ميلاد الميت وعيد الابوة الذى كان يعقد رسميا فى فبراير بينما جرت العادة على أن يكون انعقاده يوم موت المتوفى.

وعلى يمين الثعبان رسم هرميس (ميركورى عند الرومان) المجنحة، وهرميس هو رسول الآلهية مرشد الموتى إلى العالم الآخر. أما عن يساره وفيرى نبات الإله ديونيسوس (باكوس عند الرومان) إله الموتى. أما الثعبان هنا فهو ملاك خير كما أنه مقدس للآله أوزوريس إله الموتى عند الفراعنه.

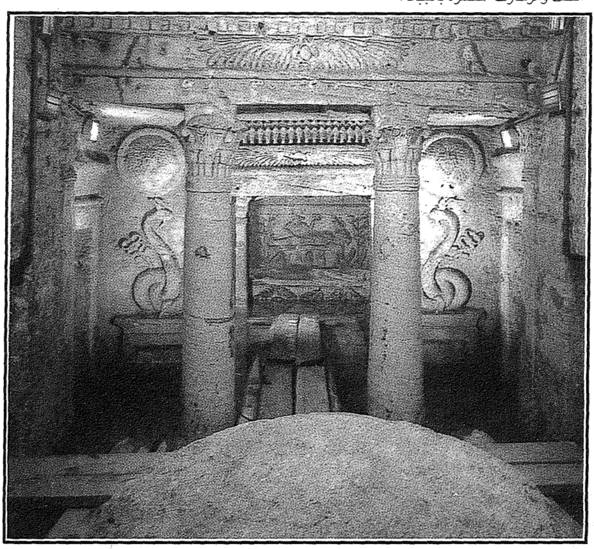
وفى الحائط الخلفية لهذا الباب نجد الى اليمين عن الدخول الإله ست تيفون أو ماكيدون وله رأس ذئب وذيل ثعبان ويقف على معبد وبيده رمح ويرى متدثرا بالزى العسكرى الرومانى مثل الإله انوبيس الذى يقف على الجانب الآخر للباب. ونجد هنا خليطا واضحا فى تصوير الآلهة فى العصر اليونانى الرومانى. أما حجرة

الدفن فتستند على أربعة أعمدة مربعة في الأركان ولها تيجان من البردى وتحصر هذه الأعمدة ثلاث فتحات فى الحيطان مستطلة الشكل بها توابيت لا يرفع غطاؤها ولكن توضع الجثث من حفرات خارج الحجرة وفى أرضية التوابيت ويمكن مشاهدتها. أما زخرفة هذه التوابيت فيونانية بمالها من فستونات وجماجم ثيران وعناقيد عنب ورؤوس ميدوزا رادعة الشر. وترى فى واجهة التابوت الأوسط المرأة الميتة مضجعة وبجوارها رأس سلينيوس بذقنه الكبير وهو أحد اتباع الإله ديونيزوس إله الموتى، أما الجزء العلوى من الحائط الرئيسى للحجرة والحيطان الصغرى ففيها نحت فرعونى بارز تعلوه زخرفة البيضة اليونانية. أما الزخارف التى على الحوائط أعلى التوابيت فهى من نوع الزخارف التى اكتشفت فى شارع تيجران باشا (بورسعيد حاليا) ولها طابع جنائزى» دينى استخدمت فيها مناظر فرعونية منقولة عن المقابر القديمة دون فهم لرموزها.

أما الفتحة التى إلى اليسار فتشبه السابقة إلا فى حائطها الصغير على اليمين فيرى فيها أحد الآلهة برأس صقر وكذلك ابناء الإله حورس الأربعة وهى تحمى أمعاء المومياء.

و عند الخروج من هذه المقبرة نجد إلى جانبى أعمدة البهو فتحتين تؤديان إلى رواق جانبى به حفرات للدفن وأخرى بعضها خلف المقبرة من جهة التابوت الرئيسى تؤدى إلى حجرات جنائزية ولكن خالية من الزخرفة، ولقد أضيف الكثير من هذه الفتحات والحجرات على مر السنين.

أما عن تاريخ الجبانة فإن أهم مبانيها ترجع إلى حوالى منتصف القرن الثانى الميلادى، إلا أنها امتدت لفترة أطول بدأت من أواخر القرن الأول حتى القرن الرابع الميلادى، وهذا استنادا للمعالم المعمارية وطراز النحت والزخارف المنتشرة بالجبانة.



صورة المقبرة الرئيسية لجبانة كوم الشقافة

فن الإسكندرية فى العصر البيزنطى

أ. د. داود عبده داود

كان للأسكندرية منذ إنشائها أهمية تاريخية كبرى، وقد رأينا فى الفصول السابقة كيف أصبحت أهم مراكز الحركة العلمية قبل ظهور المسيحية وبعدها، وكانت مكتبتها تحتوى على أكبر مجموعة عرفت من كتب الأدب اليونانى القديم ثم قامت فيها ابتداء من القرن الثانى الميلادى مدرسة كبرى لدراسة النظريات المسيحية والدين المسيحى دراسة منظمة تناسب العقلية الناضجة التى تعودت على مناقشة النظريات الفلسفية وبحثها وتمحيصها. وهكذا كانت حضارة الأسكندرية دائما على اتصالاتها المتشعبة بالعالم الخارجى، وكانت العلاقات ودية بالذات مع روما، ونحن نعرف مثلا أن روما كانت فى أغلب الأحيان، وحتى مجمع خلقيدون تقف فى صف الإسكندرية فى المجامع الدينية وتؤيدها على طول الخط، وبالإضافة إلى هذين العنصرين فى حضارة الإسكندرية وقتئذ يجب ألاننسى العنصر الثالث وهو العنصر المصرى، فلم تكن الإسكندرية أبداً بمعزل عن باقى البلاد، ولاشك أن حضارتها تأثرت إلى حد كبير بالحضارة المصرية

وللأسف أن أغلب أثار الإسكندرية ومن جميع العصور اختفت ولم يبق منها الكثير وقد اختفت الكنائس واختفت النقوش ولم يبق من فن النحت إلا نماذج قليلة، وحتى النقوش الجميلة والصور الدينية من العصر المسيحى الأول التى كان قد عثر عليها فى مقابر كرموز، اختفت فى القرن الماضى، ولم يبق لدينا إلا إشارات بعض الكتاب لها.

لاعجب إذن إن اختلف مؤرخو الفن اختلافا كبيراً فى تقديرهم لأهمية الإسكندرية فى العصر البيزنطى، وفضلها على نشأة وتطور الفن البيزنطى، فالبعض يضعها فى القمة، ويجعلها مصدر الكثير من العناصر المميزة لهذا الفن.

والبعض الآخر يحاول أن يقلل من أهميتها ويقول أنها أخذت أكثر مما أعطت، وأن دورها فى تاريخ الفن كان ينحصر دائما فى امتصاص العناصر الخارجية وتطويرها وإظهارها فى قالب جديد.

فى عام ٣٣٠م نقل الإمبراطور قسطنطين عاصمته إلى الشرق، القسطنطينية العاصمة الجديدة، لتنافس روما، العاصمة القديمة للأمبراطورية الرومانية، فى الأهمية، لا من الناحية السياسية فحسب بل وفى الزعامة الفنية أيضا، إذ سرعان ما تجمع الفنانون من كل نوع فيها، ووضعوا أنفسهم فى خدمة (روما الجديدة) كما أطلق عليها قسطنطين، غير أننا نجد أنه فى خلال القرنين الأولين على الأقل من حياة المدينة، أى حتى أواخر القرن الخامس تقريباً، لم تستطع القسطنطينية أن تبسط نفوذها الفنى على مختلف الأقاليم، ولم تكن هى المصدر الوحيد للفن الجديد، بل بقيت المدن الكبيرة فى مختلف أنحاء الأمبراطورية تنازعها مكان الصدارة، ففى العادة كانت هناك روما وغيرها من المدن الإيطالية، مثل ميلان ورافنا التى سرعان ما ازدهرت وأصبحت مدارس للفن لها مكانتها، وفى الشرق كانت المدن اليونانية القديمة مثل الأسكندرية فى مصر، وانطاكية فى سوريا، وأفسوس فى آسيا الصغرى، وكلها حافظت على أهميتها ونفوذها.

تأثر فن الإسكندرية فى العصر البيزنطى بالعوامل العامة التى أثرت فى الفن المسيحى فى العالم الرومانى بأسره، فقد خضع للمؤثرات الشرقية، والواقع أنه منذ عهد الإسكندر الأكبر والحضارة اليونانية كان قد ابتعد عن روحه الأصيلة، كما كنا نراها فى أثينا فى القرن الخامس قبل الميلاد مثلا، ودخلته عناصر كثيرة من الشرق جاءت من جميع الأقاليم التى غزاها الاسكندر بجيوشه، فكان هذا الامتزاج الذى استمر ثلاثة قرون كاملة قبل ظهور المسيحية.

أما العامل الثانى الذى أدى إلى تغيير فى الفن فهو النظرة الجديدة التى جاءت مع المسيحية، والميل إلى استعمال الرموز لتوضيح الدين وتقريبه إلى الأذهان، وقد كان هذا الاتجاه قويا دائما فى الشرق، وأدت الاضطهادات الدينية من جانب السلطات الرومانية، ومحاربتها للمسيحيين فى كل مكان، إلى الإكثار من استعمال هذه الرموز، كانت السلطات العليا تمنع تصوير الشخصيات المسيحية، فلجأ الفنان إلى الحيلة، وبدأت تظهر رموز كثيرة تعبر عن الدين الجديد، وقد عثر عليها بكثرة فى الإسكندرية، فنجد مثلا الصليب شعار المسيحية، والحمام رمز السلام، والسفينة وترمز إلى الكنيسة التى تنقل المؤمنين بسلام إلى دار الخلود، وسعف النخيل الذى يذكر الناس باستقبال المسيح عند دخوله إلى أورشليم، والسمكة التى وجد الناس أن الكلمة اليونانية لها تحتوى على الحروف الأولى من كلمات (يسوع المسيح الله والابن المخلص)، وغير ذلك من الرموز وأخيراً يأتى العنصر الثالث، وهو لايقل أهمية عن العنصرين السابقين، وهو الاكثار من الزخارف ، وفى الفن اليونانى الأول كان الفنان يتجه إلى تصوير الأشخاص، ولايهتم كثيرا من بالزخارف، التى ظلت ثانوية فى أهميتها، أما فى الفن المسيحى فقد ازدادت أهميتها، وأصبحت تحتل مساحات كبيرة.

النحت :

لسنا نعرف الكثير عن فن النحت فى الإسكندرية فى العصر البيزنطى، غير أننا نستطيع من الأمثلة القليلة التى وصلت إلينا منه أن نتبين بعض الصفات العامة التى تميزه، وأهمها الواقعية الواضحة، فقد أصبح الفنان يهتم أكثر بإظهار الشخصية والتعبير عنها، ومن هنا كان اهتمامه بالذات بتصوير الرأس، فعن طريق ملامح الوجه كان يستطيع اظهار جوانب معينة من هذه الشخصية، صحيح أن هذا الاتجاه بدأ قبل ظهور المسيحية وكان من الصفات المميزة للفن الهلنستى عموما، ولكنه ظهر بوضوح أكثر فى القرون المسيحية الأولى، ومن ناحية أخرى لم يعد الفنان يهتم بالدقة فى تصوير أجزاء الجسم، ولعله لم يستطع تماما أن يصورها بالدقة التى كانت معروفة فى العصور القديمة، ولم يعرف كيف يربط بينها وبين الملابس التى يلبسها الشخص، فأصبحت هذه الملابس فى التماثيل مجرد خطوط وثنيات لاعلاقة لها بالجسم.

ولدينا فى متحف الإسكندرية تمثال ضخم من حجر البروفير وهو الذى سبق ذكره فى فصل سابق يمثل شخصا جالسا على عرش، وقد فقدت منه الرأس والذراعان والقدمان، وربما كان هذا تمثالا لأحد أباطرة الرومان، ويعتقد البعض أنه الأمبراطور دقلديانوس، بينما يعتقد البعض الآخر أن التمثال يمثل المسيح (القادر على كل شىء) Pantokrator لأن نوع الزخرفة الموجودة على العرش نجده عادة مع تماثيل للمسيح، ويبلغ ارتفاعه حوالى ثلاثة أمتار، وقد عثر عليه فى الإسكندرية أمام مسجد، العطارين، واعتبر أكبر أثر من نوعه عثر عليه حتى الآن هذا التمثال على أى حال يرجع فى غالب الأمر فى النصف الأول من القرن الرابع الميلادى، ولو نظرنا إلى الملابس التى يلبسها، فإننا نجد أن طريقة معالجتها تختلف جدا عن الفن اليونانى القديم، فثنياتها عبارة عن خطوط متوازية، ضحلة وغير عميقة لدرجة تكفى لإظهار التباين بين الظلال والضوء وليس هناك علاقة بين طيات الملابس والجسم الموجود تحتها، ثم أن الملابس أصبحت بعيدة عن البساطة الكلاسيكية المعروفة، ودخلتها عنصر جديد، ويظهر أن الشخص يلبس ثلاث طبقات من الملابس، فهناك قميص أو جلباب سفلى ثم عباءة وأخيراً مايشبه الكوفية تتدلى أطرافها على الصدر، هنا من غير شك تجديد فى الملابس لم نكن نراه فى العصور القديمة.

استمرت مدرسة النحت فى الإسكندرية نشطة طوال عصر قسطنطين، وفى خلال القرن الرابع بوجه عام، وأنتجت تماثيل كثيرة كاملة وتماثيل نصفية من البروفير وغيره من الأحجار، تميزت بالواقعية الواضحة، وفى خلال القرن الخامس وصل فن النحت إلى القمة، ولكن فى هذا الوقت أيضاً أخذت النقوش الملونة تظهر على حوائط الكنائس بكثره، وبدأ استعمال الصور المرسومة بالفسيفساء أيضاً، وكان هذا النوع الجديد من الفن

أفضل من النحت، وأنسب منه خاصة عن تصوير القصص الدينى، وكان الاهتمام قد زاد بتزيين الحوائط الداخلية للكنائس بمساحتها الواسعة، وكذلك السقوف، بصور ملونة، يراها المصلون بوضوح ويكون لها من غير شك أكبر الأثر فيهم.

بالطبع استمر استعمال النحت فى خارج المبنى فقد كانت التماثيل المنحوتة تتحمل الجو أكثر من الصور الملونة. وأيضا استمرار النحت فى الأغراض الثانوية مثل تيجان الأعمدة، قلما كانت تزين بصور الأشخاص، وإنما كانت تغطى غالبا بزخارف نباتية أو هندسية، وقد عثر بالأسكندرية على عدد كبير من تيجان الأعمدة المنقوشة بزخارف من الزهور والنبات أو بخطوط متقاطعة تشبه السلال، وهى تذكرنا بالتيجان الموجودة فى الكنائس البيزنطية بالقسطنطينية وإيطاليا فى كنيسة سان فيتا بمدينة رافنا.

التوابيت الحجرية :

أنتجت الأسكندرية فى هذه الفترة المبكرة أيضاً عددا كبيراً من التوابيت المنحوتة التى تعتبر امتدادا للعصرين اليونانى والرومانى من قبل، والحقيقة أن التوابيت استمرت على النمط الوثنى فى كل مكان سواء فى الشرق أو فى الغرب، ويقال أن الإسكندرية كانت مركزا هاما لصناعتها ومنها كانت تصدر إلى جميع أنحاء العالم وقد استعملت التوابيت الكبيرة على نطاق واسع فى القرون المسيحية الأولى وانتشرت جدا فى القرن الرابع وكان مجالا واسعا استعمل فيه الفنان مهارته.

هناك تابوت حجرى كبير فى متحف الفاتيكان يعرف باسم القديسة هيلانه، فقد وجد بمقبرة القديسة بروما، وهو مصنوع من حجر البروفير، وربما كان كثير من التوابيت المنحوتة من هذا الحجر ذات أصل مصرى، فقد كانت مصر من أهم مصادر حجر البروفير ولابد أن عددا كبيرا منها قد صنع هناك على يد فنانى مدرسة الإسكندرية، النقوش الموجودة على هذا التابوت تمثل فرسانا يسوقون أمامهم أسراهم، وهو موضوع لايناسب فى الحقيقة تابوتا صنع لكى تدفن فيها امبراطورة وقديسة، مما جعل بعض مؤرخى الفن يشكون فى أن تكون نسبة التابوت إلى القديسة صحيحة، وإن كان البعض الأخر قد حاول تفسير الأمر بأن هذه النقوش رمزية فقط، وأن المقصود بالفرسان والأسرى، هو الرمز لانتصار المؤمنين على الوثنيين.

هناك تابوت آخر من نفس الحجر باسم القديسة كنستانزا موجود أيضا بمتحف الفاتيكان على جانبه منظرا لعصر العنب، ثم طاووس وحملان وغيرها، كل ذلك وسط زخارف من فروع الكروم، فى نحت بارز مرتفع.

نحت العاج :

كان نحت العاج من الفنون الشائعة فى أماكن كثيرة فى عصر مبكر، وكانت له مدارس نشطة، استمرت هذه المدارس فى نشاطها بعد ظهور المسيحية وخاصة فى الشرق أما فى الغرب احتفظت روما بأهميتها بعض الوقت، ثم بدأت تضمحل وتفقد أهميتها بسرعة على أثر ازدياد الغارات البربرية عليها حتى سقطت فى النهاية فى يد القوط فى القرن الخامس.

وقد وصل العاج المنحوت إلينا بكميات كبيرة من القرون المسيحية الأولى، وتحتوى أغلب المتاحف الهامة فى أوروبا وأمريكا على نماذج منه، غير أنه فيما عدا أمثلة قليلة يصعب علينا تحديد الموضع الذى جاءت منه أصلا قطعة العاج، وتم فيه صنعها، وذلك لخفة وزنه وسهولة انتقاله من مكان إلى آخر، ومن جهة أخرى كان الفنان إذا ذاع صيته ونال حظا كبيرا من الشهرة، يرسل منتجاته من العاج المنحوت إلى مختلف الجهات، أو ربما انتقل الفنان نفسه من موطنه الأصلى إلى مركز آخر من مراكز الفن جريا وراء الشهرة والثروة وفى هذه الحالة يأخذ معه طريقته الأولى فى النحت، أو يتأثر بالمدرسة الجديدة التى استقر فيها، ولاننسى أن التنافس

كان شديدا بين المدارس الفنية المختلفة فى الشرق وفى الغرب، وكانت تعمل باستمرار على اجتذاب كبار الفنانين إليها وعلى تشجيعهم على الإقامة فيها، وعلى هذا فمن الأمور العسيرة أن ننسب قطعة من العاج إلى مدرسة بعينها، أو أن نرجعها إلى أى مركز من المراكز المعروفة، غير أننا نعرف الصفات العامة لمدرسة الإسكندرية الفنية، والميزات الخاصة بمنتجاتها، فقد كان العنصر اليونانى مثلاً واضحاً فيها وقوياً دائما، واحتفظت حتى القرن السادس إن لم يكن بعد ذلك بتقاليدها الكلاسيكية، فأنتجت فى الفترة الأولى قطعا جميلة من العاج المنحوت ذات موضوعات وثنية، ثم كانت الإسكندرية فى الوقت نفسه على صلة قوية بسوريا، وتؤثر كل منهما فى الأخرى، وكلا المدينتين كانت من أهم المراكز الفنية والتجارية وقتئذ وكلاهما احتفظت بالروح الهلينستية، وكان من الطبيعى أن يكون لهم مكان القيادة فى جميع فروع الفن والواقع أن الجزء الأكبر من العاج المنحوت من الفترة فيما بين أواخر القرن الرابع أو السابع أو الثامن الميلادى لابد أن تكون من أصل مصرى سورى، ومن الصعب تحديد أحدهما كمصدر للفن.

هناك إذن فترتان فى حياة الإسكندرية، الفترة الأولى تمتد من عصر قسطنطين حتى القرن الخامس تقريبا، وفيها حافظت الإسكندرية على تقاليدها الكلاسيكية، ومن القطع المنسوبة إليها فى هذه الفترة، تلك القطعة الجميلة من العاج المنحوت المعروفة باسم عائلتين من أكبر العائلات الرومانية وقتئذ وهما سماخى ونيكوماخى (Symmachi &Nicomacchi) وقد عملت تخليدا لذكرى مصاهرة تمت بين هاتين العائلتين، وتتكون من ورقتين وتشبه إلى حد كبير مسند الكتب، ولكنها الآن موزعة بين متحفين مختلفين فى لندن وباريس، ونجد على إحدى الورقتين وهى الموجودة بلندن سيدة تقف أمام مذبح صغير لتقديم القرابين وأمامها ولد صغير يقدم لها إناء البخور الذى تأخذ منه قليلاً بيدها، والسيدة تلبس الملابس الكلاسيكية التقليدية التى تنساب ثيابها فى بساطة إلى أسفل، وعلى الورقة الثانية، وهى الموجودة بباريس سيدة مماثلة للأولى فى وقفتها وملابسها، وتقف مثلها فى ظلال شجرة كبيرة.

تقارن هذه القطعة بعدد من اللوحات العاجية المشهورة، والمنسوبة إلى مدرسة الإسكندرية أيضاً، وهى اللوحات الملتصقة بعرش مكسيميان بمدينة رفنة بإيطاليا، والموجودة فى كاتدرائيتها وهى متأخرة فى تاريخها عن القطعة السابقة، وترجع إلى القرن السادس أو قبل ذلك بقليل، ونرى هنا أن النحت مازال يحتفظ بوضوح بالتقاليد اليونانية القديمة، وذلك عند تصوير الأشخاص، وخاصة فى اللوحات الأمامية، التى تمثل يوحنا المعمدان وأربعة من الرسل، وهناك لوحات أخرى أصغر فى الحجم من السابقة على جانبى العرش، عليها مناظر من العهد الجديد ثم توجد لوحات ثالثة ملتصقة بظهر الكرسى عليها مناظر من قصة سيدنا يوسف، غير أننا بجانب صور الأشخاص هذه نجد مساحات واسعة مغطاة بزخارف نباتية وحيوانية، وفيها بلاشك.

مهارة فنية رائعة، والاعتقاد السائد أن مصدر مثل هذه الزخارف هو الأقاليم الشرقية، التى كانت دائما تميل إلى نوع من الفن، ثم وصلت إلى الإسكندرية عن طريق سورية.

وقبل أن نترك موضوع النحت يجب أن نشير إلى القنينات الفخارية المعروفة باسم أبومينا، وقد عثر عليها بكميات كبيرة فى الإسكندرية، وبمتحف المدينة الكثير منها، وقد كانت العادة بين المسيحيين منذ القدم هى الاعتقاد فى المعجزات، وقدرة القديسيين على شفاء مختلف العلل والأمراض، وذلك عن طريق اغتسال الشخص المريض فى عيون الماء القريبة من قبور هؤلاء القديسين، أو المسح ببعض الزيت الذى يحترق أمام القبر، وكان الزوار الذين يذهبون إلى هذه الأماكن المقدسة يحرصون على أن يحصلوا على قليل من الماء، أو على بعض نقط من الزيت المقدس فى أوعية يطلق عليها اسم قنينات (ampullae) ومن الواضح أن الكمية الصغيرة من السائل الموجود بالإناء كانت تستنفد بسرعة، ولكن الإناء نفسه كان يحتفظ بالقدرة على الشفاء وقد انتشرت هذه الأوعية

المقدسة من منطقة أبو مينا بمريوط إلى جميع أنحاء العالم القديم، وعثر عليها فى روما واليونان والبلقان وغيرها، ونجد عليها عادة القديس أبو مينا ممثلا كجندى رومانى، تحيط برأسه هالة، وهو يصلى بين جملين راكضين، ونجد اسمه مكتوبا بجواره فى العادة.

النقش :

تعتبر الصور المنقوشة على حيطان المقابر الأرضية فى روما وغيرها من أول النقوش المسيحية وأقدمها، وإذا كانت هذه النقوش قد اختفت تماما من مقابر الإسكندرية، فإن البعض يعتقد أن روما نفسها تعلمت هذا الفن من الإسكندرية، ولو أن الرطوبة الزائدة بمدينتنا لم تساعد على المحافظة عليها بينما احتفظت روما بنقوش رائعة الجمال، وغير أن هناك ميدانا آخر للنقش برعت فيه الإسكندرية، وبقيت لنا منه أمثلة كثيرة، ذلك هو فن تصوير الكتب، وتزيينها بالرسوم الملونة، وقد كان للكتب أهمية كبيرة بالإسكندرية دائما ، ويكفى أن نذكر فى هذا المقام خطابا يرجع إلى عام ٢٩٠ميلادية، فتاريخه فى الحقيقة متقدم قليلا، وقد كتبه أسقف الإسكندرية المعروف ثيوناس إلى رجل يدعى لوقيانوس كان يعمل أمينا بمكتبة الأمبراطور فى القسطنطينية، يذكره فيه بما للمكتبة من أهمية، فهى أثمن ما فى قصر الأمبراطور، ويقول أنه يجب على المسيحى ألا يترفع عن مطالعة كتب الأدب الدنيوى، وعلى أمين خزانة الكتب أن يكون ملما بكل ما فيها، وأن يرتبها على نظام ثابت، ويجعل لها ثبتا تدون فيها أسماؤها، وعليه أن يستوثق من أمر الكتب، وأن الكتب التى عنده منها صحيحة غير محرفة، وعليه أن يعيد كتابة النسخ وتصويرها إذا هى بليت. هذا الخطاب يدلنا على الأقل على أن كبير الأساقفة بالإسكندرية كان على علم بأمور مكتبة عظيمة الشأن، وقد ازدادت صناعة إيضاح الكتب بالرسم وانتشرت فى أثناء القرون الثلاثة التى تلت كتابة هذا الخطاب، ولم تقل أهميتها، والحقيقة أن فن الكتب المزخرفة، ورسم الصور الصغيرة فى الكتب كان شائعا، وبلغ حدا كبيرا من الاتقان فى جميع بلاد الشرق، ولكنه لم يبلغ فى أى مكان ما بلغه فى الإسكندرية التى يعتقد الكثيرون أن هذا الفن نشأ فيها، وسرعان ما أصبح إيضاح الكتب من أهم الأعمال التى يشغل بها جميع رهبان الأديرة فى مصر وقتها، تماما مثل ما حدث فى أوروبا فيما بعد، فكان من الرهبان من يقضون أعمارهم فى كتابة الكتب، وتجميل صفحاتها بأبدع أنواع الزخارف وأجمل الألوان.

وهناك ثلاثة كتب شهيرة على الأقل يغلب على الظن أنها من إنتاج الإسكندرية فى وقت مبكر، أولها الكتاب المعروف باسم (الياذة ميلان)، من القرن الرابع أو الخامس، وفيه إلى جانب أشعار هوميروس صورا جميلة توضح النص فيه وتقربه إلى ذهن القارىء، وثانيها نسخة الإنجيل الموجودة بلندن، والمعروفة باسم أول من اقتناها وهو أحد الأثرياء فى إنجلترا واسمه (كوتون)، وهذا الكتاب لايقل عن إلياذة ميلان فى الجمال ودقة التصوير واختيار الألوان، وللأسف أن الحريق قد أتلف معظم أجزائه، فلم يبق منه إلا القليل، واختفت أغلب الصور التى كانت موجودة به. وأخيرا أن هناك كتاب خاص بالرحلات التى قام بها شخص يدعى كوزماس أنديكوبليوستوس (cosmas indicopleustes). وقد كتب فى الإسكندرية فى القرن السادس، وإن كانت أقدم نسخة منها ما تزال محفوظة حتى الآن كتلك الموجودة بمتخف الفاتيكان وترجع إلى القرن التاسع.

الفرع الأخير من فروع الفن المسيحى الذى نتكلم عنه وهو الأيقونات الدينية وما يشبهها من اللوحات المصنوعة من الخشب والمرسوم عليها صور القديسين والشهداء، لتعلق على جدران الكنائس، وترتبط هذه الأيقونات ارتباط وثيقا بأقنعة الموميات، أو الصور الملونة التى كان المصريون القدماء يضعونها فوق الموميات لتغطى الوجه، وفى القرون المسيحية الأولى كانت المدرسة الفنية بالإسكندرية قد وصلت إلى مرحلة كبيرة من التقدم وأصبح فى مقدورها أن تنتج بسرعة وبسعر رخيص قناعا للشخص المتوفى بمجرد الحاجة إليه، وقد

نبعت الأيقونات من هذه الأقنعة ومقارنة بسيطة بين الاثنين توضح لنا هذه الحقيقة، فالتصوير فى كلتا الحالتين يتميز بالجمال ونضارة الألوان والواقعية المؤثرة، والنظرة البعيدة التى تخرج بالأشخاص عن حدود الواقع إلى وراء الحياة، وما زالت توجد بدير سانت كاترين بسيناء أيقونات عديدة من القرنين الخامس والسادس تظهر لنا هذه الصفات بوضوح ومركزها مدينة الإسكندرية التى احتفظت من ناحية بالتقاليد الكلاسيكية فى الفن، وذلك حتى عصر متأخر، ومن ناحية أخرى تأثرت بالفن المصرى التقليدى، وبالفن القبطى الناشىء، بل أن من الغريب أن طريقة رسم هذه الأيقونات عن طريق خلط الألوان بالشمع وهى نفس الطريقة التى كانت مستعملة فى أقنعة المومياتِ وتدلنا على الأصل المصرى لهذا الفرع من الفن.

فن العمارة فى العصر البيزنطى (كنائس الإسكندرية)

مما يؤسف له أن الكنائس العديدة التى أقيمت بالإسكندرية طوال العصر البيزنطى قد اختفت تماما ولم يبق لها أثر، وحتى البقايا التى يحتمل أن تكون قد بقيت إلى أوائل القرن الماضى عندما كانت المدينة قد اضمحلت، وأصبحت لاتزيد عن قرية صغيرة يسكنها بضعة آلاف من السكان، أزيلت بدورها لتفسح المجال لنمو المدينة الحديثة. وتعطينا المصادر التاريخية أسماء بعض الكنائس التى أقامها أساقفة المدينة العظام أمثال أثناسيوس وثيوفيلوس ولكننا لانعرف شيئاً عن نظامها وعمارتها، ولا حتى مكانها على وجه التحديد، بعد أن تغيرت طبوغرافية المدينة كثيرا عما كانت عليه فى العصر الأول، وكل ما نستطيع أن نستخلصه من هذه الأوصاف أن معظم الكنائس كانت مبنية على الطراز البازيليكى وهو الطراز الذى كان شائعا فى العصر البيزنطى والذى يعتمد على صفوف متوازية من الأعمدة تحمل سقفا خشبيا.

نسمع أن القديس مرقص بعد قليل من مجيئه إلى الإسكندرية كون عددا كبيرا من الأتباع، فقد انتشرت المسيحية بسرعة، والواقع أن التلوين بالزيت بالشكل المعروف باسم encaustic لم يكن مستعملا فى الفن المسيحى الأول والفن البيزنطى.

(١) وقد تم بناء كنيسة فى مكان يسمى بوكاليس (baucallis) بالقرب من البحر، ولاندرى أن كان المسيحيون فى هذا الوقت المبكر، وجدوا الإمكانيات الكافية والظروف المواتية لإقامة كنيسة على نطاق واسع.

كانت أشهر كنائس الإسكندرية وربما أقدمها فى التاريخ تلك التى بناها الأسقف ثيوناس(٢٨٢ - ٣٠٠) بالقرب من الميناء الغربى (يونوستوس (eunostos) ثم أعاد بناءها، وزاد من حجمها الأسقف اسكندر، وبقيت حتى نهاية القرن الرابع الكنيسة الكبرى، ومقر الأسقف، وكانت هذه هى الكنيسة التى هاجمت فيها الحامية الرومانية أثناسيوس وهو على رأس المصلين وقد فقدت هذه الكنيسة أهميتها بعض الشىء فى القرن السادس عندما كانت كنيسة القيصريون (caeserium) هى الرئيسية، وأخيرا حولها العرب إلى مسجد سمى بالجامع الغربى، أو جامع الألف عامود (ولعل ذلك يعنى مبنى من الطراز البازيليكى).

هناك أيضاً كنيسة القديس مرقص، وكانت تقع على شاطىء البحر ويمكن رؤيتها من السفن عند دخولها إلى الميناء الشرقية، ولاشك أنها تبعد كثيرا عن الكنيسة المرقصية الحالية، وعند الفتح العربى كان مايزال بها مدفن من المرمر يحوى جثمان مؤسس الكنيسة المصرية، وهو الجثمان الذى اختطفه تجار البندقية فى القرن التاسع، ونقلوه إلى إيطاليا بالقرب من الكنيسة السابقة كان يقع القيصريون الذى سبقت الإشارة إليه.

والمبنى كان أصلا معبدا أقامته كيلوباترا تمجيدا لمارك أنطونيو، لم ينتهى البناء إلا فى عصر الأمبراطور أغسطس وقد تحول إلى كنيسة مسيحية فى عصر قسطنطين باسم القديس ميخائيل، وإن كان قد احتفظ بالاسم القديم (قيصريون) حتى الفتح العربى، وقد تهدم وتم إصلاحه عدة مرات، فمثلا فى عام ٣٣٦، فى أيام الأمبراطور أنستاسيوس هاجمته المجموعة الثائرة من الوثنيين والأريوسيين وأحدثو به تدمير كبير ثم قام أتناسيوس بإعادة بنائه من جديد فى عام ٣٦٨، فى عصر الأمبراطور فالتر ومنذ ذلك الوقت كانت هى الكنيسة

الرسمية، ويظهر إنها لم تبق طويلا بعد دخول العرب إلى المدينة.

في عـام ٣٧٠، افـتـتح أثناسـيـوس كنيـسـة حـملت اسـمـه، في حي من أحـيـاء المدينة يسـمى بنديديون bandidion، وهي كنيـسـة نالت هـي الأخرى شـهرة واسـعة وكانت تحتوي على عدد كـبير من الأعـمدة القديمة من الرخام والجرانيت.

دير أبو مينا بمريوط.

(أ) بقايا كنيسة قسطنطين (ب) كنيسة أثناسيوس (ج) كنيسة زركاديوس

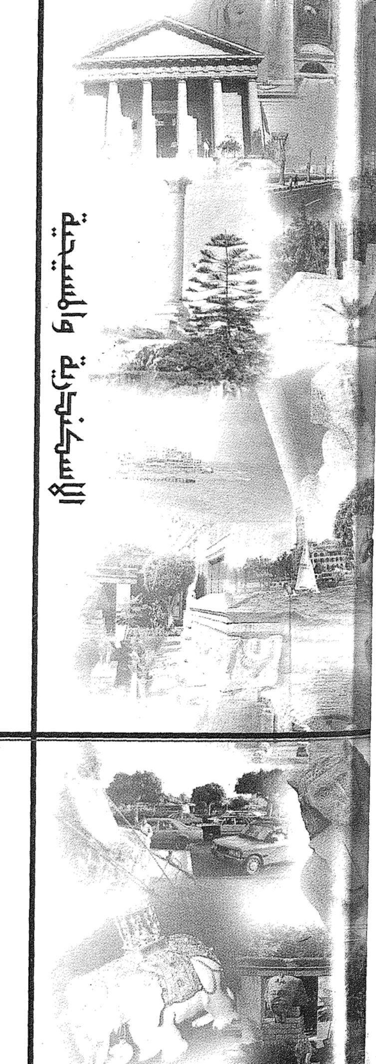
(د) المعمودية (هـ) صالة جانبية (و) المباني الأرضية

وهناك أيضا كنائس لاحصر لها، لم يبق لنا منها سوى أسماؤها، ولكن ربما استطعنا أن نكون فكرة عن نوع العمارة المسيحية في الإسكندرية في العصر البيزنطي من دراسة بقايا الكنائس الموجودة في منطقة مريوط إلى جنوب وغرب الإسكندرية، وكانت المنطقة على اتصال وثيق بالعاصمة تعتمد عليها في تصريف منتجاتها من كروم وزيتون وحبوب وغيرها، كما أن دراسة تاريخ هذه المباني تدلنا على مدى اتصالها بأساقفة الإسكندرية، الذين أشرفوا على البناء، وكانوا المسئولين عنه، فهي تعتبر بحق نماذج من العمارة المسيحية بالإسكندرية، وأكبر وأهم هذه المباني يوجد في منطقة أبو مينا، التي تقع على مسافة حوالي ٦٠ كيلو مترا من الإسكندرية في وسط إقليم مريوط ومع إنها مهدمة تماما الآن، إلا أنها كانت في وقت ما تزخر بالحياة، وتجتذب الآلاف من الحجاج والزوار من جميع أنحاء العالم، اجتذبتهم شهرة القديس، وسمعته العالمية.

كما نجد دائما في حالة مشاهير القديسين والأولياء، هناك قصص لاحصر لها تدور حول حياة القديس أبومينا وأعماله، لدرجة يصعب معها التفرقة بين الحقيقة والخيال نستنتج منها على أي حال أنه كان أحد الذين استشهدوا في سبيل دينهم في أوائل القرن الرابع الميلادي، ودفن في مقبرة بمريوط، منحوتة في الصخر، من النوع الذي نجده هنا بالأسكندرية من العصر الروماني، وفي حوالي منتصف القرن نفسه تم اكتشاف جثة القديس، ووجدت فيها خصائص خارقة لشفاء الأمراض، على كل حال منذ ذلك الوقت بدأت هذه البقعة تزداد أهمية، وتصبح محط الأنظار، حتى أصبح من الضروري بناء كنيسة كبيرة تأوي الأعداد المتزايدة من الزوار، وتقيهم حرارة الشمس، وأخطار هذا المكان المنعزل، وأخذ القديس اثناسيوس على عاتقه القيام بعملية الإنشاء التي بدأت في عهد الأمبراطور جوفيان في عام ٣٦٣ ـ ٣٦٤ وانتهت قبل وفاة فالنتيان الأول في حوالي ٣٧٥، وتدل البقايا الموجودة الآن بالمكان على أيها كانت بازيليكا كبيرة على شكل حرف T بها صفان داخليان من الأعمدة.

ومرة أخرى أصبحت الكنيسة أصغر من أن تفي بالغرض المقصود منها، بعد أن استمرت أهمية المكان في الازدياد، وأخذت وفود الزوار تتقاطر عليه من مختلف البلاد ـ كما يدل على ذلك كثرة المسارج الفخارية المعروفة باسم أبومينا، والتي عثر عليها بأعداد كبيرة في أماكن متعددة، وكانت هذه المسارج يأخذها الزوار معهم، تذكارا لزيارتهم، وتبركا بالقديس العظيم، لهذا بدأ الأسقف ثيوفيلوس عملية بناء المكان مرة أخرى، على نطاق أكبر مما كان عليه، وقد بدأ البناء في عصر الأمبراطور اركاديوس (٣٩٥ ـ ٤٠٨)، وأصبح في حالة تسمح بالاحتفال بافتتاحه رسميا قبل وفاة ثيوفيلوس، وإن كانت عملية الزخرفة ونحت الرخام والتشطيبات النهائية قد استمرت لسنوات عديدة بعد ذلك، الكنيسة الجديدة كانت بازيليكا على شكل حرف T يمثل سابقتها، وبها صفان من الأعمدة الرخامية، يحملان السقف الخشبي الذي كان يغطي المكان، وتعتبر هذه البازيليكا من أضخم المباني التي أقيمت بالبلاد في هذه الفترة، والتي بقيت لنا آثار منها.

هاتان الكنيستان ـ كنيسة أثناسيوس وكنيسة ثيوفيلوس ـ تم بناؤها في وقت كانت فيه الإسكندرية في أوج عظمتها ومجدها، ولاشك أنها أقيمتا على نفس النمط الذي كانت تقام عليه الكنائس في العاصمة نفسها، فمن الممكن إذن أن نكون عن طريقهما فكرة عن نوع الكنائس التي كانت بالمدينة في هذا الوقت.



الفصـــل الأول :

الفـــراغ الروحى فى الإسكندريـة
و روما قبل ظهور المسيحية.

الفصـــل الثانى :

الحركة الفكرية فى الإسكندرية فى
القرون الأولى للمسيحية.

الجزء الثانى

الإسكندرية والمسيحية

أ. د. محمد محمد مرسى الشيخ

الفراغ الروحى فى الاسكندرية وروما قبل ظهور المسيحية :

حديثنا عن الإسكندرية وموقفها من المسيحية يختص بالفترة الواقعة أواخر العصر الرومانى وخلال العصر البيزنطى باعتبار أن الإسكندرية كانت حاضرة البلاد وأهم مدن القطر وولاية مصر التابعة لروما ثم لبيزنطة حتى مجيء العرب المسلمين وفتحهم لمصر والاسكندرية قرب منتصف القرن السابع الميلادى.

إذا تناولنا ديانة الأمبراطورية الرومانية قبل ظهور المسيحية نجد أن تلك الديانة كانت تهدف إلى عبادة الأمبراطور وتقديسه هو وأسرته وحكام الإمبراطورية من مات منهم ومن هو على قيد الحياة، وتحتم على الرعايا الدخول إلى المعابد الوثنية لتقديم القرابين باسم الأمبراطور، فضلا عن أنها أوجبت الإيمان بما كان يعبده الإمبراطور من آلهة مثل إله الرومان مارس وثالوث الآلهة على الكابيتول:

جوبيتر ويونو ومنيرفا، وغيرها من الآلة القديمة. ولم يكن حرص الأباطرة على استمرار عبادة الأمبراطور إلا بقدر اهتمامهم بوجوب طاعة هؤلاء الرعايا لهم، لأن دخول الناس المعابد الوثنية وتقديم القرابين باسم الإمبراطور لم يكن مجرد رسوم عبادة وتقاليد دينية فحسب، بل كان أيضا لونا من ألوان الطاعة السياسية للإمبراطور.

إلا أن هذه الديانة والمعبودات الأخرى اليونانية والرومانية، أخذت تفقد جاذبيتها بمرور الوقت، وفشلت فى استقطاب أصحاب العقول المستنيرة وذوى الفكر الحر من الرجال والنساء الذين لم يجدوا فى وثنية الدولة وعباداتها الرسمية ما يشبع عقولهم أو يشفى غليلهم، وجاء قصور هذه الديانة الرومانية عن وضع حلول مرضية لمشاكل الحياة الحاضرة والمستقبلة فضلا عن عجزها عن إفادة الناس فى أوقات الشدة وعند نزول الملمات سببا فى انصراف الأفئدة عنها والشعور بالفراغ الروحى الكبير فى النواحى الدينية والروحية، لاسيما من أصحاب الفكر وذوى العقول المستنيرة.

لذلك تحول هؤلاء إلى الفلسفة ينهلون من مذاهبها ويطفئون ظمأهم فى مدارسها الفلسفية فأوغلت الطبقات العليا المثقفة فى الرواقية وفى الأفلاطونية الحديثة والغنوصية واتجه بعض الناس فى إيطاليا وبلاد اليونان إلى بعض الآلهة المحلية يلتمسون منها الخير والبركة والصحة وقضاء الحاجات، واتجه آخرون إلى عبادات الشرق الدافقة بالحيوية والتى كانت توفر لكل شخص مهما بلغ إدراكه وضعفت ثقافته نعمة التطهر من الآثام والأمل فى حياة أبدية خالدة وعبادة إيزيس وسرابيس وعبادة إله الشمس وإله السماء، وعبادة ميتراس وعبادة سيبل وغيرها من المعبودات الشرقية، وساعد على انتشار هذه العبادات الشرقية ما حدث من انصراف الأباطرة الرومان عن مناهضتها أو الوقوف فى وجهها مادامت لاتتعارض مع مصالحهم أو تناهض سيادتهم.

غير أنه لم يمض وقت طويل أيضا حتى فقدت هذه العبادات الشرقية بريقها، ولم تعد تحظى بكل الاهتمام لأنها لم تفد إلى العالم الرومانى كعقائد لها كتبها المقدسة أو أدبها المقدس بل بدت وكأنها أشكال عبادات طوعتها الحضارة الهللينية، وكيفت ما فيها من أفكار ولهذا لم تعمر طويلا، وإذا كانت قد لقيت رواجا بين الناس لفترة فإنه كان رواجا وقتيا.

ومرة أخرى يطغى الإحساس بالفراغ الروحى على رعايا العالم الرومانى، إذ لم تستطع عبادة الإمبراطور أن تملأه أو الآلهه القديمة التى يعبدها الناس أو اتجاه المثقفين نحو المذاهب الفلسفية أو التماس الخير والسعادة فى الآلهة اليونانية أو الإيطالية أو الاتجاه نحو العبادات الشرقية أو الوافدة من الشرق، لأن كل هذه

المعبودات بعدت عن الآفاق السماوية، واتسمت بالتطرف والجمود، ولم تستطع أن تقدم حلولا لمشاكل الناس الحاضرة أو المستقبلة أو تقدم لهم المعونة فى أوقات الشدة وعند نزول الملمات، فاستمر الفراغ الروحى لدى رعايا الإمبراطورية، لاسيما بين المثقفين منهم وأصحاب الفكر المستنير.

ظهور المسيحية ودخولها مصر وبداية انتشارها :

وسط ذلك الفراغ الروحى الذى عم رعايا الإمبراطورية الرومانية، واستمرار عبادة الإمبراطور وتعدد الآلهة المحلية والوافدة من الشرق والإقبال على المذاهب الفلسفية بالغة التعقيد وبعث بعض الآلهة اليونانية والإيطالية، بدأت المسيحية تتفوق على ماعداها من عقائد وطقوس وتتقدم نحو آفاق جديدة لتملأ الفراغ الروحى فى حياة شعوب الإمبراطورية الرومانية.

وكان السيد المسيح قد ولد زمن الإمبراطور الرومانى أوغسطس فى بيت لحم بفلسطين، وبدأت المسيحية متواضعة بين رسله وتلاميذه الذين أخلصوا له وتعهدوا تعاليمه حتى توفى المسيح سنة ٣٠ بعد الميلاد، فواصل أتباعه ممارسة الطقوس المسيحية وتعبدوا فى هيكل سليمان وتجمعوا فى أروقته، وكانوا جميعا يهودا من الطبقات الدنيا فى المجتمع ومن أنحاء مختلفة ومدن متعددة من القدس والخليل ومن سائر أنحاء فلسطين وبعضهم كان من مصر وليبيا ومن القيروان ومنهم بعض العرب من الجزيرة العربية.

وعلى الرغم من أنه ليس لدينا تفصيلات كثيرة عن الفترة الأولى من تاريخ المسيحية، وأعداد المسيحيين فى تلك الفترة إلا أن الروايات تشير إلى أنهم كانوا فى البداية مائة وعشرون، ثم أصبحوا خمسمائة ثم زادوا إلى نحو ثلاثة آلاف ثم إلى خمسة آلاف فى الفترة ما بين ٣٥، ٣٧ بعد الميلاد واستمروا فى الزيادة لأن المؤرخ الرومانى تاكيتوس يشير إلى أن عددهم بلغ رقما كبيرا فى فترة اضطهادات نيرون أى فيما بين سنتى ٥٤ ، ٦٨ م ثم بلغ عددهم فى روما وحدها نحو خمسين ألفا ثم أصبحت كنيسة روما التى أسسها بطرس، أول كنائس المسيحية وأكثرها شهرة./

وكان انتشار المسيحية حينئذ حثيثا بين الطبقات الدنيا فى المجتمع أكثر من انتشارها بين الطبقات العليا إذ اعتنقها الفلاحون والعبيد والكادحون وقليل من علية القوم فلم تعدم دخول بعض رجال الطبقة المميزة فى المجتمع وإذا كانت معلوماتنا عن تلك الفترة المبكرة من عهد المسيحية معلومات ضئيلة إلا أن هناك مايدل على تقدم الرسل الأثنى عشر بين المسيحيين، وعلى تقدم التلاميذ السبعين بعد هؤلاء، وهناك مايدل أيضا على تميز بعض الرسل مثل بطرس ويوحنا ويعقوب، فضلا عما أداه بولس من خدمات جليلة للمسيحية بعد ذلك.

ارتبط تاريخ المسيحية فى الفترة الأولى بثلاث شخصيات كان لها دور كبير فى تقدمها وانتشارها وإرساء أسسها وتنظيم لاهوتها وهم : بولس وبطرس ومرقس. أما بولس فقد ولد فى طرسوس بين السنة الخامسة والسنة العاشرة بعد الميلاد، ودرس الشريعة اليهودية والناموس ونال قسطا من الفلسفة بطريق التحصيل الشخصى لابالدرس أو التعليم، لأن والده أبعده عن المدارس اليونانية ورحل فى صباه إلى بيت المقدس فى طلب العلوم الدينية، فتعصب كثيرا لليهودية وتعقب من اعتنق النصرانية ومن تحول إلى المسيحية ليضطهدهم باسم الناموس، فذهب سنة ٣١م إلى دمشق ليتصدى للنصرانية ويوقف انتشارها بين اليهود وما إن اقترب من دمشق - كما تذهب الرواية - حتى أبرق نور من السماء فسقط على الأرض وسمع صوتا يقول له : شاوول لماذا تضطهدنى؟ فكان ما كان من أمر تنصره.

بدأ بولس التبشير بالمسيحية بين يهود دمشق ثم ذهب إلى أنطاكية، التى انتشرت المسيحية بين أهلها انتشارا واسعاً فقضى بها سنوات حتى اختاره كبير المسيحيين بها للتبشير بالمسيحية فى الأقاليم المجاورة، فقام برحلات إلى قبرص وإلى آسيا الصغرى وبعض جزر الأرخبيل وعلى طول الساحل الشامى فى صور وعكا وقيصرية وداخل فلسطين وفى بيت المقدس وذلك فيما بين ٤٥ و ٥٨ وعاونه مرقس وبعض الرجال الأتقياء فى أداء مهمته وفى سنة ٥٨م ثار عليه اليهود فى هيكل سليمان وسيق إلى السجن بأمر الحاكم الرومانى حيث قضى نحو

عامين ثم أرسل إلى روما لمحاكمته أمام نيرون ويرجح أنه أعدم سنة ٦٤م مع بطرس وغيرهم من ضحايا نيرون.

وقد قدم بولس خدمات جليلة للمسيحية بمثابرته ودأبه حتى استطاع أن يحول الكنيسة البادئة إلى هيئة منظمة ورسالة عامة، ونجح فى أن يستخلص من تعاليم السيد المسيح أسس الدعوة المسيحية وأن يرسى دعائم اللاهوت المسيحى وأسس الكنيسة العالمية، كما نجح فى التبشير بالمسيحية حتى انبثت فى سائر أنحاء الشرق، ثم امتدت إلى إيطاليا وروما.

أما ثانى الشخصيات المسيحية الهامة فهو بطرس الذى كان من تلامذة السيد المسيح أو رسله وحوارييه، بشر بالمسيحية فى فلسطين بين اليهود وتابع رسالته فى مدينة يافا حتى رأى أن الله يأمره بالتبشير لكل العالم «أذهبوا إلى العالم أجمع واكرزوا بالإنجيل للخليقة كلها» فلما شرع فى ذلك قبض عليه وجرى سجنه سنة ٤١م. وعندما خرج منه توجه إلى أنطاكية سنة ٤٥م وأقام بها ثمانى سنوات حتى سنة ٥٣م ثم سافر إلى روما فى نفس العام ليؤسس فيها الكنيسة المسيحية ثم جرى إعدامه مع بولس وغيره على يد نيرون سنة ٦٤م على الأرجح.

أما ثالث الشخصيات المسيحية الهامة فهو مرقس الإنجيلى، فقد أسس كنيسة الأسكندرية بعد حياة حافلة فى خدمة العقيدة ومعاونة صادقة لبولس فى التبشير، وسافر إلى روما أيضا ولكنه عاد مباشرة إلى الاسكندرية للتبشير فيها بين اليهود فنزل بحى اليهود بالاسكندرية، فكان أول من بشر بالإنجيل فى مصر كما غدا أول أسقف مسيحى بالاسكندرية، وعلى يديه اعتنق أول رجل المسيحية فى مصر من اليهود، وفى الاسكندرية لقى مرقس حتفه سنة ٦٢م أو سنة ٦٨م فى بعض الروايات ونقل البنادقة رفاته إلى مدينتهم فى القرن التاسع الميلادى.

أما عن دخول المسيحية إلى الإسكندرية ومصر، فيبدو أنه حدث منذ البداية، فقد كان ضمن المسيحيين الأوائل الذين تعبدوا فى هيكل سليمان عدد من المصريين، ثم حمل التجار إلى الإسكندرية تباشير العقيدة الجديدة والذين لم تنقطع وفودهم عنها من كافة الأنحاء وهيأت تجارتها الواسعة وقربها من فلسطين فرصة سهلة للديانة الجديدة النفاذ إليها، فبدأ بعض أهلها اعتناق المسيحية ثم بدأت تنتشر منها إلى سائر أنحاء مصر، فقد عثر على أربع برديات قديمة فى مصر الوسطى تتعلق بالعقيدة المسيحية وترجع إلى منتصف القرن الثانى الميلادى، مما يؤكد وصول المسيحية إلى تلك المناطق فى تلك الفترة المتقدمة، ثم انتشرت المسيحية فى الوجه القبلى فى أواخر القرن الثانى الميلادى.

ومن العوامل التى ساعدت على سرعة انتشار المسيحية فى الاسكندرية وفى مصر: الاستعداد الفطرى لدى الشعب المصرى للإيمان بإله واحد، لأن المصريين كانوا أول الشعوب التى آمنت بالوحدانية منذ عهد اخناتون، فضلا عن إيمانهم بالحياة بعد الموت والحساب والعقاب فى الحياة الأخرى أو الحياة الآخرة، بالإضافة إلى أن قصة السيد المسيح وآلامه والمبادىء السامية التى دعا إليها وأكدت عليها المسيحية وأبرزها: الوحدانية والتطهر والمساواة كانت عوامل جذب هامة للمصريين للدخول فى العقيدة الجديدة، فضلا عن أن المصريين ربما وجدوا فى العقيدة الجديدة فرصة للتعبير عن معارضتهم للسلطات الرومانية بعد أن فقدت مصر استقلالها وغدت ولاية تابعة لروما. هذا إلى جانب ما أبداه المصريون من إعجاب بالمعجزات وما شاع من قدرة المسيحيين على دفع الشياطين وشفاء المرضى وإحياء الموتى وكلها أمور جذبت انتباه المصريين للعقيدة الجديدة، وهيأت أذهانهم لاعتناق المسيحية.

الاضطهادات الدينية للمسيحيين فى الاسكندرية :

على الرغم من أن الاضطهاد الدينى أمر مريع ومخيف لأى جماعة أو أشياع عقيدة أو مذهب أو رأى، وعلى الرغم أيضا من أن الاضطهاد الدينى أثار كثيرا من الفزع والأسى فى نفوس المسيحيين الأوائل خلال عهود الاضطهاد، إلا أن هذه الاضطهادات الدينية هى التى صهرت المسيحيين وأظهرت قدرتهم، وكان لها فضل عليهم، لأنها كانت سببا فى زيادة انتشار العقيدة الجديدة وذيوعها حتى جرى الاعتراف بها ثم غدت فى

نهاية الأمر الدين الرسمى للدولة..

ولقد حصر المؤرخون الاضطهادات الدينية التى نزلت بالمسيحية منذ بداية انتشار المسيحية حتى صدور مرسوم التسامح الدين والاعتراف بالمسيحية، أى فى الفترة الواقعة بين سنتى ٦٤م و ٣١٣م بعشرة اضطهادات بداية من التشريع الخاص الذى أصدره الأمبراطور نيرون سنة ٦٤م، والذى حظر بموجبه اعتناق المسيحية على رعايا الامبراطورية، ومن خالف ذلك عرض نفسه للعقاب، فكثر ضحايا هذه الاضطهادات حتى لايمكن تحديد أعدادهم من رجال الدين ومن عامة المسيحيين، على الرغم من أن هذه الاضطهادات لم تكن فى كل الأحوال عامة أو شاملة، لأنها ربما جرت فى إقليم دون الآخر وربما حدثت فى مصر دون بقية أنحاء الامبراطورية والعكس.

وسيقتصر حديثنا عن هذه الاضطهادات على تلك التى جرت فى الاسكندرية منذ بداية انتشار المسيحية حتى عصر الامبراطور دقلديانوس أى إلى أواخر القرن الثالث الميلادى ومطلع القرن الرابع الميلادى.

فعلى أثر ما جرى فى روما فى عصر نيرون من اضطهاد وقتل وتعذيب للمسيحيين راح ضحيته الرسولان بولس وبطرس، هجم الوثنيون فى الاسكندرية على كنيسة للمسيحيين بشرقى المدينة سنة ٦٨م فقتلوا القديس مرقس بعد أن جروه بالحبال فى شوارع المدينة حتى مزقوا لحمه، وتكرر الاضطهاد قرب أواخر القرن الأول الميلادى سنة ٩٨م على عهد الامبواطور تراجان حيث لقى بعض الأساقفة فى مصر وفى الاسكندرية حتفهم، وجرى التنكيل بالمسيحيين فى الاسكندرية مثل بقية الأنحاء.

وفى عهد الامبراطور سبتموس سفروس أى فى أوائل القرن الثالث الميلادى تصاعدت الاضطهادات حتى بلغ من شدتها أن واجه المسيحيون الموت والتعذيب، وملئت السجون فى الاسكندرية ومصر بالنصارى وأرسل كثير من المسيحيين من سائر الجهات فى مصر ليحاكموا فى الاسكندرية، فلقى كثير منهم شتى أنواع التعذيب على أيدى الجلادين. وعلى عهد الامبراطور دكيوس (٢٤٩ ـ ٢٥١) وقرب منتصف القرن الثالث الميلادى جرت محاولة أخرى للقضاء على المسيحية والتخلص من أتباعها، فقد أصدر هذا الامبراطور مرسوما يحتم على كل شخص تقديم شهادة تثبت أن حاملها قام بتقديم القرابين باسم الامبراطور فى المعابد الوثنية إلى لجنة من رجال السلطة شكلت لهذا الغرض ومن لم يفعل تعرض للتنكيل، فلقى كثير من المسيحيين فى مصر والاسكندرية حتفهم فى هذا الاضطهاد.

ثم لاحق الامبراطور فاليريان (٢٥٣ ـ ٢٦٠م) زعماء المسيحيين والكهنة، فحرم على المسيحيين الاجتماع فى دور العبادة أو فى المقابر، وتعرض عدد كبير من المسيحيين والكهنة، للموت بالاختناق فى أحد السراديب حيث كانوا يتعبدون وأعدم فى الاسكندرية عدد كبير من رجال الدين ومن عامة المسيحيين.

لكن أسوأ الاضطهادات الدينية وأفدحها تلك التى حدثت على عهد الامبراطور ذائع الصيت دقلديانوس (٢٨٤ ـ ٣٠٥)، الذى كره المسيحية كعقيدة جديدة نشطت للقضاء على ولاء الناس للامبراطور، وأرهصت بتحطيم وحدة الامبراطورية. وزاد سخط هذا الامبراطور حين اشتطت المسيحية وتطرفت وبدأت تخير أتباعها بين الولاء للمسيح أو الولاء للامبراطور وحين تعدت نطاق التأثير فى المجتمع إلى التأثير فى الجيش وقضت على ولاء كثير من الجند للامبراطور، ومثلت دولة داخل الدولة وشكلت جماعات سرية بدا من نشاطها أنها لاتقيم وزنا كبيرا لنظام الدولة ورسومها.

فجرى اضطهاد كبير للمسيحية وأتباعها قبل سنوات قليلة من اعتزال دقلديانوس السلطة، أى فى أوائل القرن الرابع الميلادى، فبدأت سنة ٣٠٢م أكبر حركة اضطهاد للمسيحيين جرى فى البداية طردهم من البلاط ومن صفوف الجيش، ونفيهم إلى جهات نائية وحرمانهم من حقوق المواطنة، ومنعهم من تولى الوظائف الإدارية، وحرق كتبهم المقدسة، وهدم كنائسهم ومنع عتق الأرقاء منهم، ثم أعقب ذلك بالعقوبات البدنية، كصم الآذان وجدع الأنوف وفقأ الأعين، وتهشيم الأسنان، وقطع الأطراف، والألسن، ودق الحديد فى البطون، ثم اتبع ذلك بحركة قتل وتنكيل سنة ٣٠٤م فأحدث مذابح بشرية رهيبة جرى فيها إعدام كثير من المسيحيين فى

مصر وفى الإسكندرية بالذات وإذاقتهم ألوان العذاب، إذ قذف الكثير منهم فى حفر النيران المشتعلة أو صلبوا وأشعلت تحتهم النيران، أو أدخلوا أقفاص أسود جائعة وحيوانات مفترسة، الأمر الذى أدى إلى تخلى بعضهم عن عقيدته، وجعل السنوات الأخيرة من حكم هذا الامبراطور محنة للمسيحيين فى مصر حتى أطلق المصريون على عهد هذا الامبراطور (عصر الشهداء) واتخذت الكنيسة القبطية بدء تقويمها بسنة ولاية هذا الامبراطور (٢٨٤م) وسمى هذا التقويم بتقويم الشهداء.

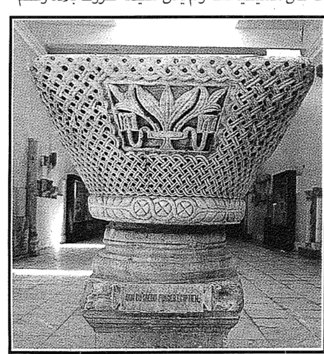
غير أن هذه الاضطهادات الدينية جاءت بنتيجة عكسية، وكانت عاملا من عوامل انتشار المسيحية، لأن بطولة هؤلاء الشهداء جذبت انتباه كثير من الوثنيين وأثارت اهتمامهم بالعقيدة الجديدة، فما لبثوا أن دخلوا فيها فانتشرت المسيحية وسادت فى الاسكندرية وجهات أخرى فى مصر.

اعتراف قنسطنطين الكبير بالمسيحية :

كان قنسطنطين قد التحق فى صدر شبابه بخدمة الامبراطور دقلديانوس، وتجول معه فى الأقاليم الشرقية من الامبراطورية ومنها مصر، ووقف على أحوال المسيحيين ومدى انتشار عقيدتهم فى تلك الجهات واقتنع قنسطنطين خلال ذلك بقوة المسيحية وأهميتها وضرورة تغيير سياسة الدولة تجاه أتباعها، فلما وصل إلى العرش وانفرد بالسلطة فى الامبراطورية وتغلب على كل خصومه، بعد أن أفهمه المسيحيون أن كل ذلك كان بفضل تأييد إلههم الذى سبق أن وعده بالنصر فأسهم ذلك فى زلزلة بعض قواعد الوثنية فى نفسه وجعله أكثر تفهما لقوة العقيدة الجديدة.

وما لبث قنسطنطين أن أصدر مرسوم التسامح الدينى أو مرسوم ميلان سنة ٣١٣ الذى اعترف فيه بالمسيحية كإحدى الديانات المصرح باعتناقها وممارسة شعائرها فى الامبراطورية مثلها فى ذلك مثل الوثنية واليهودية والعبادات الوافدة وغيرها، وأصبح أتباعها يتمتعون بكافة الحقوق التى يتمتع بها غيرهم من أتباع الشرائع الأخرى.

وترتب على ذلك رواج أقوال كثيرة حول قنسطنطين، فقيل أنه كان مسيحيا صادق العقيدة، بينما قيل أنه لم يكن مسيحيا قط، وإنما أملت عليه المصالح السياسية اتخاذ هذه الخطوة ومهما يكن من أمر فقد ظل هذا الموضوع غير واضح إلى نهاية حياة قنسطنطين، فلعله كان مسيحيا حقا ولم يعلن عقيدته لظروف بلاده وعظم الأرستقراطية الوثنية فى الإدارة والجيش، ولعله لم يكن مسيحيا أيضا لاحتفاظه بلقب الكاهن الأعظم لإله الشمس وسماحة للوثنية بممارسة شعائرها جنبا إلى جنب مع المسيحية، فضلا عن أنه أتى فى حياته من الأفعال ما يتنافى مع كونه مسيحيا، من ذلك قتله زوجته وولده، وعدم تعميده إلا وهو على فراش الموت.



صورة أحد تيجان الكنائس القديمة بالإسكندرية

وعلى كل حال جاء الاعتراف بالمسيحية نهاية لفترة أليمة فى تاريخ المسيحية وفى تاريخ الشرق بأسره وفى مصر بالذات، إذ توقفت الاضطهادات الدينية، وتهيأت الأحوال لانتشار المسيحية فى مصر فى يسر وسهولة لاسيما أن المبشرين الأوائل كانوا يتحدثون اليونانية فغدا السكان اليونانيون فى الاسكندرية وفى مصر من أوائل الجماعات التى اعتنقت المسيحية، ثم أثرت

المسيحية فى السكان الوطنيين الذى كانوا يتحدثون اللغة المصرية ثم اكتمل هذا التأثير فى نهاية القرن الثالث الميلادى وبداية القرن الرابع الميلادى، إذ وجدت شروح إنجيلية باللغة القبطية ترجع إلى تلك الفترة، ودل ذلك على أن بعض المصريين كانوا يترجمون من اللغة اليونانية إلى اللغة القبطية.

كنيسة الاسكندرية :

حديثنا هنا عن كنيسة الاسكندرية يركز على فترتين، الفترة الأولى فى تاريخ المسيحية أى فى القرون الأولى للميلاد وحتى الاعتراف بالمسيحية سنة ٣١٣م، ثم بعد ذلك فى الفترة التالية من خلال الحديث عن الخلافات الدينية التى حدثت فى جوف العقيدة وفجرتها كنيسة الاسكندرية، وأسهمت بالنصيب الأوفر فى توجيهها فى العالم المسيحى بأسره فى ذلك الوقت فلقد أسس القديس مرقس كنيسة الاسكندرية وكان أول أسقف لها، ودفع حياته فى النهاية ثمنا لإخلاصه لها إذ دهمه الوثنيون وجروه فى شوارع الإسكندرية حتى مزقوا لحمه سنة ٦٢م أو سنة ٦٨م فى بعض الروايات، ليصبح أول أسقف فى الاسكندرية يلقى حتفه على يد الوثنيين، لكن كنيسة الاسكندرية تابعت مسيرتها، وازدادت قوة بمرور الأيام، حتى اكتمل تنظيمها وغدت تماثل فى تنظيمها ما كان سائدا فى روما.

استخدمت كنيسة الاسكندرية فى القرون الأولى للميلاد اللغة اليونانية فى طقوسها وشعائرها وتعاليمها وتبشيرها، وضمت عددا من الذين تولوا تعليم الناس أصول العقيدة ورسوم المسيحية وقواعد الدين المسيحى والمبشرين الذين تولوا تقديم المتنصرين الجدد لرجال الكنيسة لتعميدهم.

ولم يكن فى الكنيسة الأولى فى الاسكندرية ما يدعو إلى وجود الشقاق الدينى أو الاختلاف فى الرأى لأن المسيحيين فى عصر الرسل تأثروا بما كان فى حياة السيد المسيح من عاطفة ومثل وآمنوا بالبعث بعد الموت وعودة المسيح ولم يحفلوا بالأفكار الدينية المعقدة أو المفلسفة، حقيقة ربما بدا فى رسائل القديس بولس بداية علم اللاهوت أو أصول الدين إلا أن ذلك كان فى صورة أولية غير معقدة أو مفلسفة.

أما فى الفترة التى تلت عصر الرسل وحين أخذت الكنيسة فى النمو وازداد عدد المسيحيين وأقبل الوثنيون على اعتناق المسيحية ومنهم من اشتهروا بالعلم وبمعرفة الفلسفة والتعمق فيها، وكثير منهم كان من المثقفين والمفكرين الذين مرنوا على أساليب الجدل والمنطق والفلسفة وألفوا التفكير العلمى الكلاسيكى، وغدا على رجال الكنيسة إقناع هؤلاء المثقفين بقضايا العقيدة الجديدة ومبادئها، والرد على استفساراتهم عن كثير من تلك القضايا، فتولى هذه المهمة عدد من كبار مفكرى المسيحية الذين أطلق عليهم «آباء الكنيسة» الذين آمنوا بضرورة إقناع الناس بالمودة والموعظة الحسنة والرد على استفساراتهم.

ومن هؤلاء كلمنت السكندرى وأوريجين فى القرن الثالث الميلادى إذ ترك كل منهما عددا كبيرا من المؤلفات التى ناقشت قضايا العقيدة، وكل ما يتعلق بكنيسة الاسكندرية وقدمت المسيحية فى قالب يتقبله المثقفون مستخدمين فى ذلك الفلسفة القديمة لتبرير آرائهما وتأييد هذه الآراء.

ثم أنشأ رجال كنيسة الاسكندرية المدرسة التبشيرية بالاسكندرية، التى اتخذت من متحف الاسكندرية مقرا لها وكانت مهمتها تعليم المسيحيين ضد التعاليم المستمدة من المدرسة الوثنية، وتولى رئاسة هذه المدرسة فى أواخر القرن الثانى وأوائل القرن الثالث الميلاديين كلمنت السكندرى، فقام بهذه المهمة خير قيام وألف كتبا عديدة دارت معظمها حول قضية الدفاع عن المسيحية والتصدى لأعدائها.

ثم خلف أوريجين كلمنت السكندرى فى رئاسة هذه المدرسة التبشيرية، وبقى فى رئاستها حتى سنة ٢٣٥م، واعتبر أشهر شخصية مسيحية فى تاريخ كنيسة الاسكندرية لجرأته وتعمقه فى أصول المسيحية فضلا عن ورعه وتقواه على الرغم من أنه اتهم بعد وفاته بالهرطقة والإلحاد، لأن بعض آرائه لاسيما ما يتعلق منها بالتثليث لم تكن تتفق تماما مع الأرثوذكسية الخالصة.

وازدادت مكانة كنيسة الاسكندرية فى حياة المجتمع المصرى، خاصة حين سار التنظيم الكنسى على نسق

التنظيم الإدارى فى الامبراطورية واقتفى أثره، فامتدت سلطة أسقف الاسكندرية إلى خارج مصر وبلغت إقليم برقة، وتقلد أسقفية الاسكندرية عدد من الأساقفة البارزين أهمهم بطرس الذى ولى الأسقفية سنة ٣٠٠م وكان من أكفأ علماء الدين المسيحى فى مصر وأكثرهم شهرة وظهرت فى عهده هيمنة كنيسة الاسكندرية وسيطرتها على الأمة خاصة حين أصدر الأوامر بعقاب المرتدين عن المسيحية خلال عهود الاضطهاد والذين أرادوا العودة إلى حظيرة الكنيسة من جديد، غير أن نهاية هذا الأسقف كانت مؤلمة إذ جرى القبض عليه سنة ٣١١م فى آخر موجة من موجات الاضطهاد الدينى على عهد جالريوس، وجرى إعدامة بأمر هذا الامبراطور فكان بطرس آخر الشهداء فى كنيسة الاسكندرية وخاتمهم.

انتهت بذلك المرحلة التى عاشت فيها كنيسة الاسكندرية فى ظل الامبراطورية الوثنية وبزغت مرحلة جديدة فى تاريخها بعد الاعتراف الرسمى بالمسيحية. فإذا كان مرقس هو أول شهيد من أساقفة الاسكندرية. فإن بطرس كان آخر شهيد من شهداء كنيسة الاسكندرية وخاتمهم.

الخلافات الدينية فى المسيحية :

نأتى إلى الفترة الثانية فى تاريخ كنيسة الاسكندرية، وهى الفترة التى وجهت فيها كنيسة الاسكندرية الخلافات الدينية فى العالم بأسره. فإذا كان المسيحيون فى الفترة الأولى لم يختلفوا فى العقيدة أو يحدث بينهم شقاق دينى حول المسيحية، إلا أنهم فى هذه الفترة الجديدة مالوا نحو فلسفة العقيدة واختلفوا فى جوهرها، وعند تحديد العلاقة بين المسيح الابن والإله الأب، وهى المشكلة التى أثارت الخلاف بينهم وتسببت فى حدوث نزاع طويل وفجرت صراعا رهيبا بين أشياع المسيحية.

فقد احتدم الخلاف بين كاهنين من كهنة كنيسة الاسكندرية حول تحديد هذه العلاقة فذهب أحدهما وهو أريوس ـ وكان كاهنا مثقفا ـ إلى أن منطق الأمور يحتم وجود الأب قبل الابن، ويؤكد أن هذا الابن أصغر من الإله الأب أى أنه مادام المسيح هو ابن الله فلابد وأن يكون أقل منه شأنا وأدنى منزلة، لأنه أقل فى المستوى والقدرة من الإله الأب، إذ لايمكن أن يتساوى الأب والابن فى المكانة والمنزلة والقدرة بحكم أن المسيح الابن مخلوق للإله الأب، فالأب أكبر وأسبق والابن أصغر ولاحق وإذا كان الخلود هو صفة الله الذى لا أول له ولا آخر فإن المسيح ليس خالدا لأن له بداية، ولهذا فليس المسيح إلها. أى أن أريوس أنكر ألوهية المسيح وأنزله إلى رتب البشر.

على حين ذهب الكاهن الآخر وهو أثناسيوس، إلى أن الإله الابن وإن كان مختلفا عن الإله الأب، إلا إنهما متساويان فى المستوى والمكانة والقدرة، بحكم أنهما من عنصر واحد ويستمدان صفتيهما من الصفة الأزلية، أى أن الابن مساو تماما للإله الأب وأن فكرة الثالوث المقدس: الأب والابن والروح القدس تدعو إلى اعتبار المسيح إلها لايقل شأنا عن الإله الأب أى أن أثناسيوس رفع المسيح إلى مصاف الإله الأب ليكون مساويا له فى كل شىء.

وهكذا تفجر الخلاف الدينى فى القرن الرابع بين أريوس وأثناسيوس فى كنيسة الاسكندرية وترتب على ذلك ظهور مذهب أريوس أو المذهب الأريوسى وسيادته فى الشطر الشرقى من الامبراطورية الذى كان مهدا للحضارة اليونانية ومركز الثقافة والفكر وموطن الفلاسفة والمفكرين. وعلى حين كان مذهب أثناسيوس يستقيم وفكر البسطاء من الناس وعامتهم، لهذا ساد فى الشطر الغربى من الامبراطورية حيث انتشرت الحضارة اللاتينية التى تخلفت عن قرينتها اليونانية فى الشرق وقل مستواها الثقافى والفكرى عما عرفه الشطر الشرقى من الامبراطورية وما عرفه الشرق من علم وحضارة.

ونظراً لتداعيات هذا الخلاف وما يمكن أن يسببه من شقاق بين أتباع المسيحية بما يترتب على ذلك من تهديد لوحدة الدولة واستقرارها، رأى قنسطنطين الكبير أن يفض هذا الخلاف ويوقف آثاره، فأمر بإرسال مبعوثين من لدنه إلى الاسكندرية للقاء أريوس وأثناسيوس لمحاولة تسوية هذا الخلاف والاتفاق على صيغة

واحدة مرضية للطرفين إلا أن الرجلين لم ينصتا لما قيل، ولم يعيرا هذه المحاولة اهتماما كبيرا، فاستمر الخلاف قائما، الأمر الذى جعل الامبراطور قنسطنطين يدعو إلى عقد مجمع دينى فى مدينة نيقية بآسيا الصغرى سنة ٣٢٥م لمناقشة هذه القضية ووضع حد لهذا الخلاف.

وعقد المجمع المسكونى الأول فى تاريخ المسيحية فعلا وحضره نحو ثلاثمائة من كبار رجال الدين فى الشرق والغرب على حد سواء، وناقش المجتمعون آراء أريوس وآراء أثناسيوس وانتهى المجمع إلى إدانة أريوس ونفيه إلى إقليم إيلليريا فى البلقان وإحراق كتاباته وتحريم تبادل آرائه، واضطهاد أتباعه ومشايعيه، على حين أقر آراء أثناسيوس وساوى بين الأقانيم الثلاثة للثالوث الأقدس، وأقر بأن المسيح «من نفس جوهر الأب» واعتبر آراء أثناسيوس ومذهبه هو المذهب العالمى أو الرأى العالمى أو الكاثوليكى، لأن المسيح «إله من إله ونور من نور وإله حق من إله حق ومولود غير مخلوق».

حازت كنيسة الاسكندرية بذلك مكانة هامة بين الكنائس المسيحية فى العالم بأسره، وغدا أسقف الاسكندرية فى أواخر القرن الرابع الميلادى من أكبر رجال الدين مكانة فى العالم المسحى وأكثرهم نفوذا، خاصة وقد توالى على أسقفية الاسكندرية ثلاثة رجال فيما بين سنتى ٣٨٥، ٤٥١ م أضافوا إلى عظمة الاسكندرية وشهرتها الكثير وإلى مكانتها سموا وهم : تيوفيل وكيرلس وديوسقروس.

واشتهر كيرلس كثيرا من بين هؤلاء الثلاثة خاصة عند اندلاع خلاف دينى جديد فى القرن الخامس الميلادى مع استمرار الجدل حول طبيعة المسيح، وهل تجتمع فى المسيح الطبيعة البشرية والطبيعة الإلهية معا أم تغلب أحدهما على الأخرى.

فجر هذا الخلاف الجديد مدينة انطاكية الشامية التى كانت قد تأثرت بالأيوسية وبالأفكار الشرقية فى المسيحية فجعلت الطبيعة البشرية هى الغالبة فى المسيح وقال الأنطاكيون أن للمسيح طبيعة بشرية مكتملة، ورفضوا تسمية العذراء بأم الإله، لأنها لم تلد إلها وإنما ولدت بشرا وإنسانا.

غير أن الاسكندرية صاغت رأيها فى هذه المسألة - على عهد كيرلس - على أساس أنه عند تجسد المسيح ذابت الطبيعة البشرية فى الطبيعة الإلهية وبقيت الطبيعة الإلهية وحدها، أى أن طبيعة المسيح هى الطبيعة الإلهية. وأخلصت مصر وأهل الاسكندرية لهذا المذهب الذى سمى بمذهب الطبيعة الواحدة أو المذهب المونوفيزيتى وهى كلمة مشتقة من كلمة (مونوس) اليونانية وتعنى الواحد. فأصبح أهل الاسكندرية ومصر من أصحاب مذهب الطبيعة الواحدة التى هى الطبيعة الإلهية مخالفين فى ذلك رأى أهل أنطاكية.

وعقد من أجل ذلك مجامع دينية بآسيا الصغرى بدت اتجاهاتها تتضح بانحياز القسطنطينية على عهد البطريرك نسطوريوس إلى جانب أنطاكية ضد الاسكندرية، ثم حسمت القضية فى مجمع خلقدونيا سنة ٤٥١م حين انضمت روما إلى القسطنطينية - بعد عزل نسطوريوس - ضد الاسكندرية، فأخذ المجتمعون بالرأى المخالف لرأى الاسكندرية وأقروا ما عرف بالمذهب الملكانى أو مذهب الطبيعتين وقالوا أن للمسيح طبيعة بشرية مستقلة ومنفصلة تماما وطبيعة إلهية مستقلة ومنفصلة تماما فكأن المسيح بشر وإله معا. وهو المذهب الذى ساد فى الامبراطورية باستثناء مصر والاسكندرية والتى اعتبرت على أثره الاسكندرية منشقة، لأنها ظلت تخلص لمذهبها المونوفيزيتى أو مذهب الطبيعة الواحدة ومن أجله ناهضت الاسكندرية السلطات البيزنطية ووقفت فى وجه القسطنطينية وتمسكت بمذهبها فى مواجهة كل التحديات.

الاسكندرية والرهبانية والديرية :

تعنى الرهبانية أن يحيا الفرد حياة عزلة تامة بعيداً عن العمران للإنقطاع للعبادة وممارسة حياة الزهد والتنسك مع اختيار التفرد طوعا. أما الديرية فيقصد بها التقاء جماعات من الرهبان بعيداً عن العمران ينقطعون للعبادة وحياة الزهد والتقشف مع تحقيق مطالبهم الضرورية فى الحياة، والدير هو المكان المخصص لسكنى الرهبان أو الراهبات وتعبدهم.

والرهبنة بصورتها الأولى عمل من مبتكرات مصر المسيحية، ونظام مصرى أصيل لم يتأثر كثيرا بالحركات النسكية السابقة، فنشأت الرهبنة فى مصر نشأة ذاتية حين عاش الرهبان منفردين فى مغارات منقورة فى الجبال، أو صوامع مقامة من الجريد أو القصب، وساعدت طبيعة مصر وجوها وكثرة الخرائب وبقايا الأطلال الأثرية، واقتراب أطراف الصحراوات من واديها على نشأة ونمو هذا النوع من الحياة الدينية.

وكانت الرهبنة وسيلة من وسائل الاحتجاج أو الهرب أو النأى بالنفس عن شرور العالم ومفاسده، وحفاظا على العقيدة من احتمال الارتداد عن الدين أو طرح طاعة الله فى الوقت الذى أعوزهم فيه القوة لمواجهة التنكيل أو التعذيب أو القتل، لهذا جرى اعتبار الناسك يلى الشهيد فى المكانة ويأتى بعده فى رتب السمو.

وقد تلمس المسيحيون بذور الرهبنة وحياة الزهد والتقشف فى أصول المسيحية الأولى وفى تعاليم السيد المسيح ـ عليه السلام ـ الذى أثر عنه قوله «إذا أردت أن تكون كاملا فبع ماليك واعط ثمنه للفقراء واتبعنى فسوف يكون لك كنز فى السماء»، فضلا عما جاء فى أقوال القديس بولس وتعاليمه من حث على* ممارسة حياة الزهد والتقشف والعزوبة.

وترجع بدايات الرهبنة فى مصر إلى القرنين الثانى والثالث الميلاديين، حيث عاش كل من الأنبا بولا أو بولس، والقديس أنطون (أنطونيوس)، فكل منهما أقدم من عرف من المتنسكين المسيحيين لا فى مصر وحدها بل فى الدنيا بأسرها فقد ولد بولا سنة ١٥٠م ودرس أصول الدين المسيحى وتعلق به ثم قرر أن يهجر العالم بما فيه من شرور وآثام، ويرحل إلى قلب الصحراء للتعبد، فأوغل فى الصحراء الشرقية حتى ألقى عصاه فى أحد كهوف الجبال المطلة على البحر الأحمر وهو فى سن مبكرة، ولبث فيها إلى أن توفى وهو فى سن تقترب من الثالثة عشرة بعد المائة من حياته ولولا أن عثر عليه القديس أنطون مصادفة فى أعماق الصحراء لظل أمره مجهولا.

أما القديس أنطون (أنطونيوس) الذى عاش ١٠٥ من السنين من سنة ٢٥٠م إلى سنة ٣٥٥م فيعتبر المؤسس الحقيقى للرهبنة وحياة العزلة والتفرد فى مصر البيزنطية، فقد اتجه شطر سفوح الجبال الشرقية المجاورة لحافة الوادى شمال البقعة التى تعبد فيها بولا بنحو ستين كيلومتر حيث عكف على العزلة والزهد والتقشف وزاره القديس أثناسيوس الرسولى ـ بطريرك الاسكندرية وأسقفها ـ وكتب عنه وعرف الناس بتجربته.

وتقوم فلسفة هؤلاء الرهبان المتفردين أو المنعزلين على أساس اختيار حياة يذل فيها الجسد لتسمو الروح. ولهذا كانوا يصومون أياما طويلة ويلبسون الخشن من الثياب من جلود الحيوانات وغيرها بحيث تلامس الأجزاء الخشنة أجسادهم لتعذيب الجسد حتى تسمو الروح وربما لزموا مغاراتهم أياما طويلة لايخرجون معتمدين على أهل الخير والبر فى الحصول على حاجاتهم البسيطة من فتات الخبز أو الملح أو الماء، فاتصفت حياتهم بالسلبية إلى حد بعيد ولم يشاركوا بجانب إيجابى فى الحياة.

ولهذا بدت الرهبنة الإنعزالية للعقلاء من الناس نوعا من التطرف المتعارض مع طبيعة الإنسان لأن الإنسان اجتماعى بطبعه يهوى إلى غيره من الناس ويلتمس الرفقة ولهذا بدأ نظام الرهبنة يتطور تطورا بطيئا ليحل محله بمرور الوقت نوع آخر من الرهبنة التى عرفت بالرهبنة الاجتماعية، ونوع من المشاركة أو الاشتراك فى الرهبنة حين يجتمع بعض الرهبان للتعبد وممارسة حياة الزهد والتنسك، وفى نفس الوقت يجابهون معا الصعاب فى تلك الصحارى والقفار الموحشة، فبدأت الخطوة التالية فى تطور الرهبنة المسيحية أو الخطوة المتوسطة بين رهبنة بولا وأنطون وبين نظم الديرية التى جاء بها القديس باخوم المصرى.

ثم نشأ النظام الديرى الذى يمثل الدور الثالث فى حياة الرهبنة والخاتمة فى تطور هذه الحياة فى مصر المسيحية، والذى جاء به القديس باخوم أو باخوميوس الذى عاش فى القرن الرابع الميلادى وكان وثنيا، وظل كذلك حتى سن العشرين حين اعتنق المسيحية سنة ٣١٤م وأخلص لها، ثم انخرط فى سلك الجندية الرومانية فتعلم النظام والطاعة والعمل، وألف الحياة الاجتماعية، ولم تطل خدمته الحربية كثيرا وإن تركت آثارا هامة فى شخصيته وحياته معا.

مال باخوم إلى حياة التنسك والرهبنة والتفرد ولكن بطريقة تخالف الإنعزالية، لشدة حبه لغيره من الناس ولهذا ابتكر نظامه الديرى الذى يلائم ميول الإنسان واجتماعيته من ناحية ويخدم المجتمع من ناحية أخرى فاتخذت الرهبنة على يديه صفة الديرية، فقد أسس باخوم ديره سنة ٣١٥م بالقرب من دندرة بصعيد مصر، ضم عددا من الرهبان يمارسون الانقطاع للعبادة مع التعاون فى تنظيم مطالب الحياة، وفرض باخوم على رهبانه الالتزام بالهدوء والطاعة والعمل اليدوى.

فقد قسم اليوم فى الدير الباخومى بين أداء الطقوس والصلوات والتعبد، وبين تأدية الأعمال اليدوية فى الحقول وفى الصناعات أو فى الحرف اليدوية وفى نسخ الكتب وفى تعليم أطفال الجهات المجاورة، ولذا صار الدير الباخومى مجتمعا مهنيا يكتفى ذاتيا أى يكفى نفسه بنفسه، ويسد حاجات الجهات القريبة من المنتجات كالسلال والفخار والدباغة وحياكة الملابس والصناعات الخشبية والحدادة وغيرها.

وأنشئت أديرة باخومية كثيرة فى مصر وفى الاسكندرية أنشىء دير فى كانوب قرب الاسكندرية وحفلت شواطىء البحر المتوسط بالقرب من المدينة بأعداد كبيرة من الرهبان وبلغت الأديرة عند وفاة باخوم سنة ٣٤٦م أحد عشر ديرا منها تسعة للرجال وأثنان للنساء وانتشر النظام الديرى من مصر إلى بلاد الشام ثم إلى آسيا الصغرى ثم إلى أوروبا حيث عرفته أوروبا عن طريق مصر والاسكندرية.

واعتبر القديس مينا أيضا من أكثر القديسين احتراما وتبجيلا عند المسيحيين فى مصر، فقد استشهد هذا القديس فى اضطهاد الامبراطور دقلديانوس، وحمل جثمانه على جمل وعند الموضع الذى توقف فيه الجمل عن السير بالصحراء غرب الاسكندرية وعبر الطريق الممتد إلى وادى النطرون تم دفن رفاة هذا القديس ثم قامت على مقبرته كنيسة ونشأت حول ضريحه مدينة صغيرة مقدسة أخذ الناس يحجون إليها من مصر ومن سائر بلاد الشرق، وجرى تصوير مينا فى الأيقونات المسيحية واقفا بين جملين قاعدين وصار يعتبر راعيا للقوافل، وبالقرب من قبره تفجر ينبوع اشتهر بالكرامات والمعجزات وقيل «اشرب من ماء القديس مينا تزايلك جميع الآلام».

هكذا كانت الاسكندرية وتلك كانت قصة المسيحية فيها خلال العصر البيزنطى الذى امتد منذ بناء قنسطنطين مدينة القسطنطينية حتى دخل العرب مصر سنة ٦٤١م أى على مدى أكثر من ثلاثة قرون سبقها الحديث عن تلك العقيدة فى القرون الأولى للميلاد أو ما عرف بالعصر الرومانى، تحدثنا خلال ذلك كله عن ظهور تلك العقيدة الجديدة وكيفية انتشارها فى مصر وفى الاسكندرية خاصة، ثم تحدثنا عن الاضطهادات الدينية التى تعرض لها المسيحيون خلال تلك الفترة، ثم كيف اعترف الامبراطور قنسطنطين بالمسيحية وأصدر مرسوم التسامح الدينى لتبدأ حقبة جديدة فى تاريخ هذه العقيدة، ثم تحدثنا عن كنيسة الاسكندرية فى القرون الأولى للميلاد ثم من خلال الخلافات الدينية التى حدثت فى جوف العقيدة المسيحية، ثم ختمنا هذه الصفحات بالحديث عن الرهبانية والديرية وأثرهما فى مدينة الاسكندرية ودورهما فى حياة المجتمع المصرى بصفة عامة ومدينة الاسكندرية بصفة خاصة.

الحركة الفكرية فى الإسكندرية فى القرون الأولى للمسيحية

أ. د. محمود سعيد عمران

بلغت الاسكندرية فى العصر الهلينستى درجة من النهضة العلمية حتى أصبحت العاصمة الثقافية لعالمها المعاصر، وكان أروقتها تزخر بالوافدين إليها من العلماء والطلاب من كل أنحاء العالم حاملين معهم العلوم والثقافات المختلفة حتى أصبحت مركزاً علمياً رفيع المستوى. وكان يعيش فى المدينة أهلها الوطنيون بدياناتهم واليونان بفلسفاتهم، والرومان بقوانينهم، فضلا عن الطائفة اليهودية وبعض الأجناس الأخرى، وكان لكل هؤلاء آلهتهم وعاداتهم وثقافاتهم المختلفة.

وقد تقابل العلماء والمفكرون من هؤلاء وتناقشوا واتفقوا حينا واختلفوا حينا آخر، وعاش بعضهم على المساعدات المالية التى أخذوها من الحكام، كما تقابل الآخرون فى جوانب من أرجاء المدين، وقامت بينهم المناقشات الدينية والعقلية التى أدت إلى الاتفاق أو الخلاف الذى قد يصل إلى حد النزاع والمشاجرات ورغم هذا كله فقد نتج عن ذلك نوع من الامتزاج الفكرى تمخض عنه بعض الأفكار التى أفرزت مذاهب فكرية جديدة، أدت فى بعض الأحيان إلى محاولات للتوفيق بين العبادات المختلفة وهى التى عرفت باسم Syncretism أى التوفيق بين المعتقدات الدينية المتعارضة، أو الحركة التوفيقية. ووقع الحال أن كل هذه المحاولات لم تثمر إلا عن أفكار جديدة زادت من شقة الخلاف بين المفكرين، ولم تصل بالعقول إلى الإله الواحد، وظل الناس يبحثون عن الحقيقة، وزاد الصراع بين الفلسفات والأديان أى بين العقل والدين. وفى خضم هذا المعترك ظهرت المسيحية، التى كان لها أكبر الأثر على مفاهيم هذه الحقبة التاريخية.

والمعروف أن مؤسس الكنيسة المصرية بالاسكندرية هو القديس مرقص، واسمه الأصلى يوحنا، وهو أحد الإنجيليين الأربعة، ولم يكن من الإثنا عشر تلميذا، ويرجع أصله إلى يهود شمال أفريقيا، وقد هاجر والداه إلى فلسطين وسكنا بيت المقدس فى وقت ظهور السيد المسيح. وكان القديس مرقص من أوائل الذين اعتنقوا المسيحية فاختاره السيد المسيح فى جملة السبعين رسولا، وقد اتجه القديس مرقص إلى مدينة أنطاكية ثم إلى قبرص، وبعض نواحى آسيا الصغرى، ثم عاد إلى القدس، ثم ذهبت إلى شمال أفريقيا حيث بقى هناك لفترة قصد بعدها الديار المصرية وعاش فى بابليون لبعض الوقت كتب خلاله الإنجيل، وفى عام ٥٨ اتجه إلى الاسكندرية وأخذ يبشر بالمسيحية.

وقد وجد القديس مرقص فى المدينة فرصة فكرية لدعوته فآمن بالمسيحية عدد كبير من الرجال والنساء وأول من قبل الدعوة إسكافى يدعى أنيانوس Annianus ويرجع ذلك إلى أن القديس مرقص لما وصل الاسكندرية كان نعله قد تمزق، فعرج إلى هذا الاسكافى ليصلحه، وأثناء عملية الإصلاح دخل المخرز فى يد الاسكافى فأدماها فصاح بما ترجمته (الإله الواحد). وانتهز القديس مرقص هذه الفرصة وأخذ يشرح له المسيحية، فدعاه الإسكافى إلى بيته، وجمع له بعضا من معارفه فبشرهم القديس مرقص بالمسيحية فتقبلوها فعمدهم، وبهذه النخبة الصغيرة بدأت الديانة المسيحية فى الانتشار داخل المدينة وخارجها، وعين القديس مرقص صديقه أنيانوس أسقفا وأقام معه القساوسة والشمامسة وألف قداسا للصلاة يعتبر أصل القداديس

المستخدمة حتى الآن. وبعد ما وضع القديس مرقص هذه اللبنة فى الاسكندرية سافر إلى روما ومنها إلى إفسوس ثم عاد إلى روما مرة أخرى ثم عاد أخيرا إلى الديار المصرية واستأنف أعمال التبشير فجال فى البلاد حتى كثر عدد المسيحيين. وفى هذه الحقيقة الأخيرة أقام القديس مرقص المدرسة اللاهوتية المسيحية فى الاسكندرية. ولما رأى الوثنيون نجاح القديس مرقص حنقوا عليه وصاروا يتربصون به بعدما تغلغل الحقد فى قلوبهم، وقد أحل الفصح أى عيد القيامة الذى وافق ٢٥ أبريل لسنة ٦٦م، وأثناء الاحتفال بهذه المناسبة الدينية فى الكنيسة، هاجم الوثنيون المسيحيين وقبضوا على القديس مرقص ووضعوا حبلا حول رقبته، وأخذوا يجرونه فى شوارع المدينة حتى تمزق جسده، ولما حل المساء أودعوه السجن، وعادوا به فى اليوم التالى وفعلوا به مثلما فعلوا فى اليوم السابق حتى أسلم الروح، وقد أخذ المسيحيون جسده وكفنوه ووضعوه فى تابوت، ودفنوه فى قبر نحتوه له فى الكنيسة نفسها. وقد بقى الجسد مدفونا بالأسكندرية حتى عام ٨٢٩م عندما جاء بعض البحارة البنادقة وحملوا الرفات معهم إلى البندقية. وتحتفل الكنيسة بذكرى استشهاده فى (٣٠برموده) من كل عام. وقد أعادت الحكومة المصرية رفاته فى السنوات الأخيرة إلى أرض مصر، ويرمز له بالأسد المجنح Winged Lion .

ويعتبر أنيانوس أول أسقف أقامه القديس مرقص على الكنيسة المصرية فى الاسكندرية وذلك عام ٦٢م.، ولو أنه يعتبر الثانى بعد القديس مرقص فى عداد بابوات الاسكندرية، وقد أقام أول كنيسة مسيحية فى المدينة، وهى التى قبض فيها على القديس مرقص، وكان بناؤها فى مكان يدعى بوكاليا، ويقال أنه فى البقعة التى بها الكنيسة المرقسية بالاسكندرية الآن، وقد احتم أنيانيوس بالمدرسة اللاهوتية. ونمت المسيحية فى مصر على يديه كثيرا، وكان انتقاله إلى دار الآخرة عام ٨٤م، وخلفه فى البطريركية القديس أفيليوس Avilius [١]

وكان على المسيحية أن تقاوم فى اتجاهين، الأول هو اضطهاد الحكام والثانى هو الأديان والفلسفات المضادة، وهكذا ظهر الصراع بين المسيحية والوثنية. ومن أجل تغلب كل فريق على الآخر درس المسيحيون الفلسفة للرد على الوثنيين، ودرس الآخرون العهد القديم والجديد لمهاجمة المسيحيين، وظهرت مؤلفات من كل جانب لدحض أفكار الآخرين وهدم نظرياتهم. والحقيقة أن الصراع بين الديانات والفلسفة، أى بين الدين والعقل لم يسلم بالمعجزات أو الأمور التى تفوق تصور البشر. وكان من نتائج ذلك كله ظهور الفلسفة الغنوسية Gnosticism، والفلسفة الأفلاطونية الحديثة Neoplatonism.

ويرجع المؤرخون الفلسفة الغنوسية إلى أيام الحواريين، ويرون أن سيمون Simon الساحر حاول إغراء القديس بطرس ببذل المال مقابل أن يبارك له عمله، فأجابه القديس بطرس وفقا لما جاء فى أعمال الرسل (لتكن فضتك معك للهلاك لأنك ظننت أن تقتنى موهبه الله بدراهم)، ولكن الفلسفة الغنوسية ظهرت بصورة قوية فى مصر فى القرن الثانى الميلادى.

وتعنى كلمة الغنوسية المعرفة، وقد ميز أصحاب هذه الفلسفة أنفسهم بذلك عن الدينيين، وبذلك أنزلوا من قدر الإيمان ورفعوا من شأن المعرفة، لأنهم وضعوا العقل فوق الإيمان والفلسفة فوق الدين، وجعلوا من الأفكار المطلقة رقيبا على الوحى، وأصبح للغنوسيين الحق فى رفض بعض المعتقدات وأفكار المعجزات. واعتقد هؤلاء أن الإنسان يتكون من ثلاثة عناصر الروح، والجسد والتنفس، وعلى ذلك قسم أصحاب هذا المذهب الناس إلى هذه العناصر وفق العنصر الغالب فيهم إلى ثلاث طبقات. الأولى وهم الروحيون الذين يسودهم العنصر الإلهى، وقد رفعوا أنفسهم فوق المادة، والثانية وهم الجسديون، وهم العامة الذين يتعاملون بالمادة (والثالثة وهم النفسانيون) وهى طائفة متوسطة بين الأولى والثانية لاتستطيع المعرفة أن تعرفهم إلى درجة الروحيين وتستطيع المادة أن تنزلهم إلى مرحلة الجسديين، وقد انتشرت هذه الفلسفة فى مصر ومنها إلى الأقاليم المجاورة خاصة بلاد فارس.

أما الفلسفة الأفلاطونية الحديثة فقد ولدت أيضا فى الاسكندرية على يد أمونيوس سقاس Ammonius Saccas، وهو سكندرى ولد لوالدين مسيحيين وقد درس وتأمل وتولد لديه مذهب فلسفى بدأ فى نشر مبادئه الذى كانت مزيجا من فلسفات أفلاطون Plato وأرسطو Aristotle وخلاصة هذا المذهب هو فكرة إمكان الاتصال المباشر باللاهوت، وقد انتشر هذا المذهب واعتنقه الحكام والمحكومون بما فيهم العامة والعبيد، وكان له الأثر الكبير على المسيحية بأسرها، حتى أن الامبراطور جوليان المرتد Julian the Apostate (٣٦١ ـ ٣٦٣م) حاول أن يجعلها نظاما عالميا يحل محل الديانة المسيحية ولكنه فشل. وواقع الحال أن فلسفة أمونيوس قد أخذت اتجاها مختلفا عن الفلسفات السابقة لأنها كانت نظاما دينيا، وتوفى أمونيوس حوالى سنة ٢٤٣م دون أن يترك كتابا عن فلسفته، ولكن الباحثون تفهموها من تلميذه أفلوطين Ploti nus وبورفيرى Porpyry خليفته، وأوريجين Origen، كما أثرت هذه الفلسفة كثيرا على القديس أوغسطيس St Augustine.

وأفلوطين هذا مصرى من مواليد أسيوط عام ٢٠٤م، وقد درس لمدة تزيد عن عشر سنوات فى مدرسة الاسكندرية على استاذه أمونيوس، ثم سافر إلى بلاد فارس حيث درس هناك ديانتها، ثم سافر إلى روما فى عام ٢٤٥م واستقر بها وأنشأ بها مدرسة للفلسفة الحديثة وظل هناك حتى مات ٢٧٠م. أما بورفيرى، فقد خلف أستاذه أفلوطين، وله عدة مؤلفات بلغ عددها أكثر من خمسين مؤلفاً شرح فيها أفكاره، وكان صاحب عقلية فلسفية واسعة، ولكنه خرج على الديانة المسيحية وهاجمها فى تعاليمها وألف فى ذلك حوالى خمسة عشر كتابا، وقد تصدى له الفلاسفة المسيحيون. وإن دل ذلك على شيء فإنما يدل على قدرة قادة الفكر المسيحى للتصدى لمثل هذا الفيلسوف. وبعد أن اعترف الامبراطور قنسطنطين الكبير Constantine (٣٠٥ ـ ٣٣٧م) بالديانة المسيحية كدين داخل الدولة، إلا أن الوثنية ظلت محتفظة بنفوذها الثقافى لعدة عقود. ولذلك أنشأ تلاميذ بورفيرى مدرسة فى سوريا إرتادها العديد من الطلاب الذين حملوا أفكارها إلى بلاد اليونان وآسيا الصغرى ومصر خاصة الاسكندرية، وظل الطلاب يتناقلون هذه الأفكار حتى اعترف الامبراطور ثيودورسيوس Theodosius (٣٧٩ ـ ٣٩٥م) بالديانة المسيحية دينا رسميا للدولة فضعف نفوذ وأفكار هؤلاء الفلاسفة، وصاحب ذلك أن أصدر الامبراطور فى عام ٢٩٢م أمرا خاصا إلى نائبه فى مصر يوجب تطهير الإقليم من أدران الوثنية، فأقفل الوالى معبد السيرابيوم فى الاسكندرية، واتفق أن أراد ثيوفيلوس أسقف المدينة أن يحول هيكلا وثنيا إلى كنيسة فثارت ثائرة الوثنيين والتجأوا إلى المعبد واعتصموا به، فأمر الامبراطور بهدم الهيكل.

وعندما انتشرت المسيحية وزاد عدد المنضمين إليها، أصبح من الضرورى وضع أسس منهجية لتعليم الوثنيين أو غيرهم الذين دخلوا فى الديانة المسيحية. وهى نقطة هامة تنبهت إليها أوروبا فى هذه المرحلة وأنشأت مايعرف باسم مدارس العماد. ومن جهة أخرى كان على رجال الكنيسة العمل على تثقيف المسيحيين ورفع مستواهم الفكرى بعيدا عن الثقافة الوثنية، وإعدادهم لفهم فلسفة الديانة المسيحية. ومن هنا نشأت مدرسة الاسكندرية للتعليم المسيحى، وهنا أسباب أخرى لقيام هذه المدرسة منها، أن العالم الوثنى كان يقف للديانة المسيحية بالمرصاد، وحاول بكل مالديه من قوة فكرية القضاء على الدين الجديد، ولذلك أصبح على المفكرين المسيحيين فى هذه المرحلة إعداد الأجيال المسيحية لفهم دينهم، وفى الوقت نفسه للرد على كل مايوجه إلى الديانة المسيحية من نقد وتحريف، وفوق هذا كله كان التبشير بالدين الجديدة ونشره فى البلاد، وهكذا نشأت المدرسة ونمت حتى أصبح طلابها مزودين بالعلوم الدينية والدنيوية، وأطلق المؤرخ يوسيبيوس على هذه المدرس أكاديمية الاسكندرية.

أما عن تاريخ هذه المدرسة فيرجعه البعض إلى أيام القديس مرقص، ولكنها اشتهرت فى أوائل القرن الثالث الميلادى رغم أن الديانة المسيحية لم يكن تم الاعتراف بها حتى ذلك الحين. وكثيرا ما كان نشاطها يتعطل من حين لآخر خاصة فى أوقات الاضطهادات الدينية. ومع الاعتراف بالديانة المسيحية أيام الامبراطور قسطنطين عادت المدرسة إلى مجدها السابق واستمرت إلى أن سلمت زمام القيادة الفكرية إلى الأديرة ورهبانها.

وكانت مدرسة الاسكندرية من أهم المدارس المسيحية شهرة فى الشرق والغرب يتوافد عليها الطلاب لينهلوا منها ويلتقون بكبار أساتذتها، وقد بلغ من عظمة هذه المدرسة أن مديرها كان يلى بطريرك الاسكندرية فى المرتبة. وقد تخرج فى هذه المدرسة كبار الشخصيات الدينية الذين تولوا مناصب عليا فى مصر وخارجها وكان منهم كبار الأساقفة، كما أن معظم بطاركة الاسكندرية كانوا ممن تخرجوا فى هذه المدرسة. ويلاحظ أيضا أن بعض الفلاسفة الوثنيين قد أقدموا على دراسة الديانة المسيحية ليردوا عليها ولكن بعضهم اعتنقها وأصبح من أشد المدافعين عنها وتولوا أيضا إدارة مدرسة الاسكندرية، ومن هؤلاء أثيناغوارس الذى ظل يرتدى زى الفلاسفة حتى بعد أن أصبح مسيحيا ومديرا للمدرسة وعاصر أثيناغوارس بطليموس الجغرافى، وكان فلكيا ماهرا تخرج فى مدرسة الاسكندرية، ومن مؤلفاته جدول يحتوى على أرصاد فلكية عن الكسوف والخسوف.

ومن علماء الاسكندرية بانتانيوس Pantaenus الذى أشار إليه المؤرخ يوسيبيوس بأنه من أعظم علماء عصره الذين تولوا إدارة مدرسة الاسكندرية فى نهاية القرن الثانى الميلادى، وكانت له سمعة كبيرة فى كل الأنحاء، وكان يحاضر فى مدرسة الاسكندرية فى عصره نخبة ممتازة من علماء اللاهوت المسيحيين، وبانتانيوس هذا قد تولى شرح الإنجيل بحماسة شديدة فى نواحى الشرق، كما سافر إلى الهند فى عام ١٩٠م بناء على رغبة بعض الهنود الذين حضروا إلى الاسكندرية ليتعلموا على يديه، وعندما وصل بانتانيوس إلى الهند وجد هناك نسخة من أنجيل متى أحضره إلى الهند بعض من أتوا إلى الشرق ليتعلموا الديانة المسيحية وللعالم بانتايوس باع كبير فى تهذيب اللغة القبطية، كما وضع تفاسير كثيرة فى علم اللاهوت.

Euscbius, op. cit, pp. 213 - 4

ومن مشاهير الاسكندرية وعلمائها كلمنت Clementy وقد أضيف إلى اسمه السكندرى ليعرف باسم كلمنت السكندرى تمييزا عن الفيلسوف كلمنت اليونانى، وهو من مواليد عام ١٦٠م من أبوين وثنيين ثم اعتنق المسيحية، وقد درس العلوم الفلسفية وتفوق فيها رجال بلاد اليونان ثم جنوب إيطاليا، ثم لبنان وفلسطين وخالط أهلها السرية من السريان واليهود وغيرهم، واتجه بعد ذلك إلى مصر حيث كانت محطته الأخيرة الاسكندرية، وفى مدرسة المدينة تعلم على يدى بانتانيوس وخالط العديد من العلماء، ونبغ فى علم اللاهوت [1] وعندما أصبح كلمنت مديرا لمدرسة الاسكندرية، خلفا لأستاذه بانتانيوس، أدخل دراسة الفلسفة ضمن المناهج الدراسية، كما أدخل أيضا دراسة اللغات والبلاغة والشعر والمنطق والفنون والموسيقى والفلك والجغرافيا والعلوم الطبيعية والهندسية والرياضيات. وقد تمكن العلماء المسيحيون من توظيف كل هذه العلوم لخدمة اللاهوت، وتتضح سعة أفق كلمنت وغزارة معلوماته فى مؤلفاته وفى الطابع الجديد الذى اتخذته مدرسة الاسكندرية على يديه، ولعل أهم نقطة توصل إليها، وهى محور خلاف كبير دار فى عصره وفى عصور لاحقة هو أنه نجح فى أن يحدد العلاقة بين الفلاسفة وبين الدين المسيحى، وبذلك فتح الباب أمام تلاميذه لعدد كبير من المعارف، ومن أشهر كتاباته كتاب المتنوعات Outlinesy وقد وضع كلمنت هذا الكتاب ليرد على الفلاسفة الغنوسيين المنحرفين، كما وضع فيه أيضا الأسس التى ينبغى أن يسير عليها المسيحى الذى يطلب المعرفة.

وفى عام ٢٠٢م أشعل الامبراطور سبتيموس سفريوس (Septimius 139-211 Secvrus) نار الاضطهاد ضد المسيحيين حتى عم الاضطهاد أنحاء البلاد كلها، إلا أن الضربة كانت شديدة على الاسكندرية. فهرب كلمنت من المدينة، فأغلقت المدرسة مؤقتا، ومن الذين ذاقوا كأس هذا الاضطهاد كان ليونيدس والد أوريجين.

وكان أوريجين وهو من مواليد ١٨٥م الابن الأكبر وله أخوة ستة، وكان قد اشتهر حتى هذه المرحلة بأنه من أنجب طلاب مدرسة الاسكندرية وأذكاهم، وأنه يتحلى بحسن السلوك ومتانة الإيمان ولم يكن قد تجاوز السابعة عشر. وبعد مضى سنتين على هذه الحادثة عين البطريرك ديمتريوس Demetriusy الشاب أورجين رئيسا للمدرسة اللاهوتية التى كانت لاتزال ملتئمة تحت رئاسته منذ الاضطهاد. لذا أصبح أوريجين مبغوضا جدا من عامة الوثنيين الذين كانوا ينظرون إليه بعين ملؤها الكره والغيظ، فأحس ديمتريو بذلك، وشعر بمقدار الخطر الذى يحيق بأورجين. ولذا وضعت حراسة قوية لحمايته من الأذى الذى كان ينتظر أن يصيبه من الذين كانوا يقصدون القبض عليه، لا أن تقبض عليه الحكومة بالطريقة القانونية [1] .

والواقع أن أوريجين هذا كان علامة فى حقائق الديانة المسيحية عندما تقرر تعيينه رئيسا للمدرسة اللاهوتية، كما أنه كان فقيها فى العلوم والمعارف التى شب على دراستها واستيعابها، والذى أوصله إلى هذه الدرجة من العلم والمعرفة هو أنه قبل الاضطهاد درس كثيرا هو وجماعة من الشباب المسيحيين فى المدرسة اللاهوتية دراسة متعمقة، ثم فى المدرسة الوثنية التى كان يديرها أمونيوس الذى كان من أشهر علماء الاسكندريةوكبار أساتذتها. قال المؤرخ يوسيبوس فى هذا الصدد : ولما رأى أوريجين أن الطلبة الذين عهد إليه البطريرك ديمتريوس أمر تعليمهم قد أخذوا يزدادون ويتكاثرون، إرتأى أن استمراره فى تدريس العلوم الطبيعية والأدبية لا يتناسب مع تدريس العلوم الدينية للطلبة الذين أسند إليه تعليمهم. ولذا لم يلبث أن ترك أفكار مدرسة الفلسفة الوثنية، واعتبرها عديمة الجدوى، وأن دروسها سحابة تحجب الأنوار الساطعة التى يأخذها من علم اللاهوت.

ولكنه لم يتبع خطة الإفراط والتفريط مرة واحد بل بقى يطالع ما سطره الأقدمون من العلوم المفيدة بجد متواصل، وفى هذه المدة أخذ يبيع كل كتبه القديمة وجميع النسخ التى كتبها بيده من مكتبة الاسكندرية. واتفق مع رجل، باعه هذه الكتب الوثنية برمتها على أن يدفع له مبلغا بسيطا ليقتات به فى حياته. وكانت هذه الفكرة بداية لحظة سار عليها أوريجين فيما بعد، قاعدتها الغيرة الروحية التى دفعته إلى إنكار الذات وتكريس النفس، وهى خطة اتبعها أكثر المصريين المتدينين فى تلك المرحلة وتطرفوا فيها حتى حرموا من كل بحث وتنقيب فى الأمور الدنيوية.

ولم يكن حتى هذا الوقت قد سن قانون رسمي يعمل به فى مسألة الرتب الكهنوتية، إلا أن رأى الشعب العالم كان له القول الفصل فى هذا الأمر. ولذلك كان كل من وقع عليه الاختيار يعين فى الحال لأى رتبة مهما كانت درجته. زد على ذلك أن عمل أوريجين التبشيرى إلى جانب عمله خالف كل المخالفة قانون الكنيسة. كما أنه تقرر فى مجمع نيقته ٣٢٥م أن كاهناً يعمل بنفسه هذا العمل أى الزاهد الرائد والتنسيك المفرط لحد الإضرار بنفسه (يقطع من الكهنوت) غلطة أوريجين هذه تغفر له لأنه اعترف بها اعتراف المقر بذنبه الشاعر بثقل خطيئته.

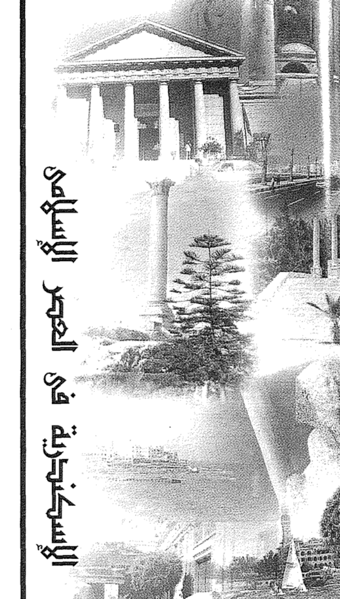
ويغلب على الظن أن أوريجين زار كنيسة روما وذلك أثناء مدة هذا الاضطهاد، وبعد عودته أو ربما قبل سفره كان قد أشرك معه هرقل زميله فى الدراسة فى تدبير مهام المدرسة اللاهوتية، وفى هذا الوقت أيضا أنكب أوريجين على تعلم اللغة العبرية ليؤهل نفسه إلى ترجمة التوراة، وهو عمل يعد من أهم الأعمال الخطيرة التى عملها أوريجين فى حياته، ولو أن هذه الترجمة لم تنشر إلا بعد وفاته بسنين قليلة.

ولم يكتف أوريجين بترجمة التوراة، بل وضع أيضا شرحا طويلاً لأسفارها ضاع أكثره، مع أنه كان متداولا فى أيام يوسيبيوس،. وذاع صيته وشهرته الآفاق، فكان الناس يأتون إليه أفواجاً من كل فج عميق وترسل الأمم فى طلبه ليرشدها إلى طريق الخلاص. وكان من أهم أعماله ثلاث إرساليات إلى بلاد العرب كل على حدة. وقد ذكرها المؤرخ يوسيبيوس فى تاريخه. وكانت بلاد العرب فى ذلك العهد عبارة عن بلاد واسعة الأرجاء لايعرف عنها شىء. أما مدينة بصرى التى كانت بمثابة واحة فى صحراء سورية وهى تسمى الآن حوران على مسيرة أربعة أيام شمالى دمشق. وأول إرسالية من الإرساليات الثلاث التى قام بها أوريجين كانت بين سنة (٢٠٣ ـ ٢٢٥م) وسبب إرسالها هو أن حاكم بلاد العرب أرسل خطابات إلى بطريرك الاسكندرية يطلب فيها إرسال أوريجين لكى يشرح للناس تعاليم الديانة المسيحية، ويرشدهم إلى طريق الخلاص.

ولم تطل غيبة أوريجين كثيرا عن الديار المصرية، فقد عاد إلى مصر حين تولى بيرولوس أسقفية بصرى، أما عدم بقاء أوريجين طويلاً فى هذه المرحلة، فيرجع لكثرة أشغاله، كما أن البطريرك المصرى لم يسند إليه مهمة رئاسة هذه البعثة لأنها وظيفة لاتعطى إلا للكهنة. ولم يكن أوريجين من هؤلاء رغم ما عرف عنه ولقد جد أوريجين فى التعليم والتبشير داخل المدرسة. وخارجها، واشتهر بالسلوك الطيب والزهد الشديد. وزار أوريجين مدينة روما فى عام ٢١٢م حيث قوبل بكل حفاوة. ولما عاد إلى الإسكندرية نجح أعداؤه فى إثارة الإمبراطور عليه، فلجأ إلى فلسطين فاستقبله أسقفا بيت المقدس ومدينة قيصرية بالترحاب وسمحا له بصفة خاصة أن يعظ فى كنائسهم، لأنه لم يكن مسموحا له بإلقاء المواعظ باعتباره من غير رجال الكهنوت.

ولعل هذا ما دفع البعض إلى القول إن أسقف بيت المقدس قد منح أوريجين درجة الكهنوت. على أية حال بعد هذه المرحلة عاد مرة أخرى إلى الإسكندرية. والمهم البطريرك ديمتريوس الذى كان ينفذ التعاليم حرفيا قد استاء من قيام أوروبجين بالوعظ فى فلسطين، وعقد لهذا الغرض اجتماعاً حرم فيه أوريجين من رحمة الكنيسة. لذلك اضطر أوريجين إلى مغادرة مصر واتجه إلى فلسطين مرة أخرى حيث أسس فى مدينة بصرية مدرسة على غرار مدرسة الإسكندرية، والحقيقة أن حرمان أوريجين من رحمة الكنيسة لازال موضع جدل بين رجال الدين، ولم يتوصلوا فيه إلى رأى قاطع. وفى مرحلة من مراحل الاضطهاد التى سادت البلاد فى أواخر حياة أوريجين قبض عليه فى عام ٢٥٠م وسجن وعذب، ولم يفرج عنه إلا بعد أن تدهورت أحواله الصحية، ثم توفى بعد قليل فى عام ٢٥٣م.

ومن علماء الإسكندرية الذين تولوا إدارة مدرستها ديديموس الضرير Blind Didymus the y وقد ولد فى الاسكندرية عام ٣١٣م وهى السنة التى توقف فيها الاضطهاد ضد المسيحية بعد صدور مرسوم ميلان. وقد فقد بصره وهو فى حوالى الرابعة من عمره، فاستعان بذاكرته وحفظ كل ما يسمع. وقد تمكن من إتقان الكثير من العلوم، وألم بالشعر والبلاغة والفلك والهندسة والفلسفة، بالإضافة إلى العلوم اللاهوتية. ولم يتردد البطريرك أثناسيوس Athanasiusy فى إسناد مسئولية المدرسة اللاهوتية له لذكائه وقدرته على الاستيعاب ودقة ملاحظته، وعلو حجته. ويلاحظ أن ديديموس كان فى أواخر أيامه أشهر مدرائها، فقد أفل نجم الإسكندرية من بعده.ومن تلاميذه القديس جيروم Jerome، وروفينوس Riffinius وقد أكد جيرون علو شأن ديديموس وقدرته على التعليم وأثره الكبير فى علم اللاهوت فى الشرق والغرب. وخلال هذه المرحلة كانت حركة الصراع بين الأثناسيوسية والأريوسية على أشدها.



الفصــــــل الأول :

تخطيط الإسكندرية وعمرانها فى العصر الإسلامى.

الفصــــل الثانى :

الإسكندرية الإسلامية : تاريخ المدينة إلى بداية العصر الفاطمى.

الفصــــل الثالث :

مدينة الإسكندرية فى العصرين الفاطمى والأيوبى.

الفصــــل الرابع :

تاريخ الإسكندرية فى عصر دولة المماليك البحرية.

الفصل الخامس :

الإسكندرية من الفتح العثمانى إلى نهاية عصر إسماعيل.

الفصل السادس :

الجاليات الأوروبية فى مدينة الإسكندرية.

الجزء الثالث

تخطيط الإسكندرية وعمرانها فى العصر الإسلامى

أ. د.السيد عبد العزيز سالم

عندما افتتح العرب مدينة الإسكندرية الفتح الأول صلحا فى مستهل المحرم سنة ٢١ هـ بهرهم ماعاينوه من جمال العمارة وروعة التخطيط واتساع العمران: فمن دور كسيت جدرانها بالرخام الأبيض ناصع البياض، وأسوار صخرية منيعة مزودة بالحصون والأبراج الضخمة تطوق المدينة، وشوارع مستقيمة تتقاطع عموديا فيما يشبه رقعة الشطرنج، وميادين فسيحة تزدان بالتماثيل والأعمدة، وصهاريج جوفية تدور تحت المدينة على عقود وآزاج فتحت فى قبواتها منافذ للضوء ومتنفسات الهواء، وآثار أبنية قديمة ذاعت شهرتها فى العالم القديم والوسيط تتمثل فى منار الإسكندرية الشهير الذى أقيم هداية للسفن واعتبر أعجوبة من أعاجيب الدنيا السبع، وفى بقايا دار الحكمة البطلمية التى سماها الرحالة بنيامن التطيلى أكاديمية أرسطو، وفى عمود السوارى الذى أطلق على الباب الجنوبى للاسكندرية وعرف بباب العمود حتى يومنا هذا، وفى مسلتى كليوباترا اللتين نصبتهما أمام معبد القيصر.

احتفظت الإسكندرية بعد فتح العرب لمصر بتخطيطها اليونانى الذى ابتدعه هيبوداموس الميليطى فى القرن الخامس ق.م. وطبق فى رودس وبيرايوس وهاليكارناسوس بينما طبقه دينوقراطيس فى الإسكندرية، ويتميز بتقسيم الرقعة العمرانية للمدينة إلى شوارع مستقيمة منتظمة طولا وتتقاطع مع شوارع تمتد عرضا فى زوايا قائمة مؤلفة ما يشبه رقعة الشطرنج، وكان تخطيط الإسكندرية يتخذ شكل شريط عمرانى يمتد طولا مع امتداد الساحل وتتخلله شبكة من الطرق المستقيمة المرصوفة بالبازلت الملون، سبعة تمتد طولا من الشرق إلى الغرب بموازاة الساحل واثنتا عشرة تقطعها عرضا من الشمال إلى الجنوب، الشارع الأوسط من كل الشوارع الطولية والعرضية مقنطر من الجانبين ويتصل عند بدايته ونهايته بأحد الأبواب الأربعة التى تنفتح فى سور المدينة الحصين، وكان الشارع الطولى الرئيسى Cardo Maximus يعرف بالشارع الكانوبى لأنه كان يتجه شرقا نحو ضاحية كانوب (أبو قير حاليا) ويعرف اليوم بشارع أبى قير، وكان يسمى فى العصر الإسلامى بالمحجة العظمى وكان يزدان على جانبيه بالأعمدة والتماثيل وتتخلله أقواس النصر، وكان يتعامد معه ويقطعه من وسطه شارع فى مثل اتساع الكانوبى عرضى كان يعرف باسم السيما ويبدأ من الباب الشمالى المعروف بباب البحر وينتهى جنوبيا بباب العمود المعروف أيضا فى العصر الإسلامى بباب السدرة وباب البهار. لم يغير الفاتحون العرب شيئا فى تخطيط الإسكندرية القديم، لأن القبائل العربية التى شاركت فى الفتح استقرت فى الدور العديدة التى خلت وهجرت عند جلاء البيزنطيين عن الإسكندرية وأصبحت أخائذ للفاتحين، كما استقر فيها من وفد إليها من قبائل اليمن من لخم وجذام وكندة والأزد وخزاعة ومن المزاغنة والحضاربه، للرباط وحراسة الساحل، فنزلت لخم فى كوم الدكة ونزلت جذام فى بركة جذام ونزلت كنده فى موضع يعرف بالبراكل، ونزلت حضرموت بشارع الحضارمة، ونزلت خزاعة والمزاغنة بناحية أبى قير. أما الأبنية المحدثة التى أحدثها العرب فلم تكن تعدو المساجد التى أقامها الفاتحون عقب الفتح كالجامع الغربى العتيق المعروف بجامع الألف عامود الذى أقامه عمرو بن العاص فى البقعة التى كانت تقوم عليها أنقاض كنيسة العذراء مريم التى أقامها البطريرك ثيوناس، ومسجد موسى عليه السلام وكان يقع قرب المنار، ومسجد الخضر بالقرب من القيسارية، ومسجد الرحمة وكان موضعه قرب المسلتين فى منطقة كانت تعرف بالبقرات، وعرف أيضا بمسجد القيسارية، وكذلك بمسجد اللبخات لقربه من بعض أشجار اللبخ، ومسجد ذى القرنين الذى يرجح أنه كان مقاما فى الموقع الذى يقوم عليه اليوم مسجد النبى دانيال. وبالإضافة إلى هذه المساجد أقيم عدد من الدور منها دار أنشأها الزبير بن العوام وعدة دور أقامها زيان بن عبد

العزيز بن مروان، وكذلك بعض المسالح أو المحارس أو الرابطات على امتداد الساحل لحراسة الإسكندرية التى عرفت بالإسكندرية المحروسة.

غير أن تخطيط الإسكندرية لم يلبث أن تأثر بظروف غير مواتية ترتب عليها انكماش رقعتها المعمورة، منها نقص عدد سكانها بعد الفتح العربى الأول فى سنة ٢١ هـ والفتح الثانى فى سنة ٢٥ هـ، ومنها هدم قطاعات من سور الإسكندرية بأبراجه وقلاعه عند الفتح الثانى لها مما أدى إلى تراجع النطاق العمرانى إلى الداخل، ومنها انقطاع ماء النيل فى خليج الإسكندرية لكثرة الرواسب الطينية والرملية، واعتماد أهل المدينة على الآبار والصهاريج.

ثم شهدت الإسكندرية منذ النصف الثانى من القرن الثالث الهجرى وبالذات فى عهد الدولة الطولونية عهداً جديداً، بدأت تنتعش فيه الحياة العلمية والاقتصادية بعد عهود من الاضمحلال استغرقت القرنين الأولين من الهجرة، نتيجة طبيعية لتقلص المناطق المعمورة بسبب تخريب جوانب من أسوارها الشرقية والجنوبية لما سببته ثورات بنى مدلج بها، ويرجع الفضل الأعظم للنهوض بالإسكندرية من عثرتها إلى أحمد بن طولون الذى طوق المناطق المأهولة بالسكان بسور وذلك أثناء زيارته لها فى سنة ٢٥٧ هـ، وكان يهدف إلى ضم هذه المناطق العامرة وإخراج المنطقة الجنوبية المهجورة من النطاق المسور، وكانت تضم أطلال معبد السيرابيوم وعمود السوارى وبعض الخرائب وفتح فى السور الجديد الباب الشرقى الذى كان يعرف بباب رشيد وباب السدرة أو الشجرة أو العامود. وظلت الإسكندرية رغم ذلك تحتفظ بتخطيطها البطلمى باستثناء المناطق كثيفة السكان فى الجانب الغربى والشمالى الغربى من المدينة وكانت قد تعقدت أبنيتها مما استحدث فيها من أسواق ومساكن عشوائية التخطيط مما اقتضته طبيعة المدن الإسلامية فكان يشقها طولا من الباب الشرقى إلى الباب الغربى المعروف بالأخضر أو القرافة نفس الطريق الفسيح المعروف بالمحجة العظمى والذى يتقاطع عموديا مع الطريق العرضى الذى يمتد مابين باب العمود جنوبا وباب البحر شمالا. وفى سنة ٢٥٩هـ أمر ابن طولون بإعادة حفر خليج الإسكندرية الذى كان مطمورا بالرمال والرواسب الطينية قبل ٢٤٥هـ. وباستثناء شبكات الأزقة والزنقات التى استجدت فى المناطق المكتظة بالسكان فى الشمال الغربى والجنوب الغربى من الإسكندرية ظلت بقية القطاعات العمرانية فى الإسكندرية محتفظة بتخطيطها الشطرنجى القديم.

وفى العصر الفاطمى لم يتغير تخطيط الإسكندرية كثيرا عنه فى العصر الطولونى، فكانت على حد قول الرحالة ابن سعيد أفسح شوارع وأبسط وأبدع من تونس، كما وصفها ابن جبير الأندلسى فى رحلته فى عهد صلاح الدين سنة ٥٧٨ هـ بقوله : «فأول ذلك حسن وضع البلد واتساع مبانيه، حتى أن ما شاهدنا بلدا أوسع مسالك منه ولا أعلى مبنى ولا أعتق ولا أحفل منه». وامتدحها ابن بطوطه الطنجى عند زيارته فى المرة الأولى من سنة ٧٢٥ هـ بقوله «هى الثغر المحروس والقطر المأنوس، العجيبة الشأن، الأصيلة البنيان»، كما يشهد الرحالة خالد البلوى القنطورى والأندلسى فى كتابه تاج المفرق فى تحلية علماء المشرق سنة ٧٣٧ هـ بأنه «لم ير مدينة أحسن منها وضعا، ولا أبدع ربعا ولا أوسع مسالك، ولا أعلي مبانى، ولا أسمى مراقى ولا أجمل مراسم، ولا أملح أزقة، ولاأعجب رونقا ورقة، ولا أحسن تفصيلا وجملة.

هى القصور البيض لا ما حدثوا * عن إرم وغيرها من البنا

تخطف الأبصار من لألائها * والليل قد ألقى القناع الأدكنا

فكأن محاسن الدنيا فيها مفروشة، وصورة الجنة فيها منقوشة» ومن المرجح أن العمران اتسع من جهة الجنوب والشرق فى العصر الفاطمى وكان ذلك مقدمة لتألقها وازدهارها فى العصر المملوكى الأول نتيجة لانتعاش الحياة الاقتصادية، فقد تألفت أرباض تقع خارج الأسوار الشرقية والجنوبية كمنطقة الرمل التى أقيمت فيها القصور والمعاهد والمتنزهات، فمن أمثلة هذه القصور قصر بنى خليف السكندرى والذى كان مقاما بمنطقة الرمل بظاهر الإسكندرية من الجهة الشرقية، وكان قصراً راسخ البنيان، عظيم الارتفاع، وصفه الشاعر أبو الفتح نصر

الله بن مخلوف اللخمى السكندرى المعروف بابن قلاقس (ت ٥٧٦ هـ) فى قصيدة منها :

قصر بمدرجة النسيم تحدثت * فيه الرياض بسرها المستور

خفض الخورنق والسدير سموه * وثنى قصور الروم ذات قصور

بينما يصف الشاعر أبو الطاهر إسماعيل المعروف بابن مكنسة (ت ٥١٠) متنزها ذا غدير من متنزهات الإسكندرية بقوله:

ذات غدير خلته * صرح زجاج مردا

ثم أنثنى منعطفا * مرتعشا مرددا

ومن أشهر قصور الإسكندرية فى العصر الفاطمى قصر قاضيها مكين الدولة أبى طالب أحمد ابن حديد الذى امتدح عظمته الشاعر ظافر بن الحداد وأمية بن أبى الصلت لأنه كان يشتمل على بستان كان موضع فرجة للجرن الرخامى الذى ينحدر فيه الماء فيبقى كالبركة من سعته. كما أقيمت بها مدرستان سنيتان أقدمهما المدرسة العوفية أو الحافظية التى أسسها الوزير رضوان بن ولخشى سنة ٥٣٢ (١١٣٨م) بشارع المحجة، والثانية المدرسة السلفية أو العادلية التى أسسها على بن السلار الملقب بالعادل والى الإسكندرية سنة (٥٤٤ هـ) (١١٤٩م). وفى العصر الفاطمى جدد الوزير أمير الجيوش بدر الجمالى بناء جامع العطارين سنة ٤٧٧هـ بعد أن كان خرابا، وأقام الفقيه العالم أبو بكر محمد بن الوليد الطرطوشى نزيل الإسكندرية مسجدا سنة ٥١٦ هـ بظاهر باب البحر كما أقام المؤتمن نظام الدين أبو تراب حيدرة والى الإسكندرية مسجدا بالمحجة العظمى سنة ٥١٧.

وحافظت الإسكندرية على النظام التخطيطى العام لشوارعها الرئيسية فى العصر الأيوبى باستثناء ما استجد من أحيائها المتطرفة فى القطاعين الغربى والجنوبى من النطاق العمرانى كحى العطارين وما جاوره من مناطق سكنية محدثة خضعت للنظام التخطيطى للمدن إسلامية البناء، من حارات ودروب، وأزقة وزنقات ضيقة تكتظ بدور بسيطة البنيان وحوانيت تجارية، بالإضافة إلى الأسواق والقياصر والخانات التى كانت تقام عادة فى المناطق العامرة بالمدينة وعلى مقربة من الباب الأخضر. أما المدارس فكانت تقام عادة فى مواضع متفرقة من الثغر وعلى الأخص فى المناطق كثيفة السكان فى حين كانت الرباطات تتوزع عامة على المواقع القريبة من الساحل أو فى اللسان العمرانى الموصل إلى شبه جزيرة المنار المعروف بما بين الميناوين خارج السور الشمالى للاسكندرية.

ولم يتغير هذا التخطيط فى العصر المملوكى عنه فى عصر الأيوبيين، فقد ظلت المحجة العظمى تشق المدينة من الباب الشرقى إلى الباب الأخضر، وكان يقطعها فى وسطها الطريق العمودى الرئيسى الممتد من باب السدرة إلى باب البحر، وفى هذا الطريق المؤدى إلى البحر كانت تقع دار ابن الصفار، بينما كان جفار القصارين يقع على مقربة منها مما يلى الصادر أو الديوان الملاصق لباب البحر تجاه الميناء الشرقية. وبداخل المدينة وفى الأحياء المكتظة بالسكان كانت تقام خانات أو فنادق متعددة لنزول الغرباء، منها فندق الصفار الذى كان يقع على مقربة من منطقة الصبانة. وكان يلى ذلك غربا قصر السلاح فى حى الزربية على مقربة من الباب الأخضر، وبلصقه مسجده الملحق به والقاعات المفروشة بالرخام. ويمتد من باب البحر إلى شبه جزيرة المنار فى منطقة بين الميناوين قصور ورباطات للصوفية وأضرحة من أمثلتها ضريح أبى العباس المرسى ومسجده ورباط سوار ورباط الواسطى ورباط أبو عبدالله محمد بن سلام الذى أسس سنة ٧٦٦ وخربه القبارصة فى غزوتهم للاسكندرية بعد عام ونيف من تاريخ تأسيسه، ورباط الأمير طغيه فى شبه جزيرة المنار، ورباط قجماس الاسحاقى نائب السلطنة بالإسكندرية، ورباط الهكارى فى منطقة القصرين فى عهد الأشرف قايتباى، وكان يقع خارج باب البحر على ساحل بحر السلسلة.

وبالإضافة إلى هذه المنشآت تجدر الإشارة إلى دور أخرى حكومية منها دار الضرب ودار الصناعة الشرقية

المحدثة فيما يبدو فى العصر الفاطمى مما يلى باب الديوان والغربية القديمة وتقع بجوار الباب الأخضر، ومنها أيضا دار الطراز الواقعة بين السورين اللذين يمتدان بحذاء الساحل، ودار العدل التى كانت تقوم بجوارها. أما بيت المال فكان يجاور دار السلطان. وكانت المنطقة التجارية القريبة من الديوان الجمركى تضم أحياء تجارية، ولذلك كانت معظم الفنادق تقع فى هذه الأحياء لتيسر على التجار الغرباء المبيت وبيع سلعهم، ومن هذه الفنادق فندق الكتلان وفندق الجنويين، وفندق المرسيليين، وفندق الموز الواقع بشارع المرجانيين، وفندق الطبيبة، وفندق الجوكندار وفندق الدماميني بسوق الجوار. أما الأسواق فكانت كثيرة نذكر من بينها سوق العطارين وسوق الجوار ووكالة الكتان التى كانت تقع قبالة جامع العطارين، وسوق الخشابين، وسوق القشاشين، وقيسارية الأعاجم، وقياسر البزازين، وسوق السلاح، وحوانيت شارع المرجانيين بمنطقة المعاريج، وسوق الشماعين، وسوق الصاغة، وكانت لأهل الإسكندرية ثلاث مقابر رئيسية واحدة كانت تقع خارج أسوار الباب الأخضر وهى مقبرة وعلة، ومقبرة باب العمود، وكانت فى نفس موقع المقبرة الحالية الموسومة بذات الاسم، والثالثة مقبرة باب شرقى وتقع خارج هذا الباب ولعلها المنارة الحالية. وفى منطقة مابين الميناوين خارج باب البحر نضيف مقبرة خصصت لبعض الأمراء وكبار الشيوخ دفن فيها الأمير طغية والأمير بلاط والشيخ أبى العباس المرسى وتلاميذه الأربعة.

اتسعت رقعة الإسكندرية العمرانية فى عصر دولتى المماليك عما كانت عليه فى العصور السابقة وأصبحت تضم بالإضافة إلى حوماتها أرباضا خارج السور الشرقى والجنوبى مثل ربض السرية الذى كان يقع إلى الجنوب الشرقى منها، وربض القصرين الذى كان يمتد خارج الباب الشرقى، وربض الرمل الذى كان يمتد بحذاء الساحل شرقى المدينة، وربض كوم العافية الذى كان يقطنه اليهود فى شرق الإسكندرية حيث تقع اليوم جبانة اليهود.

وكان سور الإسكندرية الشمالى الممتد غربا من باب البحر حتى الباب الأخضر سورا مزدوجا، وبين السور الرئيسى والسور الأمامى فصيل أو درب فسيح أقيمت فيه دار الطراز لصناعة المنسوجات، وعلى مقربة منها كانت تقع دار الصناعة الغربية وهى على الأرجح الدار البطلمية التى ظلت تزاول نشاطها الإنتاجى للشوانى الغزوية والمجانيق، وأعتقد أن الأثر المكتشف حديثا فى شارع أساكل الغلال بميناء البصل يتعلق بمدخل فى شكل صرح فرعونى يؤدى إلى درج ينتهى بمدخل ثان مزود بشق علوى لعله كان مخصصا لمشط حديدى كان يرتفع ويرخى عن طريق سرياقات تدور حول لوالب الأتراس المضرسة، وهو ما أضيف إلى هذه الدار بعد أن أحرقها القبارصة فى غزوتهم للاسكندرية، لتحصينها مستقبلا.

وكان ينفتح فى سور الإسكندرية فى عصر المماليك تسعة أبواب منها خمسة فى السور الشمالى هى باب الديوان المطل على الميناء الشرقية وباب البحر وبداخله بويب يعرف بباب الغدر، وكان أهم الأبواب الشمالية وبجواره أقام الفاطميون برج ضرغام سنة ٥٥٧ هـ، وبويب الخوخة والباب الأخضر قرب نهاية السور الشمالى من الجهة الغربية. أما السور الجنوبى فينفتح فيه بابان هما باب العمود أو باب السدرة وينفتح فى منتصف السور، ثم باب الزهرى المنسوب إلى الشيخ محمد الزهرى فى أقصى الجنوب الشرقى من السور.. أما الجانب الشرقى فكان ينفتح فيه باب واحد فى منتصفه تقريبا هو باب الشرق أو باب رشيد، وكذلك كان الجانب الغربى ينفتح فيه باب واحد هو باب القرافة.

ونضيف إلى العمائر المدنية التى كانت تزخر بها الإسكندرية المدارس العلمية، فكان منها بالإضافة إلى المدرستين العوفية والسلفية المدرسة الخلاصية والنابلسية ومدرسة التكريتى ودار الحديث النبيهية للفقه المالكى ومدرسة الفخر والبلبيسى وابن حباسة، والدماميني والسراجية ومدرسة ابن الإبزارى ومدرسة الخضر المنسوبة إلى الشيخ خضر المهرانى، وتعرف بقاياها اليوم بزاوية سيدى خضر.

أما الأحياء الداخلية فقد زودنا النويرى السكندرى بأسماء بعضها ومنها منطقة المعاريج وكانت تضم أسواق القشاشين وحوانيت المرجانيين وقيسارية الأعاجم على مقربة من الباب الأخضر.

الاسكندرية الإسلامية
تاريخ المدينة من الفتح العربى إلى العصر الفاطمى

أ. د. سعد زغلول عبد الحميد

مقدمة :

لم تكن الاسكندرية قبل الفتح العربى عاصمة لمصر فقط بل كانت العاصمة الثقافية والحضارية للعالم الهللنستى ذى الحضارة الاغريقية الشرقية. وهكذا كانت مركز الإشعاع العلمى والفلسفى التى تجذب جامعتها ومعاهدها طلاب المعرفة والبحث عن الحقيقة من كل مكان، كما كانت تجذب منارتها السفن من وسط اللجج وتهديها إلى بر الأمان إلى الميناء الكبير.

ودخلت مصر فى حوزة العرب والإسلام فى حوالى منتصف القرن السابع الميلادى، وكان ذلك بداية عصر جديد. فالاسكندرية لم تعد عاصمة مصر بعد أن حلت مكانها الفسطاط التى بنيت فى الموضع الطبيعى للعاصمة المصرية فى المنطقة التى تربط بين أسفل الأرض وأعلاها، بين الدلتا والصعيد. وكان من الطبيعى أن تفقد الاسكندرية بعض أهميتها القديمة نتيجة لاتجاه مصر نحو العالم العربى وانفصالها عن العالم الرومانى، وبذلك صارت (ثغرا) أى حدا فاصلاً مع العدو البحرى الرومى، أو جبهة دفاع بحرية. وظلت صفة الثغر لاصقة بالاسكندرية طوال العصور الإسلامية وحتى العصر الحديث. فبعد أن كانت هدفا للروم أصبحت من أهداف الصليبيين والصقليين، كما صارت حديثا محط أنظار الفرنسيين والانجليز. وهذا ما يفسر كيف أننا ما زلنا نطلق اسم (الثغر) أو (ثغر مصر) على الاسكندرية، رغم أن المدينة آمنة مطمئنة، محروسة ـ بإذن الله ـ من كل شر وسوء.

ولكن أهمية الاسكندرية لا تكمن فى كونها ثغرا أو جبهة قتال بحرية فى العصر الإسلامى، إذ كان لها مركزها المرموق بين مدن العالم العربى الإسلامى. فبفضل موقعها البحرى على الطريق الساحلى لشمال القارة الافريقية، الممتد من برزخ السويس شرقا إلى قرب مدينة فاس فى أقصى الغرب كانت الاسكندرية أهم محطة برية تربط بين المشرق والمغرب. وبفضل مرساها الكبير ظلت أهم محطة بحرية فى شرق المتوسط، تمر بها متاجر الشرق والغرب.

وإلى جانب الازدهار الاقتصادى عرفت الاسكندرية الإسلامية العمران الكبير، فأقيمت بها المساجد الجامعة والمدارس المعروفة والأضرحة المشهورة. وما زالت الاسكندرية تفخر إلى اليوم بالكثير من مشاهير شيوخها وعلمائها من الزهاد والصالحين.

فتح العرب للاسكندرية

من دون كل الفتوح العربية تميز فتح مصر بالسهولة الغريبة. فالروايات تقول أن القوات العربية التى دخلت مصر أثناء الفتح لم تزد على عشرة آلاف رجل، بمعنى أن العرب استطاعوا أن يحققوا فى مصر انتصارات باهرة بإمكانيات بسيطة. وإذ جاز ذلك فى مدن الشام أو بابليون الفسطاط، فهو الأمر المستغرب بالنسبة للاسكندرية التى كانت وثيقة الصلة بالقسطنطينية بفضل الأسطول البيزنطى صاحب السيطرة على المتوسط الذى عرفه العرب ببحر الروم. والمهم أنه بعد أن استطاع القائد عمرو بن العاص فتح حصن بابليون، لم يبق أمامه إلا الاسكندرية، فسار إليها، وقدم له أهل مصر (القبط) المعونة وأصبحوا أشبه بالقوات المساعدة

العرب. وكان يظن أن المدينة البحرية الكبيرة تستطيع الصمود أمام العرب، الذين لم يكونوا يستطيعون حصارها إلا من الداخل من جهة الشرق والجنوب الشرقي، إذ أن الشمال مفتوح على البحر، والغرب محاط بالترعة الآتية من النيل. وهكذا اضطر العرب إلى الوقوف على بعد من المدينة، ومعهم رؤساء القبط (المصريين)، وأصبح القتال تراشقا من بعيد أو برازا فرديا، وجماعيا ينتهى بانهزام رجال الحامية البيزنطية إلى أسوار المدينة وبعودة العرب إلى مخيماتهم فى الجنوب.

وفى هذا الوقت كانت تجرى مفاوضات فى بابليون عن الصلح، وغضب الامبراطور هرقل على المقوقس حاكم مصر بسبب واقعيته، وموقفه من ضرورة قبول الصلح مع العرب حسب شروطهم، ولم يجد غضب هرقل شيئا، كما لم تجد الإمدادات التى وجهها إلى الاسكندرية، ولا محاولته إثارة الحماس فى الروم المقيمين فى المدينة وتشجيعهم على المقاومة، وتوفى هرقل أثناء حصار بابليون (١١ فبراير ٦٤١/٢٢ صفر سنة ٢٠ هـ)، وقرر الامبراطور الجديد هرقلوناس بن هرقل إرجاع المقوقس إلى الاسكندرية لعدم الوفاق بين الجماعات المتنافرة من أهلها الأمر الذى كان من الأسباب التى عجلت بإبرام الصلح.

وتم الاتفاق بين القائد عمرو وبين الحاكم المقوقس على شروط صلح الاسكندرية بعد حصارها الذى دام حوالى ٩ (تسعة) أشهر، وهنا يضيف المؤرخ القبطى حنا النقيوسى معلومات تفصيلية دقيقة إلى تلك التى يمدنا بها الكتاب العرب. فمن شروط هذا الصلح أن يدفع الجزية كل من دخل فى العقد. والمفهوم أن الجزية (ضريبة الراس) هنا تختلف عما تم عليه الاتفاق فى بابليون من الضريبة (٢ دينار)، بل كانت تصاعدية حسب الملكية الزراعية والمالية. ونصت الاتفاقية على قيام هدنة تستمر ١١ أحد عشر شهرا)، ترحل خلالها حامية الاسكندرية فى البحر، وعلى ألا يعود الروم بعد ذلك إلى أرض مصر. وضمن العرب كعادتهم حرية العبادة وأمن الكنائس، كما تم الاتفاق على السماح لليهود بالبقاء فى الاسكندرية والإقامة بها. ولكى يضمن العرب تنفيذ شروط الهدنة أخذوا من البيزنطيين الرهائن. ودخل العرب الاسكندرية فى أواخر عام ٢٠ هـ أوائل ٢١ هـ (أواخر سنة ٦٤١م).

وصف الاسكندرية التى رآها العرب

دخل العرب المدينة التى لم يشهدوا لها مثيلاً من قبل بفضل قصورها الضخمة ومعابدها الفخمة وشوارعها الواسعة ذات الأقواس (العقود) المرفوعة على العمد الجميلة، والمليئة بالأعمدة الهائلة والتماثيل العجيبة، فكان لها وقع غريب فى نفوسهم أثار خصب خيالهم فوصفوها وصفا رائعا.

والواضح من وصف الاسكندرية عند مؤرخ مصر ابن عبد الحكم أن المدينة كانت تتكون من ٣ (ثلاثة) أحياء على كل حى منها سور، وخلف ذلك سور على الثلاثة أحياء، هو سور المدينة، وأحياء المدينة الثلاثة عند دخول العرب، هى حى المصريين الوطنى، وحى الروم، وحى اليهود. والمعروف أن العداء كان صريحا بين الطوائف الثلاث، وهذا ما يفسر كيف أنه كان لكل حى من الأحياء أسواره الخاصة داخل نطاق أسوار المدينة وتحصيناتها.

وهناك وصف مدهش لصهاريج خزن المياه، إذ كانت طبقات فوق بعض، وبها العدد العظيم من الحجرات والأعمدة، وهذا أصل الأسطورة التى تقول أن الاسكندرية مبنية مدينة فوق مدينة، نظرا لاتساع هذه الصهاريج إلى درجة جعلت الناس يقولون أنها شملت كل مساحة المدينة الكبيرة. وما زالت بعض هذه الصهاريج موجودة حتى اليوم وهذه الصهاريج كانت تملأ من الترعة العذبة فى أوقات الفيضان. وأما الأسواق المقنطرة فالمعروف أن كثيرا من شوارع الاسكندرية كان يكتنفها من الجانبين سقائف (بوائك) مبنية على عقود وأقواس تحملها الأعمدة الجميلة، وخاصة فى الشارعين الرئيسيين: الطولى (الكانوبى: شارع فؤاد أو الحرية حاليا)، والراسى (السوما: شارع النبى دانيال حاليا). ولما كان الطريق الأعظم هو موضع البيع والشراء فإنه

كان بمثابة السوق المقنطرة. ولا شك فى أن هذا الطريق التجارى المسقف هو الذى أوحى ببناء الأسواق المسقوفة فى المدن العربية المعروفة (بالقيسارية)، (القيصرية) نسبة إلى قيصر. ونظن أن قيسارية الاسكندرية فى العصر العربى الأول كانت فى هذا الطريق. ولا بأس من تحديدها بالقرب من سوق العطارين الحالى الذى يحده الطريق الأعظم القديم (طريق الحرية اليوم).

وأشهر معالم الاسكندرية على الإطلاق هو المنار أحد عجائب الدنيا السبع ـ وتتمثل بقايا قاعدته المربعة فى قلعة قايتباى الحالية بحى الأنفوشى.

وهناك وصف جيد للمنار يقدمه المؤرخ العربى القديم المسعودى (سنة ٣٣٢هـ/٩٤٤م) ينص على أنه كان يتكون من ٣ (ثلاث) طبقات: السفلى مربعة الشكل، مبنية بالحجارة، والوسطى مثمنة، مبنية بالآجر والحصى، ومحيطها أقل من محيط الطبقة السفلى، والعليا مدورة الشكل، ومحيطها أقل من محيط الطبقة الثانية. هذا كما يقدم لنا المسعودى معلومات تاريخية هامة عن الزلازل التى ألمت بالاسكندرية وما ألحقته بالمنار حتى أيامه مثل زلزال سنة ٣٢٤هـ/٩٥٥م الذى هدم ٣٠ (ثلاثين) قدما من أعلاه.

ويذكر الكتاب أنه كان فى قمة المنار مسجد ينسبونه إلى النبى سليمان. وهذا المسجد كان موضع عناية حاكم مصر أحمد بن طولون سنة ٢٦٢هـ/٧٥٥م. وهذا المسجد كان يرابط فيه حراس البحر لمراقبة العدو البحرى. وكان المنار مبجلا من السكندريين الذين خصصوا له يوما جعلوا عيده السنوى، وكان يوم الخميس دائما، هو خميس العهد، عيد الربيع عند المصريين الذى يعادل اثنين شم النسيم، عيد الربيع الحالى. وكان الناس يصعدون فى يوم عيد المنار هذا إلى أعلى المنار، يتأملون بنيانه، ويطلون من أعلاه على البحر وعلى معالمه، ويصلى من يريد التبرك بالصلاة فى مسجده، وذلك من الصباح إلى أن ينتصف النهار. ومنذ ذلك اليوم كان يبدأ احتراس البحر.

ولقد كان للمنار آثاره على العمارة الإسلامية فى المشرق، وفى بلاد المغرب العربى خاصة. هذا كما كان لمنار الاسكندرية تأثيره على بناء أبراج الكنائس فى مصر والشام، وأنه ومن هذه الأبراج أوحى إلى العرب بناء مآذن المساجد ابتداء من النصف الثانى للقرن الأول الهجرى على أيام والى مصر مسلمة بن مخلد. وأقدم نماذج هذا النوع من المآذن التى تذكر بشكل منار الاسكندرية هى منارة المسجد الجامع بالقيروان، وإن كانت المآذن التى تعتبر بحق نماذج حقيقية لمنار الاسكندرية، هى منارة جامع اشبيليه بالأندلس التى حولت إلى برج للكتدرائية، والمعروفة حاليا باسم الخيرالدا، ومنارة جامع الكتبية بمدينة مراكش ثم منارة جامع حسان بمدينة الرباط التى لم يتم بناء الأجزاء العليا منها. وفى ذلك يقول المؤرخ عبد الواحد المراكشى إن مئذنة جامع حسان التى بناها المنصور الموحدى فى أواخر القرن الـ ٦ هـ/١٢م، إنما بنيت على هيئة منار الاسكندرية، كما أن مدينة الرباط نفسها (عاصمة المغرب) بنيت على هيئة الاسكندرية من حيث اتساع الشوارع واستقامتها، وعظمة مبانيها.

ويأتى بعد المنار عامود السوارى الذى ينسبه الكتاب العربى إلى النبى سليمان. ويوصف بأنه اسطوانة عظيمة لم يسمع بمثلها، غلظها ٣٦ شبرا عالية شاهقا لا يدرك أعلاها قاذف بحجر، أما عن رأس العامود (تاجه) فقالوا إنه محكم الصناعة، وأنه يدل على أن بناء كان عليه، والعامود الذى أعطى اسمه لمقبرة الاسكندرية (العامود) يعتبر من أعاجيب العالم.

وعامود السوارى يقع إلى شمال قصر الاسكندرية الأعظم، والمقصود به معبد السرابيوم الذى يوصف بأنه لم يكن له فى معمور الأرض نظير. وكان موضعه فى نفس منطقة عامود السوارى فى الحى الوطنى بإزاء الباب الجنوبى للاسكندرية، وهو باب الشجرة الذى يعرف حاليا بباب سدرة. وكان القصر (المعبد) على ربوة عالية (المعروفة بالطوبجية حاليا) وطوله ٥٠٠ ذراع وعرضه ٢٥٠ ذراعا، ولايصف الكتاب العرب إلا بقاياه من السوارى التى بلغت عدتها ١٠٠ (مائة) اسطوانة قائمة، غلظ كل واحدة منها عشرة أشبار. وهذه السوارى الصغيرة (نسبيا) هى التى أعطت للاسطوانة الكبرى اسم عامود السوارى.

ولا يوجد حاليا فى الموضع عمد أو سوارى سوى العامود الأكبر، والمعروف تاريخيا أن قراجا والى صلاح الدين على الاسكندرية حمل الأعمدة وألقى بها فى البحر ليمنع أثر الأمواج على الشاطئ (كما تفعل البلدية حاليا عندما تضع مكعبات الخرسانة الكبيرة) أو ليعوق العدو البحرى من النزول إلى البر.

أما الملعب الذى كان مبنيا بطريقة بديعة: يرى الجالسون فيه بعضهم بعضا، ويشاهدون كل مايجرى فيه من مناقشات أو ألعاب (لايخفى على أحدهم من ذلك شيئا). وهنا تقول الرواية أن عمرو بن العاص حضر قبل الفتح أحد مهرجانات الاسكندرية الرياضية فى ذلك الملعب، وأن الكرة التى كان يلعب بها الفتيان والفتيات وقعت فى جيبه فكانت نبوءة امتلاكه الاسكندرية. وتفخر الاسكندرية بذلك الملعب البديع الذى تم الكشف عنه حديثا تحت بعض أنقاض كوم الدكة، بجوار مركز المطافئ حاليا.

كان من أهم معالم الاسكندرية وقتئذ كنيستان من أعظم كنائس الروم، أولاهما هى كنيسة القديس مرقص (المرقصية) حيث كان جثمان الرسول الذى نقل إلى البندقية فى القرن التاسع الميلادى. والأخرى هى كنيسة القيصريون التى كان لها مسلتان قديمتان فى فنائها، وهما اللتان نقلتا إلى نيويورك ولندن. وباسمهما يعرف حاليا حى وشارع المسلة (المتاخمتان جنوبا لمحطة الرمل).

وأغلب الظن أن مقبرة الاسكندر لم تكن بعيدة عن حى القيصريون، والمسعودى فى كتابه مروج الذهب يذكر المقبرة ولكنه لا يحدد موضعها بالدقة. ونظن أنه ينقل عن بعض الكتاب القدامى عندما يقول: أن جثة الاسكندر وضعت فى تابوت من المرمر (وجعل التابوت المرمر على أحجار نضدت وصخور نصبت من الرخام المرمر قد رصفت، وهذا الموضع من الرخام والمرمر باق ببلاد الاسكندرية من أرض مصر، يعرف بقبر الاسكندر).

أما عن آخر المعالم التى لا ينبغى أن تهمل رغم عدم ذكر قدامى الكتاب العرب أى شئ عنها فهى مكتبة الاسكندرية التى يجرى إحياؤها فى موضعها القديم فى أرض جامعة الاسكندرية شمال مجمع الكليات النظرية الذى يحوى كليات: الآداب والتجارة والحقوق. وإذا كانت هناك قصة كانت تقول أنها أحرقت على يدى عمرو بن العاص فقد أثبت البحث الحديث عدم صحة ذلك.

والمهم أن الاسكندرية ظلت تخضع لتخطيطها القديم، وقوامه تقسيم المدينة إلى شوارع مستقيمة تتقاطع فى زوايا قائمة أشبه مايكون برقعة الشطرنج المستطيلة على طول الساحل، وظل شارعاها الرئيسيان القديمان، وعرف الأفقى منهما فيما بعد باسم المحجة العظمى، وأصبح الباب الواقع فى شرق المدينة حيث مخرج الشرع الأفقى يسمى بالباب الشرقى بينما سمى المقابل له من جهة الغرب بالباب الغربى ـ وهو الذى عرف مؤخرا بالباب الأخضر.

وفى جنوب الاسكندرية كانت بحيرة مريوط التى كانت تصل إليها المياه العذبة من النيل، وكانت المنطقة غنية بالبساتين والمزارع فكانت ضفتى الترعة القديمة فى منطقة مريوط فى نهاية العمارة التى تمتد إلى أرض برقة، كما كانت السفن تجرى فى النيل وتتصل بأسواق الاسكندرية.

الاسكندرية عقب الفتح العربى

يقال أن عمرو بن العاص أراد أن يتخذ الاسكندرية عاصمة للبلاد كما كانت، ولكن الخليفة عمر بن الخطاب رفض عندما علم أن النيل يحول وقت الفيضان بينها وبين بلاد العرب. ونحن نرى أن العرب لم يتخذوا الاسكندرية قاعدة لهم بسبب وضع المدينة الاستراتيجى كميناء على ساحل البحر عرضة لخطر العدو البحرى المتمثل فى الاسطول البيزنطى، وبسبب وجود جالية رومية كبيرة بالمدينة لم يكن العرب ليطمئنوا إلى المقام بجوارها، ومن الناحية الأخرى كان العرب بعيدى النظر عندما اختطوا الفسطاط قريبا من بابليون فى موضع عواصم مصر التقليدية ـ عين الشمس ومنف ـ وهو المكان المتوسط بين مصر العليا ومصر السفلى، ورمز الوحدة بين الوجهين، ونتيجة لذلك كان من الطبيعى أن يضعف شأن الاسكندرية بعد خروج الميسورين من

الروم ومعهم أموالهم وأمتعتهم، الأمر الذى أدى إلى كساد التجارة ومعاناة من كان قد بقى فى المدينة من الروم. أما عن أهل البلاد فقد تحسنت ظروفهم الاجتماعية وأحوالهم الشخصية، فالحقيقة أن العرب صادقوا القبط وغمروهم برعايتهم وعاملوهم معاملة الأخوال ـ على أساس أن هاجر أم اسماعيل منهم. هذا وإن كان الأمر قد تغير فى الاسكندرية عندما طالب الخليفة فى المدينة بالحجاز بزيادة ما كان يرسله عمرو بن العاص من مصر إلى الحجاز بسبب المجاعة والقحط التى كانت قد حلت بتلك البلاد ـ الأمر الذى ترتب عليه زيادة خراج مصر (جزية الرؤوس) من ١٢ مليون دينار إلى ١٤ مليون دينار الأمر الذى كان له ردود فعل سلبية فى الاسكندرية من غير شك.

والمهم أن الاستقرار لم يستمر فى الاسكندرية إلا لمدة ٤ (أربع) سنوات، عاد بعدها الروم إليها من جديد (سنة ٦٤٥م/ ٢٥هـ) فى حملة بحرية كبرى محمولة على ٣٠٠ (ثلاثمائة) سفينة، ويقودها القائد منويل (منويل الخصى عن العرب). وبمجرد نزول الحملة انضم من كان بالاسكندرية من الروم إلى إخوانهم من رجالها، أما عن القبط فقد وقفوا إلى جانب العرب ضد الروم وكذلك بطريق الاسكندرية.

واضطر الخليفة عثمان بن عفان أن يعيد عمرو بن العاص إلى مصر حتى يواجه الروم من جديد (فإن له معرفة بالحرب وهيبة فى العدو). وعندما وصل عمرو من الحجاز كان البيزنطيون قد أتموا الاستيلاء على الاسكندرية ثم إنهم خرجوا منها وساروا مع فرع النيل الغربى وهم يقصدون العرب فى الفسطاط. وقد انضم إلى الروم أهالى بعض القرى ولكن معظم أهل البلاد رفضوا التعاون معهم. وتم اللقاء بين عمرو وبين الروم عند بلدة نقيوس، على ضفة النيل غير بعيد من مدينة منوف. وقامت معركة برية نهرية عنيفة انجلت عن انكسار الروم وفرارهم نحو الاسكندرية، بينما بقى منويل على أرض المعركة.

واعتصم الروم بالاسكندرية التى وقفت بأسوارها وحصونها تتحدى عمرا للمرة الثانية. واستطاع عمرو من مفاجأة الروم بعد أن اشترى حارس أحد الأبواب. وثأر عمرو من البيزنطيين الذين لم يفلت منهم فى المراكب إلا القليل، فقتلهم قتلا ذريعا، وتتبعهم حتى وسط المدينة، ولما طلب بعضهم الرحمة فأمر برفع السيف عنهم. وفى الموضع الذى أعلنوا فيه الأمان أمر بإقامة مسجد عرف بمسجد الرحمة نسبة إلى رأفة عمرو بأعدائه المغلوبين. كما أمر بثلم أسوار المدينة الجنوبية، والجنوبية الشرقية. وهذا مايفسر انحسار العمران فى الاسكندرية بعد الفتح الثانى إلى الداخل. وبعد أن أصلح عمرو بعض ما أفسده الروم فى غارتهم الثانية هذه، بقى مدة شهر ثم سلم مقاليد الولاية إلى عبد الله بن سعد بن أبى سرح الذى سيكون له شأن هو الآخر فى الكفاح ضد الروم.

المساجد الأولى والربط وبداية التعريب

بعد خروج الدفعة الثانية من الروم سنة ٢٥هـ/٦٤٥م أخذت الاسكندرية تفقد صبغتها الأجنبية غير الشرقية، وبدأت تتعرب شيئا فشيئا مع مرور الوقت. حقيقة أنها ضعفت من عدة أوجه: اقتصادية ومالية. كما أنها بعد أن كانت عاصمة الفكر اليونانى أخذت تقطع مابينها وبين الماضى، وتوثق صلاتها بحاضرها العربى. وإذا كان العرب لم يقطنوها، كما فعلوا بالفسطاط، فإن عددا من أعيانهم استقر بها بشكل دائم أو مؤقت كالزبير بن العوام الذى اتخذ دارا. ونزل عمرو قصرا فى موضع يوصف بالكوم أو التل، ونزل فى صحبته الصحابى عبادة بن الصامت. وفى ذلك الموضع بنى عمرو جامعه العتيق بالاسكندرية المعروف (بجامع عمرو)، كما بنى بعده جامع الرحمة بعد فتح الاسكندرية الثانى فى نفس الموضع الذى أعطى الروم فيها الأمان. وجامع عمرو الأول يقع بالقرب من ضريح سيدى أبى الدرداء، غير بعيد من حى عامود السوارى، أى الحى الوطنى القديم، وباب السدرة (الشجرة)، وهو الذى سوف يعرف فيما بعد (بمسجد عمرو الكبير). أما جامع الرحمة فقد كان فى الموضع الذى كان يعرف إلى عهد غير بعيد (بسيدى عمرو) بحديقة الشلالات غير بعيد عن الحى اليونانى القديم أو حى المسلة.

والمهم أنه فى أقل من ٥٠ (خمسين) سنة كان مسجد عمرو أحد مساجد خمسة بالاسكندرية. عرفت بقداستها ومكانتها فى قلوب أهل البلاد، وهى: مسجد موسى النبى، ومسجد سليمان عليه السلام، ومسجد ذى القرنين، ومسجد الخضر عليهما السلام، ومسجد عمرو بن العاص الكبير.

وأول مانلاحظه هو أن المساجد الأولى هذه منسوبة إلى أنبياء بنى إسرائيل. وأغلب الظن أنها كانت معابد يهودية، والتقاليد اليهودية كانت معروفة بالاسكندرية. وما زال مسجد النبى دانيال بالشارع الذى يحمل اسمه بالاسكندرية يعيد إلى الأذهان ذكرى هذه المساجد القديمة.

الرباط البحرى وموقعة (ذو الصوارى)

لما كانت الاسكندرية ثغرا أو جبهة قتال بحرية اهتم بها العرب اهتماما خاصا فقد خصها عمرو وحدها بربع قواته جميعا، بينما خص بقية السواحل بربع ثان. ولم تكن حامية الاسكندرية الكبيرة تقيم فى المدينة طول العام بل كانت ترابط فيها فى فصل الصيف، موسم العمليات الحربية البحرية. فكانت تقيم فى المدينة ٦ (ستة) أشهر تبدأ بشهر ابريل من يوم خميس العهد (أو العدس) وتنتهى بشهر اكتوبر) حيث تنهى أعمالها، فتغادر الاسكندرية إلى داخل البلاد حيث تقضى فصل الشتاء فى إصلاح أحوالها، بينما تحل مكانها حامية أقل عددا لتشتى فى المدينة طوال ٦ (ستة) أشهر.

ومنذ ولاية الخليفة الثالث عثمان بن عفان وإقبال العرب على ركوب البحر وازداد الاهتمام بالاسكندرية التى استرجعت مركزها كقاعدة بحرية ودار لصناعة الأساطيل. وبسرعة مذهلة حققت الاسكندرية أولى أمجادها على الروم فى الواقعة البحرية المشهورة بذى الصوارى، وذلك فى سنة ٣٤هـ/٦٥٤م. والحقيقة أن هذه الواقعة تعتبر حلقة فى سلسلة الصراع ضد البيزنطيين ـ ذلك الصراع الذى بدأه عبد الله بن سعد، والى مصر بعد عمرو، فى الاسكندرية سنة ٢٥هـ/٩٤٦م ثم فى سبيطلة (sufetula) فى أرض تونس سنة ٢٧هـ/٦٤٨م. ويفهم ذلك من النصوص التاريخية التى تشير إلى أن حاكم مصر قد سير نصف رجال الأسطول فى البر بمعنى أنه كان يتوقع نزول الروم إلى البر تجاه طرابلس الغرب. هذا، أما عن تسمية الموقعة (ذو الصوارى) فهى تشير إلى أن الأسطول البيزنطى ربما كان يقصد الاسكندرية، كما حدث قبل ٩ (تسع) سنوات.

والمهم أن اللقاء بين الأسطول الرومى الذى يحوى مئات عديدة من المراكب وبين الأسطول السكندرى الناشئ الذى لم تزد مراكبه عن مائتى سفينة انتهى بهزيمة الأسطول البيزنطى الذى واجهته أثناء الانسحاب ريح عاصفة قضت على معظم مراكبه، وهيئت النصر التام للعرب.

وبعد ذات الصوارى بدأت أزمة الخلافة المعروفة بالفتنة الكبرى أو فتنة قتل عثمان، وكانت سببا فى اضطراب مصر والاسكندرية التى لجأ إليها أنصار الخليفة معاوية سنة ٣٨هـ/٩٥٨م، الأمر الذى انتهى بأن استعاد عمرو ولايته لمصر والاسكندرية.

الاسكندرية على أيام الأمويين واستمرار التعريب

اهتم معاوية خليفة دمشق بأمور البحر والأسطول، وكان من الطبيعى أن يزيد اهتمامه بالاسكندرية، فهو يستجيب لنداء والى الاسكندرية علقمة الغطيفى، بطل (ذو الصوارى) ويزيد عدد رابطة الاسكندرية من ١٢,٠٠٠ رجل إلى ٢٧,٠٠٠ رجل، وكانت الزيادة تقدر بـ ١٠ (عشرة) آلاف جندى من أهل الشام و ٥ (خمسة) آلاف رجل من أهل المدينة. وهذا يعنى أن الاسكندرية أخذت تستقبل العرب من الشام والحجاز، فزاد تعريبها بكثرة العرب فيها، الأمر الذى يفسر عودة العمران وزيادة المساجد.

واعتبارا من سنة ٤٤هـ/٦٦٤م ابتنى والى الفسطاط عتبة بن أبى سفيان أخو الخليفة دار إمارة له فى الاسكندرية، الأمر الذى يعنى أن المدينة أصبحت مقرا للوالى أى أنها أصبحت عاصمة ثانية للبلاد. وترتب على ذلك أن أصبح والى مصر أميرا للبحر إلى جانب إمارته للجيش. وهكذا عندما أتى نعى الخليفة معاوية إلى والى مصر مسلمة بن مخلد سنة ٦٠هـ/٦٧٩م وهو فى الاسكندرية، كتب إلى نائبه بالفسطاط بأخذ البيعة

للخليفة الجديد يزيد بن معاوية، وذلك أنه لم يرجع من الاسكندرية إلا فى أوائل سنة ٦١هـ/٦٨٠م.

وعلى عهد ولاية عبد العزيز بن مروان للفسطاط سنة ٦٥هـ/٦٨٥م كان دائم الخروج إلى الاسكندرية، كما أنه عهد بحكم الاسكندرية إلى ابنه الأصبغ، فكأن الاسكندرية أصبحت نيابة للفسطاط، تأكيدا لكونها العاصمة الثانية. وعندما عهد عبد العزيز بولاية المغرب إلى حسان بن النعمان الذى بنى مدينة تونس عوضا عن قرطاجنة، قامت الاسكندرية بدور مهم فى بناء دار الصناعة التونسية لصناعة السفن الجديدة، وذلك عندما سارت ١٠٠٠ (ألف) عائلة قبطية بنسائها وأطفالها من الخبراء فى بناء السفن، فاستقروا هناك، حيث وطدوا دعائم هذه الصناعة فى سواحل المغرب.

ومما يفسر اهتمام الخلافة بالاسكندرية على أيام الأمويين ومن بعدهم العباسيين، أن موقع المدينة المتطرف فى غرب سواحل الدلتا جعلها ملجأ لكثير من المعارضين للخلافة ولوالى الفسطاط. فحوالى سنة ٩٠هـ/٧٠٨م كانت الاسكندرية ملجأ للخوارج الذى سببوا للخلافة كثيرا من المتاعب فى العراق.

فعندما سار والى الفسطاط قرة بن شريك إلى الاسكندرية كان الخوارج يدبرون التخلص منه، إذ اجتمع حوالى ١٠٠ (مائة) رجل منهم فى الميدان المقابل للمنارة. ولكن أخبار المؤامرة وصلت إلى الوالى الذى نجح فى مفاجأتهم والقبض عليهم ثم حبسهم فى الطابق الأرضى من المنارة، قبل قتلهم.

هذا، كما كان للاسكندرية نصيبها فى حصار القسطنطينية الذى نظمه الخليفة سليمان بن عبد الملك سنة ٩٨هـ/٧٩٦م، حيث كانت قيادة القوات البحرية المصرية لابن عقبة نافع (أبو عبيدة) الذى رجع إلى قيادته بعد ولاية عمر بن عبد العزيز. ومن الملاحظ أن خلفاء عقبة بن نافع تداولوا قيادة القوات البحرية، وكان لهم شأنهم فى حرب الروم فى البحر. ومثل هذا يقال عن بنى حديج، وكان الولاة منهم يتداولون القيادة البحرية إلى جانب رئاسة الشرطة.

وعلى أواخر أيام الأمويين شاركت الاسكندرية فى الثورة الكبرى عليهم. وهكذا انتهز أحد سلالة عقبة بن نافع (الأسود بن نافع)، فأسرع إلى الاسكندرية حيث رفع الرايات السوداء شعار العباسيين ودعا لهم. ولو أنه انهزم أمام قوات مروان بن محمد (آخر الأمويين رغم ما كان فيه من المحنة) وكان استرجاع الاسكندرية آخر نجاح حققه مروان بن محمد إذ لم يلبث أن انتهى نهايته الدامية فى بوصير من أرض الفيوم، فى الشهر التالى. وبذلك انتهت الدولة الأموية وقامت الدولة العباسية.

الاسكندرية على أيام العباسيين

لم تغير مصر من طبيعة علاقاتها بالخلافة على أيام العباسيين، كما كان الأمر على أيام الأمويين إذ صارت ولاية تابعة لبغداد بعد أن كانت تابعة لدمشق، وهذا استتبعه أن أحوال الاسكندرية لم تغير من طبيعتها هى الأخرى. ولكنه حدث أن تغير موقف بلاد المغرب ـ المتاخمة لمصر ـ إذ أخذت تخرج على سلطان الخلافة إقليما بعد إقليم، وكان من الطبيعى أن تتأثر أحوال مصر والاسكندرية بذلك.

وهكذا فإن الخلافة العباسية كانت مضطرة أن توجه أنظارها لمصر، كلما وجهت أنظارها نحو المغرب فى محاولاتها لاسترداده أو لدفع ما يتهددها من أخطاره. وهنا كانت تظهر أهمية موقع الاسكندرية ـ أول محطة كبرى فى طريق المغرب فى البحر أو فى البر على السواء.

بقيام الدولة العباسية وانغلاق المشرق فى وجه الأمويين، فر كثير منهم نحو المغرب والأندلس على أرجلهم من دهشة المفاجأة، أما من أيدوا الدعوة العباسية أو انضموا إليها فقد كرمتهم الدولة حتى من كان منهم من العمال الأمويين السابقين، ممن نبغوا فى مصر، مثل: آل معاوية ابن حديج وابن عقبة بن نافع وبنى موسى بن نصير، أصحاب فتوح المغرب. وكان من الطبيعى أن يكرم صالح بن على والى مصر العباسى أولئك الذين سودوا وأيدوا الدعوة الجديدة، قبل دخول العباسيين مصر، ومنهم الأسود ابن نافع الفهرى الذى دعا للعباسيين بالاسكندرية، فأقطعه منية بولاق شمال الفسطاط، كما أقطعه المنازل التى كانت لزبان بن عبد العزيز بن مروان، الذى كان قد قتل بينما فر ولداه إلى الأندلس.

وما أن استقر الأمر للخليفة العباسى الأول (أبو العباس) حتى أخذ يفكر فى تسيير الجيوش إلى المغرب.

وفعلا وصل الجند العباسى لمصر، وهو فى طريقه إلى المغرب سنة ١٣٦هـ/٧٥٣م بقيادة الوالى الجديد أبى عون عبد الملك بن يزيد، وصاحبه الدعاة العباسيون من بنى معاوية بن حديج وبنى موسى بن نصير، لما كان لهم من اتباع وأنصار بافريقية وكان على الاسكندرية أن تعد المراكب لكى تسير إلى طرابلس الغرب، وعهد بهذا الأمر إلى المثنى بن زياد الخثعمى، الذى وصل إلى الاسكندرية فى شوال من هذا العام/ مارس ٧٥٤م. وعندما توفى الخليفة كان الدعاة قد بلغوا مدينة سرت (من أرض طرابلس) بينما كانت القوات البرية قد وصلت برقة فصدرت الأوامر إلى أبى عون بالرجوع. أما عن أسطول الاسكندرية فلا نعرف إن كان قد عاد أدراجه هو الآخر، أو أنه لم يكن قد تجهز للإقلاع بعد.

وعندما ولى الخلافة أبو جعفر المنصور اهتم جديا بأمور إفريقية، وسير محمد بن الأشعث والى مصر، جيشا لقتال خوارج طرابلس من الخوارج الإباضية بقيادة أبى الخطاب عبد الأعلى المعافرى فانهزم. واضطر ابن الأشعث إلى الخروج بنفسه من الفسطاط فى أواخر سنة ١٤٢هـ/مارس ٧٦٠م وبعدها اتجه إلى الاسكندرية، وهو فى طريقه إلى المغرب. ومع أن هذا يعنى أن الاسكندرية أصبحت قاعدة العمليات العسكرية فى المغرب، فى تلك الفترة المبكرة من عهد الدولة العباسية، وخاصة بعد أن أصبح الأسطول ضروريا لمساعدة القوات البرية، إلا أن موقعها الفريد على حافة الوادى متاخمة للمغرب جعلها ملتقى الشرق والغرب، وهذا يعنى وقتئذ ملتقى المتناقضات السياسية. فبينما كانت الخلافة توجه من الاسكندرية الدعاة والجيوش ضد الثوار كان مناهضوا الخلافة يتخذونها ملجأ لهم.

فعندما ثار العلويون من بنى الحسن فى الحجاز سنة ١٤٥هـ/٧٦٢م وسيروا دعاتهم إلى مصر، لجأ منهم خالد بن سعيد إلى الاسكندرية، وظل مختفيا فيها بعد فشل الثورة حتى توفى سنة ١٦٠هـ/٧٧٧م فى زمن الخليفة المهدى. وكان موقف الاسكندرية الخاص هذا سببا فى استمرار اهتمام الولاة بها، فكانوا يخرجون من الفسطاط للإقامة فى المدينة التى لم تعد ثغرا أو جبهة قتال ضد العدو الخارجى فقط، بل أصبحت ثغرا داخليا أيضا.

وتذكر الحوليات أن منصور بن يزيد الرعينى (ابن خال الخليفة المهدى) والى مصر، خرج من الفسطاط إلى الاسكندرية فى سنة ١٦٢هـ/٧٧٨م، رغم أن ولايته لم تكن قد تجاوزت ثلاثة أشهر.

والحقيقة أنه رغم تمرس العرب بالبحر، ورغم تفوقهم فيه كان الأسطول الرومى يشكل خطرا دائما على السواحل والثغور، وكذلك على طرق الملاحة. وهكذا كان على والى مصر داود ابن يزيد المهلبى، على أيام الرشيد أن يخرج فى سنة ١٧٤هـ/٧٩٠م عددا من الجند المشاغب فى البحر إلى بلاد الشام فظفرت بهم الروم وأسرتهم.

وعلى أيام الرشيد عرفت مصر الوديعة الاضطرابات المحلية وكذلك الثورات الإقليمية. وكان السبب التقليدى هو إلحاح الخلافة وعمالها فى زيادة الضرائب تبعا لحاجة الخلافة المتزايدة إلى الأموال للنفقة على مظاهر الترف والأبهة. والمهم أن مثل تلك الثورات التى كان يقوم بها القبط أيام الأمويين، ومنهم أغلبية دافعى الضرائب، أصبح يشارك فيها العرب إلى جانب الموالى من المصريين القبط الذين دخلوا فى الإسلام، كما حدث فى بعض ثورات الاسكندرية. أما عن مركز الاضطراب فكان فى الحوف الشرقى (مديرية الشرقية حاليا) حيث عرب القيسية وبعض اليمانية. ثم حدثت فتنة الأمين والمأمون (الخليفة وأخيه ولى العهد) فأضافت أسبابا جديدة لعدم الاستقرار.

ومنذ سنة ١٩٦هـ/٨١١م انتشرت الثورة من الحوف الشرقى إلى كل الدلتا، فاضطرب العرب المقيمون فى الاسكندرية وحولها من اللخميين ومن بنى مدلج. وتمكن أحد اللخميين واسمه بهلول من التغلب على الاسكندرية فى ولاية عباد بن محمد بن حيان ولما ولى المطلب بن عبد الله الخزاعى من قبل المأمون سنة ١٩٨هـ/٨١٣م (بعد مقتل الخليفة الأمين) أراد أن يضبط الاسكندرية عن طريق إسناد ولايتها إلى رجل حازم له من الشرف والحسب ما يجعل المنشقين من أهلها يخضعون لسلطانه فعهد بأمرها إلى واحد من أسرة معاوية بن حديج هو عبد الواحد بن حديج، ولكن النتيجة أتت عكسية إذ ثارت قبائل مدلج بالاسكندرية، ولما سير الوالى لهم أخاه هارون تمكنوا من هزيمته.

إمارة أندلسية بالاسكندرية

وسرى الاضطراب إلى العاصمة الفسطاط، إذ ثار الجند وأعادوا المطلب بن عبد الملك الخزاعى الذى كان قد عزله المأمون إلى الولاية فى سنة ١٩٩هـ/٨١٤م. وظلت أحوال الاسكندرية على ماهى عليه من القلق رغم تغيير الولاة عليها. وأتت ظروف جديدة زادت فى تعقيد الموقف بالاسكندرية حتى انقطعت صلتها بالفسطاط لمدة جاوزت العشر سنوات، إذ تدخلت فى أمور الثغر مراكب أتت من أقصى الغرب، لا تحمل الروم فى هذه المرة، بل تحمل مهاجرين ورواد بحر من غزاة عرب الأندلس.

والمعروف لدى بعض الكتاب أن هؤلاء الأندلسيين أصلهم من أهل قرطبة بالأندلس، وأنهم خرجوا من مدينتهم بعد أن قاموا بثورة خطيرة ضد أميرهم تعرف فى تاريخ الأنلس بواقعة الربض، فسارت أعداد منهم الى الاسكندرية وهذا الأمر ليس صحيحا تمام الصحة. فثورة الربض الكبرى اندلعت فى قرطبة بعد سنة ٢٠١هـ/٨١٧م ونحن ننظر الآن فى أحداث سنة ١٩٩هـ/٨١٤م. والحقيقة أن المصادر المعتبرة التى تمدنا بتفصيلات طريفة عن هؤلاء الأندلسيين تبين أنهم (كانوا قد قفلوا من غزوهم، فنزلوا الاسكندرية ليبتابعو ما يصلحهم، وكذلك كانوا على الزمان). وهذا يعنى أنهم غزاة بحريون، وأن الغزو كان صناعتهم، وأنهم كانوا يرتادون سواحل الاسكندرية. ولا بأس فى ذلك فأهل الأندلس تفوقوا على غيرهم من العرب فى البحر ولا بأس أن يكونوا من سكان موانى الساحل الشرقى من الأندلس، مثل : مالقة والمرية وبلنسية، ممن كانوا يطرقون بمراكبهم سواحل فرنسا وجزيرة سردينيا ويصلون إلى سواحل ايطاليا وصقلية. ومن الواضح أنهم وسعوا مجال سياحاتهم البحرية هذه إلى شرق البحر المتوسط، وساعدهم على ذلك أن سواحل البحر الجنوبية كانت كلها اسلامية يمكنهم اللجوء إليها إذا ما دعت الحاجة، الأمر الذى سمح لهم باتخاذ الاسكندرية قاعدة مساعدة لعملياتهم فى شرق المتوسط، مما سبقت الإشارة إليه.

والحقيقة أن أمراء مصر كانوا لا يسمحون للأندلسيين البحريين بدخول الاسكندرية أى المدينة نفسها، وإنما كان الناس يخرجون إليهم فى مراكبهم وقواربهم للمتاجرة. وهذا يعنى أنهم كانوا لا يهتمون إلا بما يصلح من أمرهم، وما يحتاجون إليه من طعام أو سلاح أو غيره. أما عن عددهم فلا يعرف على وجه الدقة، ولكن هناك روايات تاريخية يفهم منها أنهم أتوا فى ٤٠ مركبا. ولو قدرنا أن متوسط شحنة المركب من الرجال بلغت حوالى المائة أو أكثر قليلا لبلغ عددهم حوالى أربعة أو خمسة آلاف رجل. ويفهم من الروايات أنهم قدموا فى آخر الصيف أى بعد نهاية موسم الغزو البحرى للمتاجرة بما كانوا قد جمعوه من المغانم والأسلاب. أما عن تدخلهم فى شئون الاسكندرية فكان نتيجة للحالة المضطربة فى المدينة إذ دعاهم الوالى المعزول عمر بن هلال (الحديجى) ضد واليها المعين من قبل أمير الفسطاط، وكانوا فى مراكبهم راسين أمام الاسكندرية. وغضب السكندريون لتدخل البحارة الأندلسيين فى شئون مدينتهم فقاموا ضدهم وتمكنوا من ودهم إلى مراكبهم بعد أن فقدوا بعض القتلى. ولكن عودة الوالى الشرعى لم يحقق الأمن للأسكندرية بل أن الاضطراب امتد إلى الفسطاط ذاتها، إذ انتهى الأمر بخروجه من مصر عن طريق السويس بحرا إلى الحجاز.

وهكذا عادا بن هلال الى الاسكندرية ودعا حلفاءه الاندلسيين للنزول فى الاسكندرية والاستقرار بها. ولكن الوفاق لم يستمر طويلا بين الطرفين بسب أعمال الجند الأندلسى مما كان يثير خواطر السكندريين، فاضطر بن هلال الى اعادتهم إلى مراكبهم كما كان الحال من قبل.

وكان من نتيجة أعمال الاضطراب والشغب فى المدينة أن قامت جماعة تدعو الى المعروف وتنهى عن المنكر، وسمت تلك الجماعة نفسها بالصوفية، وكما حدث فى بغداد من قيام جماعة المتطوعة بالإشراف على الأمن والأخلاق فوقفوا ضد اللصوص والمفسدين ثم انغمسوا فى الفتنة وتدخلوا فى أمور السياسة، قامت جماعة الصوفية بالاسكندرية بتنظيم صفوفهم تحت رئاسة أحدهم، وهو عبد الرحمن الصوفى، وأعلنوا معارضتهم للوالى ووجدوا فى الأندلسيين عندئذ حلفاء طبيعيين لهم. واجتذب الصوفية والأندلسيون الى جانبهم العرب اللخميين بالاسكندرية الذين كانت لهم أطماعهم فى الاسكندرية.

وجمع المتحالفون صفوفهم، وبلغ عددهم ١٠,٠٠٠ (عشرة آلاف رجل)، إلى جانب من انضم إليهم من المغامرين، وصار الجميع إلى قصر عمر بن هلال الحديجي، وحاصروه فى ذى القعدة سنة ٢٠٠هـ/يونيو ٨١٦م. وعندما رأى الحديجي أن القصر ليس من الحصانة بحيث يحميه ويصون الحريم، تملكه نوع من الفدائية العجيبة، فتهيأ للموت واغتسل ولبس كفنه، وأمر أهله أن يدلوه من أعلا القصر. وبدلا من أن يثير هذا العمل الشجاع شفقة الثوار، قتل الرجل ضربا بالسيوف بمجرد اقترابه من الأرض. وأكثر من هذا أصر الثوار على الفتك بمن كانوا معه فى القصر من رجال الأسرة الحديجية.

والمهم أن الحلف انفرط سريعا بين العرب اللخميين والأندلسيين، بل قامت الحرب بينهم فى التو واللحظة، وانتهت بانتصار غزاة البحر الأندلسيين، فاستولوا على الاسكندرية فى ذى الحجة من نفس السنة ٢٠٠هـ/يوليو ٨١٦م. وأسند الأندلسيون ولاية الاسكندرية إلى أبو عبد الرحمن الصوفى، الذى فشل فى الحكم والإدارة حتى عم الفساد فى المدينة. وعندئذ رأى الأندلسيون عزله وأخذوا على عاتقهم الحكم مباشرة، فجعلوا أحدهم الذى كان يعرف بالكنانى واليا. ونجح الأندلسيون فى السيطرة على كل منطقة الاسكندرية عندما هزموا عرب بنو مدلج، كما طردوا اللخميين من أرضهم. فلم يكن أمام والى الفسطاط: السرى بن الحكم إلا الاعتراف بالأمر الواقع.

والحقيقة أن اضطراب الأحوال فى الفسطاط حيث أبناء السرى، وتنيس (دمياط) شمال الدلتا حيث الجروى، وفى الاسكندرية حيث الأندلسيون، إنما يرجع إلى فتنة الخلافة العباسية بين الأمين والمأمون. وكان حل مشكلة كل من الفسطاط وتنيس سهلا، إذ أمر قائد المأمون على الأولى أبناء السرى، كما عين صاحب الثانية وهو الجروى قائداً للأسطول المصرى لدرايته بالبحر. أما عن مشكلة الأندلسيين بالاسكندرية فتطلب حلها استخدام القوة العسكرية. وهكذا بدأت طلائع الجند العباسى من الخراسانية تتجه نحو الاسكندرية اعتبارا من صفر ٢١٢هـ/مايو ٨٢٧م. وضرب الحصار حول المدينة، وخلال أسبوعين استسلمت القلعة بالأمان، وتم الصلح على أن يخرج الأندلسيون من الاسكندرية إلى حيث شاءوا فى غير بلاد الخلافة. وعهد القائد ابن طاهر بولاية الاسكندرية إلى أحد قواده الخراسانيين، وهو الياس بن أسد بن سلمان بن خدا، من سلالة ملوك الفرس. أما الأندلسيون فإنهم اتجهوا إلى جزيرة قريطش (كريت) حيث انتزعوها من البيزنطيين واستقروا فيها مكونين إمارة أندلسية جديدة شرق البحر المتوسط ـ بقيادة زعيمهم أبو حفص عمر البلوطى ـ عاشت إلى منتصف القرن الرابع الهجرى.

لم يكن هذا نهاية الفتن فى مصر، إذا ظلت القلاقل فى المحافظة الشرقية وفى شمال الدلتا والاسكندرية، وتطلب الأمر حضور المعتصم (ابن الرشيد) فى رجب سنة ٢١٤هـ/سبتمبر ٨٢٩م، وبصحبته عسكره التركى الجديد. وفى السنة التالية قدم قائد الخلافة (الأفشين) للقضاء على الثورة التى عمت الدلتا (عربها وقبطها) وكذلك الاسكندرية ودواخلها. وهكذا سار الأفشين إلى الاسكندرية وأدب من وقف فى طريقه من الثوار، ودخل المدينة دون قتال، (فى ١٩ ذى الحجة سنة ٢١٦هـ/٢٨ يناير سنة ٨٣٢م).

ومنذ ذلك الوقت حدث تطور جديد فى مصر كان له أثره على تكوينها البشرى وتنظيماتها الإدارية والسياسية. فإلى جانب عرب الفتح من أهل الحجاز وأهل الشام ثم الجند العربى الخراسانى الوافد إلى البلاد فى العصر العباسى، بدأ منذ أيام المعتصم وفود الترك على مصر فى شكل جند وعمال وولاة، الأمر الذى كان يضعف من شأن العرب الذين أسقطوا من دواوين الجيش من سنة ٢١٨هـ/٨٣٣م. واتبع ذلك أن شغل الفرس والترك المناصب الكبرى، من : الولاية إلى الشرطة.

وابتدأ من سنة ٢٤٢هـ/٨٥٦م لم يتول مصر وال عربى. والحقيقة الأخرى أنه منذ عودة المأمون إلى بغداد سنة ٢١٧هـ/٨٣٢م والى سنة ٢٥٢هـ/٨٥٦م لا نجد ذكرا فى الحوليات المصرية إلى مدينة الاسكندرية.

ففى سنة ٢٥٢هـ/٨٦٦م اضطربت منطقة الاسكندرية عربها وأقباطها، بقيادة جابر بن الوليد المدلجى الذى نجح فى هزيمة قوات الوالى يزيد بن عبد الله التركى، كما هزم قوات نائبه فى الاسكندرية. وهكذا اشتد جابر المدلجى، وانضم إليه كثير من أهل النواحى المجاورة، من: الشطار والفتاك من مسلمين ونصارى، والبيض والسود، والسنة والشيعة على حد سواء. وإزاء خطورة الأمر فى الاسكندرية وضواحيها أرسلت الخلافة من العراق لمصر

القائد التركى مزاحم بن خاقان الذى نجح فى القضاء على أعوان جابر واحدا بعد الآخر، الأمر الذى أدى إلى ضعفه وانهزامه إلى تروجه (أبو المطامير) حيث لم يطق الوقوف أمام العسكر الترك فهرب إلى الجيزة ثم الفيوم، ليرجع بعد ذلك طالبا الأمان له ولعدد من بنى قومه المدلجيين. وسجن فى الحبس خشية اغتياله من الناقمين عليه ثم بعث إلى العراق فى سنة ٢٥٤هـ/٨٦٨م.

هكذا أثبتت تجربة جابر المدلجى وقبلها تجربة الأندلسيين فى الاسكندرية ونواحيها، أن الخلافة فى بغداد أعجز من أن تفرض سلطانها على مصر فكان ذلك تمهيدا لعصور الاستقلال التى افتتحها أحمد بن طولون مؤسس الدولة الطولونية.

بداية عصور الاستقلال

ببداية الدولة الطولونية تبدأ مصر العربية عهدا جديدا هو عهد الاستقلال الذى جعل للبلاد كيانها الخاص وشخصيتها الذاتية. وهكذا فبعد أن كانت همة الوالى وعمال بغداد تنصرف إلى إرضاء الخليفة وبطانته أصبحت همة الأمير (الملك) تنصرف إلى اصلاح أحوال البلاد وتحسين قواها الاقتصادية والعسكرية، إذ كانت قوته مستمدة من قوة دولته. وهكذا حظيت البلاد بعناية أمرائها الطولونيين، وكان للاسكندرية نصيبها من تلك الرعاية.

بدأ ابن طولون بإقرار الأمور فى الأقاليم، ونجح فى القضاء على بقايا ثورة جابر المدلجى وكان ابن عم لجابر قد انضم إلى ثورة العلوى أحمد بن طبا، واستقر فى موضع أبو مينا، بين الاسكندرية وبرقة. ولكن العسكر الطولونى طارد الثوار وقتل العلوى فى شعبان سنة ٢٢٥هـ/يوليو ٨٦٩م.

وفى أول الأمر كان للاسكندرية واليها المستقل عن أحمد بن طولون (وهو اسحاق بن أبى دينار)، ولكنها ضمت إلى أحمد الذى خرج وتسلمها فى ٨ رمضان سنة ٢٥٧هـ/٣١ يوليو ٨٧١م، ومكث بها حوالى الشهر. وكانت الاسكندرية موضع اهتمام أحمد بن طولون الذى زارها بنفسه فى شعبان سنة ٢٥٩هـ/يونيو ٨٧٣م وعهد بها إلى ابنه العباس ـ بمعنى أن الاسكندرية ظلت العاصمة الثانية من حيث كونها مدينة ولى العهد. ويمكن الاستشهاد على عناية أحمد بن طولون بالاسكندرية، بما فعله عند عصيان ابنه العباس الذى تظاهر بالخروج إلى الاسكندرية، ومنها قام بالمسير إلى برقة وطرابلس حيث أعلن الثورة. فقد كان رد فعل ابن طولون أن سار فى جيش كثيف إلى الاسكندرية حيث أقام بها فى سنة ٢٦٨هـ/٨١ ـ ٨٨٢م لإدارة العمليات العسكرية ضد العباس فى برقة.

وخلال تلك الإقامة حظيت الاسكندرية برعايته، فجدد أسوارها، وأقام ما كان قد تهدم منها، واعتنى بالساحل فحصنه كما رمم منار الاسكندرية الذى كان قد تهدم بفعل الزلزال سنة ١٨٠هـ/٩٦ ـ ٧٩٧م، وجعل فى أعلاه قبة خشبية عوضا عن تلك التى تهدمت. وقام خمارويه ابن أحمد بن طولون ببناء أحد أركان المنارة الغربية عندما تهدم. كما أمر أحمد بن طولون بحفر خليج الاسكندرية الذى كان قد طمر، وذلك فى سنة ٣٥٩هـ/٧٢ ـ ٨٧٣م. هذا واهتم بن طولون ومن بعده ابنه خمارويه بالبحرية والاسطول، الأمر الذى كان يستدعى العناية بالاسكندرية ودار صناعتها. وإلى جانب الاسكندرية كانت مربوط تحظى باهتمام الأمراء الطولونيين. كما كان للاسكندرية دورها فى محاولة إنقاذ الدولة الطولونية وهى تنهار. فقد كاتبت جماعة من جند الفسطاط هارون بن خمارويه بعد وفاة أخيه أبو العساكر جيش، وكان بالاسكندرية ودعوه إلى الملك. فقام أخوه ربيعة وحشد عددا كبيرا من بربر البحيرة وسار بهم إلى الفسطاط ولكنه أسر هناك فى شعبان فى سنة ٢٨٤هـ/سبتمبر ٨٨٧م.

وعندما استرجع العباسيون مصر من الطولونيين عهد عيسى النوشرى (أول وال عباسى جديد) بولاية الاسكندرية إلى على بن وهسودان وجعل له معاونا فى عمله هو المهاجر بن طليق سنة ٢٩٢هـ/٩٠٤ ـ ٩٠٥م ومنذ ولاية أبو منصور تكين (شعبان ٢٩٧/ابريل ٩١٠م) على عهد الخليفة المقتدر بدأ الخطر الفاطمى فى المغرب يتهدد مصر والاسكندرية. وفى سنة ٣٠٢هـ/٩١٤م وطأت أقدام الجند الفاطميون الاسكندرية لأول مرة بقيادة حباسة ابن يوسف. وكان حباسة قد سار من برقة فى جيش كبير، فوصل الاسكندرية فى ٨ من المحرم/ ٤ يونيو ثم خرج حباسة من الاسكندرية نحو الفسطاط فى جمادى الأخرى/ ديسمبر حين انهزم أمام قوات تكين. وبدأت

الاسكندرية تحتل مركزا هاما وسط الأحداث بسبب تعرضها لقوات الفاطميين. فقد استهل والى الفسطاط الجديد ذكا الأعور ولايته بالخروج إلى الاسكندرية (ربيع الآخر سنة ٣٠٣هـ/ أكتوبر ٩١٥م) حيث أقام مدة تقرب من السنة وهو ينظر فى استعدادات المدينة الدفاعية، ويتلمس أخبار دعاة الفاطميين.

والمهم أن الاسكندرية بدأت تستقبل فى السنة التالية ٣٠٤هـ/ ١٦ ـ ٩١٦م أفواج المهاجرين الوافدين إليها من أهل لوبية (ليبيا) ومراقيا (مار ماريكا) الذين فروا أمام هجمات الجند الفاطمى فى برقة. وهنا رأى ذكا أن يحتاط للأمر فأرسل عددا من القواد مع رجالهم إلى الاسكندرية ليؤازروا حامياتها ولكن الهجوم الفاطمى لم يبدأ حقيقة نحو مصر إلا فى سنة ٣٠٧هـ/٩١٩م عندما خرجت القوات الفاطمية من تونس بقيادة أبو القاسم المهدى، وعندما بلغت أنباء دخولها أقليم لوبية ومراقيا الحدودى اضطرب السكندريون حتى أنهم جلوا عن المدينة. والمقصود بطبيعة الحال كبار الموظفين والأعيان ممن يخشون على أموالهم من الضياع أو على حريمهم من أن تستباح، كذلك أهل السنة الذين يكرهون التشييع. ويؤيد ذلك خروج الوالى المظفر بن ذكا عند اقتراب الفاطميين من الاسكندرية ومسيرهم إلى والده بالفسطاط. وهكذا دخلت طلائع القوات الفاطمية إلى الاسكندرية فى ٨ صفر سنة ٣٠٧هـ/١١ يوليو ٩١٩م.

وبعد وصول القوات الفاطمية البرية إلى الاسكندرية وصلت القوات البحرية إليها بقيادة سليمان الخادم. وأرسلت الخلافة العباسية قائد قوات طرسوس من الشام، وهو ثمل الخادم على رأس مراكبه لقتال الأسطول الفاطمى وتم لقاء الأسطولين فى رشيد فى ١٩ شوال سنة ٣٠٧هـ/١٤ مارس ٩١٩م، وانتهت المعركة إلى غير صالح الأسطول الفاطمى الذى ثارت به ريح عاصفة كسرت الكثير من وحداته كما أسر قائد الأسطول الفاطمى ورؤساء مراكبه وسيقوا إلى الفسطاط حيث تم اعتقالهم قبل التشهير بهم فى موكب نصر كبير فى ٢٦ شوال/٢١ مارس ٩١٩م.

واضطر الأمير الفاطمى إلى الخروج من الاسكندرية نحو الفيوم ثم برقة بينما فر الوالى الفاطمى ابن بعله، ودخل ثمل الاسكندرية فى المحرم من سنة ٣٠٩هـ/مايو ٩٢١م، وانتقم من أهلها المتعاونين مع الفاطميين فنفاهم إلى رشيد.

وفى هذا الوقت الذى كان يهدد فيه المغاربة الفاطميون مصر كان المغاربة العاملون فى جند مصر يمهدون الطريق لإخوانهم فى تونس والجزائر ـ فعندما ولى محمد بن طغج (الأخشيد) فيما بعد ولاية مصر للمرة الثانية (سنة ٣٢٣هـ/٩٣٥م) لم يرض المغاربة الدخول فى خدمته، وساروا إلى الشرقية بقيادة القائد بجكم والى الفيوم بقيادة حبشى بن أحمد، ومن هناك سار الى الاسكندرية وتبعه بجكم برجاله. ولكنه لما لم يكن للمغاربة المصريين قبل بمناجزة ابن طغج، قرروا المسير إلى برقة، من حيث كاتبوا الخليفة الفاطمى القائم يستأذنوه فى دخول بلاده ويطلبون منه القوات لدخول مصر باسمه. فحفزه ذلك على إرسال حملة سنة ٣٢٤هـ/٩٣٦م.

سير القائد الفاطمى قواته الكتامية التى انضمت إلى مغاربة مصر ببرقة، وسار الجميع نحو مصر وقسم محمد بن طغج (الأخشيد) قواته إلى قسمين، وسير أحدهما فى ربيع الأول سنة ٣٢٤هـ/يناير ٩٣٦م إلى الاسكندرية والآخر نحو الصعيد. وكانت وجهة العسكر الفاطميون إلى الاسكندرية على مقدمتهم بجكم الذى نجح فى دخول المدينة دون مقاومة شديدة فى ربيع الآخر/فبراير. وسارع ابن طغج بإرسال المزيد من جيوشه إلى الاسكندرية، وتم اللقاء فى موقع بين تروجه وبحيرة مريوط وانتهى بهزيمة العسكر المغاربة. ودخل الحسن بن طغج الاسكندرية حيث قضى على الجند الفاطميون فيها بينما فر بجكم إلى برقة التى دخلت فى حوزة الفاطميين.

ومنذ سنة ٣٢٧هـ/٩٣٩م وإلى سنة ٣٥٨هـ/٩٦٩م لا يوجد ذكر لمجهودات قام بها الفاطميون ضد مصر، واعتبارا من سنة ٣٣٨هـ/٩٤٩م عرفت مصر أزمات اقتصادية متوالية خاصة منذ سنة ٣٥٢هـ/٩٦٣م. وخلال هذه المحنة لا يوجد أخبار عن الاسكندرية، ولابد أنها تأثرت بالفيضانات المنخفضة التى لم تكن تصل فيها مياه النيل الحمراء إلى خليج (قناة) الاسكندرية. وفى هذه الظروف التعسة بالنسبة لمصر كان خروج جوهر الصقلى فى ربيع الأول سنة ٣٥٨هـ/فبراير ٩٦٩م على رأس قواته الضخمة نحو مصر، وعندما بلغ الاسكندرية كان سقوط مصر هذه المرة أمرا مؤكدا. وببناء القاهرة أصبحت مصر امبراطورية خلافية، وكان للاسكندرية أن تزدهر.

مدينة الإسكندرية فى العصرين الفاطمى والأيوبى (٣٥٨ ـ ٥٦٧/ ٩٦٩ ـ ١١٧١م)

أ. د. أحمد مختار العبادى

مقدمة :

الدولة الفاطمية دولة وخلافة شيعية إسماعيلية قامت فى المغرب الأدنى على أكتاف المغاربة من قبائل بربر كتامة وصنهاجة فى أواخر القرن الثالث الهجرى (٢٩٧هـ/٩٠٩م) وبسطت نفوذها على معظم أنحاء المغرب العربى الكبير، وكذلك على العديد من الجزر الغربية فى البحر المتوسط مثل صقلية ومالطة وجربه وقوصره.. الخ، كما أنها فى نفس الوقت اتجهت بأبصارها شرقا نحو امتلاك مصر لما تمتاز به من موقع جغرافى فريد فى قلب العالم العربى مما يتيح لها فرصة الاستيلاء على المراكز الإسلامية القديمة مثل مكة والمدينة ودمشق بل وبغداد نفسها حاضرة الخلافة العباسية السنية المعادية لها.

ولقد بدأت حملات الفاطميين على حدود مصر الغربية منذ أيام خليفتهم الأول عبد الله المهدى وولده محمد القائم. ويلاحظ أن الغزو يعتبر فريدا فى نوعه، لأن مصر كانت دائما تغزى من الشرق عن طريق غزة ورفح والفرما وبلبيس، ولم يسبق لها أن فتحت من حدودها الغربية إلا فى أيام الفراعنة حينما غزاها الليبيون قديما من منطقة الفيوم غربا أيام الأسرتين ٢٢، ٢٣.

أرسل الفاطميون ثلاث حملات لغزو مصر: الأولى سنة ٣٠١هـ/٩١٣م، والثانية سنة ٣٠٧هـ/٩١٩م، والثالثة سنة ٣٢٤هـ/٩٣٦م. وكانت هذه الحملات برية وبحرية فى آن واحد، أى أن الأسطول كان يصاحب الجيش. وقد استغرقت كل حملة من هذه الحملات مدة سنتين على الأقل، كانت تستولى خلالها على مدينة الإسكندرية وبعض أقاليم مصر الوسطى كالفيوم والأشمونيين وتعيش على ما تأخذه من أهالى تلك البلاد من أقوات ومؤن. ولقد فشلت هذه الحملات الثلاث لأن الخلافة العباسية فى ذلك الوقت، كانت من القوة بحيث تستطيع أن تصد تلك الحملات. وقد صد الحملة الأولى والثانية مؤنس الخادم قائد الخليفة العباسى المقتدر، وصد الحملة الثالثة القائد التركى العباسى محمد بن طغج الأخشيد أول أمراء الدولة الاخشيدية فى مصر.

ثم شغل الفاطميون بعد ذلك عن غزو مصر بقية خلافة محمد القائم الفاطمى وطوال عهد ولده المنصور إسماعيل (٣٣٤ ـ ٣٤١هـ/٩٤٥ ـ ٩٥٢م) بسبب الثورة الداخلية التى قام بها الخوارج بقيادة أبى يزيد الخارجى وأتباعه الزناتيين.

وفى عهد الخليفة الفاطمى المعز لدين الله أبى تميم معد (٣٤١ ـ ٣٦٥هـ/ ٩٥٢ ـ ٩٧٥م) قام الفاطميون بمحاولة رابعة ناجحة لغزو مصر بقيادة جوهر الصقلى أو الصقلبى. وكان هذا القائد فى الأصل مملوكا صقلبيا من سبى سواحل دالماسيا، واستقر فى بادئ الأمر فى حارة الصقالبة فى مدينة باليرمو شمال جزيرة صقلية التى كانت تابعة للدولة الفاطمية فنسب إليها باسم جوهر الصقلى، والتحق بخدمة الخليفة المعز، وظل يترقى عنده حتى صار قائده وكاتبه أيضا. وكانت مصر بعد وفاة عاهلها أبى المسك كافور الأخشيد ٣٥٧هـ/٩٦١م تعانى من أزمات سياسية واقتصادية شديدة نتيجة لانخفاض النيل عدة سنوات متتالية، ولعدم وجود حاكم قوى يستطيع أن يقبض على زمام الأمور فيها، أما الخلافة العباسية التى استطاعت من قبل إرسال قوادها أمثال مؤنس الخادم ومحمد الاخشيد لصد حملات الفاطميين السابقة، فإنها فى هذه المرة لم

تستطع عمل أى شئ من هذا القبيل نتيجة لضعفها من جهة، ولقيام دول شيعية المذهب سيطرت على مناطق عديدة من الشرق العربى والإسلامى مثل بنى بوية الزيدية فى العراق وفارس، والحمدانيين الإثنا عشرية فى حلب وشمال الشام، والقرامطة الإسماعيلية فى جنوب الشام. ولا شك أن وجود هذه القوى الشيعية كان يقف حائلا دون وصول إمدادات للخلافة العباسية السنية إلى مصر للدفا ع عنها ضد الفاطميين الشيعة بطبيعة الحال. يضاف إلى ذلك أن الخليفة الفاطمى المعز لدين الله، كان على علم تام بأحوال مصر عن طريق دعاته وجواسيسه بل وعن طريق بعض كبار المسئولين المصريين أمثال يعقوب بن كلس الذى سافر إليه بنفسه وأطلعه على سوء الحالة فى مصر. وقد يدل على ذلك تلك التصريحات التى أدلى بها المعز قبل إرسال حملته إلى مصر مثل قوله:

«إنى مشغول بكتب ترد على من المشرق والمغرب أجيب عليها بخطى»، وقوله «والله لو خرج جوهر وَحده لفتح مصر!!».

أخذ المعز يعد العدة لفتح مصر، فجمع الأموال الوفيرة وحفر الآبار وأقام المنازل فى الطريق إلى الإسكندرية لينزل فيها الجند أثناء زحفهم إليها. ثم عبأ جيوشه ومعداته بقيادة مولاه جوهر الصقلى. وقد وصف هذا الجيش الجرار شاعر المعز، محمد بن هانئ الأندلسى فى القصيدة التى مطلعها:

رأيت بعينى فوق ما كنت أسمعُ ... وقد راعنى يومٌ من الحشر أروعُ

غداةً كأن الأفق سد بمثله ... فعاد غروب الشمسِ من حيث تطلعُ

خرج الجيش الفاطمى من القيروان فى ١٤ ربيع الآخر ٣٥٨هـ/٥ فبراير ٩٦٩م تصحبه بعض القطع البحرية، فاستولى على الإسكندرية، ثم واصل زحفه إلى الجيزة فوصلها فى ١٧ شعبان من نفس السنة، ثم عبر مخاضة فى النيل وقضى على المقاومة الاخشيدية الى أعدت لقتاله على الضفة الشرقية للنيل ودخل مدينة الفسطاط ظافرا حيث كتب لأهل مصر أمانا أعلن فيه عن البرنامج الإصلاحى الذى سيسير عليه فى سياسته المستقبلة.

وعندما بلغ الخليفة المعز نبأ انتصار جيوشه فرح فرحا شديدا تجلى بوضوح فى قصيدة شاعره محمد بن هانئ الأندلسى التى يقول فى مطلعها :

تقول بنو العباس هل فتحت مصر ؟ ... فقل لبنى العباس قد قضى الأمر

وقد جاوز الإسكندرية « جوهر » ... تُصاحبه البشرى ويقدمه النصر

وعسكر جوهر بجيشه فى الموضع الذى أنشأ فيه مدينة القاهرة وهو السهل الرملى الواقع فى شمال شرق الفسطاط، وكان ذلك لغرض حربى سريع وهو تغطية المدينة الثلاثية: الفسطاط والعسكر والقطائع وحمايتها من غارات أبناء عمومتهم القرامطة فى جنوب الشام. ولعل هذه الصفة الحربية والحراسة القوية التى كانت عليها مدينة القاهرة كدار خلافة، هى التى أعطتها هذه الصفة التى عرفت بها وهى «القاهرة المحروسة». كذلك يقترن اسم جوهر ببناء الجامع الأزهر فى القاهرة المعزية فى ٢٤ جمادى الأولى سنة ٣٥٩هـ وكان افتتاحه للصلاة فى يوم الجمعة ٧ رمضان سنة ٣٦١هـ.

وتجدر الإشارة إلى قصة الغراب والأجراس فى تسمية القاهرة إذ اختلط فيها الخيال بين القاهرة والإسكندرية، وفحواها كما يقول المقريزى ـ أن جوهر لما أراد بناء القاهرة أحضر المنجمين وأمرهم باختيار طالع سعيد لوضع الأساس، فاختاروا طالعا سعيدا، وجعلوا بدائر السور قوائم من خشب بين كل قائمتين حبل فيه أجراس، وقالوا للعمال:

إذا تحركت الأجراس، ارموا ما بأيديكم من الطين والحجارة. واتفق أن غرابا وقف على حبل من تلك

الحبال، فتحركت الأجراس وظن العمال أن المنجمين حركوها فألقوا ما بأيديهم من الطين والحجارة. وكان كوكب المريخ فى الطالع وهو المسمى عند المنجمين بقاهر الفلك فسموها القاهرة.

هذه القصة تبدو خيالية ومما ينفيها نفيا باتا أن المؤرخ أبا الحسن على المسعودى الذى توفى قبل إنشاء القاهرة بنحو ١٢ سنة (٣٤٦هـ/٩٥٦م) ذكر مثل هذه القصة فى كتابه مروج الذهب (جـ١ ص٢١٥) ونسبها إلى الإسكندر المقدونى عند بنائه لمدينة الإسكندرية! وهذا يدل على أن قصة الغراب والأجراس كانت معروفة وشائعة فى مصر قبل بناء القاهرة. ثم إنه يفهم من كلام المؤرخين أن المعز أطلق عليها هذا الاسم تفاؤلا بأنها ستقهر الدنيا أو الخلافة العباسية المعادية.

وهكذا تحولت مصر بعد الفتح الفاطمى إلى مركز قيادى مستقل فى العالم العربى، فبعد أن كانت ولاية تابعة لخلافة دمشق أو بغداد، أصبحت دار خلافة لدولة قوية كبيرة متسعة امتد نفوذها إلى البلاد المحيطة بها شرقا وغربا. كذلك اندمجت الدولة الفاطمية فى الحياة المصرية وشاركت فيها بجليل الأعمال التى كانت لها أثر كبير فى توحيد عناصر الأمة المصرية ونضوج شخصيتها، وذلك لأنها كانت دولة متسامحة إلى حدود بعيدة، فالمسلم والقبطى واليهودى كانوا يلقون معاملة واحدة، وهذا ساعد على مزج العناصر المصرية بعضها ببعض كما ساعد على ازدهار الحياة الاقتصادية والفنية بالبلاد. فكثير من مخلفات الفاطميين المحفوظة فى المتاحف الإسلامية كالأوانى الخزفية والزجاجية والمنسوجات، قد نقش عليها أسماء صانعيها من بينها أسماء مسيحية. كذلك نسمع عن موظفين من أهل الذمة احتلوا أرقى المناصب مثل منشأ اليهودى وعيسى بن نسطوروس النصرانى الذى عهد إليه بمنصب الوزارة.

ومن المعروف أيضا أن الخليفة العزيز بالله بن المعز تزوج بسيدة نصرانية على المذهب الملكانى مذهب كنيسة القسطنطينية، فأنجبت له ابنه الحاكم بأمر الله وابنته ست الملك. وصار لها نفوذ كبير حتى إن الخليفة عين أخويها بطريقين ملكاتيين أحدهما فى الإسكندرية والآخر فى بيت المقدس. ويتصل بهذا مشاركة الفاطميين فى الاحتفال بالأعياد القومية والمسيحية مثل عيد النوروز (١١ سبتمبر) ويوم الغطاس وخميس العهد، وعيد وفاء النيل. أما احتفالاتهم بالأعياد الإسلامية فقد خرجت عن التقليد المعروف بالاحتفال بعيدى الفطر والأضحى، إذ تجاوزت ذلك إلى الاحتفال بميلاد أهل البيت ونقل رفات بعضهم إلى مصر. ومن أهمها الاحتفال بالمولد النبوى (١٢ ربيع الأول) ومولد الحسين والسيدة زينب، إلى جانب الاحتفال برؤيا هلال رمضان وبليالى رمضان، وليلة الإسراء والمعراج (٢٧ رجب) وليلة النصف من شعبان (اتجاه القبلة إلى الكعبة بدلا من بيت المقدس) وكان يصاحب ذلك بيع الحلوى واللعب وعرايس المولد.. إلخ.

كل هذه الأشياء ابتدعها الفاطميون وهى بدعة حسنة أكسبت مصر طابعا من البهجة والسرور حتى اليوم. لهذا كله أحبهم المصريون وأحبوا أعمالهم لدرجة أن اسمهم اقترن بأرض الكنانة رغم قيام دولتهم فى المغرب، فنجد بعض المؤرخين أمثال المقريزى وأبى شامة أطلقوا على خلفائها اسم الخلفاء المصريين كما سموها بدولة المصريين والدولة المصرية.

على أن المصريين وإن كانوا قد أحبوا الفاطميين إلا أنهم لم يتابعوهم فى مذهبهم الشيعى وذلك لأن الشعب المصرى شعب محافظ حتى فى المسائل الاعتقادية، ولهذا ظل على مذهبه السنى. ومن طريف ما خلفه الفاطميون فى مصر فى هذا الصدد بعض كلمات من سب السلف الصالح مثل أبى بكر وعمر بن الخطاب، إذ لا تزال كلمة: ياعمر !! تقال على سبيل السخرية.

وكانت مصر فى العصر الفاطمى مقسمة إلى أربع كور أو ولايات كبيرة وهى:

١ ـ ولاية قوص وكانت أعظم ولايات مصر لأن عاملها يحكم جميع بلاد الصعيد.

٢ ـ ولاية الشرقية وكان عاملها يحكم منطقة بلبيس وقليوب واشموم.

٣ ـ ولاية الغربية ويلى عاملها المحلة ومنوف وأبيار.

٤ ـ ولاية الاسكندرية ويلى عاملها اقليم البحيرة كله.

وكان يخلع على هؤلاء الولاة الأربعة من خزانة الكسوة ما يعرف باسم البدنة وهو ثوب ثمين من حرير مرقوم بالذهب قيمته ألف دينار كان يلبسه الخليفة يوم الاحتفال بفتح الخليج وقت فيضان النيل.

وعلى الرغم من أن مدينة الإسكندرية قد فقدت مكانتها السياسية كعاصمة لمصر فى العصور الاسلامية نظرا لانتقال العاصمة إلى منطقة مصرية صميمة عند رأس الدلتا فى الفسطاط والقاهرة، إلا أن هذا الوضع لم يقلل مطلقا من خطورة البحر المتوسط فى كيان مصر، لأن وضع الإسكندرية فى مصر ـ كما يقول جمال حمدان ـ تعبير «اختزالى» عن وضع مصر نفسها فى البحر المتوسط بمعنى أن البعد المتوسطى استمر بعدا حقيقيا وخطيرا فى كيان مصر فى العصر الإسلامى الوسيط. (كتاب شخصية مصر وعبقرية المكان).

وهكذا صارت الإسكندرية فى العصر الفاطمى أهم قاعدة بحرية فى شرق حوض البحر المتوسط على الصعيدين الحربى والاقتصادى. ففى دار صناعتها كانت تبنى الشوانى الحربية والشلنديات والمسطحات التى يتكون منها الأسطول المصرى والتى كانت تشحن بالأسلحة والمقاتلة لغزو البلاد المعادية.

أما من الناحية الاقتصادية، فقد جمعت الإسكندرية بين مزايا الزراعة والصناعة والتجارة، فقد راجت فيها بصفة خاصة زراعة النباتات الزيتية واستخراج زيت الشيرج من السمسم وزيت الزيتون من الزيتون، وإلى جانب صناعة الصابون والشمع والخمر والتحف الزجاجية والبلورية الجميلة والمنسوجات الكتانية الرقيقة التى كان الصناع فى البلدان المختلفة يقلدونها ويبيعونها على أنها من الإسكندرية. ويتصل بذلك أهميتها التجارية كميناء هام تفد إليه المراكب حاملة إليها سلع الشرق والغرب. وقد اضطر أهل المدن الإيطالية مثل أمالفى وجنوا وبيزا والبندقية (فنسيا) أن يسالموا الدولة الفاطمية حتى تأذن لهم بالحج إلى بيت المقدس. وكانت لهم جاليات وفنادق كثيرة بمدينة الاسكندرية. كذلك يلاحظ أن استمرار تبعية جزيرة صقلية للدولة الفاطمية قد ساعد فى ازدياد النشاط التجارى السكندرى فى حوض البحر المتوسط مما جعلها مركزا تجاريا عالميا أيام الفاطميين.

على أن موضع الأهمية هنا هو أن مدينة الإسكندرية قد انفردت بين المدن المصرية بشخصية مميزة فى سماتها ومعالمها وموقعها وثقافة ولهجة أهلها...الخ على مر العصور، ومن أمثلة ذلك.

أولا : احتفظت شوارع الإسكندرية فى العصر الفاطمى بتخطيطها القديم من حيث الاستقامة والاتساع والامتداد شرقا وغربا وشمالا وجنوبا بحيث تتقاطع فى زوايا قائمة على شكل رقعة الشطرنج. هذا إلى جانب منارة الاسكندرية التى شيدت من قديم فى عهد بطليموس فيلادلفوس لهداية السفن والمسافرين وكانت تعتبر إحدى عجائب الدنيا. وقد أطنب فى وصفها الرحالة والمؤرخون العرب والأعاجم الذين زاروا الإسكندرية فى العصر الفاطمى. ومكان المنارة اليوم قلعة قايتباى فى الميناء الشرقية. ثم هناك عامود السوارى الذى شيد من قديم فى العصر البيزنطى تكريما لشهداء المسيحية بالإسكندرية. ومازال هذا العامود قائما شامخا إلى اليوم ويطلق اسمه على الجبانة الواقعة خارج باب العامود أو باب السدرة فى جنوب المدينة. ويتصل بهذا أيضا خليج الإسكندرية أو قناتها التى تربطها بالنيل من قديم (الفرع الكانوبى) للاستفادة من مياهه وتجارته. وقد حرص خلفاء الدولة الفاطمية مثل الحاكم بأمر الله على تطهيره من رواسب الطمى التى تتراكم فيه جريا على عادة أسلافهم. ويرى المرحوم محمود باشا الفلكى (الإسكندرية القديمة ص ١٤٥ ـ ١٤٧) أن هذه القناة أو الترعة كانت تشغل تقريبا نفس المكان القديم لترعة شيديا التى لا تعدو أن تكون بدورها نفس المكان تقريبا لترعة المحمودية الحالية.

ثانيا : تميزت الإسكندرية بموقع جغرافى فريد جعلها ترتبط ببلاد البحر المتوسط إلى درجة أن الاغريق

والرومان نظروا إليها ككيان خاص إلى جانب مصر فوصفوها بقولهم Alexandria ad Aeegyptum أى الإسكندرية المتاخمة لمصر أو القريبة من مصر وهو وصف صادق ظلت الإسكندرية تتميز به إلى عصورنا الحديثة. هذا بالإضافة إلى صعوبة اتصالها بالعواصم الداخلية فالطريق الصحراوى طويل وشاق، والطريق الزراعى كان يصعب اختراقه وقت فيضان النيل لامتلائه بالوحل. هذا الوضع جعلها تعتمد على نفسها وعلى قوة أسوارها وقلاعها حتى أنه يروى أن القائد العربى عمرو بن العاص حينما بلغها هالته قوة أسوارها وحصونها وأنه صلى يومئذ بجيوش المسلمين صلاة الخوف طالبا من الله أن يعينه على فتحها، إذ كانت بها حصون مبنية لا ترام، حصن دون حصن على حد قول المؤرخ المصرى ابن عبد الحكم (وصلاة الخوف يتقدم فيها الإمام للصلاة بطائفة من الجند ويدع الطائفة الأخرى فى مواجهة العدو. فيصلى الإمام ركعة ثم يثبت قائما ويصلون لأنفسهم ركعة ثم يسلمون ويقفون مكان أصحابهم فى مواجهة العدو، ويأتى أصحابهم فيصلى بهم الإمام الركعة الثانية ثم يتشهد ويسلم بينما يقضون هم الركعة التى فاتتهم ويسلمون وينصرفون) ويلاحظ أن هذا الموقع المتطرف لمدينة الإسكندرية قد شجع بعض الثائرين على الدولة الفاطمية على اللجوء إليها والاحتماء بحصونها مثل ثورة الأوحد بن أمير الجيوش بدر الجمالى الذى ثار على أبيه فيها ٤٧٧هـ ١٠٨٤م وانتهى الأمر بهزيمته ومثل ثورة نزار الابن الأكبر للخليفة المستنصر بالله الذى ثار بالاسكندرية على وزير أبيه الأفضل بن بدر الجمالى لأنه أجلس أخاه الأصغر أبا القاسم أحمد المستعلى على عرش الخلافة بعد وفاة أبيه. وقد اضطر الأفضل إلى ضرب الإسكندرية بالمجانيق والقضاء على الفتنة وقتل نزار وأصحابه ٤٨٧هـ ١٠٩٤م.

ثالثا : انفردت الإسكندرية بملامح مغربية مميزة دونا عن غيرها من المدن المصرية ويرجع ذلك إلى موقعها الجغرافى وارتباطها الوثيق برا وبحرا ببلاد المغرب والأندلس، ولذا أطلق عليها اسم «باب المغرب» لأنها كانت معبرا للمغاربة القاددمين والعائدين والمقيمين بقصد الحج أو العلم أو التجارة أو الزيارة. والمقصود بالمغرب هنا المغرب الأفريقى والمغرب الأندلسى أيضا. هذا الاتصال الوثيق أعطى الإسكندرية طابعا مغربيا لا زلنا نلمس آثاره إلى اليوم وفى العصر الفاطمى ظل معظم أهالى الإسكندرية متمسكين بمذهب إمام دار الهجرة مالك بن أنس الاصبحى الذى كان سائدا مذهبه فى بلاد المغرب والأندلس، وقد يفسر ذلك أن الدولة الفاطمية منذ دخولها مصر أعلنت فى كتاب الأمان قرارها بترك الناس أحرارا على مذاهبهم الدينية المختلفة بمعنى أنها اكتفت بجعل التشيع مذهبا رسميا للدولة فقط ولموظفيها الرسميين، ولم تفرضه على سائر أبناء الشعب المصرى، ولهذا استمرت الإسكندرية مركزا للمالكية السنية إلى جانب مذهب الإمام محمد بن إدريس الشافعى الذى كان يسود مذهبه معظم الديار المصرية. كذلك يلاحظ أن الاسكندرية كانت أول مدينة مصرية أنشئت فيها المدارس السنية فى أواخر العصر الفاطمى مثل المدرسة الحافظية التى أنشأها رضوان بن ولخشى وزير الخليفة الحافظ الفاطمى سنة ٥٣٢هـ/١١٣٧م للفقيه المالكى أبى الطاهر بن عوف الزهرى الذى توفى سنة ٥٨١هـ ١١٨٥م عن ست وتسعين سنة.

ومثل المدرسة السلفية التى بناها العادل أبو الحسن على بن السلار سنة ٥٤٤هـ/١١٤٩م وزير الخليفة الفاطمى الظافر اسماعيل للفقيه الشافعى أبى طاهر أحمد بن محمد السلفى الأصبهانى الذى توفى سنة ٥٧٦هـ ١١٨٠م بعد أن جاوز المائة من عمره، ويؤثر عنه أنه كان يقول:

أنا من أهل الحديث وهم خير فئة

عشت تسعين وأرجو أن أعيش لمائة

فعاش كما تمنى رحمه الله. ومن أهم مؤلفاته «معجم السفر» ترجم فيه لعلماء الإسكندرية وللعلماء الذين قابلهم فى رحلاته (نشره د. احسان عباس) كذلك نلاحظ هذا التأثير للغربى فى أسواق المدينة وأحيائها مثل

سوق المغاربة وزنقة الستات، والزنقة كلمة مغربية معناها الشارع ولا تستعمل إلا فى الاسكندرية. ونجد فيها أيضا حى كرموز، وكلمة كرموز أو كرموز النصارى تطلق فى المغرب على التين الشوكى الذى اشتهرت زراعته فى هذا الحى السكندرى فسمى به. بل أن اللهجة المحلية الدارجة للسكندريين انفردت بتأثير مغربى مثل استعمال صيغة الجمع للمفرد المتكلم فيقولون: ناكلو ونشربو بدلا من آكل وأشرب وهكذا.. كذلك نلاحظ أن المساجد المشهورة فى المدينة لعلماء وزهاد من المغاربة الذين عاشوا وماتوا فيها. وقد اندثرت للأسف معظم هذه الآثار التى أقيمت فى العصر الفاطمى ولم يبق منها إلا ضريح الفقيه المالكى أبى بكر محمد بن الوليد الطرطوشى نسبة إلى مدينة طرطوشة Tortosa فى شمال شرق اسبانيا. رحل إلى مصر وعاش فى الاسكندرية حيث اشتغل بالتعليم وألف عدة كتب أهمها كتاب «سراج الملوك» الذى أهداه إلى الوزير المأمون البطائحى فى عهد الخليفة الآمر الفاطمى وهو كتاب فى الآداب السلطانية يتعرض فيه لأنظمة الحرب والجهاد التى اتبعتها جيوش الأندلس على عهد الأمويين. وهو النص الوحيد الذى لدينا تقريبا حول هذا الموضوع. والكتاب نشر فى القاهرة ١٣٥٤هـ ١٩٣٤م ونقله إلى الاسبانية المستشرق الاسبانى الاركون M. Alarcon بعنوان Lampara de los prineipes.

وللطرطوشى كتاب آخر بعنوان «الحوادث والبدع» يتضمن معلومات مفيدة عن الحياة الاجتماعية فى الأندلس وفى القدس، نشره محمد الطالبى بتونس سنة ١٩٥٩ ثم نشره بشرعيون بالقاهرة ١٩٩١. وتوفى الطرطوشى بالاسكندرية سنة ٥٢٠ هـ ١١٢٦م ومقامه يزار بشارع الباب الأخضر بمنطقة الجمرك وهو الباب الشمالى الغربى للمدينة، أما مسجده فكان فى مكان آخر خارج باب البحر وقد اندثر وزال أثره.

وتجدر الإشارة هنا أيضا إلى مسجد العطارين (أو مسجد الجيوشى) بالإسكندرية الذى كان فى الأصل مسجدا قديما مهدما، فلما زار أمير الجيوش بدر الجمالى وزير الخليفة الفاطمى المستنصر بالله مدينة الإسكندرية ٤٧٧هـ/١٠٨٤م، أمر بتجديد بنائه ولا تزال اللوحة الإنشائية الرخامية لجامع العطارين باقية إلى اليوم أسفل المئذنة مسجل عليها اسم المنشئ وتاريخ البناء.

ولقد استضافت الإسكندرية أعدادا وفيرة من علماء وشعراء المغرب خلال العصر الفاطمى نذكر منهم الشاعر الطبيب أبا الصلت أمية بن عبد العزيز الدانى (نسبة إلى دانية Denia فى شرق الأندلس) الذى عاش بالإسكندرية ثم انتقل إلى القاهرة فى عهد الوزير الأفضل بن بدر الجمالى ووصف هرمى الجيزة بقوله:

وقد وافيا نشزا من الأرض عاليا   كأنهما نهدان قاما على صدر

ونذكر النحوى أبا القاسم على بن جعفر المعروف بابن القطّاع الصقلى الذى هاجر من جزيرة صقلية إلى الاسكندرية فى خلافة الأمير الفاطمى ٤٩٥هـ ١١٠١م واختاره الوزير الأفضل مؤدبا لأولاده بالقاهرة. ولابن القطاع مؤلفات فى اللغة والنحو والعروض وفى تاريخ صقلية، قام بدراسة ما تبقى منها المستشرق الإيطالى الطيب الذكر امبرتوا رتزيتانو A. Ritztano ومن المهاجرين من صقلية الى الاسكندرية نذكر كذلك عبد الرحمن بن أبى بكر الصقلى المعروف بابن الفحام (٥١٦هـ ١١٢٢م) الذى ألف كتابا فى القراءات السبع سماه «التجويد» ولا يفوتنا أن نشير إلى الداعية المغربى المصمودى محمد بن تومرت (٥٢٢هـ ١١٢٨م) الذى درس بالمشرق، وفى أثناء عودته إلى بلاده أقام بعض الوقت فى الاسكندرية حيث حضر مجالس الطرطوشى العلمية غير أنه لم تعجبه بعض المناقر فى مدينة الاسكندرية فحاول أن يغيرها واشتد فى أمرها فقامت عليه العامة والغوغاء وصاروا يقطعون عليه طريقه إلى مجلس أبى بكر الطرطوشى. فلما افتقده الطرطوشى بحث عنه حتى أعلم بمكانه، فقصد إليه وترامى عليه وصافحه وسأله عن سبب غيابه عن مجلسه فعرفه بشأن أولئك الغوغاء وأنه يريد الذهاب إلى المغرب فودعه وانصرف. وعاد ابن تومرت إلى بلاده المغرب الأقصى ليتلقب بالمهدى وينشر دعوة التوحيد التى انتهت بالقضاء على دولة المرابطين وقيام دولة الموحدين فى المغرب والأندلس.

رابعا : نعمت مدينة الاسكندرية فى العصر الفاطمى بالرخاء والازدهار وتمتع أعيانها وتجارها وعلية القوم فيها بحياة رغدة مترفة دفعتهم إلى البناء والتشييد حتى أصبحت المدينة تزخر بالقصور الفخمة الشامخة والبساتين الأنيقة والمنتزهات النضرة ذات النافورات الكبيرة مما ألهم شعراءها نظم القصائد الرائعة فى وصفها والتعبير عن جمالها وسحرها. ومن أمثلة ذلك قصيدة الشاعر السكندرى الفتح نصر الله بن قُلاقس (سنة ٥٦٧هـ/١١٧١م) يصف فيها قصرا عاليا لبنى خليف فى منطقة الرمل بظاهر الاسكندرية ـ لعلها مصطفى باشا الآن ـ يقول فى مطلعها :

قصر بمدرجة النسيم تحدثت   فيه الرياض بسرها المستور

لاث الغمــــام عمامة مسكية   وأقام فى أرض من الكافــور

وقوله فى وصف منارة الاسكندرية إحدى عجائب الدنيا :

ومنزل جــاوز الجـوزاء مرتقيا   كأنما فيـه للنســــرين أوكـارُ

مازال يذكى بها نار الذكاء إلى   أن أصبحت علما فى رأسه نارُ

والشاعر ظافر الحداد يصف خليج (قناة) الاسكندرية بقوله :

الماء يبدو فى الخليج كأنه   أيْمٌ لسرعة سيره محفورِ

(يشبه القناة بالحية البيضاء السريعة)

والشاعرة تقية الصورية (٥٦٩هـ/١١٧٢م) تقول فى وصف إحدى رياض الاسكندرية :

والورد يحكى وجنةً محمرةً   انحـل من فـرط الحـياء لثامهـا

والنرجــس الغـض الـذى   أحداقه ترنو لتفهم ما يقول خزامها

وهناك شعراء آخرون تحدث عنهم بالتفصيل شاعر الاسكندرية عبد العليم القبانى فى كتابه شعراء الاسكندرية فى العصور الاسلامية. وأخيرا انتهت الدولة الفاطمية على يد صلاح الدين الأيوبى السنى الذى كان يخشى من قيام ثورة شيعية فى البلاد، ولهذا عمد إلى تجربة أولية ُفى أحد المساجد، فتمت فى صمت دون أن يحتج أحد، عندئذ أمر بتعميم الدعوة للخليفة العباسى، يروى ابن الأبار فى هذا الصدد: أن أول من خطب للعباسيين على منبر الفاطميين بمصر هو العالم الأندلسى نزيل الاسكندرية اليسع بن حازم الغافقى الجيانى الذى كان مقربا من صلاح الدين، فتطوع اليسع بأن يدعو للعباسيين وصعد المنبر وجنود الأغزاز حوله وسيوفهم مسلطة خوفا عليه من الشيعة، وتمت الدعوة فى صمت دون أن يحتج أحد، عندئذ أمر صلاح الدين بتعميم الدعوة للخليفة العباسى المستضئ بنور الله على جميع منابر القاهرة فى ٧ من المحرم سنة ٥٦٧هـ/١١٧١م وتجدر الإشارة هنا إلى أن بعض المؤرخين أمثال العماد الأصفهانى وأبى شامة ذكروا أن الخطبة الأولى للخليفة العباسى أقيمت فى الاسكندرية أولا ثم عممت بعد ذلك فى مصر والقاهرة، ولعل ذلك راجع إلى أن الاسكندرية مدينة سنية بطبيعتها. هكذا زالت الخلافة الفاطمية زوالا هادئا. وكان الخليفة الفاطمى العاضد فى ذلك الوقت مريضا ومات بعد هذا الحادث بثلاثة أيام دون أن يعلم أن الدولة الفاطمية قد زالت رسميا.

على أنه يلاحظ أن هذا الهدوء السياسى الذى صاحب نهاية الدولة الفاطمية لم يمنع من وقوع اضطراب اقتصادى فى العملة الرسمية فى مصر وهى الدينار الأحمر أى الذهبى والنقرة أى الدرهم الفضى، فيروى المقريزى أنه عندما أمر صلاح الدين بضرب عملة جديدة عليها اسم خليفة بغداد، اختفى الذهب والفضة من مصر، وصار من يحصل على الدينار الأحمر مثل من يعبر أبواب الجنة!!

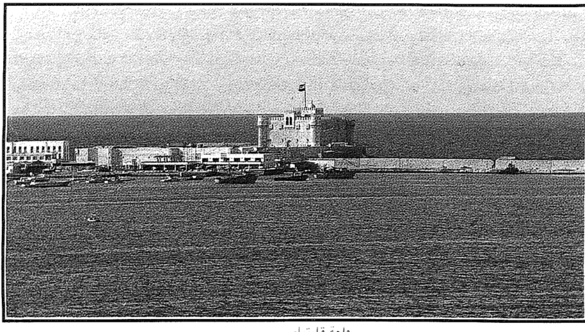
وعلى أية حال فإن الخليفة العاضد الفاطمى قد مات فى يوم عاشوراء أى فى العاشر من المحرم سنة ٥٦٧هـ/١١٧١م فإن الدولة الفاطمية قد انقضت فى اليوم الذى استشهد فيه الإمام الحسين.

الإسكندرية فى عصر الدولة الأيوبية
(٥٦٧ ـ ٦٤٨هـ/ ١١٧١ ـ ١٢٥٠م)

الدولة الأيوبية دولة إسلامية مجاهدة من بدايتها إلى نهايتها. فقد اقترنت بدايتها بنصر حطين الذى استردت فيه بيت المقدس من أيدى الصليبين كما اقترنت نهايتها بنصر المنصورة الذى طردت فيه جيوش الفرنسيين بقيادة ملكهم لويس التاسع من الأراضى المصرية.

وهناك شبه إجماع على أن الأيوبيين أكراد من أذربيجان من قرية فى شمالها تسمى دوين جهة أرمينيا، ومن هناك اتصل شادى جد صلاح الدين بحاكم العراق السلجوقى واسمه بهروز الخادم فى عهد السلطان مسعود بن ملكشاه السلجوقى. فاستنابه فى قلعة تكريت الكردية فى شمال سامراء بالعراق وخلف شادى فى حكم تكريت ابنه نجم الدين أيوب الذى أتاحت له الظروف أن يؤدى خدمة للأمير التركى عماد الدين زنكى صاحب الموصل وحلب من قبل السلاجقة. فكافأه هذا الأمير بأن عينه حاكما على بعلبك اللبنانية بعد الاستيلاء عليها. ويقال إنه فى نفس الليلة التى غادر فيها نجم الدين أيوب قلعة تكريت، ولد له يوسف صلاح الدين سنة ٥٣٢هـ/١١٣٨م. ومنذ ذلك الوقت ارتبط الأيوبيون بأسرة عماد الدين زنكى ارتباطا وثيقا لدرجة أنه بعد وفاته سنة ١١٤٦م، صار نجم الدين أيوب وأخوه أسد الدين شيركوه من أكبر أمراء ولده نور الدين محمود زنكى صاحب حلب ودمشق. وهكذا كانت نشأة صلاح الدين منذ ولادته نشأة عربية إسلامية فى هذه المدن العربية وحينما عزم نور الدين على إرسال حملة إلى مصر لتطويق مملكة ببيت المقدس من الجنوب بعد أن فشل الفاطميون فى مقاومتها، اختار لقيادة هذه الحملة القائد الأيوبى أسد الدين شيركوه الذى يعد من كبار قادة ذلك العصر.

وقد صحب شيركوه معه ابن أخيه صلاح الدين. وشعر الصليبيون بخطورة هذه الحركة فبادروا بالتدخل فى شئون مصر لإحباط هذه الخطة، وهنا حدث تسابق نحو مصر بين الصليبيين بقيادة عمورى Amalric ملك بيت المقدس، وبين جيوش نور الدين بقيادة شيركوه. وحدثت معارك عديدة بين الفريقين شاركت فيها مدينة الاسكندرية بقيادة صلاح الدين الأيوبى وانتهت بانتصار شيركوه وانسحاب عمورى منهزما إلى القدس، وكأنما اختارت مصر السيادة الاسلامية بطبيعة الحال.



قلعة قايتباى

وبقي شيركوه في مصر كوزير للخليفة العاضد الفاطمي، وبعد وفاة شيركوه ولي بعده ابن أخيه صلاح الدين الوزارة الفاطمية بتأييد من مماليك عمه الأسدية سنة ٥٦٥هـ/١١٦٩م. ولا حاجة هنا إلى تكرار ما ذكرناه من قبل عن قصة الدعاء للخليفة العباسي المستضئ، ووفاة الخليفة الفاطمي العاضد وانتهاء الدولة الفاطمية سنة ٥٦٧هـ/١١٧١م.

وكان من حسن طالع صلاح الدين أن سيده الأعلى نور الدين محمود مات بعد ذلك بقليل سنة ٥٦٩هـ/١١٧٤م تاركا وراءه في الحكم طفلا في الحادية عشرة من عمره وهو الملك الصالح اسماعيل. كذلك مات في نفس السنة عموري ملك بيت المقدس تاركا وراءه إبنا عاجزا في الحكم وهو بولدوين الأبرص (الرابع) وقد ترتب على ذلك أن دبت الانقسامات الداخلية في كل من مملكتي نور الدين والصليبيين. ولقد كان في مقدور صلاح الدين خلال تلك الظروف أن ينازل الصليبيين مباشرة في فلسطين، ولكنه كان يعلم أن أوروبا تقف وراء القدس، وأن الأمر يتطلب وحدة الصف العربي، وجمع شمل قادة المسلمين المتنازعين في المنطقة. واضطر صلاح الدين لتحقيق هذا الهدف أن يتبع سياسة السلم والحرب معهم سنوات عديدة. ومن كلماته المأثورة في هذا الصدد قوله في خطاب أرسله إلى الخليفة العباسي: «ولو أن أمور الحرب تصلحها الشركة، لما عز علينا أن يكون هناك كثير من المشاركين، ولا أساءنا أن تكون الدنيا كثيرة المالكين، ولكن أمور الحرب لا تحتمل في التدبير إلا الوحدة».

وهكذا استطاع صلاح الدين أن يحقق الوحدة المنشودة التي مكنته من أن يضرب ضربته في حطين وأن يسترد مدينة القدس ويدخلها في ٢٧ رجب سنة (٥٨٣هـ/ ١١٨٧م) تيمنا بالرسول الكريم الذي أسرى به إلى المسجد الأقصى بالقدس في مثل هذا التاريخ (٢٧ رجب).

على أن استرداد بيت المقدس لم يلبث أن أثار ثائرة أوربا كما كان صلاح الدين يتوقع، فجاءته بملوكها العظام في الحملة الصليبية الثالثة سنة (٥٨٥هـ/١١٨٩م) ودارت معارك وحروب عديدة انتهت بصلح الرملة سنة (٥٨٨هـ/١١٩٢م)الذي ينص على بقاء القدس تحت الحكم الإسلامي، وأن يحتفظ الصليبيون بالمدن الساحلية من صور إلى يافا.

على أن موضع الأهمية هنا هو أن مدينة الاسكندرية قد حظيت بنصيب وافر من هذه الأعمال الجهادية والمعارك الحربية، بالإضافة إلى دورها البناء في الازدهار العمراني والنشاط التجاري والعلمي، وهو ما نلخصه في الخطوات التالية:

أولا : عمل صلاح الدين على تحصين الثغور المصرية المطلة على البحر المتوسط مثل الاسكندرية ودمياط وتنيس ورشيد، فأمر بعمارة أسوارها وأبراجها وحفر الخنادق حولها. وقد حرص على تفقد سير العمل فيها بنفسه فزار الاسكندرية في سنة ٥٦٦ هـ/١١٧١م حينما كان وزيرا للخليفة العاضد الفاطمي، فكان البادئ في عمارتها وتجديدها. على أن صلاح الدين لم يلبث أو واجه بعد قليل مؤامرة خطيرة في مدينة الاسكندرية سنة ٥٦٩هـ/١١٧٣م كان هدفها الإطاحة بدولته وإعادة الدولة الفاطمية. وشارك في هذه المؤامرة كل أنصار الفاطميين من الشيعة والسودان والأرمن وغيرهم. كذلك انضم لها الشاعر المؤرخ عمارة اليمني الذي كان مقيما في مصر مواليا للفاطميين وألف كتبا في تاريخ اليمن وفي تاريخ مصر مثل كتاب «النكت العصرية في أخبار الوزارة الفاطمية» (تشر درنبورغ، باريس ١٨٩٧) كذلك شارك في هذه المؤامرة ملك صقلية النورماني وليام الثاني الذي أرسل حملة بحرية للاستيلاء على الاسكندرية. ولكن من حسن طالع صلاح الدين أنه اكتشف تفاصيل هذه المؤامرة من فقيه كان مشاركا معهم واسمه زين الدين علي بن نجا، فسارع صلاح الدين باعتقال المتآمرين وإعدامهم في رمضان سنة ٥٦٩هـ وكان من بينهم الشاعر عمارة اليمني وبعد هذا الوقت بقليل (في ذي الحجة سنة ٥٦٩هـ/١١٧٤م) وصل أسطول ملك صقلية سواحل الاسكندرية وكان مزودا بالمشاة والفرسان وآلات الحرب والحصار. وهناك دارت بينهم وبين أهل الاسكندرية معارك شرسة انتهت بانتصار السكندريين وانسحاب المعتدين في مراكبهم مهزومين سنة ٥٧٠هـ/١١٧٤م.

وعقب هذا النصر بسنتين زار صلاح الدين الاسكندرية زيارته الثانية سنة ٥٧٢هـ/١١٧٦م، وباشر سير العمل

ى أسوارها، كما أمر بتعمير الأسطول وجمع له من الأخشاب والصناع أشياء كثيرة ـ ولما تم عمل المراكب شحنها الرجال والآلات والسلاح والعدد وكل ما يحتاج الأسطول إليه، وولى فيه أحد أصحابه وأمره بألا يبرح البحر وأن يغزو جزائره.

أما زيارة صلاح الدين الثالثة لمدينة الاسكندرية فكانت فى سنة ٥٧٧هـ/١١٨١م وفيها عاين سور المدينة بعد إتمامه فكان من حسن الآثار والمآثر. ويقال إن صلاح الدين فى خلال تلك الزيارة أمر والى المدينة فخر الدين قراجا بكسر أربعمائة عمود رومانى كانت تحيط بعمود السوارى من بقايا معبد السرابيوم، وإلقائها عند شاطئ البحر لمنع مراكب العدو من الوصول إلى مرساها أو لكسر حدة الأمواج على سور الاسكندرية. وهكذا صارت مدينة الاسكندرية بفضل عناية صلاح الدين القاعدة البحرية الكبرى فى مصر، كما شارك أسطولها فى كثير من العمليات الحربية التى دارت ضد الصليبيين سواء فى مياه البحر المتوسط أو البحر الأحمر.

ثانيا : حرص صلاح الدين على رفع أجور رجال الأسطول لتحسين حالهم فقرر بأن يكون دينار الأسطول ٣/٤ الدينار العام بعد أن كان ٥/٨ ذلك الدينار أى بزيادة عشرين فى المائة تقريبا مما شجع الناس على الانخراط فى ديوان الأسطول.

ثالثا : كان يوجد بالاسكندرية ديوان اسمه «المتجر السلطانى» لشراء مختلف البضائع المستوردة من الخارج والللازمة للجيش والأسطول كالأخشاب والحديد والأقمشة الصوفية، فكان المتجر السلطانى يشترى هذه المواد من التجار الأجانب بأموال الخمس المفروض عليهم.

رابعا : اهتم صلاح الدين بتقوية أجهزة الدفاع والحراسة لحفظ السواحل والموانى كالرباطات والمحارس والمناور والمناظر. فكان على المنورين إذا ما كشفوا عدوا فى البحر مقبلا من بعيد أشعلوا النار على قمم المناور أو المنائر إذا كان الوقت ليلا، أو أثاروا الدخان فيها إن كان الوقت نهارا، إلى جانب استخدام الطبل والنفير لتحذير الأهالى من غارة العدو. وكثيرا ما استعمل المنورون إشارات نارية أو دخانية بحركات معينة للأخبار عن حالة العدو أو عدده أو جنسيته أو غير ذلك، وإن كانت المصادر للأسف لم تشرح لنا طريقة إرسال هذه الإشارات. وبهذه الوسيلة التى تشبه صفارات الإنذار فى وقتنا الحاضر، كان من الممكن إبلاغ القاهرة عن وقوع غارة على الاسكندرية فى وقت قصير. وقد جرت العادة لحماية ميناء الاسكندرية وما فيها من سفن أن تشد سلاسل حديدية فى البحر عند مدخلها. وقد عرفت هذه السلاسل أيضا باسم المنصر وما زال اسم السلسلة يطلق على مدخل الميناء الشرقى.

سادسا : على غرار ما حدث فى الدولة الفاطمية من قبل، استضافت الاسكندرية جالية مغربية كبيرة، لم تسكن المدينة بأشخاصها فقط بل بعلمها وفنها، وتجارتها، كما ساهمت فى الدفاع عنها. فمن المعروف أن صلاح الدين استخدم الملاحين من المغاربة فى أساطيله نظرا لاختصاصهم ومهارتهم فى هذا الجهاد البحرى. وقد أشاد المؤرخون المعاصرون بشجاعتهم فى هذا الميدان زمن الأيوبيين والمماليك من بعدهم. كذلك أشاد الرحالة الأندلسى ابن جبير عند كلامه عن مدينة الاسكندرية، بالرعاية الشاملة التى قدمها صلاح الدين للوافدين المغاربة من الطلبة وأبناء السبيل، فأمر بأن يصرف لكل واحد منهم خبزتين فى اليوم، وأوقف أوقافا خاصة للصرف من إيرادها على هذا المقصد الذى قد يصل فيه العدد فى اليوم إلى ألفى خبزة أو أزيد. وهذا كله أوقاف من قبله بخلاف ما عينه من زكاة العين فى هذا السبيل. كذلك يروى المقريزى أن صلاح الدين أنشأ بالاسكندرية دارا للمغاربة والطلبة الغرباء، وألحق بها مساكن وحمامات يستحمون بها ومارستانا لعلاج من يمرض منهم.

هذا، وتروى المصادر أن صلاح الدين أرسل فى سنة ٥٨٦هـ/١١٩٠م سفيرا من قبله وهو الأمير عبد الرحمن بن منقذ، إلى خليفة المغرب والأندلس فى عهد الموحدين يعقوب المنصور، يطلب إعانته بالأساطيل لتحول دون وصول مراكب الأعداء إلى سواحل مصر والشام. ويذهب بعض المؤرخين المغاربة إلى أن المنصور أرسل لصلاح الدين مائة وثمانين سفينة حربية لهذا الغرض.

سابعا : عمل صلاح الدين على بث روح الحرب والجهاد فى نفوس المسلمين وتهيئة عقولهم لهذا الواجب المقدس

عن طريق المدارس العديدة التى أنشأها فى مصر والشام. وقد حرص على أن يكون هو نفسه قدوة صالحة لهذا العمل فكان مجلسه لا يخلو من ذوى الفضل وأولى النباهة الذين كانوا يتجاذبون أطراف الفوائد ولا سيما فضائل الجهاد وفرائض التأهب والاستعداد له. وكان الرجل الذى يريد التقرب إلى صلاح الدين يحثه على الجهاد أو يذكر له شيئا من أخبار الجهاد. وكان وزراؤه وكتابه أمثال القاضى الفاضل (أبو على محيى الدين اللخمى). وعماد الدين محمد الأصفهانى، وبهاء الدين بن شداد، فى مقدمة الذين لبوا رغبته وألفوا له كتبا فى الجهاد وأحكامه وآدابه. كذلك حرص صلاح الدين عند زيارته الاسكندرية على سماع الحديث من الحافظ السلفى، والفقيه أبى طاهر بن عوف الزهرى.

ثامنا : لم يقتصر اهتمام صلاح الدين بمدينة الاسكندرية على الجانب الحربى فقط، بل امتد مؤثرا فى الجوانب الأخرى العمرانية والاقتصادية والثقافية مما ساعد على ازدهار حضاراتها ورفاهية أهلها.

وقد زار الاسكندرية فى العصر الأيوبى عدد كبير من الرحالة المسلمين وغير المسلمين ووصفوا معالمها وصفا دقيقا. ومن المعروف أن الغريب عن البلد يلاحظ أشياء لا ينتبه إليها أهل البلد نفسه لأنهم يعيشون فيها ولا يحسون بها، ومن هنا جاءت أهمية كتب الرحلات لما تحتويه من ملاحظات حية ناتجة عن مشاهدة عينية.

ولعل أهم وصف نجده للاسكندرية فى هذا العصر الأيوبى، هو وصف الرحالة الأندلسى المعاصر محمد بن جبير الكنانى البلنسى الذى زار الاسكندرية ثلاث مرات: الأولى كانت فى ٥٧٨هـ/١١٨٣م وصف فيها معالم الاسكندرية من مساجد وروابط ومدارس وحمامات. غير أن أهم شئ لفت نظر ابن جبير ونال اهتمامه فهو منارة الاسكندرية، فوصف مبناها، وقاس أبعادها، وارتقى مدارجها، حيث صلى فى مسجدها الذى فى أعلاها. وفى ذلك يقول: ومن أعظم ما شاهدنا من عجائب الاسكندرية المنار الذى قد وضعه الله عز وجل بين يدى من سخر لذلك آية للمتوسمين وهداية للمسافرين فلولاه ما اهتدوا فى البحر إلى الاسكندرية التى تظهر أنوارها على أزيد من سبعين ميلا. أما زيارة ابن جبير الثانية للاسكندرية، فكان الدافع لها كما يقول الوزير الغرناطى لسان الدين بن الخطيب ـ هو خبر استيلاء صلاح الدين على بيت المقدس سنة ٥٨٣هـ/١١٨٧م الذى دفع ابن جبير إلى القيام بهذه الرحلة لكى يرى زهرة المدائن وقد عاد إليها الإسلام من جديد. فغادر غرناطة واتجه إلى الاسكندرية فوصلها سنة ٥٨٥هـ/١١٨٩م وهناك وجه قصيدة طويلة إلى صلاح الدين يمدحه فيها ويهنئه بهذا الفتح العظيم.

أما زيارة بن جبير الثالثة للاسكندرية، فكانت بسبب وجده وحزنه على وفاة زوجته عاتكة أم المجد بنت أبى جعفر الوقشى أثناء إقامته معها فى ثغر سبته بالمغرب الأقصى. فرحل إلى المشرق حيث زار مكة والقدس وانتهى به المطاف إلى مدينة الاسكندرية التى كانت من أحب المدن إلى قلبه فأقام فيها يعلم تفسير القرآن إلى أن وافته المنية فى ٢٧ شعبان سنة ٦١٤هـ/٢٩ نوفمبر ١٢١٧م عن عمر يناهز الخامسة والسبعين. ويقال أن المقام المعروف اليوم بسيدى جابر فى الاسكندرية هو نفس الموضع الذى دفن فيه، وأن العامة حرفت اسمه من جبير إلى جابر.

كذلك زار الاسكندرية فى بداية عهد صلاح الدين سنة ٥٦٧هـ/١١٧١م الرحالة اليهودى الاسبانى بنيامين التطيلى، نسبة إلى مدينة تطيلة Tudela فى شمال غرب سرقسطة بنواحى نافارا. وقد اهتم هذا الرحالة بوصف فنادق المدينة التى كان ينزل فيها التجار الأوربيون ببضائعهم ويرجح أنها كانت تطل على الميناء الشرقى حيث ترسو سفنهم بالقرب من باب البحر. كذلك وصف أنواع السلع التجارية المختلفة التى كانت ترد إلى المدينة ولا سيما البهار Spice الذى كان يصل إليها من الهند والشرق عن طريق خليجها المتصل بالنيل ولذا سمى به أحد أبواب الاسكندرية الجنوبية وهو باب البهار أو باب سدرة ولم يفت بنيامين أن يتحدث عن أبناء دينه اليهود المقيمين فى الاسكندرية وقدر عددهم بنحو ثلاثة آلاف يهودى وهو عدد كبير يدل ـ ان صحت الرواية على الازدهار المالى والاقتصادى الذى نعمت به الاسكندرية فى ذلك الوقت ومن المعروف إن بنيامين عاد إلى بلاده وتوفى بسرقسطة فى شمال اسبانيا سنة ١١٧٣ بعد أن دون رحلته باللغة العبرية ثم ترجمت إلى اللاتينية واللغات الأوروبية الحديثة فى وقت متأخر كما ترجمها عزرا حداد من العبرية إلى العربية (بغداد سنة ١٩٤٥).

تاسعا : من معالم الاسكندرية المستمرة البارزة فى العصر الاسلامى خليجها أو قناتها أو ترعتها التى تربطها بالنيل والتى لم تلبث شواطئها أن اخضرت وربت وصارت عامرة بالقصور والرياض والبساتين التى كان يقصدها الأهالى للتنزه أو لصيد السمك أو لوصف محاسنها بالشعر الجميل. هذا، إلى جانب أهميتها التجارية ولا سيما وقت فيضان النيل حينما يرتفع فيها منسوب المياه مما يسهل على المراكب التجارية القادمة فى النيل من القاهرة مواصلة السير فيها إلى الاسكندرية ذهابا وإيابا حاملة السلع الصادرة والواردة المختلفة، وفى ذلك يقول المؤرخ المعاصر أبو المكارم الأسعد بن مماتى (ت ١٢٠٩م/٦٠٦هـ) فى كتابة قوانين الدواوين «وفى مسرى جريان النيل بخليج الاسكندرية، وتسفير المراكب إليه بالشب والغلال والكتان والبهار والسكر وغير ذلك من الأصناف، وفيه يحمل من ثغر الاسكندرية المحروس إلى الباب العزيز (أى القاهرة) من الأخشاب والحديد وغير ذلك من الأصناف برسم عمارة المراكب».

أما فى وقت التحاريق وانخفاض منسوب المياه فى ترعة الخليج، فكان يتعذر على المراكب المرور فيها مما يضطر التجار إلى نقل البضائع على ظهور الدواب إلى داخل المدينة، هذا ولم تقتصر مهمة الخليج على النزهة والصيد والتجارة، بل كان يمد المدينة بمياه النيل العذبة إلى جانب مياه الأمطار التى كانت تحفظ فى الصهاريج، وفى ذلك يقول الرحالة المعاصر أبو الحسن على الهروى القادم إليها من مدينة هراة بأفغانستان (توفى بحلب سنة ٦١٢هـ/١٢١٥م).

«ومن عجائب الخليج إذا زاد النيل، تبقى هذه المدينة كأنها قارورة قد وضعت على الماء، ولا يتبقى فيها دار إلا ويدخل إليها الماء الذى يحتاج إليه من زيادة النيل».

عاشرا : بعد وفاة صلاح الدين الأيوبى سنة ٥٨٩هـ/١١٩٣م، استمر أبناؤه وخلفاؤه من ملوك بنى أيوب يولون الاسكندرية عنايتهم ويحرصون على زيارتها والإشراف على شئونها، فالملك العزيز عثمان بن صلاح الدين يزورها مرتين، ويحرص مثل والده على حضور مجالس الحافظ السلفى والفقيه أبى طاهر بن عوف الزهرى. كذلك الملك العادل أخو صلاح الدين الذى زارها عدة مرات لمفاوضة تجار الفرنج وتشجيعهم على استثمار أموالهم فى الاسكندرية وسار على سياسته الملك الكامل محمد الذى زارها بعد وفاة أبيه العادل لترتيب أمورها. ولعل أهمية الاسكندرية تظهر بوضوح أواخر العصر الأيوبى عندما جاءت حملة لويس التاسع إلى مصر سنة ١٨٤٩م إذ يروى مؤرخ الحملة جوانفيل فى كتابه القديس لويس أن الملك الفرنسى حينما نزل دمياط عقد فيها مجلسا للتشاور حول أحسن طريق تسلكه الحملة، فأشار البعض بالذهاب إلى الاسكندرية لأنها مرفأ طيب يمكن أن تأوى إليه السفن، ويكون التموين فيه سهلا، ولكن الكونت دى أرتوا، أخو الملك، عارض هذا الرأى قائلا بضرورة الذهاب إلى القاهرة العاصمة، فمن يريد قتل الثعبان فليحطم رأسه أولا ووافق لويس التاسع على رأى أخيه. وهذا يدل على أن الاسكندرية كانت موضوع مفاضلة بينهما وبين العاصمة القاهرة ولقد اقترنت أحداث هذه الحملة بنهاية دولة الأيوبيين وقيام دولة مماليكهم الأتراك بعد قتلهم آخر ملوكها تورانشاه بن الصالح أيوب، وانتصارهم كذلك على الفرنسيين وطرد فلولهم من مصر سنة ٦٤٨هـ/١٢٥٠م.

ولا شك أن قيام الدول وسقوطها أمر طبيعى ـ كما يقول ابن خلدون ـ ولكن المهم ما تتركه من مآثر ايجابية أو سلبية للحكم عليها. والواقع أن الدولة الأيوبية تعتبر مثل سابقتها الفاطمية من الدول الايجابية الفعالة التى قامت بجليل الأعمال، وفى عهدها ازدهرت مدينة الاسكندرية فى مختلف الميادين السياسية والحضارية ولهذا خلدها التاريخ.

تاريخ الإسكندرية
فى عصر دولتى المماليك

أ.د. السيد عبد العزيز سالم

أولاً : تاريخ الإسكندرية فى عصر دولة المماليك البحرية

يعتبر عصر دولة المماليك البحرية العصر الذهبى لمدينة الإسكندرية فقد بلغت فيه ذروة تقدمها العمرانى نتيجة للنهضة الاقتصادية التى لم تشهدها المدينة فى عصر من عصورها الإسلامية السابقة، ونتيجة للاهتمام الكبير الذى أولاها إياه الملوك والسلاطين بعد أن أصبحت محط أنظار العالم، خاصة بعد أن فقدت مدينة دمياط أهميتها الحربية والاقتصادية بتهديم أسوارها وبردم فم بحرها والقضاء عليها كثغر تدخله السفن التجارية، وبذلك أصبحت مدينة الإسكندرية أهم ثغور مصر قاطبة، وأعظم مركز تجارى فى العالم الإسلامى، وهذا هو السبب الذى حظيت من أجله بعناية السلاطين، فزودوها بالقلاع والتحصينات ثم حولها السلطان الأشرف شعبان إلى دار نيابة بعد أن غزاها بطرس دى لوزنيان غزوته المعروفة بغزوة القبارصة، فى ٢١ من المحرم سنة ٧٦٧هـ ، نسبة إلى جزيرة قبرص التى استقرت فيها بقايا العناصر الصليبية منذ عام ١٢٩١م، واتخذوها قاعدة لهم لتنفيذ سياستهم العدوانية ضد المماليك فى مصر والشام.

وكان يتولى أمر الإسكندرية فى عصر دولة المماليك البحرية ولاة من أمراء الطبلخانة؛ فلما كانت سنة ٧٦٧ هـ (١٣٦٥م) التى هوجمت فيها الإسكندرية بحرا، حول السلطان الأشرف شعبان ولايتها إلى نيابة، باعتبار الإسكندرية أهم ثغور مصر التجارية، فأصبح يتولى شئونها نائب يختار من أمراء المئين، وهكذا انفردت الإسكندرية بالمكانة الأولى بين سائر ثغور مصر، وتدفقت عليها الثروات الضخمة من التجارة الشرقية والغربية، وقد كان لذلك أثره فى ازدهار عمرانها وتقدمه تقدما يشهد به الرحالة المسلمون والمسيحيون على السواء ممن زاروا المدينة فى هذا العصر، فقد مدحها ابن بطوطة بقوله:

« هى الثغر المحروس ، والقطر المأنوس، العجيبة الشأن، والأصيلة البنيان بها ما شئت من تحسين وتحصين، ومآثر دنيا ودين، كرمت مغانيها، ولطفت معانيها وجمعت بين الضخامة والأحكام مبانيها، فهى الفريدة تجلى سناها، والخريدة تجلى فى حلاها، الزاهية بجمال المغرب، الجامعة لمفترق المحاسن لتوسطها بين المشرق والمغرب، فكل بديعة بها اجتلاؤها، وكل طرفة فإليها انتهاؤها، وقد وصفها الناس فأطنبوا، وصنفوا فى عجائبها فأغربوا».

وليس أدل على ازدهار العمران السكندرى فى هذا العصر من كثرة المنشآت المعمارية وتنوعها، وهى منشآت تتفق من جهة مع الانتعاش الاقتصادى الذى أصاب المدينة بسبب تحول طرق التجارة إليها، مثل الفنادق، والوكالات، ودور الصناعة، وتعكس من جهة أخرى روح الجهاد التى سادت المدينة فى هذا العصر، مثل الحصون، والمساجد، والأربطة والخوانق، وتدل من جهة ثالثة على تألق الحركة العلمية، مثل دور الحديث التى كانت فى الحق مدارس لتدريس الفقه والتفسير والحديث والأصول. ويرجع سبب انتعاش الإسكندرية اقتصاديا إلى الرسوم الباهظة التى فرضتها الدولة على السلع والمتاجر التى يأتى بها التجار الأفرنج.

وقد حاولت البابوية أن تتدخل دينيا لدى الدول الأوروبية عقب سقوط مدينة عكا فى أيدى المماليك، لقطع

كل علاقاتها التجارية مع مصر، حتى تقضى بذلك على أهم مواردها المالية، فحرمت بيع أى شيء للعرب قابل لأن يكون أداة لتسليح المسلمين وتفوقهم الحربى كالخشب والحديد وهما مادتان لازمتان لصناعة السفن وآلات الحرب، غير أن هذه المحاولات التى قام بها البابوات بقصد حرمان السلطان من الموارد المالية التى يجنيها من التجارة الغربية لم تلبث أن باءت بالفشل، لأن الدول والجمهوريات الأوروبية التى تتعامل مع مصر لم تكن تستطيع الاستغناء عن حاصلات الشرق التى تأتى عن طريق واحد هو طريق الإسكندرية. وظلت هذه الدول تعمل على كسب مودة سلاطين مصر بكافة السبل، وعقد أكثر المعاهدات التجارية فائدة، وأبعدها أثرا، وحرصت هذه الدول على أن يمثلها فى الإسكندرية قناصل يرعون شئون تجارتها، كما أقامت لها فى الثغر السكندرى فنادق خاصة بهؤلاء التجار. ورغم أن القرارات البابوية التى كانت تقضى بتحريم التعامل التجارى مع مصر قد وجدت لها أصداء، فإن مدينة الإسكندرية لم تفقد فى هذه الفترة المضطربة على الإطلاق أهميتها التجارية التى أهلها لها موقعها الجغرافى العظيم. وتشهد تقارير قناصل أوروبا فى الإسكندرية على كثرة التجار الأجانب فى الإسكندرية وكثرة فنادقهم فى هذه المدينة. وأخذت السفارات الأوروبية إلى سلاطين مصر تزداد عدداً، فكانت هناك سفارات بعثها ملك أرغون وملك قشتالة وملك فرنسا، وجمهوريات البندقية وجنوة، وامبراطورية بيزنطة، وملك البلغار ووادى الفولجا.

أما عن تقدم الحركة العلمية فى هذا العصر فقد تحقق بفضل توافد العلماء المسلمين من مشارق الأرض ومغاربها إليها منذ أواخر العصر الفاطمى كما كان لإنشاء دار المغاربة ومدرستهم أيام صلاح الدين أثر كبير فى وفود جمهور كبير من علماء المغرب والأندلس إلى هذا الثغر ونخص بالذكر منهم جماعة مازالت أسماؤهم تطلق على أحياء الإسكندرية أمثال أبو عبد الله محمد بن سليمان المعافرى الشاطبى (توفى سنة ٦٦٢هـ) وأبو العباس أحمد بن عمر بن محمد الأنصارى المرسى (المتوفى سنة ٦٨٦هـ).

ويرجع الفضل فى ازدهار الإسكندرية وتألقها فى عصر دولة المماليك البحرية إلى ثلاثة سلاطين هم : الظاهر بيبرس، والناصر محمد بن قلاوون، والأشرف شعبان.

كان الظاهر بيبرس أول من اهتم بالإسكندرية من سلاطين المماليك البحرية، فقد زارها أربع مرات، وكان يترك فيها من الأثر كل مرة مايَنوه به المؤرخون وما يتناولوه بالذكر، ففى الزيارة الأولى سنة ٦٦٠ هـ، أمر بكسوة الجامع الغربى وعمل قناديله وعمارته من ماله الخاص، كما انتهز فرصة وجوده بهذه المدينة وقام بزيارة شيخين من كبار الزهاد والصوفية فى الإسكندرية، الأول الشيخ أبو القاسم بن منصور بن يحيى المالكى السكندرى المعروف بالقبارى، (المتوفى سنة ٦٦٢هـ) الذى نصحه بضرورة تحصين الثغر وترميم أسواره. والثانى الشيخ أبو عبد الله محمد بن سليمان المعافرى الشاطبى (المتوفى سنة ٦٧٢هـ). وفى الزيارة الثانية سنة ٦٦٤هـ أمر بيبرس بتطهير خليج الإسكندرية من الرواسب الرملية التى أخذت تطمر فوهته، وتعوق مجراه.. وفى الزيارة الثالثة سنة ٦٦٨هـ اهتم بيبرس بأمر الشوانى وأمر بنصب مائة منجنيق على أسوار الإسكندرية استعدادا لتلقى الصليبيين بقيادة لويس التاسع ملك فرنسا (ريد فرانس) إذ بلغه تأهبهم لغزو مصر من الإسكندرية. غير أن هذه الحملة التى كانت موجهة إلى مصر تحولت إلى تونس فى عهد المستنصر الحفصى.

وفى الزيارة الرابعة سنة ٦٧٢هـ قام بترميم منار الإسكندرية إذ اتفق أن تداعى بعض أركان من هذا المنار وسقط جانب من واجهته البحرية كما تهدم جزء من الرصيف الذى يمتد لصق قاعدة المنار من جهة البحر، فأمر بترميم ما تهدم، ويبدو أن المسجد الذى كان ابن طولون قد أقامه بأعلى المنار، وشاهده ابن جبير

ند زيارته للاسكندرية فى أيام صلاح الدين. ثم جدده الملك الكامل، يبدو أن هذا المسجد قد تهدم مع ما تهدم ن المنار، فأمر بيبرس بإنشاء مسجد مكان القبة القديمة.

وواصل السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون سياسة الظاهر بيبرس فى العناية بثغر الإسكندرية، فقد حدث فى ولايته الثانية (٦٩٨ - ٧٠٨هـ) زلزال عنيف سنة ٧٠٢هـ أصاب عددا كبيرا من آثار الثغر، وأهمها منار الإسكندرية وسورها وحصونها، فتهدم من السور ٤٦ بدنة و١٧ برجا، فكتب السلطان إلى والى الإسكندرية بعمارتها سنة ٧٠٣هـ (١٣٠٣م) كذلك تم ترميم المنار على يدى الأمير ركن الدين بيبرس الجاشنكير، ويبدو أن إصابة المنار كانت بالغة بحيث لم تفده أعمال الترميم، فسقط جانب منه. ويدل على ذلك ما ذكره ابن بطوطه فى رحلته سنة ٧٢٥هـ (١٣٢٥م)، إذ أشار إلى أنه رأى أحد جوانبه متهدما، ولما زاره بعد ذلك بخمس وعشرين سنة، (سنة ٧٥٠ - ١٣٥٠م) رآه (وقد استولى عليه الخراب بحيث لايمكن دخوله ولا الصعود إلى بابه). وكذلك أشار السيوطى إلى تخريب المنار فى عهد الناصر محمد بن قلاوون. ويعلل ابن بطوطة سبب إهمال الناصر فى ترميم المنار بأنه شرع فى بناء منار مثله بإزائه، فعاقه الموت عن إتمامه، ويقع هذا المنار الجديد فى نهاية الصخور المتصلة برأس السلسلة، ولم تقتصر أعمال الناصر محمد على ماسبق ذكره، فقد اهتم أيضا بإعادة حفر خليج الإسكندرية سنة ٧١٠هـ بعد أن طمرت الترعة القديمة بالرمال، وتفصيل ذلك حسبما يروية المقريزى، أن الأمير بدر الدين بكتوت الخازندارى المعروف بأمير شكار، متولى الإسكندرية، قدم إلى قلعة الجبل وقابل السلطان، أغراه بحفر خليج الإسكندرية، (وذكر له ما فى ذلك من المنافع **أولها** حمل الغلال وأصناف المتجر إلى الإسكندرية فى المراكب، وفى ذلك توفير الكلف، وزيادة فى مال الديوان، **وثانيها** عمارة ما على حافتى الخليج من الأراضى بإنشاء الضياع والسواقى فينمو الخراج بهذا نموا كثيرا، **وثالثها** انتفاع الناس فى عمارة بساتينهم وشرب مائه، فأعجب السلطان ذلك، وندب الأمير بدر الدين محمد بن كندعدى ابن الوزيرى مع بكتوت لعمله).

ثم أمر السلطان بإحضار المتولين للحفر، وكتب لولاة الأعمال بالوقوف فى العمل فسخروا لذلك نحو ٤٠ ألف رجل، ثم وصل مجراه بفرع رشيد. فعظم به النفع واستغنى أهل الإسكندرية عن شرب ماء الصهاريج، وبادروا بالعمارة على جانبى الخليج، فلم يمض غير قليل حتى استجد على جانبى الخليج (مايزيد على مائة ألف فدان زرعت بعدما كانت سباخا وما ينيف على ستمائة ساقية برسم القلقاس والنيلة والسمسم، وفوق الأربعين ضيعة، وأزيد من ألف غيط بالإسكندرية، وعمرت منه عدة بلاد كثيرة وتحول عالم عظيم إلى سكنى ما استجد عليه). وأقام بكتوت الأرصفة على ضفتى مجرى هذا الخليج ودك أساسه بالحجر والرصاص، ثم أقام على الخليج ثلاثين قنطرة، وشيد خانا ينزل فيه الناس، وقد استعان فى كل ذلك بحجارة قصر قديم كان يقع بظاهر الإسكندرية، ولعله القصر المعروف قديما بالقصر الفارسى، هذا بالإضافة إلى ماوجده من الرصاص فى قناة بأسفل هذا القصر تنتهى إلى قرب البحر. ونلاحظ أن هذا الخليج السكندرى ظل يعمل حتى سنة ٧٧٠هـ، ثم انقطعت مياهه، وانطمر بالرمال، فتلفت أكثر بساتين الإسكندرية، وخربت، وتلاشى كثير من القرى التى كانت قائمة على ضفتى خليج الإسكندرية. وفى المحرم سنة ٧٦٧هـ تعرضت الإسكندرية لغزوة بحرية قام بها القبارصة بقيادة بيير دى لوزنيان الذى يسميه محمد بن قاسم بن محمد النويرى الاسكندرى صاحب كتاب (الإلمام بالإعلام فيما جرت به الأحكام فى الأمور المقضية فى واقعة الإسكندرية) باسم ربير بطرس صاحب قبرص (ووقعت هذه الغزوة فى عهد السلطان الملك الأشرف أبو المعالى زين الدين شعبان بن حسين (٧٦٤ - ٧٧٨هـ/ ١٣٦٣ - ١٣٧٦هـ)، وكان غلاما فى الحادية عشرة من عمره، وتفاصيل هذه الغزوة أن سفن

بطرس دى لوزينان أقبلت إلى مياه الإسكندرية فى ٢١ من المحرم سنة ٧٦٧هـ (أكتوبر ١٧٦٥م) فظن أهالى الإسكندرية بادىء ذى بدء أنها قافلة تجارية من سفن البنادقة، ولم يدركوا إلا بعد فوات الأوان أنها سفنا صليبية، واقتحم القبارصة أسوار المدينة من جهة الميناء، وتدفقوا فى قلب المدينة، واحتلوها بضعة أيام، أطلقوا خلالها يد النهب والسلب فيها، وهدموا الدور والفنادق والقصور، ولكنهم لم يمسوا المساجد خوفا من أن ينتقم المسلمون بعد ذلك بإحراق الكنائس ولذلك عنى الأشرف شعبان بتحصين الإسكندرية وترميم أسوارها وإصلاح ماتخرب من منشآتها، بعد أن أصبحت مطمع الصليبيين، وكانت غزوة القبارصة تجربة قاسية مريرة، لم ينسها المماليك وازدادت أهمية الإسكندرية فى أنظارهم، وأول ما عمله الأشرف شعبان فى هذا السبيل، أن حول ولايتها إلى نيابه، أي أن يقوم بشئونها نائب عنه ينفرد بحكمها، ويكرس جهوده لتحصينها، والإشراف على الدفاع عنها، وهكذا اكتسبت الإسكندرية أهمية فوق أهميتها، وأصبحت العاصمة الثانية لمصر، واهتم نائبها بإصلاح ما تخرب من منشآتها بسبب غزوة القبارصة، فرمم أسوارها وأعاد تنظيمها مدنيا وحربيا، ورأى الأشرف شعبان مبالغة منه فى الاهتمام بالمدينة أن يزورها بعد أن قارب سن البلوغ، فقام بهذه الزيارة سنة ٧٧٠هـ (١٣٦٨ - ١٣٦٩م) وتفقد تحصيناتها وأسوارها وخنادقها، ولقد احتفظ النويرى بوصف رائع لهذه الزيارة وهو وصف تفصيلى يتضمن بيانات قيمة عن طبوغرافية المدينة وأهم منشآتها فى ذلك الوقت، فيقول : (وفى يوم الجمعة الرابع من جمادى الأولى سنة سبعين وسبعمائة دخل السلطان الملك الأشرف شعبان بن الحسين بن الملك الناصر محمد بن الملك المنصور قلاوون ثغر الإسكندرية المحروس.

وكان دخوله من باب رشيد فى ضحى نهار اليوم المذكور بعد أن تقدمته البزادرة بالبزاة والصقور والشواهين والعقبان، يتقدمها باز أشهب يساوى بدرة ذهب، يعقبها كلاب الصيد، عليها أحلة الحرير المطرزة بطرز الذهب، يتبعها الفهود التى أعينها كنار الوقود، فسار بالمحجة العظمى... إلى مسجد أبى الأشهب فعطف عطفته، ومر على دار ابن الجياب إلى جفار القصارين، إلى الصادر ، إلى أن خرج من باب البحر الذى يلى البلد، فنثر عليه مقابل دار الطراز دنانير كثيرة التقطها الناس، ثم سار وخرج من باب البحر الثانى ثم الثالث، فشاهد البحر الملح والميناء بها مراكب الفرنج. وفى ذلك اليوم لم يبق بالإسكندرية أفرنجيا، تاجرا ولاعلجا ولاغلاما إلا وتحصن بالمراكب خوفا من السلطان، ثم إن السلطان شاهد قلاع السور وأبراجه التى تلى البحر مزينة بالعديد من الأسلحة والأتراس والشطافات الحرير الملونة، والأعلام التى تخفق بالرياح، تبتهج لرؤيتها الأبصار، وترتاح الأرواح، ثم إن السلطان شاهد المكان الذى صعدت منه العلوج السور، والخندق الجديد الذى أنشأه الأمير صلاح الدين بن عرام مكان صعودهم، ولم يكن قبل ذلك المكان خندقا، بل كان الإنسان يأتى ماشيا إلى أن يلتصق بالسور، ثم شاهد أيضا الخندق الغربى المتجدد خلف الباب الأخضر والمعروف بالمطرق ثم إنه دخل الإسكندرية من الباب الأخضر، وسار إلى أن اجتاز بضريح الشيخ الصالح الفقيه العالم العلامه أبو بكر الطرطوشى، ثم منه إلى رحبة الجامع الغربى إلى دار السلطان المجاورة له، وقد امتلأت الطرقات بالناس يدعون له كبيرهم وصغيرهم، ذكرهم وأنثاهم فلما كان بعد صلاة الجمعة، ركب وفتح له الباب الأول والثانى مما يلى البلد، وسار به وزيره سيف الدين الأكز، المتقدم ذكر ولايته بالإسكندرية بين السورين إلى أن أتى به دار الطراز، فترجل، ودخلها صاعدا سلمها إلى أن أتى مواضع أنوالها واستعمالاتها، فرأى كل صانع ينسج على منواله من أصناف الأقمشة المنمقة والبدلات المطبقة المتخذة لحريم السلطان المختلفة الألوان. ثم إن السلطان خرج من دار الطراز وأتى دار الصناعة، فرأى ما فيها من الشوانى الغزواتية والمجانيق الشيطانية، فرموا بها قدامه، فاستحسن رميها، ورجع من بين السورين، إلى أن دخل الإسكندرية

من الباب الأخضر، وسار إلى قصر السلاح فدخله، وشاهد ما فيه من الأسلحة الكبيرة المدخرة من عهد الملوك السالفة، بقاعات القصر المذكور. فرسم بأن يعمل له به أيضا قاعة سلاح تسمى به كما سميت قاعة الملوك بهم، فبنيت، وجعل له فيها من السلاح الجديد شيء كثير، فكان عمله لذلك حسنة كاملة ونعمة شاملة ..).

وقد أفدنا من وصف النويرى السابق لموكب السلطان الأشرف شعبان وذكر زياراته التى قام بها بالإسكندرية فى تحديد بعض المعالم البارزة فى المدينة ومعظمها المبانى التى كانت قائمة وقتئذ قريبا من الباب الأخضر، أو باب القرافة الغربى، مثل قصر السلاح ومسجده الملحق به، وكان هذا القصر يتألف من قاعات كثيرة مملوءة بالعدد والأسلحة، ومثل ضريح الشيخ أبوبكر الطرطوشى المتوفى سنة ٥٢٠هـ ويقع قريبا من رحبة الجامع الغربى ومثل دار السلطان وتقع بالقرب من الجامع المذكور.

وهذا القصر السلطانى كان يحتوى وفقا لما ذكره غرس الدين خليل بن شاهين الظاهرى على دور منسقة (وهى عجيبة من عجائب الدنيا، وبها دار عظيمة وبها تخت الملك، وقيل أنه لم تعمر دار وسعها، أنشأها فى الأصل المقوقس ثم بعده جوهر الموتفكى، ثم بعده صلاح الدين بن أيوب، ثم بعده الملك الناصر فرج بن برقوق، وبها من الأعمدة الرخام الملونة. والقياع المفروشة بالرخام الملون، والأماكن المزخرفة، والبساتين الحسنة، ما يطول شرح وصفه، وهى مشرفة على البحر المحيط لايسكنها إلا السلاطين خاصة).

ثانياً : تاريخ الإسكندرية فى عصر دولة المماليك الشراكسة

نالت الإسكندرية نصيبا وافرا من عناية سلاطين المماليك الشراكسة وأولهم السلطان الناصر فرج بن برقوق الذى زارها فى ١٨ شوال سنة ٨١٤هـ (١٤١١م) فأوكب بها موكبا حافلا وصفه المؤرخ المصرى ابن إياس فى كتابه بدائع الزهور. أما الأشرف برسباى فقد اهتم بالإسكندرية اهتماما كبيرا فقد كان الخليج الناصرى قد انقطع الماء عنه، وصار لايدخل إليه إلا فى أيام الفيضان فقط، ثم يجف عنه عند انخفاض مياه النيل، ولذلك تحولت كثير من بساتين الإسكندرية منذ سنة ٧٧٠هـ (١٣٦٨م) إلى أرض جدباء، كما خربت كثير من القرى التى كانت تحف بضفتى الخليج فلما كانت أيام الأشرف برسباى، انتدب لحفره الأمير جرباش الكريمى المعروف بعاشق، فتوجه إليه فى حشد من العمال بلغ عددهم نحو ٨٧٥ رجلا، فشرع فى حفره فى ١١ جمادى الأولى سنة ٨٢٦هـ (٢٢ أبريل سنة ١٤٢٣م)، واستمر العمل فيه زهاء تسعين يوما، وتم حفره فى ١١ شعبان سنة ٨٢٦هـ (٢٠ يوليو سنة ١٤٢٣م) وسميت الترعة الجديدة باسم الأشرفية تيمنا باسم هذا السلطان. إلا أن جريان الماء فى هذه الترعة لم يستمر طويلا، فلم يلبث أن انطمر بالرمال، وتعذر سلوك الخليج بالمراكب.

وشهدت الإسكندرية فى عصر الملك الأشرف أبو النصر قايتباى رخاء أشبه شيء بشفق المغيب، فقد أصبحت الإسكندرية سوقا تتكدس فيه حاصلات الشرق بكميات هائلة، ومركزا تتبادل فيه البضائع الشرقية والغربية، وكانت السفن تفد إلى الميناء فى قوافل، كل قافلة تتكون عادة من ثمان سفن أو أكثر فتفرغ شحناتها فى الصادر، ثم توزع على التجار بعد أن يقوموا بدفع ما يفرضه عليهم نائب الإسكندرية، وينتقل التجار بعد ذلك إلى فنادقهم الخاصة بهم. وكانت الفنادق التجارية إذ ذاك أبنية ضخمة مربعة الشكل، تشبه الحصون، ويشغل الطابق الأرضى حوانيت تتوزع حول الصحن المركزى، وتحيط به حدائق مفروشة بأنواع الأشجار الغربية. وكانت الفنادق ملكا للدولة، وضعتها تحت تصرف التجار الأجانب، وكان لايسمح للنزلاء الأجانب بالخروج ليلا من هذه الفنادق، كما كان محرما عليهم التجول فى الطرقات أثناء صلاة الجمعة، بل

كانوا يحبسون فى فنادقهم وقتا يطول أحيانا إلى ثلاث ساعات. وكانت الإسكندرية تضم عددا كبيرا من هذه الفنادق المخصصة للتجار الأجانب وللحجاج، فكان للبنادقة فندقان، وكان للجنوبيين فندق، وللفلورنسيين فندق، كما كانت هناك فنادق أخرى للتتار وللمورطانيين ولليونانيين وللأتراك وللفرنجة ولغيرهم.

وأثرى سلاطين المماليك الشراكسة ثراء فاحشا بسبب احتكارهم بيع التوابل والبهار على وجه الخصوص، وتحديد سعره وفقا لأهوائهم، وقد بلغت الاحتكارات ذروتها أيام الأشرف برسباى الذى أصدر فى عام ١٤٢٨م مرسوما حرم فيه شراء التوابل من غير مخازن السلطان، كما فرض رسوما باهظة على الواردات والصادرات، فارتفعت أسعار بعض السلع الشرقية ارتفاعا فاحشا، وكانت هذه الاحتكارات مثارا لسخط التجار الأجانب واستصراخهم للسلطان، فقد شكا التجار المغاربة للسلطان فرج بن برقوق من جور القباض، فأمر السلطان بإبطال ما كان يؤخذ منهم من المكوس المحدثة، كذلك احتج التجار البنادقة على الأشرف برسباى سنة ٨٣٦هـ عن طريق ممثلهم فى الإسكندرية، كما احتج تجار أرغونة وقشتالة وعمدوا إلى رفع أثمان السلع الأوروبية التى ترد إلى مصر، وهاجمت سفن أرغونة وقشتالة السفن المصرية عند سواحل الشام.

وهكذا عم الرخاء فى مصر إبان هذا القرن، وانعكس ذلك كله على العمران الاسكندرى، فحظيت المدينة بنصيب وافر من عناية سلاطين هذه الدولة، فزارها الملك الناصر فرج بن الظاهر برقوق سنة ٨١٤هـ، وزارها السلطان الأشرف قايتباى مرتين، الأولى فى ربيع أول سنة ٨٨٢هـ والثانية فى جمادى الأولى سنة ٨٨٤هـ وحظيت أخيراً بزيارة السلطان قنصوه الغورى فى ذى القعدة سنة ٩٢٠هـ. وقد ورد ذكر هذه الزيارات فى كتاب (بدائع الزهور فى وقائع الدهور) الذى ذكرناه آنفا. ففى زيارة قايتباى الأولى للاسكندرية يصف المؤرخ ابن إياس موكب السلطان ودخوله المدينة من باب رشيد وخروجه من باب البحر ونزوله بالمخيم السلطانى المنصوب هناك فى الأرض الفضاء المجاورة للساحل، فيقول (فلما وصل السلطان مدينة الإسكندرية زينت له زينة حافلة .. واستمر فى ذلك الموكب حتى خرج إلى باب البحر الذى هناك، فنزل بالمخيم الذى نصب له على ساحل البحر الملح وكانت العادة القديمة أن السلطان إذا دخل مدينة الإسكندرية تفك أبواب المدينة وتلقى على الأرض إلى حين يرحل السلطان عن المدينة، فلم يوافق السلطان قايتباى على فك أبواب المدينة، وأبقى كل شىء على حاله).

ثم يذكر ابن إياس أن السلطان قايتباى اختار موضع منار الإسكندرية القديم ليبنى عليه برجا عظيما، فيقول: (... ثم أنه توجه إلى نحو مكان المنار القديم الذى كان بثغر الإسكندرية، ورسم بأن يبنى على أساسه القديم، فبنى به برجا معظما، وهو الموجود الآن

وقد احتفل السلطان بعد ذلك بسنتين بإتمام بناء هذا البرج المعروف اليوم بقلعة قايتباى، فسافر إلى الإسكندرية للمرة الثانية (وكشف عن البرج الذى أنشأه بثغر الإسكندرية، مكان المنار القديم فجاء من محاسن الزمان ومن أعظم الأبنية وأجمل الآثار الحسنة).

وينعكس الرخاء الذى ساد مصر فى هذا العصر فى المنشآت العديدة التى أقيمت بالإسكندرية فمن أهم الأبنية الدينية، مسجد أبى العباس المرسى الذى أقيم خارج باب البحر بجوار ضريح هذا الشيخ سنة ٧٠٦هـ (١٣٠٧م) من مال كبير تجار الإسكندرية وقتئذ الشيخ زين الدين بن القطن، وقد جدد هذا المسجد عدة مرات فى سنة ١١٨٩هـ، ١٢٨٠هـ ثم أنشىء أخيرا فى عهد الملك السابق فؤاد مسجد جديد لأبى العباس المرسى كما أقيم بجواره عدة مساجد أخرى أهمها مسجد الشيخ ياقوت بن عبد الله الحبشى، والمعروف بياقوت العرش تلميذ أبى العباس، ومسجد الشيخ البوصيرى صاحب البردة. ومن أهم الأبنية الدينية الأربطة أمثال

مسجد رباط الواسطى، ورباط سوار، ورباط الهكارى. وكان رباط الواسطى يقع شرقى مسجد أبى العباس المرسى، وقد جدد هذا الرباط، وفقد معالمه القديمة وأصبح اليوم لايعدو زاوية صغيرة فى جهتها القبلية قبة صغيرة يتوسطها قبران، أمام الشرقى منهما لوح رخامى هو شاهد قبر للشيخ أطكين شهاب الدين بن نصر بن جعفر الواسطى المتوفى سنة ٦٧٢هـ. أما رباط سوار فقد أقام به الفقيه الزاهد محمد بن سليمان الشاطبى، وكان يقع خارج باب البحر، فلعله كان يقع قريبا من القبة القائمة اليوم فى منطقة الشاطبى بالإسكندرية. أما رباط الهكارى، فلانعرف عنه سوى أنه كان يقع خارج باب رشيد، وأن مؤسسه هو محمد بن زين الدين أبى المفاخر باخل بن عبد الله الهكارى.

كذلك أقيمت فى هذا العصر عدة دور للحديث أهمها دار الحديث التكريتية، ودار الحديث النبيهية، وتحتفظ الدار الأولى باللوحة التأسيسية ونصها: (بسم الله الرحمن الرحيم، وان المساجد لله فلاتدعو مع الله أحدا)، أوقف هذا المسجد المبارك ودار الحديث العبد الراجى رحمة ربه عبد اللطيف بن رشيد التكريتى لتلاوة الكتاب العزيز وقراءة الأحاديث النبوية، وطلب العلم الشريف على مذهب الإمام أبى عبد الله محمد بن إدريس الشافعى رحمة الله عليه فى شهر المحرم سنة ثمان وسبعون وستمائة وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه).

وفى أواخر القرن التاسع الهجرى، وقع حادث خطير كان له صدى عميق فى تاريخ مصر عامة، وتاريخ الإسكندرية خاصة، هو نجاح البرتغاليين فى كشف طريق رأس الرجاء الصالح، ففى سنة ٨٩٢هـ (١٤٧٨هـ) سار برتلميودياز بحذاء الساحل الغربى لإفريقيا متجها إلى الجنوب حتى وصل فى ديسمبر من هذا العام إلى الطرف الجنوبى للقارة، وأطلق على هذا الطرف اسم رأس الرجاء الصالح. ومنذ ذلك التاريخ بدأ عهد جديد فى تاريخ تجارة الشرق، إذ لم يكد ينتهى القرن الثامن الهجرى حتى عرف العالم الأوروبى سوقا تجارية جديدة تنافس السوق المصرية، فى رخص أسعار منتجاتها، ولم تلبث الدول الأوروبية التى كانت تتعامل مع مصر أن تحولت إلى السوق الأخرى، وأصيب الاقتصاد المصرى بسبب ذلك إصابة بالغة، وخسرت مصر خسائر فادحة نتيجة لتحكم الأسطول البرتغالى بقيادة فاسكو دى جاما فى الطريق التجارى القديم الذى يربط مصر بالهند، وذلك بمرابطته أمام مدخل البحر الأحمر ليحول دون خروج السفن المصرية نحو المحيط الهندى، وهكذا ضمن البرتغاليون لأنفسهم السيادة فى أسواق التوابل.

وظهر أثر هذا التدهور الاقتصادى فى العمران السكندرى، إذ تحولت بساتين الإسكندرية الخضراء إلى أرض قفراء، بسبب انقطاع مياه النيل عن الوصول إلى المدينة، وبسبب تحول عدد كبير من التجار الأجانب إلى السوق الأوروبية، فرارا من تعسف القباض ونواب السلطنة فى الثغر، وبسبب انتشار الأوبئة فى طليعة القرن العاشر الهجرى. ويبدو أن انتشار الأوبئة كان له أثر بالغ فى اضمحلال الإسكندرية ونقص عدد السكان، وتأخر العمران، وقد وصف السفير القشتالى بدرو مرتير ما أصاب الإسكندرية، وذكر أن الدور خلت من أصحابها، والشوارع أقفرت من السابلة، وانتشرت فيها الأنقاض والأتربة، وآل أمر الإسكندرية إلى الخراب.

وختم الفتح العثمانى لمصر نهاية هذه المأساة، وفقدت الإسكندرية مكانتها القديمة وانكمش عمرانها واقتصر على الرصيف الممتد من الشاطىء وجزيرة فاروس القديمة، أما القصبة فقد انحصرت إلى الداخل، وأصبحت تعرف بالمدينة العربية.

الإسكندرية
من الفتح العثمانى إلى نهاية عصر اسماعيل
(١٥١٧-١٨٧٩)

أ. د. عمر عبدالعزيز عمر

كانت مدينة الإسكندرية واحدة من أهم المدن المصرية، كما كانت مرآة أساسية انعكست عليها أحداث مصر فى العصر الحديث، وتشغل الإسكندرية من سجل تاريخها صفحات طوال. وقد شهدت الإسكندرية منذ إنشائها فترة طويلة من الازدهار والنمو والامتداد، ثم سارت بعدها بخطوات حثيثة نحو التدهور والاضمحلال حيث وصلت منذ الفتح العثمانى لمصر ١٥١٧ وحتى نهاية العشرينات من القرن التاسع عشر إلى ما يشبه المدينة المحتضرة. وقد قدر لمدينة الإسكندرية أن تبعث من جديد، وأن تنفض عنها غبار التخلف والخمول، وأن تنطلق فى سباق مع الزمن ابتداء من حكم محمد على ونهاية حكم اسماعيل عام ١٨٧٩، لتدرك مسيرة الحضارة فى العالم، التى كانت قد تجاوزتها بشوط بعيد.

وتعالج الصفحات التالية تاريخ مدينة الإسكندرية خلال الفترة، التي أقسمها إلى عدة مراحل لكل منها مايميزها، وذلك للتعرف على مظاهر التطور الاجتماعى والاقتصادى والعمرانى الذى حدث فى المدينة خلال القرن التاسع عشر، وهو ماأضفى عليها وضعاً متميزاً، وجعلها جديرة بالمتابعة والدراسة.

الإسكندرية فى العصر العثمانى (١٥١٧ – ١٧٩٨):

لقد اضمحلت الإسكندرية خلال العصر العثمانى، وأصبحت فى عداد القرى بعد فترة طويلة من الازدهار والعظمة، لا سيما خلال العصرين الأيوبى والمملوكى حيث كانت قاعدة مصر البحرية، ومركزها الصناعى والتجارى الأول، ومقصد العلماء والأدباء والفلاسفة. وما ينبغى توضيحه هنا هو تحديد بداية هذا الانهيار وأسبابه بعد أن كانت الإسكندرية أهم ثغور مصر الإسلامية منذ الفتح العربى حتي مجىء العثمانيين عام ١٥١٧، وأهم مركز فى مصر لتصدير التوابل، وهى تجارة مصر الأولى مع أوروبا المسيحية التى اعتمد عليها سلاطين المماليك فى تنمية موارد الدولة. ولقد بدأت معالم التدهور والاضمحلال فى حياة الإسكندرية الاقتصادية تظهر فى عهد الأشرف برسباى (١٤٢٢ – ١٤٣٨)، ويرجع ذلك – فى حقيقة الأمر – إلى وقعة القبارصة (١٣٦٥) التى تسببت فى تدمير المدينة وتخريب عمرانها. وإذا كانت غزوة القبارصة بالغة الأثر فى تاريخ المدينة وعمرانها، فإن اكتشاف البرتغاليين طريق رأس الرجاء الصالح عام ١٤٩٨ كان بمثابة ضربة قوية أصابت كيان الاقتصاد المصرى، ففقدت المدينة بذلك أهميتها التجارية، وانقطعت الصلة بينها وبين أوروبا والعالم الخارجى.

وليس من الإنصاف القول أن تدهور الإسكندرية جاء على يد العثمانيين، وإنما بدأت المدينة تشهد الخراب والتأخر فى أواخر العصر المملوكى، وخير دليل على ذلك وصف المؤرخ ابن إياس لزيارة السلطان قنصوه الغورى للاسكندرية فى يناير عام١٥١٥، أى قبل الفتح العثمانى بعامين، ويؤكد هذا الوصف ما وصلت اليه المدينة من تأخر وخراب. ولم يلبث هذا الاضمحلال والانكماش أن بلغ أشده عندما فقدت مصر استقلالها، وتحولت إلى مجرد ولاية تابعة للدولة العثمانية عام ١٥١٧. ولقد شاركت الإسكندرية فى حركة المقاومة ضد العثمانيين، فكانت تزود طومان باى بالزرد والسلاح ما بين نشاب وقسى وبارود، ويذكر ابن اياس أن السلطان سليم الأول عندما توجه إلى ثغر الإسكندرية «احتوى على السلاح الذى كان بالأبراج أخذها جميعا».

وفى بداية عهد الاحتلال العثمانى، رسم بيرى رئيس - أحد أمراء البحر العثمانيين فى عهد السلطان سليمان القانونى - خريطة واقعية للمدينة، ففى داخل سور المدينة، نرى المسجدين الجامعين، حيث أدى السلطان سليم

الأول صلاة الجمعة فى الجامع الغربى فى يوم الجمعة الموافق ٦ يونيو؛ كما نرى مرتفعين على بعد قريب من باب البحر. أما فى شرق المدينة عند باب رشيد، فنرى بعض المنازل التى كانت لاتزال قائمة، وما دون ذلك فهو خراب.
ولقد استمرت هجرة سكان المدينة خلال العصر العثمانى حتى أصبحت أسوار المدينة العربية على ضيقها بالنسبة لأسوار المدينة الأصلية فى عصر البطالسة أوسع مما يلزم، واكتفى السكان الباقون بالإقامة على الرقبة التى تكونت حول «الهيبتاستاد» بين الميناء الشرقية والميناء الغربية، وسميت هذه المنطقة بالمدينة التركية.

وفى الواقع كانت المدينة التركية عبارة عن بضعة صفوف من المنازل تتخللها بعض الجوامع الصغيرة، وهكذا انحصر عمران الإسكندرية إبان العصر العثمانى فى المنطقة الواقعة خارج باب البحر المؤدية إلى شبه الجزيرة، وبينما كانت هذه المنطقة تعمر بالمبانى الجديدة لتصبح المركز العمرانى الجديد لثغر الإسكندرية، وتحل محل القصبة التى أصبحت تعرف باسم المدينة العربية، اقتصر العمران داخل الأسوار إبان القرن السابع عشر الميلادى على عدة فنادق كان يستخدمها التجار لنزولهم ولخزن متاجرهم، بالإضافة إلى كنيستين وعدة أديرة ومساجد؛ غير أن هذه الخانات والفنادق لم تلبث أن تلاشت فى القرن الثامن عشر ولم يعد لها وجود. وظلت الإسكندرية تسير نحو التأخر والاضمحلال بخطى سريعة، وقل سكانها حتى أصبحت ـ كما صورها الرحالة الأوروبيون الذين زاروا مصر فى القرن الثامن عشر ـ قرية صغيرة تقيم فيها حامية ضعيفة، قليل عددها، لاتستطيع أن ترد عنها أى معتد ذى قوة.

ومنذ عام ١٥١٧، اهتم العثمانيون بالثغور المصرية، وحرص السلطان على إخضاع ثغور دمياط والإسكندرية والسويس لسلطته المباشرة، وأخرج إدارتها عن النطاق المحلى، وجعل أمر تعيين القبودانات الثلاثة، قباطين تلك الثغور، بقرار مباشر من الباب العالى. وكان أهم القبودانات هو قبودان الإسكندرية، الذى كان يقوم بإمداد الأسطول العثمانى بأربع قطع بحرية فى حالة تواجده فى شرق البحر المتوسط، وست قطع بحرية فى قيامه بحملات بحرية فى غرب البحر المتوسط، وحماية السفن المصرية المرسلة إلى استانبول تحمل الجزية والقمح. ولكن بعد عام ١٧٥٧، استطاع بكوات المماليك شغل مناصب صنجق الإسكندرية ودمياط كدليل على ضعف السيطرة العثمانية على مصر.

ويبدو أن التدهور الذى أصاب المدن المصرية فى العصر العثمانى كان عاما، فقد تحولت الإسكندرية من مدينة زاهرة إلى قرية لا يكاد يبلغ سكانها ١٠,٠٠٠ نسمة؛ ورغم الاضمحلال الذى أصاب الإسكندرية، فقد بقيت فيها بعض الصناعات المحلية القليلة مثل صناعة المنسوجات الحريرية التى اشتهرت بها قبل العصر العثمانى، كما استمرت بها صناعة ونسج الملابس المغربية، وصناعة الملابس الصوفية التى استخدمها البدو فى الصحراء الغربية، وصناعة الصابون، وصناعة النبيذ المستخرج من الكروم، وصناعة الكبريت ودبغ الجلود، وصناعة السفن. ونخلص من هذا إلى القول بأن الصناعة فى الإسكندرية فى العصر العثمانى اقتصرت على بعض الحرف الضرورية للاستهلاك المحلى، وكانت فى جملتها حرفا يدوية.

وفى مجال التجارة لم تكن الإسكندرية أحسن حالا بعد اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح، وتحول أساطيل أوروبا التجارية عن البحر المتوسط إلى المحيط الأطلنطى. وقد حاول السلطان سليم الأول استعادة مركز مصر فى التجارة الشرقية، فعقد فى ١٤ فبراير عام ١٥١٧ معاهدة مع جمهورية البندقية أقر لهم فيها الامتيازات والتسهيلات التى كانوا يتمتعون بها فى عهد المماليك بشأن تجارتهم فى الإسكندرية. وعلى الرغم من أن العثمانيين تركوا ثغر الإسكندرية مفتوحا للبنادقة، إلا أن الاضمحلال السريع لهذه السوق لم يكن منه بد، فمنذ منتصف القرن السادس عشر لم يبق لجمهورية البندقية فى الإسكندرية سوى نائب قنصل. وكانت بضائع تجار البندقية تفرغ فى مخازن الإسكندرية حتى يصل تجار القاهرة لشرائها؛ وكان يصل ميناء الإسكندرية عادة كل عام حوالى ست أو سبع سفن بندقية، ولذلك وجدت فى المدينة بيوتات تجارية بندقية وتسكانية. أما الواردات والصادرات فقد خضعت لإشراف جمرك الإسكندرية الذى طبق عليه نظام الالتزام، حيث كانت رسومه تباع إلى الملتزمين الذين أشرفوا على تحصيل الرسوم الجمركية وتوريدها إلى خزينة الروزنامة، مع أخذ قيمة معينة من المال نظير ذلك.

ومن خلال العرض السابق لأوضاع المدينة الاقتصادية، وأحوال المعيشة فيها، يمكن الاستدلال على الفئات المكونة لمجتمع الإسكندرية خلال العصر العثماني، فكان يعيش في المدينة بعض الحرفيين، والتجار، وأفراد الحامية، وأهل الذمة، والبدو، وبعض رجال الدين من أئمة المساجد والقضاة والمفتين، وأفراد الجالية المغربية، والشوام، وبعض الأجانب. ولا نستطيع القول أنه قد ظهر في الإسكندرية في تلك الفترة عدد كبير من العلماء البارزين، بل إن بعض علماء الإسكندرية كانوا يذهبون سنويا إلى القاهرة للتدريس بالأزهر، وتمدنا وثائق سجلات محكمة الإسكندرية الشرعية، خلال العصر العثماني، بأسماء بعض العلماء والمدرسين والكتاب الذين استفاد منهم الطلاب من أبناء الإسكندرية، نذكر منهم الكاتب البليغ محمد أفندي بن اسماعيل الإسكندري، الذي كان يجيد التحدث باللغة العربية والفارسية والتركية، والفقية الأديب أحمد بن عبدالله بن سلام الإدكاوي. ومما لا شك فيه أن العلماء بمدينة الإسكندرية قد لعبوا دورا هاما في مجال المحافظة على التراث الإسلامي واللغة العربية، وقاموا بدور الوساطة بين الهيئة الحاكمة والمحكومين، ولم يكونوا رجال كهنوت منعزلين عن الحياة العامة.

وقد عاني مجتمع الإسكندرية مثلما عانت بقية أجزاء مصر من تضاؤل سلطة الدولة العثمانية في البلاد، التي أصبحت مجرد سلطة شكلية في النصف الثاني من القرن الثامن عشر. ويشير الجبرتي في «عجائب الآثار» إلى القلاقل والاضطرابات وأحداث الشغب التي وقعت في المدينة عام ١٧٨٤ بسبب قتيل اتهم بعض أتباع السردار بقتله، فقبضوا على الأخير «... وأهانوه، وجرسوه على حمار، وحلقوا نصف لحيته، وطافوا به البلد، وهو مكشوف الرأس، وهم يضربونه، ويصفعونه بالنعالات». ومما يذكر في هذا المجال أن سوق الحكام المكروهين على حمير في شوارع الإسكندرية وإهاناتهم على هذا النحو إنما كانت من الطقوس التقليدية المصاحبة لفتن الإسكندرية وثوراتها في العصر اليوناني. ولم يسلم مجتمع الإسكندرية زمن حكم مراد بك وابراهيم بك - أي في السنوات السابقة على الحملة الفرنسية مباشرة - من أعمال السلب والنهب والعنف والقمع والظلم والاضطهاد التي مارسها هذان المملوكان.

الإسكندرية من الحملة الفرنسية حتى عام ١٨٠٧:

في عام ١٧٩٨ تلقت الإسكندرية الصدمة الأولى التي أحدثها نزول قوات نابليون بونابرت أرضها لاحتلال مصر وتحويلها إلى مستعمرة فرنسية، وقبل وصول الفرنسيين، رفض أهل الإسكندرية السماح لقوة بريطانية بقيادة نلسون بالبقاء في ثغرهم لأنها «بلاد السلطان» ومنذ اللحظة الأولى التي هبطت فيها أقدام الفرنسيين ثغر الإسكندرية في أول يوليو، حصن الاسكندريون أسوار مدينتهم، وزودوا قلاعها بالإمدادات والذخائر، ونصبوا المدافع القديمة على أسوار المدينة استعدادا لملاقاة العدو. ولما تمكن الفرنسيون من اقتحام أسوار المدينة «رجع أهل الثغر إلى التترس في البيوت والحيطان»، وبادر السيد محمد كريم، حاكم الإسكندرية، إلى إخبار مراد بك بقدوم الأسطول الفرنسي، وأرسل اليه ثلاثة عشر رسولا يطلب النجدة ويقول «... إن العمارة التي حضرت مراكب عديدة ما لها أول يعرف، ولا آخر يوصف، لله ورسوله داركونا بالرجال».

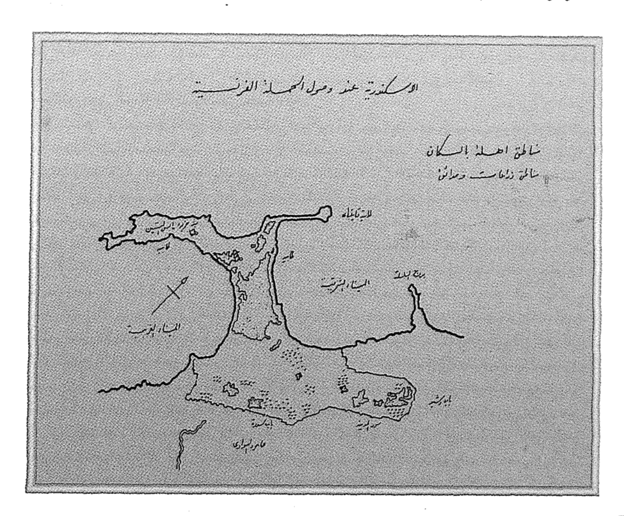
ويؤخذ من تقرير بونابرت إلى حكومة الإدارة أن «كل بيت كان قلعة»، وفي رواية لأحد جنود الحملة أن الرصاص انهال عليهم من داخل المساجد، ولكنهم لم يراعوا حرمة هذه الأماكن، فاقتحموها ولم يبقوا فيها على أحد. وفقد الفرنسيون في هجومهم على الإسكندرية حوالي ثلاثين قتيلا وثمانين إلى مائة جريح، وكان من بين الجرحى كل من الجنرال كليبر الذي أصيب في رأسه، والجنرال مينو الذي أصيب في جملة مواضع، كما أن بونابرت نفسه كاد أن يصاب بطلق ناري في أحد شوارع الإسكندرية الضيقة. ولما أعيا الاسكندريون الحال لخلو الأبراج من آلات الحرب والبارود، وكثرة العدو وغلبته، طلبوا الأمان فأمنوهم، «... ونادى (كبير) الفرنسيس بالأمان في البلد، وطلب أعيان الثغر فحضروا بين يديه، فألزمهم بجمع السلاح وإحضاره اليه...»

وبدأ بونابرت عندئذ في تنفيذ سياسته التي حاول بها استرضاء المصريين، فكان على الفرنسيين أن يظهروا أمامهم محررين لا غزاة، جاءوا لكي يقضوا على «ظلم وتعسف العبيد المماليك، وليضمنوا لفلاح الأرض المضطهد ثمار كده». وكان أول عمل قام به هو إذاعة منشوره المطبوع باللغة العربية في ٢ يوليو وتعليقه في جميع أنحاء

المدينة عقب اجتماعه بأعيانها، ويبين المنشور كيف أن بونابرت تعمد التأثير على المشاعر الدينية للمسلمين. وفى ٤ يوليو أبرم بونابرت مع زعماء الأهالى فى الإسكندرية وثيقة بالعهود التى أخذها الفريقان كل منهما على الآخر، وقضت بأن يستمر أعيان المدينة فى العمل بقوانينهم، والقيام بشعائرهم، ومراعاة العدل، والابتعاد عن مسالك الهوى، ولا يقضى فى أمر إلا بعد الرجوع إلى رأى مجلس العلماء.

وإذا كان الحزن والسكون قد خيم على مدينة الإسكندرية، فقد اهتم بونابرت أثناء وجوده فى المدينة ببعض الأمور الهامة، فنظرا لقلة ما كان يملك من عملة، فقد فرض قرضا بضمان إضافى من حصيلة الجمارك المنتظر جمعها فى الميناء. ثم حصل على نقود من التجار المحليين نظير سبائك من الذهب والفضة، إلا أنه لجأ إلى هذا الإجراء مرة ثانية بعد وصوله إلى القاهرة، إذ شحن منها مقادير من الأرز والحبوب إلى تجار الإسكندرية طالبا إليهم أن يردوا السبائك ويقبلوا هذه السلع بديلا عنها. وقد مكث بونابرت فى الإسكندرية سبعة أيام، وقبل أن يغادرها إلى القاهرة عين السيد محمد كريم محافظا على المدينة، كما عين كليبر قائدا وحاكما عسكريا لها، وترك حامية عسكرية بها، وحصنها بوسائل دفاع قوية. ورغم ما بذله كليبر من جهد واضح لتوطيد مركز الفرنسيين عسكريا وإداريا، وتحسين علاقاتهم بأهالى المدينة، إلا أن روح السخط والتذمر كانت كامنة فى نفوس الأهالى، وكانوا يتحينون الفرصة المناسبة لمقاومة الفرنسيين.

ومن ناحية أخرى لم يكبح الجنود الفرنسيون جماح أنفسهم، فكانوا يخرجون على النظام ويرتكبون السرقات، وهو ما أثار حفيظة الأهالى عليهم. وفى ١٣ يوليو ١٧٩٨ وجد أحد جنود مدفعية الأسطول قتيلا، وفى الوقت نفسه ألقى فى البحر خادم أحد الضباط فمات غرقا، وترامى الخبر فى المدينة وتحفز الأهالى للهياج، غير أن كليبر



واجه الموقف بشدة، واستدعى السيد محمد كريم والقاضى الشرعى وكبار الأعيان وطلب منهم البحث عن الجناة لمعاقبتهم. وقد تبين أن القاتل، واسمه السيد أحمد، قد هرب وأفلت من القصاص، فحوكم غيابيا بالمحكمة الشرعية، وحكم عليه قاضى الإسكندرية بالقصاص فى حضور جمع من العلماء وأعيان المدينة، وكتب بذلك إعلام شرعى. ويبدو أن كليبر تحقق من أن الجندى القتيل قد ارتكب ما يستحق عليه القتل، ولذلك أصدر منشورا بعد الحادثة حذر فيه من أنهم سوف يتعرضون لمثل هذه المواقف إذا لم يلتزموا باحترام أملاك الأهالى وعاداتهم وشعائرهم الدينية، وأنه ستوقع عليهم عقوبة الإعدام.

ولم يلبث كليبر أن ارتاب فى نيات السيد محمد كريم، وأمر بالقبض عليه فى ٢٠ يوليو لاتهامه بتحريض الأهالى والعربان بمهاجمة كتيبة الجنرال ديموى التى كانت تجوب بعض جهات مديرية البحيرة لتأمين مواصلات الفرنسيين. وبعد اعتقال محمد كريم جمع كليبر أعيان المدينة، وأبلغهم خبر القبض عليه للريبة فى إخلاصه للجمهورية الفرنسية، وطلب إليهم أن يختاروا حاكما للمدينة غيره، فوقع اختيارهم على السيد محمد الشوربجى الغريانى، وكان الشيخ محمد المسيرى كبير علماء الإسكندرية يعاونه فى عمله.

وبعد نقل محمد كريم إلى القاهرة، اتهم بخيانة الفرنسيين، وأصدر بونابرت، بعد محاكمته، أمره فى ٥ سبتمبر بإعدامه رميا بالرصاص ومصادرة جميع أملاكه وأمواله، ولكنه سمح له بأن يفتدى نفسه بدفع غرامة قدرها ثلاثون ألف ريال فى مدى أربع وعشرين ساعة. فلم يقبل محمد كريم دفع هذا المبلغ، وحاول ڤانتور، كبير تراجمة الحملة، أن يغريه بدفع الفدية، فأجابه محمد كريم إجابة الرجل المؤمن صادق الإيمان «إذا كان مقدرا لى أن أموت، فلا يعصمنى من الموت أن أدفع هذا المبلغ، وإذا كان مقدرا لى الحياة، فعلام أدفعه؟». وظل على اصراره، فحمل فى اليوم التالى (٦ سبتمبر) إلى ميدان الرميلة حيث أعدم رميا بالرصاص.

لقد كان مجىء الفرنسيين فاتحة عهد جديد فى مدينة الإسكندرية، وعول بونابرت على أن تكون نقطة اتصال بين مصر وفرنسا، فوضع أحد مهندسى الحملة ملاحظات فى تخطيط المدينة، واهتم الفرنسيون بتجديد وإنشاء قلاع جديدة للدفاع عن المدينة ضد السفن الإنجليزية التى كانت تراقب الشواطىء المصرية، وبنوا قلعتى كوم الدكة وكوم الناضورة، وأسسوا «ديوان الإسكندرية» على نسق النظام الذى رسمه بونابرت لدواوين الأقاليم، وأنشأ محاكم جديدة تسمى «المحاكم التجارية»، أو كما يسميها الجبرتى «محكمة القضايا» أو «محكمة النظام». ورغم ذلك فقد ظلت الإسكندرية مدينة صغيرة، وربما ساءت حالتها عن ذى قبل، فاشتد بها الضيق للحصار البحرى الإنجليزى المستمر، ولإمعان الفرنسيين فى فرض الضرائب على الأهالى، وانتشار الأوبئة؛ وطبقا لتقدير لوبير، تناقص عدد سكان الإسكندرية إلى حوالى سبعة آلاف نسمة، وهكذا عادت المدينة إلى ما كانت عليه قبل قدوم الفرنسيين، بل لعلها عادت إلى أسوأ مما كانت عليه.

ولقد تعرضت الإسكندرية كغيرها من أنحاء مصر لحالة من الفوضى والاضطراب فى أعقاب خروج الحملة الفرنسية عام ١٨٠١، ففى عهد الباشا على الجزائرلى (١٨٠٣ ـ ١٨٠٤) تذمر منه أهالى الإسكندرية وسخط عليه القناصل بسبب سوء حكمه. أما الأجانب فلم يحترم حقوقهم التى خولتهم إياها «الامتيازات»، فانسحبوا إلى السفن الأجنبية الراسية بالإسكندرية، بينما انسحب القناصل إلى سفينة القبطان بك، رئيس العمارة العثمانية بالميناء، ورفعوا شكواهم إلى سفراء دولهم باستانبول. وبعد وساطة أحمد خورشيد وكبار العثمانيين لفض هذه الأزمة ، تم الصلح قبل مغادرة الجزائرلى الإسكندرية بأيام قليلة، وتولى شئونهم أحمد خورشيد الذى كانت مهمته منع سقوط المدينة فى أيدى بكوات المماليك، وإخضاعها لسلطة حكومتهم فى القاهرة.

وعندما سلَّم الباب العالى بتعيين محمد على باشا على مصر، ظل حريصاً على استبقاء الإسكندرية معقلاً للنفوذ العثمانى فى مصر، والحلقة التى تصل بين السلطنة العثمانية والولاية. ولذلك أصدر الباب العالى فرماناً يثبِّت أمين أغا فى حكومة الإسكندرية عام ١٨٠٥، وقد استرعى هذا الإجراء نظر القنصلين الفرنسى والإنجليزى، فبينما اعتبر دروڤتى، القنصل الفرنسى، ذلك رغبة واضحة من الباب العالى بالتمسك بالإسكندرية مكاناً مستقلاً عن باشوية مصر، فإن القنصل البريطانى ميسيت (Misset) كان يسعى لتهيئة الرأى العام الإسكندرى لقبول فكرة احتلال الثغر بجند بريطانيين. وقد كتب دروڤتى إلى حكومته يخبرها بأن الهتافات تعالت فى الإسكندرية يوم

٤ يونيو ١٨٠٥ «بحياة السلطان چورچ»، وكان يهتف بها العربان الذين وزع عليهم الوكلاء الإنجليز المال لتحريك الشعب للهتاف بحياة ملك بريطانيا؛ وهكذا حاول ميسيت استقطاب السلطة الحاكمة فى الإسكندرية وعلى رأسها حاكمها أمين أغا.

ورغم خضوع الإسكندرية لإشراف الباب العالى مباشرة، فإن ذلك لم ينف حقيقة تثبيت محمد على فى حكم مصر مع ميوله الفرنسية، وهو الأمر الذى يهدد مصالح بريطانيا. وقد دفع هذا الوضع بريطانيا إلى إرسال حملة إلى المياه المصرية لتنفيذ مشروع احتلال الإسكندرية. وفى يوم ١٦ مارس ١٨٠٧، وصلت حملة فريزر إلى الإسكندرية، وفى ٢٠ مارس استسلم حاكمها أمين أغا. وقد وقع على شروط التسليم الحاج محمد خطاب، والشيخ ابراهيم باشا عبدالله (زوج ابنة الشيخ محمد المسيرى)، وهما يمثلان أعيان الإسكندرية، ثم محمد نعيم أفندى مندوبا عن أمين أغا. ويرجع هذا النصر الرخيص إلى استقلال الإسكندرية عن باشوية القاهرة، ولم يشعر أهلها بوجود روابط قوية تربطهم بسائر مواطنيهم، هذا بالإضافة إلى ضعف تحصينات المدينة وقلة عدد الجنود بحمايتها.

ولقد كان من أهّم النتائج المباشرة لحملة فريزر، تمكين محمد على من الاستيلاء على الإسكندرية التى كانت خارجة عن حكمه قبل مجىء الحملة؛ فبعد إخلاء الجنود البريطانيين للمدينة فى ١٣ سبتمبر ١٨٠٧، عين محمد على كتخدا بك (طبوز أو غلى) حاكما عليها ودخلها يوم ١٧ سبتمبر؛ وفى صبيحة يوم ٢٠ سبتمبر ١٨٠٧ دخلها محمد على، على رأس ألفين من جنده، قادما من دمنهور، على دوى المدافع التى أطلقت من طابياتها تحية له، وكانت هذه هى المرة الأولى التى تطأ قدما محمد على فيها أرض الإسكندرية؛ وعلق الجبرتى على ذلك بقوله أنه بدخول الإسكندرية فى حوزته قد «استقر واطمأن خاطره، وخلص له الإقليم المصرى». وبادر القناصل والأعيان وكبار التجار والمشايخ والعلماء ورؤساء الجند بتقديم التحية، ثم نزل الباشا يزور المدينة وتحصيناتها وقلاعها ومخازنها.

وقد ترتب على جلاء الإنجليز عن الإسكندرية أن غادرها كثير من أولئك الذين اعتقدوا أنهم صاروا موضع كراهية عظيمة بسبب صداقتهم ومعاونتهم للإنجليز، وقد لجأ بعض هؤلاء إلى البريطانيين حتى يحملوهم على ظهر سفنهم معهم، بينما هاجر عديدون من سكان الإسكندرية، مسلمين ومسيحيين على السواء، ومن بين هؤلاء الأخيرين أسر لبنانية كثيرة ذهبت إلى الشام، ونزوح قسم كبير من فقراء الإسكندرية إلى الصحراء ليعيشوا مع البدو فى خيامهم. ومن بين الذين هاجروا من الإسكندرية الشيخ محمد المسيرى، وقد نزل كتخدا بك طبوز أو غلى بداره عند دخوله الإسكندرية، والشوربجى، ورئيس قضاة الإسكندرية سيدى قاسم غريانى؛ وأما الشيخ إبراهيم باشا، أحد الموقعين على اتفاق تسليم الإسكندرية إلى الإنجليز، فقد آثر أن يقبل قدمى محمد على، ويطلب الصفح منه على الهجرة من الإسكندرية، فعفا عنه الباشا، وأمنه على حياته، وخلع عليه فروة ثمينة.

الإسكندرية فى عهد محمد على من ١٨٠٧ إلى ١٨٤٨:

يعتبر استيلاء محمد على (١٨٠٥ ـ ١٨٤٨) على الإسكندرية نقطة تحول كبرى فى تاريخها، وبداية بعث جديد للمدينة بحيث فاقت أيام مجدها الأول، وغدت من أهم مدن وموانىء البحر المتوسط فى وقتنا الحالى. ففى نهاية القرن الثامن عشر، اقتصرت مدينة الإسكندرية على المدينة التركية القديمة، التى لم تتخط حدودها، آنذاك، حى الجمرك حاليا، ومع مطلع القرن التاسع عشر بدأ يظهر ما يطلق عليه «حى المنشية»، ثم أخذت تمتد تدريجيا خلال القرن التاسع عشر لتشتمل على أحياء جديدة رصدتها الخرائط المختلفة التى وضعها الأجانب والقسم الفنى ببلدية الإسكندرية فيما بعد.

كان أول ما استرعى انتباه محمد على بعد دخوله الإسكندرية أن الخزانة بها خالية من المال ولذلك فقد أخذ من التجار الأوروبيين بالثغر سلفة قدرها عشرون ألف ريال تقوم جمارك الإسكندرية بسدادها من إيراداتها. ومن ناحية أخرى، بدأ محمد على يتخذ الإجراءات اللازمة لتنمية المدينة، وأدرك أنه لن يتسنى لها النهوض الحقيقى طالما بقيت المواصلات بينها وبين بقية أنحاء مصر على هذا النحو من الصعوبة، ولذلك قرر حفر ترعة المحمودية،

مكان ترعة الإسكندرية القديمة (خليج الأشرفية)، التي كانت الرمال قد طمرتها، على أن يكون مدخل الترعة عند قرية العطف بدلاً من الرحمانية، وقد عهد بالمشروع إلى أحد المهندسين الأتراك واستكمله المهندس الفرنسي كوست (Coste). وقد عمل في حفر الترعة عدد كبير من فلاحي مديريات البحيرة والغربية والشرقية والدقهلية والمنوفية والقليوبية والجيزة، وانتهى العمل بها في ديسمبر ١٨٢٠، واحتفل بدخول مياه الترعة إلى الإسكندرية في فبراير ١٨٢١، وسميت بالمحمودية تيمناً بالسلطان محمود الثاني العثماني. وهكذا زللت الترعة من صعوبة المواصلات، وأسهمت في تحول التجارة إلى الإسكندرية بعد أن كانت رشيد هي الميناء الرئيسي لغرب الدلتا، وسدت حاجة سكان المدينة من المياه العذبة، وساعدت على نمو الزراعة وانتشار البساتين في ضواحي المدينة، مما أدى إلى زيادة عدد السكان في المدينة بحيث ارتفع عددهم إلى ١٤٣,٠٠٠ نسمة في الفترة من ١٨٤٠ إلى ١٨٤٨.

ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد، بل استمر محمد على في إقامة المنشآت البحرية والصناعية التي أدت إلى تطور الإسكندرية عمرانيا واقتصاديا؛ فقد استعان بالمهندس الفرنسي سيريزي (Cerisy) لتأسيس دار الصناعة الكبرى (ترسانة الإسكندرية) لبناء السفن الحربية لتحل محل الترسانة القديمة، التي لم تعد صالحة لبناء أسطول بحري جديد بعد تدميره في موقعة نفارين عام ١٨٢٧. وقبل نهاية عام ١٨٣٢ انتهى إتمام الترسانة، التي اعتبرت من أعظم المنشآت البحرية في تلك الفترة، وصارت مركزاً لتدريب عدد كبير من المصريين على بناء السفن وعمليات الإصلاح اللازمة لها.

وقد صاحب ذلك توسيع وتطوير ميناء الإسكندرية وتعميقه، فاستحضر لذلك الكراكات من أوروبا لإتمام العمل بحيث تمكنت السفن من الرسو على الشاطيء بعد أن كانت ترسو بعيدا عنه. ثم سمح للسفن الأجنبية التجارية والحربية بالدخول إلى الميناء الغربي بعد أن كان محظوراً عليها في عهد المماليك الرسو إلاّ في الميناء الشرقية؛ كما أنشأ رصيفا داخل الميناء لرسو السفن عليه وآخر للشحن، وأقام فناراً في شبه جزيرة رأس التين لإرشاد السفن القادمة إلى الميناء حاز إعجاب كل من شاهده في ذلك الوقت. وتسهيلاً للاتصالات بين الإسكندرية والقاهرة استعان محمد على بالأجانب الذين أنشأوا نظاماً لتبادل الإشارات التلغرافية، فأقام منذ عام ١٨٢٠ أبراجا مرتفعة تمتد من رأس التين حتى القاهرة لتنقل الرسالة من برج إلى آخر لتصل القاهرة والعكس فيما لا يزيد عن خمس وثلاثين دقيقة.

ومما لا شك فيه أن جهود محمد على في إقامة تلك المشروعات وغيرها قد ساعدت على تغيير معالم الإسكندرية، وتزايد عدد سكانها، ولاسيما الأجانب بصفة خاصة بسبب سياسة محمد على في توسيع نطاق اتصالات مصر بالعالم الخارجي، واستتباب الأمن في عهده، وتسامحه الديني، واحترامهم وحسن معاملتهم. فتوافد على مصر عدد كبير منهم، استقرت غالبيتهم في الإسكندرية حول الميدان الذى عرف فيما بعد باسم «ميدان المنشية». حيث أقام الأجانب حوله معظم فنادقهم ومقاهيهم ومحلاتهم، وغالبية قناصلهم. وتأسست بعد عام ١٨٢٠ كثير من بيوت الأعمال الفرنسية والنمساوية واليونانية والسويسرية واليونانية، وغيرها من الشركات الأجنبية التي تولت تجارة الصادر والوارد، وتزايدت من ١٦ شركة أجنبية عام ١٨٢٢ إلى ٤٤ شركة عام ١٨٣٧. وقد ارتفع عدد الأجانب بالمدينة تبعا لذلك، ففي عام ١٨٣٣ بلغ عددهم ٤٨٨٦ وهو ما يمثل حوالي ١٢,٢٪ من مجموع سكان المدينة، ثم ارتفع هذا العدد إلى خمسة آلاف من مجموع أعداد الأجانب في مصر كلها الذى كان يبلغ ١٦١٥٠ أجنبيا في عام ١٨٤٠.

وقد قام الأجانب في الإسكندرية بنشاط تجاري كبير أسهم بشكل واضح في تطور المدينة اقتصاديا، إذ تركزت التجارة الخارجية فيها، وزادت إيرادات جمارك الإسكندرية من ٦٠٠٠ كيس عام ١٨٣٢ إلى ٥٤٧١٠ أكياس عام ١٨٤٦/١٨٤٧. وبالإضافة إلى ذلك، زادت أعداد السفن الأجنبية الداخلة إلى ميناء الاسكندية بحيث أصبحت مركزا لالتقاء الطرق العالمية، وانخفض زمن الرحلات بين لندن وبمباي عبر الإسكندرية والسويس بحيث لا تستغرق أكثر من أربعين يوما مقابل أربعة أشهر للمسافر بالمراكب الشراعية حول طريق رأس الرجاء الصالح؛ كما ارتبطت الإسكندرية بموانيء بعض الدول الأوروبية بخطوط بحرية متعددة، وقدر البعض أعداد السفن التي

دخلت ميناء الإسكندرية من منتصف عام ١٨٣٣ إلى منتصف عام ١٨٣٤ حوالى ٦٣٤ سفينة، وارتفع هذا العدد إلى حوالى ١٠٣٦ سفينة عام ١٨٤٠.

وهكذا بدأت الإسكندرية تتحول من مجرد أطلال قرية تحتضر بعد خروج الحملة الفرنسية من مصر إلى مدينة جديدة بفضل ما لحقها من توسع عمراني، ونمو سكاني، وازدهار اقتصادي، ومع ازدياد أهمية الإسكندرية، لم تتوقف جهود محمد على ومشروعاته التى لعبت دورا مهما فى استكمال تطور المدينة اقتصاديا، ففى مجال القضاء التجارى أنشأ عام ١٨٢٦ مجلسا لتجار الإسكندرية للفصل فى المنازعات والدعاوى التجارية التى تقع بينهم؛ وكانت نتيجة أحكامهم تقدم لديوان مصر وديوان الإسكندرية.

وعندما نمت الحركة التجارية واتسعت دائرة معاملاتها مع البلاد المختلفة أنشأ محمد على عام ١٨٢٥ «ديوان التجارة والأمور الإفرنكية»، وجعل مقره الإسكندرية، وعين بوغوص يوسف ناظرا له لينظم أموره. وكان هذا الديوان هو حلقة الوصل بين التجار والحكومة، وكان الجهاز الحكومى الوحيد الذى يستطيعون من خلاله عقد الصفقات وخاصة القطن والقمح وغيرها من المحاصيل الزراعية التى تصدر للأسواق الخارجية. ولضبط المعاملات النقدية، وتثبيت سعر صرف العملات الأجنبية، اتفق محمد على مع الخواجة «مخالى توسيجه» اليونانى، والمسيو «بستره» الفرنسى على إنشاء «بنك الإسكندرية» برأسمال مشترك عام ١٨٤٢. وقد أسهم هذا البنك فى تنشيط حركة التجارة، ومراقبة تنفيذ تسعيرة العملة التى أصدرها الباشا عام ١٨٤٣، واستلام إيرادات الجمارك؛ غير أن هذا البنك لم يستمر طويلا، فقد صفاه محمد على بعد عامين من إنشائه.

وربما تجدر الإشارة هنا إلى «مجلس الأورناطو» (Ornato) أو «مجلس التنميق والزخرفة» الذى أنشأه محمد على فى الإسكندرية عام ١٨٣٤، كأول نوع من المؤسسات البلدية للنهوض بالمدينة من حيث النظافة والصحة وجمال المنظر والإشراف على أنشطة البناء والتشييد بوجه عام. وقد قام هذا المجلس بالعديد من الخدمات منها ردم المستنقعات، وتنظيم حركة المرور، وتهوية المنازل، وملاحظة المبانى القائمة أو المراد إقامتها. وضم هذا المجلس بعض المصريين إلى جانب عدد من الأجانب برئاسة قنصل بريطانيا بالإسكندرية، وضم أيضا بين أعضائه قنصلا اليونان والسويد. ونظم المجلس أماكن الدفن، وحدد الأماكن المخصصة للمسلمين والأقباط واليهود، والطوائف المسيحية الأخرى. وقد استمر بقاء هذا المجلس نتيجة تزايد عدد الأجانب فى الإسكندرية، وحاجتهم إلى ما يقدمه من تسهيلات ووظائف.

الإسكندرية فى عهد خلفاء محمد على (١٨٤٨ ـ ١٨٧٩):

تلخصت سياسة عباس الأول (١٨٤٨ ـ ١٨٥٤) فى إقامة علاقات أوثق مع الباب العالى، ومقاومة النفوذ الأجنبى فى مصر، وبصفة خاصة نفوذ فرنسا، والتخلى عن تقاليد جده محمد على. ورغم ذلك فإنه كان يميل عموما إلى التوفيق بين تعصبه ومصالحه، فعقد اتفاقا مع المهندس الإنجليزى روبرت ستيفنسون على إنشاء خط حديدى بين الإسكندرية والقاهرة؛ وقد تم إنشاء الخط من الإسكندرية إلى كفر الزيات عام ١٨٥٤، أما الخط من كفر الزيات إلى القاهرة فتم فى عهد خلفه سعيد باشا عام ١٨٥٦، ويعتبر هذا الخط الحديدى أول خط ينشأ فى أفريقيا، بل من أول الخطوط التى أنشئت خارج أوروبا؛ وكان له أثر كبير فى عمران الإسكندرية ونموها وازدياد أهميتها الاقتصادية، فعلى سبيل المثال زادت صادرات القطن من ٩٦٥ و١١٩ قنطارا عام ١٨٤٨ إلى ٤٧٧,٩٠٥ قناطير عام ١٨٥٤؛ كما ارتفعت قيمة الواردات من ١,٤٨٠,٠٠٠ جنيه عام ١٨٤٨ إلى ٢,١٤١,٩٦٤ جنيها عام ١٨٥٤.

وفى عهد خلفه محمد سعيد (١٨٥٤ ـ ١٨٦٣) حظيت الإسكندرية برعاية خاصة، وتدفق عليها الأجانب بأعداد هائلة بحثا عن المال والتجارة والثروات، ولكنهم أفادوا، أيضا، فى تطوير المدينة اقتصاديا وعمرانيا؛ بحيث أصبحت من أهم المراكز المالية فى الشرق، وتأسست بها بعض البنوك والشركات التجارية والملاحية، وكان من أبرز الشركات الملاحية «القومبانية المجيدية»، نسبة إلى السلطان عبدالمجيد، التى أسسها الأجانب عام ١٨٥٧، ولكن تم تصفيتها فى عهد إسماعيل، وحلت محلها «الشركة العزيزية». وتسهيلا لحركة الملاحة الداخلية أيضا، أمر سعيد باشا بتطهير ترعة المحمودية بعد أن بلغت حدا من السوء يمكن معه القول أنه أعاد حفرها من جديد؛ كما

استكمل الخط الحديدى بين القاهرة والسويس عام ١٨٥٨، وبذلك تم الاتصال البرى بين أوروبا والهند الذى أحدث رواجا فى كل من الإسكندرية والسويس. وبالإضافة إلى ذلك قام بتوسيع وتمهيد طرق الإسكندرية وشوارعها، وأتم وصل الإسكندرية بالقاهرة بخطوط التلغرافات الحديثة.

وفى عهد الخديو إسماعيل (١٨٦٣ - ١٨٧٩) شهدت الإسكندرية قفزة واسعة من التطور بفضل ميوله الأوروبية، حيث اعتزم منذ تولى العرش أن يعيش كملك أوروبى، وأن يجعل من مصر قطعة من أوروبا. ولقد شجع إسماعيل الأجانب على الاستقرار فى الإسكندرية، وأظهر تسامحه الدينى لهيئاتهم المختلفة، وخاصة الدينية فتبرع لهم بالأراضى والأموال، وتغلغل الأجانب بشكل كبير فى المدينة، وحظوا بنصيب من السلطة التنفيذية داخلها، واستخدم البوليس فى المدينة خمسين رجلا من الأوروبين أغلبهم من السويسريين. كما تحكم الأجانب فى سوق المال والتجارة بحيث امتلكوا القوة الشرائية التى مكنتهم من تملك العقارات، ونافسوا فى ذلك أصحاب الأملاك من السكندريين. وأقام غالبيتهم حول ميدان المنشية الذى أصبح مركز التجارة الأوروبية بالمدينة، وأقاموا فيه عام ١٨٧٣ تمثالا من البرونز لمحمد على صنعه المثال الفرنسى چاكمون (Jaquemont)، وسمى هذا الميدان فيما بعد باسم «ميدان محمد على».

ولم يقتصر الأمر على حى المنشية، بل اهتم إسماعيل ببقية أحياء المدينة التى حرمت من الطرق المعبده والمجارى، فأنشأ عدة قصور له ولذويه للإقامة بها صيفا أهمها سراى الرمل، وجدد سراى رأس التين، وأنشأ حديقة النزهة على ترعة المحمودية وجعلها متنزها عاما، وأقام سراى الحقانية التى أنشئت بها المحكمة المختلطة، وأنشأ أحياء جديدة بالمدينة؛ وازداد عمران الرمل فى عهده ازديادا كبيرا. ولتجميل المدينة أمر محافظها «بتسوية شوارعها حتى المحمودية، والاهتمام بكنسها ورشها وتنظيفها..» وقام بتخطيط شوارع جديدة منها شارع ابراهيم الممتد من مدرسة السبع بنات إلى ترعة المحمودية، وشارع الجمرك، وشارع المحمودية، وافتتح ستة شوارع أخرى. وقام إسماعيل بتنفيذ عدة مشروعات للمرافق العامة قامت بها شركات أجنبية أنشئت فى عهده لهذا الغرض، ففى عام ١٨٦٣ تعاقد مع لوبون على إنشاء شركة لإنارة الإسكندرية بغاز الاستصباح، ثم عدل هذا الامتياز بمنح الشركة حق الإضاءة بالكهرباء. كما منح المسيو كوردييه امتيازا عام ١٨٦٥ لمد مدينة الإسكندرية بالمياه النقية، فأسس «الشركة الأهلية لمياه الإسكندرية» والتى أصبحت فيما بعد «شركة مياه الإسكندرية». وفى مجال الاهتمام بالصحة العامة أنشأ الإدارة الصحية التى كانت تعرف بين السكندريين باسم «الانتندانس سانيتير» (Intendence Sanitaire)، وكان لها الفضل فى مقاومة الأمراض؛ كما كانت الإسكندرية من أسبق مدن القطر المصرى فى إنشاء المجارى تحت الأرض، إذ بدأت أول عمليات المجارى بها عام ١٨٧٨.

ومن أهم المشروعات العمرانية التى ساعدت على نمو المدينة كان إنشاء الخط الحديدى الذى ربط المدينة بجهة بولكلى حاليا عن طريق سيدى جابر عام ١٨٦٣، وكان القطار يتكون من أربع عربات تجرها الخيول، ثم استعملت القاطرة البخارية فى نفس العام لجر العربات بدلا من الخيول. ولما اتسعت زراعة القطن، حاول إسماعيل إيجاد وسيلة سهلة سريعة لنقل المحصول من مناطق الإنتاج إلى الإسكندرية، فأنشأ شبكة كبيرة من السكك الحديدية ربطت المدينة بالعديد من مناطق مصر سواء بالدلتا أو الصعيد. كما اهتم إسماعيل بتدعيم وإنشاء الخطوط التلغرافية، وتولت «شركة التلغرافات الشرقية» عام ١٨٧٤ توصيل الإشارات الداخلية بين مكاتبها فى الإسكندرية والقاهرة، وأقامت خطا تلغرافيا بحريا من الإسكندرية إلى مالطة وصقلية وأوروبا، ثم خطا آخر من الإسكندرية إلى السويس فعدن فالهند؛ واستمرت أعمال إدارة البريد التى أنشأها الإيطالى كارلو ميراتى عام ١٨٤٣، وكانت تعرف آنذاك باسم «البوستة الأوروبية»، استمرت فى عملها من مكتبها بالإسكندرية حتى عام ١٨٥٤، حيث افتتحت فروعا لها فى مختلف جهات مصر؛ واعتبارا من عام ١٨٦٥ أصبحت إدارة البريد مصلحة أميرية، مركزها الرئيسى الإسكندرية، ثم انتشرت فروعها لتشمل جميع أنحاء القطر المصرى فى أواخر عهد إسماعيل.

ونتيجة لاتساع حركة العمران وتزايد أهمية ميناء الإسكندرية، قام إسماعيل أيضا بتنفيذ مشروع توسيع ميناء الإسكندرية وإصلاحه خشية أن تتحول حركة التجارة الخارجية إلى بورسعيد بعد إنشائها، واقتراب

مشروع قناة السويس من الانتهاء؛ وكان أول ما بدأ به هو إقامة حوض عائم من الحديد لإصلاح السفن أحضره من فرنسا عام ١٨٦٨، ليحل محل الحوض الحجرى المنشأ منذ عهد محمد على حيث لا يفى بحاجة السفن الكبيرة. ثم أنشأ حاجز الأمواج الضخم الذى حمى الميناء من طغيان الأمواج، وجعل السفن الراسية فيه آمنة من العواصف؛ وما يزال حاجز الأمواج هذا موجودا حتى اليوم، وهو ممتد من شبه جزيرة رأس التين إلى العجمى، وفيه البوغاز لمرور السفن. وأنشأ بداخل الميناء رصيفا للشحن والتفريغ وأرصفة أخرى ممتدة داخل الميناء، كما أنشأ عدة فنارات نذكر منها فنار العجمى عام ١٨٧٣، وفنار حاجز الميناء عام ١٨٧٦، وفنار القبارى عام ١٨٧٧. ولعل أهم ما قام به إسماعيل فى الإسكندرية هو بعث النشاط فى دار صناعة الإسكندرية (الترسانة)، فأحيا معاملها ومصانعها، وجلب لها المعدات والآلات اللازمة، وجدد المدرسة البحرية؛ وأنشأ مدرسة بحرية أخرى بجوار الترسانة، أحضر لها المعلمين الأكفاء من الخارج. وبالإضافة إلى ذلك وجه عنايته إلى الأسطول التجارى، وأنشأ فى الإسكندرية «الشركة العزيزية» (نسبة إلى السلطان عبدالعزيز)، وهى التى حلت محل «الشركة المجيدية (كما سبق الاشارة).

إن اهتمام إسماعيل المتزايد بتطوير الإسكندرية، وعنايته الفائقة بكل مرافقها، قد أثمر - بلا شك - عن نتائج إيجابية تمثلت فى نمو حركة النقل البحرى ونمو التجارة الخارجية بالإسكندرية؛ فارتفعت أعداد السفن التى دخلت ميناء الإسكندرية من ١٨٠٧ سفن عام ١٨٥٠ إلى ٣١٩٠٩ سفن فى الفترة من ١٨٦٣ إلى ١٨٧٢؛ كما زادت نسبة صادرات مصر عن طريق الإسكندرية من ٧٢٪ من مجموع الصادرات خلال الفترة من ١٨٥٣ إلى ١٨٦٢ إلى ٩٤٪ من مجموع صادرات مصر خلال الفترة من ١٨٦٣ إلى ١٨٧٢. أما النشاط التجارى الأجنبى فى الإسكندرية فقد شهد ازدهارا رائعا، فأول ما نشأت الرأسمالية فى مصر بدأت فى الإسكندرية، ولم يستطع التجار الاسكندريون منافسة التجار الأجانب لا فى التجارة الخارجية أو الداخلية. وقد ظهر أثر هذه المنافسة فى أسواق الإسكندرية الذى نفذ إلى قلبها التجارى «الجو الأوروبى» وجعلها تفقد طابعها العربى، ومن ثم أخذت الصناعة الوطنية تضيق تدريجيا بسبب الصناعات المتفوقة التى تصل من أوروبا رأسا إلى مخازن التجار الأوروبيين، وانتهى الأمر بأن انسحبت الصناعة الوطنية من ميدان المنافسة.

ومن الواضح أن الأجانب كونوا نسبة كبيرة من سكان الإسكندرية فى الربع الثالث من القرن التاسع عشر، وبلغ عددهم عام ١٨٧٣ فى الإسكندرية وحدها ٤٧٢١٦ أوروبيا، فى الوقت الذى كان إجمالى عدد المستقرين منهم فى القطر المصرى كله ١٩٦ ٧٩ أوروبيا. وليس من المغالاة القول بأن وجود الأجانب فى الإسكندرية، بهذه النسبة العالية، قد ترك بصماته الواضحة على تطورها ونموها العمرانى والإدارى، ووضع أسس المرافق العامة بالمدينة، وكذلك أسس ونظم النشاط الاقتصادى من تجارة وصناعة؛ هذا بالإضافة إلى الآثار الأخرى التى ميزت الإسكندرية عن غيرها من مدن مصر.

وهكذا أخذت الإسكندرية تنمو شيئا فشيئا وتتسع، فتلاشت أكوام الخراب أمام تقدم خطوات العمار، وتكونت الأحياء الجديدة فوق رفات الأحياء الميتة، وتدفقت حياة القطر المصرى وتجارته اليها، ونزح الريفى العامل للسكنى فيها، وتضاعف سكانها عشرات المرات فبلغوا ما يقرب من ٧١٨, ١٦٥ نسمة عام ١٨٧٧. وإذا كانت الإسكندرية قد نفضت عنها خمول نومة طالت ثلاثة قرون أو تزيد، وحظيت برواج اقتصادى واجتماعى وعمرانى، فإنها نالت أيضا حظها الكثير من النهضة التعليمية الواسعة فى عهد إسماعيل، فخص الإسكندرية منها مدرسة رأس التين التجهيزية، وثلاث مدارس ابتدائية هى: رأس التين، وراتب باشا، وراغب باشا. وفى نهاية حكم إسماعيل نشأت وترعرعت الصحافة العربية بالإسكندرية، بفضل تشجيع السوريين المهاجرين إليها، ورغبة الخديو فى مواكبة النهضة الأوروبية المعاصرة، فصدرت عدة صحف نذكر منها صحيفة «الكوكب الشرقى» (١٨٧٣)، والأهرام (١٨٧٥)، والتجارة (١٨٧٨)، وغيرها من صحف اعتبرها البعض إيذانا بميلاد المعارضة، وظهور الرأى العام المصرى القوى.

الجاليات الأوروبية فى مدينة الإسكندرية (١٨٠٥-١٩٣٩)

أ. د. حسن محمد صبحى

يود البعض من الكتاب الأوروبيين - مثل Leprette, E فى كتابه Egypt - Land of the Nile - أن يذهب بعيدا فى وصفه لمدينة الاسكندرية بأنها، فى تاريخها الطويل، كانت إما مدينة يونانية أو مسيحية أو مهملة طواها النسيان. ورغم أن هذه نظرة بعيدة عن الواقع، إلا أن هناك مسحة باهتة من حقيقة نبعت منها هذه الخواطر.

فالأسكندرية - مثل باقى موانىء حوض البحر المتوسط - كانت قد اندثرت أهميتها من بعد تحول الطريق البحرى إلى الشرق عبر جنوب أفريقيا، ثم مجىء العثمانيين إلى مصر. وظلت كذلك حتى مجىء الحملة الفرنسية، ثم تولى محمد على حكم مصر، والذى بعث الحياة فيها مرة أخرى. يذكر الفرنسى Linant - مهندس القناطر الخيرية - أن الاسكندرية كانت فى عام ١٨١٠ مدينة عربية بحتة، نادرا ما تجد بها من الأوروبيين المشتغلين بالتجارة، وكان القناصل وحدهم هم الأجانب بالمدينة.. ولكن بفضل مشروعات محمد على، تضاعف عدد سكان المدينة من بضعة آلاف حتى وصل فى عام ١٨٤٨ إلى حوالى ١٤٣,٠٠٠ نسمة، وزاد عدد الأجانب حتى كونوا جاليات لهم بالمدينة، وهؤلاء أسهموا فى تطويرها وازدهارها ورقيها.

وقد ساعد حفر ترعة الاسكندرية (المحمودية) على تغيير معالم المدينة وسماتها سكانيا وعمرانيا. وعهد محمد على بذلك العمل إلى المهندس الفرنسى مسيو كوست Coste، الذى أتم هذا المشروع (١٨٢٠) ومنذ ذلك الحين انحصرت دائرة التجارة فى الاسكندرية، وجعل محمد على ناظر التجارة المصرية مقره بالمدينة.

وتوالت المشروعات بالمدينة، فهناك عهد محمد على إلى المهندس الفرنسى سيريزى Cerisy بإقامة ترسانة جديدة بالمدينة. واستعان سيريزى فى ذلك بمجموعة من الصناع الأوروبيين، الفرنسيين والايطاليين والمالطيين، فى تعليم المصريين مختلف الصناعات. وهكذا يتم بناء الترسانة (١٨٣٠). وكانت السفن التى يتم بناؤها بها تقام لها الحفلات الفخمة ابتهاجا بنزولها إلى البحر، تماما كالحفلات التى تقيمها الحكومات الأوروبية فى ثغورها بمناسبة انشاء البوارج الكبيرة. وكان محمد على يحضر بنفسه معظم هذه الحفلات، كما كان يحضرها أهل الاسكندرية مع عائلاتهم وأطفالهم.

وسماح محمد على للسفن الأوروبية بالدخول إلى الميناء الغربى للمدينة (وكان هذا أمرا غير مباح منذ عهد المماليك، جعل حركة التجارة بها تتسع، وكان منظر السفن الأوروبية فى الميناء تخفق عليها أعلام الدول المختلفة يبعث فى نفوس الشبان المصريين المنتظمين فى سلك البحرية روح الغيرة والحماس وينمى فيهم احساسا بالكرامة والشمم.

وقد أضفى الأوروبيون على المدينة طابعا أوروبيا، وساعد على ذلك عيشة الترف التى كان يعيشها الكثير منهم بالاسكندرية. وهناك مظاهر متعددة لنشاطهم أثرت على أهلها بوضوح. فالأوروبيون مثلا اضطلعوا بالنصيب الأكبر فى حركة التعليم فى مصر حينئذ، رغم ما صادفوا من عقبات كأداء بسبب اختلاف طرق التفكير والمشاعر والتقاليد بين المسلمين والمسيحين.. ولكن الوجود الأوروبى فى المدينة وجد طريقه على أية حال إلى قبول الأهلين له، بل والترحيب به بعد الاقتناع بمزاياه. ونجد مثلا أن سيدات الاسكندرية - كما يقول الرحالة والسياسى الانجليزى باورنج Bowring - كن يقبلن مساعدة الأطباء الأفرنج لدى معالجتهن بالمستشفى البحرى بالمدينة.

ووجود الأوروبيين فى مختلف مجالات الاصلاح عمل على ادخال نظام عام سمته الطاعة واحترام المرؤوسين لرؤسائهم. وهذا أمر وجد فى مؤسسات محمد على الحربية وغيرها، ولم يلبث أن شمل المجتمع المصرى بأسره. نلاحظ أن ما أداه الأجانب لمصر من خدمات مباشرة، بما لديهم من علم ودراية، قد أشاع فى نفوس المصريين احتراما عميقا لما أحرزوه من علوم لها التفوق والامتياز.

كذلك أشاع وجودهم شعورا من التسامح إزاءهم من اقتناعا من المصريين بسياسة واليهم بالنسبة للأجانب وعطفه عليهم وثقته فيهم.

والأجانب بالمدينة، وبأعدادهم المتزايدة، كان لهم أثرهم فى امتداد العمران فى الاسكندرية وفى تحديد اتجاه ذلك الامتداد. ففى أول القرن ١٩ كانت المدينة تقتصر على حى الجمرك والمنشية تقريبا. وفى منتصف القرن كانت المدينة قد امتدت فى اتجاهين، نحو الشمال لتشمل حى رأس التين وحى الأنفوشى، ونحو الجنوب الشرقى لتشمل قلب المدينة التجارى حتى طريق الحرية. وكانت معظم المبانى والمنشآت التى أقيمت فى هذه المنطقة - كما يقول الدكتور صبحى عبدالحكيم فى كتابه (مدينة الاسكندرية) - خاصة بالأجانب.

والأوروبيون فى الأسكندرية قد عملوا على النهوض بالمدينة ونظافتها وجمالها... الخ. وبذلك ساعدوا محمد على كثير فى اتجاهه لتنظيم المدينة. بدأ ذلك بانشاء ما سمى بديوان ملكى الاسكندرية (١٨٠٧ - ١٨٠٨)، وذلك هو الأساس فيما عرف فيما بعد بمحافظة الاسكندرية، ثم تكوين «المجلس الصحى» (١٨٣٤) وكان يتكون فى معظمه من أعضاء أوروبيين. وسمح محمد على لقناصل الأوروبيين بتنظيم أعمال ذلك المجلس وادارتها، على أن تتكفل الحكومة بدفع النفقات. وأحدث هذا المجلس جملة من التحسينات والتغييرات كان من أثرها امتداد العمران فى المدينة القديمة ونقل الجبانات إلى خارج الأسوار. كذلك خطط ميدان المنشية وشيدت المبانى المحيطة به على الطراز الأوروبى. وكان القنصل البريطانى هو رئيس اللجنة باستمرار.

ومع ذلك فليس كل ما أتى به الأوروبيون بالمدينة مدعاة للاعجاب أو التقدير.. فبعضهم كان اما من المغامرين أو الفارين من العدالة فى بلادهم. وفى مجال التعليم كان عدد قليل جدا منهم من حصل فى بلاده على قدر كاف من التعيم يؤهله لكى يكون معلما ومشرفا على التعليم بالخارج. ويكمل Bowring فى تقريره هذه الصورة المحزنة قائلا أن الآثار المصرية القديمة قد تعرضت على يد الأجانب لتخريب لا مثيل له. فمهما قيل عن اهمال العرب أو طيش الأتراك فى مجال تخريب هذه الكنوز، فإن جيلا واحدا من الأوروبيين الذين انتشروا فى جميع أنحاء مصر بدعوى حب الفن والتنقيب عن الآثار، قد أحدث فى الاثار المصرية القديمة من تحطيم وتشويه، ما لم يحدثه الحكم الاسلامى طوال قرون كاملة.

وفى عهد عباس الأول (١٨٤٨ - ١٨٥٤) لم يكن للأوربيين دور يذكر فى المدينة، فقد أقام عباس سياسته على أساس هدم النفوذ الأوروبى، ولكن نزاعه مع السلطان دفعه إلى التقرب من الانجليز، وهكذا يقيم الانجليزى ستفنسون Stephenson الخط الحديدى بين الاسكندرية وكفر الزيات (١٨٥٤).

ثم تعود الاسكندرية وتنال اهتماما خاصا من سعيد باشا (١٨٥٤ - ١٨٦٣)، وتحظى المدارس التى أنشأتها الجاليات الأوروبية والطوائف الدينية غير الإسلامية بالرعاية والمال. وفى عهده أيضا يعاد وتنظيم المحاكم الخاصة بالتجارة Tribunaux de commerce (١٨٦١). ومن هنا - كما يقول Henri Lamba فى كتابه (De L'Evollution de la condition juridique des europeens en egypte) يولد فى الواقع القضاء المختلط، الذى كان فى حقيقته تطويرا للقضاء التجارى.

وفى عصر اسماعيل (١٨٦٣ - ١٨٧٩) يعود إلى الاسكندرية نشاطها البحرى والاقتصادى، ويصحب ذلك تقدم اجتماعى كبير، يلعب فيه الأوروبيون دورا بارزا، فقد كثر عددهم بالمدينة، واتسعت دائرة مصالحهم، وصحب ذلك تحول اجتماعى كبير. ظهر ذلك واضحا فى المسكن والملبس وتنظيم الميادين واقامة الحدائق والنافورات والتماثيل، وانشاء المسارح والاقبال على حفلات الغناء والتمثيل والموسيقى. كذلك يظهر هذا التحول فى النشاط التعليمى وفى ظهور الصحف وعمل دراسات علمية عن المدينة. كذلك يشمل التحول، نتيجة لهذا التيار الأوروبى، تجارة الاسكندرية وأسواقها وصناعاتها. يذكر De Vaujany - وكان مديرا بمدرسة الألسن بالقاهرة - فى كتابه Alexndrie (Paris 1885) أن الجو الأوروبى قد نفذ إلى قلب المدينة العربية، وجعلها تفقد هذا الجو العربى، وبدأ التجار يهجرون أماكنهم التقليدية في الداخل إلى الشوارع الأكثر إزدحاما، ويعرضون بضائعهم على الطريقة الأوروبية فى (معارض) تجتذب انتباه المارة، ويقتربون بالتالى من ميدان المنشية حيث أقامت المدينة تمثالا بديعا

من البرونز لمحمد على ممتطيا صهوة جواده (١٨٧٢)، صنعه المثال الفرنسى Jaquemont.

باختصار أصبحت الاسكندرية فى عهد اسماعيل مدينة حديثة، وزاد عدد سكانها إلى الضعف (٢٠٠,٠٠٠ نسمة) كذلك زاد عدد الأجانب بها فبلغ (٤٣,٠٠٠) فى عام ١٨٧٨ وهو رقم كان يمثل ٦١,٦٪ من جملة الأجانب فى مصر.

وفى عهد إسماعيل ظهرت ضاحية الرمل حيث وهب قطعا كثيرة من أراضيها للأجانب، وهناك أقاموا القصور الجميلة والحدائق الغناء، ومن هؤلاء الكونت زيزينيا Zizinia الذى لاتزال منطقة من الرمل تسمى باسمه إلى الآن. فاسماعيل كان سخيا ازاء الأجانب فى المدينة، يتبرع لهم ولهيئاتهم ومدارسهم ورجال الدين منهم، بمنحهم الأراضى والأموال من حين إلى آخر.

نلاحظ أن نزعة اسماعيل الأوروبية، ورغبته فى استقلال مصر وجعلها قطعة من أوروبا، واسرافه فى استخدام المال لهذا الغرض، ذلك قد أدى إلى التدخل الأوروبى ـ حكومات وجاليات ـ فى شئون البلاد. فالأوروبيون فى المدينة لم يعودوا مجرد جزء من المجتمع الاسكندرى، بل صاروا أيضا جزءا من الحكومة، واشتركوا فى الإدارة، وحظوا بنصيب من السلطة التنفيذية، وتستخدم الشرطة فى المدينة خمسين رجلا من الأوروبيين أغلبهم من السويسريين. ومن الطبيعى أن تكون الامتيازات الأجنبية من عوامل طغيان نفوذ الأجانب فى المدينة حينئذ.

وفى عهد توفيق (١٨٧٩ ـ ١٨٩٢) تشهد البلاد احتلالا انجليزيا شاملا (١٨٨٢) والأحداث التى صاحبت هذه الكارثة، قد زادت الشقة بين الجانبين المصرى والأجنبى فى المدينة.

واستقرار الانجليز فى البلاد بعد نجاح غزوهم لها، تبعته إجراءات تتعلق باسلوب العمل الانجليزى فى مصر. وعاد النشاط والنمو إلى المدينة، وهذا دعا إلى انشاء مجلس بلدى الاسكندرية (١٨٩٠) لاداراتها، وكان يتكون من أعضاء من المصريين وآخرين من الأجانب. ويرجع الفضل إلى هذه الهيئة فى تخطيط الأجزاء الحديثة من المدينة. وفى ظل الاستقرار الجديد يربو تعداد الأجانب فى المدينة فى عام ١٨٩٧ على ٤٦,٠٠٠ نسمة، أى ما يعادل ١٤,٥٪ من جملة سكانها. وكان اليونانيون أكثرهم عددا، يليهم الايطاليون ثم الانجليز والفرنسيون فالنمساويون. وهؤلاء جميعا كان عددهم يعادل ٩٤,٦٪ من عدد الأجانب فى المدينة.

وفى القرن العشرين يواصل الأجانب فى المدينة تزايدهم إبان الربع الأول منه، ثم تبدأ النسبة فى التناقص بالتدريج، ولم يكن هذا مرجعه نقصا فى عدد الأجانب، بل تزايد عدد المصريين بالمدينة نتيجة لنمو الوعى الصحى وتحسن أحوال المدينة. نلاحظ أن مناطق الجذب السكانى بالنسبة للأوروبيين كانت تتركز على طول الواجهة البحرية للمدينة من ميدان المنشية غربا إلى منطقة بولكلى شرقا. يدل على ذلك تعداد سنتى ١٨٩٧ و١٩٤٧. نلاحظ كذلك أن مستوى المعيشة كان يبلغ أدناه فى الأحياء التى يقل فيها وجود الأجانب، بينما يصل مداه فى الأقسام التى تزيد فيها نسبة الأجانب.

وبصورة أو بأخرى يسهم الأوروبيون فى أحداث المدينة فى الربع القرن العشرين، كما صارت مؤثراتهم حينئذ فى المدينة أكثر عمقا وفاعية. ففى فترة ما قبل الحرب العالمية الأولى تشارك الصحافة الأوروبية فى الأحداث السياسية اليومية حسبما تقتضى مصالح من تمثلهم. وبانتهاء الحرب ومجىء أحداث عام ١٩١٩ وما بعدها يشترك الأوروبيون فيها أحيانا. فالشيوعيون الايطاليون، كما يذكر Lloyd كتابه Egypt since Cromer، قد نشطوا فى المدينة بنفس درجة نشاطهم فى بلادهم، وذلك فى غمار بدء الدعاية الشيوعية عملها فى المحيط العالمى. ومن أنقره ـ كما يحكى Lambelin فى كتابه L'Egypte et L'Argleterre ـ جاء بعض عملاء الشيوعية للترويج للحركة فى مصر كيدا للانجليز.

والأوروبيون فى المدينة ـ حتى أكثرهم اندماجا فى الحياة المصرية ـ كانوا يحتفظون بطابعهم الأوروبى، وكل جالية منهم كانت تنتمى إلى مجتمع منظم بعناية، له أعياده القومية وكنيسته أو معبده، ورجال الدين منه، ومدارسه ومستشفياته ومدافنه، وحفلاته المتميزة الخاصة بالزواج والمناسبات.

وبشكل عام، كانت للأوروبيين مكانتهم المرموقة فى المجتمع الاسكندرى. فهم الذين كانوا يمسكون بقياد النشاط التجارى فى المدينة، وهم الذين كانوا يضعون المثل فى السلوك وفى الأزياء. وهم فى نفس الوقت قد

مارسوا جميع الحرف التى كان يمارسها المصريون، ولكنهم كانوا أشد حرصا من المصريين على التعليم. وحسب تعداد عام ١٩٤٧، كان تسعون بالمائة من الأجانب فى الاسكندرية ينتمون إلى خمس دول هى اليونان وايطاليا وبريطانيا وفرنسا وتركيا.

أما الايطاليون، فقد عملوا كصانعى أقفال وأثاث، وامتلكوا أماكن لايواء السيارات، كما عملوا أطباء ومحامين وخاضوا مجالات البناء والتشييد.. وترى صحيفة La Bourse Egyptienne فى عددها الخاص (فبراير ١٩٣٢) عن L'Egypte Communautes et Colonies أن الايطاليين فى مصر بعقولهم وأيديهم العاملة، قد تنافسوا فى بناء مصر أكثر من اهتمامهم بالحصول على مزايا جماعية لهم.

وكان للجالية الايطالية بالاسكندرية مستشفاهم، ومدارسهم وصحفهم، ومؤسساتهم المالية مثل بنك روما، والبنك التجارى، وخط لويد البحرى والغرفة التجارية الايطالية. ومن شعرائهم جوسيبى أو نجاريتى الذى ولد فى الاسكندرية وتأثر بها وأصبح شاعرا عالميا، وصديقا - كما يقول (نقو لايوسف) فى مقال له بالهلال - للفنان محمد ناجى والشاعر أحمد شوقى بك.

أما الفرنسيون فى الاسكندرية، فيبدو أنهم كانوا يعتبرون نشاطهم فى مصر امتدادا لنشاط أجدادهم الذين جاءوا مع نابليون بونابرت إلى مصر، والذين عاونوا محمد على فى مشروعاته. وهم لذلك يتعاونون مع المصريين فى الثقافة والفن والصناعة. وهم كذلك وحتى عقد وفاقهم الودى مع بريطانيا (١٩٠٤) - يتعاطفون، بل ويتعاونون سياسيا مع المصريين فى حركتهم الوطنية. وعلى ذلك فيمكن القول بأن أهمية المؤثرات الفرنسية على المجتمع الاسكندرى إنما تكمن فى مؤسساتهم التعليمية فى المدينة وهذه كانت كثيرة ومتعددة الدرجات. ففى أوائل الثلاثينات كانت معاهد الفرنسيين تضم ١١,٠٢١ طالبا منهم ٥٦١ فرنسى. وكان يقوم بذلك النشاط ثلاثون مؤسسة فرنسية فى الاسكندرية، منها البعثة العلمانية Mission Laiqine التى كانت تمتلك وتدير مدرسة الليسيه بالمدينة؛ ومنها مدارس الفرير التى كانت تمتلك كلية سان مارك وكلية سانت كاترين فى محرم بك وباكوس... الخ.

وبالنسبة للبريطانيين فى الاسكندرية، فرغم أن معظم أعضاء الجالية البريطانية بالمدينة كانوا من أهل مالطة، إلا أن المؤثرات الانجليزية فى مجتمع الاسكندرية كانت واضحة. فكانت لهم مدارسهم ومستشفياتهم ونشاطهم الخيرى والانسانى، ومؤسساتهم الاجتماعية والتجارية. فهم قد أسسوا كلية فيكتوريا (١٩٠١) بالمزاريطة على نمط المدارس الانجليزية Public schools لكل التلاميذ من مختلف الجنسيات، ثم نقلت إلى مقرها الحالى (١٩٠٩). كذلك كان لهم مدرسة St. Andrew's (١٨٥٩) التى استقر بها المطاف فى حى السلسلة (١٩٠٠) حيث منحتها الحكومة قطعة أرض بتدخل من لورد كرومر. وكان لهم مدرسة للبنات Scottish School (١٨٦١)، ثم تأسست British Boy's (١٩٢٨) بعد بادرة من لورد لويد.

وبالإضافة إلى المستشفى الانجليزى Anglo Swiss كان للانجليز مؤسساتهم الخيرية فى المدينة. فكان هناك British Benevolent Fund لمساعدة الرعايا الانجليز، وكان هناك بيت العجائز للسيدات Cottage home for old ladies كما كان لهم مؤسساتهم الاجتماعية مثل British Legion لمساعدة قدامى المحاربين، ونادى البحارة والجنود Sailors & Soldiers Institute، وبيت البحارة Alexandria Merchant Seamen's Home الذى صار يستقبل بعدئذ البحارة من كل الجنسيات. كذلك كون الانجليز بالمدينة فرقا للكشافة (١٩١٢) وأخرى للمرشدات (١٩٢١)، وكان لهم ناد للكتاب British Book Club وجمعية لهواة الدراما والموسيقى ونادى سبورتنج، والاتحاد Union Club وكانت عضويته متاحة لكل الجنسيات. كذلك تأسس نادى اليخت British Boat Club (١٩١٩).

والغرفة التجارية الانجليزية فى الاسكندرية (١٨٩٦) كانت كتلة تعمل لها السلطات المصرية والبريطانية كل حساب، على أساس أن أعضاءها يعبرون عن الرأى العام البريطانى فى مصر.

- وإلى الانجليز فى الاسكندرية يرجع الفضل فى تأسيس جمعية الرفق بالحيوان Society for the prevention of cruelty to animals وذلك ببادرة من Sir Cookson القنصل البريطانى فى الاسكندرية. وقد صار لهذه الجمعية فيما بعد مستشفى كبير بمحرم بك.

والاسكندرية لم تتأثر بالأوروبيين بهامثلما تأثرت بوجود الجالية اليونانية. أما فيما عدا ذلك من جاليات أوروبية، فهذه كان يتم تأثيرها غالبا فى المجتمع السكندرى من خلال اليهود بالمدينة.. وهؤلاء، أى اليهود، كانوا يبلغون فى أوائل الثلاثينات من القرن الحالى، ثلاثين ألفا، وكونوا جالية أكثر ما تكون تأثيرا فى المجتمع الاسكندرى.

والجالية اليهودية فى الاسكندرية كانت تتشكل من يهود من مختلف الجنسيات. والكثير منهم كان يحمل الجنسية المصرية، ولكنهم ـ فى تنظيمهم ونشاطهم بشكل عام ـ كانوا ذوى صبغة أوروبية. ومع ذلك فبالنسبة لليهودى، كانت مسألة يهوديته أهم من الجنسية التى ينتمى اليها. فهو يعيش داخل مجتمعه كيهودى، أما جنسيته ـ وهى دائما لا تعدو مسألة جواز السفر الذى يحمله ـ فلم تكن تعنى سوى شيئا قليلا. وعلى ذلك. فهو يصمم على اغلاق متجره فى أعياده مثل Purim. وفى يوم Kippur، تغزو جموع اليهود شارع النبى دانيال، يحمل كل منهم تحت ابطه كيسا من المخمل يضم الكتاب المقدس.

وكانت توجد بالمدينة أرستقراطية يهودية ميزت المجتمع، وهى ارستقراطية قديمة ترجع إلى القرن التاسع عشر. فنجد مثلا من بين أعضاء مجلس ادارة معبد الياهو حنائى Eliahou Hannabi الذى بنته الجالية عام ١٨٥٠ أسماء أوروبية وردت فى قائمة باورنج عن كبار تجار الاسكندرية مثل Monter Corboli، والبارون منشه Menasce. هذه الطبقة كانت تقضى الصيف فى أوروبا، فى انجلترا أو فرنسا، ونساؤها على جانب كبير من الأناقة، وكان لهم مساكنهم الخاصة (فيلاتهم أو قصورهم)، فى الأحياء الراقية، حيث يستقبلون المسئولين البريطانيين، ورجال السلك الدبلوماسى والقضاء، والخاصة من الأجانب، وكبار الموظفين المصريين. والقليل جدا من هذه الاستقراطية اليهودية من كان يحمل الجنسية المصرية، فالغالبية منهم كانت تفضل الانتماء إلى احدى الدول الكبرى كانجلترا وفرنسا والنمسا وايطاليا. وفى نفس الوقت، كانت هذه الطبقة تسعى إلى الحصول على وظائف القنصل أو نائبه فى المدينة، وذلك بالنسبة للدول الصغيرة.

واستطاع يهود الاسكندرية تنظيم أنفسهم بالمساعدات والخبرات الأوروبية وأنشأوا مختلف المؤسسات للخدمات التعليمية والصحية والرياضية والاجتماعية بالمدينة، فتقيم مثلا جماعة الأليانس أو الحلف الاسرائيلى L'Alliance Israelite مدرستين أحدهما للبنين والأخرى للبنات، وتكون اللغة الفرنسية هى لغة التعليم بها. كذلك قدم اليهود بالمدينة الخدمات للمهاجرين منهم والذين وفدوا إلى الاسكندرية فى مناسبات من الخارج.

كذلك لعب المجتمع اليهودى فى المدينة دورا محدودا فى مجال النشاط الصهيونى خارج فلسطين، فهم يؤسسون (١٩٠٨) ـ كما يقول بن صهيون Taragan Bension فى كتابه Les Communautes Israelite D,Alexandrie جمعية صغيرة عرفت باسم بنى صهيون Bene Zion لتبنى برنامج بازل. وفى العام التالى تكونت جمعية جديدة من مهاجرى الروسيا تحت اسم Zeire Zion. ويرى البعض ـ مثل الكاتب أحمد بهاء الدين فى تقديمه لكتاب أحمد غنيم، اليهود والحركة الصهيونية فى مصر ـ أن الحركة الصهيونية حينئذ كانت تعمل على نسف انتماء اليهود إلى الأقطار العربية التى يعيشون بها.

عموما، إذا كان النشاط الصهيونى فى المدينة لم يلق النجاح المنتظر حينئذ، فإن قيام الحرب العالمية الأولى وزيارات فايتزمان إلى الاسكندرية، وذلك عمل على انتعاش الحركة الصهيونية بالمدينة، التى استقبلت الآلاف من يهود فلسطين وأوروبا، وهؤلاء أحسن كل من يهود المدينة وأهلها عامة والحكومة المصرية، استقبالهم، ونظمت لهم الدولة أمر استضافتهم وعمليات الغوث لهم، كما أمر لهم السلطان حسين كامل باعانة يومية.

نلاحظ هنا، أنه فى ظل غياب الوعى فى مصر حينئذ بخطورة العمل الصهيونى من ناحية، وما يتمتع به المصريون دوما من روح الود والأخاء والتسامح إزاء الأجانب والأديان السماوية، فى ظل ذلك تسللت الصهيونية إلى المدينة، وتكونت بها المنظمة الصهيونية (١٩٢٥) وانتخب البارون جاك منشه رئيسا لها.

ومع ذلك، فيبدو ـ كما قلنا ـ أن النشاط الصهيونى وتأثيره فى المدينة حينئذ كان محدودا. فاليهود بالمدينة كانوا يعيشون فى رغد، ويتمتعون بحرية تامة، وبكل تقدير واعتبار، وكانت أمورهم المالية على أحسن مايرام، وعلى ذلك فهم لم يتطلعوا ـ كما يقول Lambelin ـ إلى تغيير سياسى، أو انقلاب اجتماعى.

ولكنهم على أى حال، سرعان ما يعملون حسابا لعوامل أخرى جديدة. فالحركة الوطنية المصرية لا تلبث أن تقوى فى أعقاب الحرب العالمية الأولى. من ناحية أخرى بات اليهود فى المدينة يخشون ـ نتيجة لما يحدث فى فلسطين ـ من تسرب الحنق عليهم إلى قلوب المسلمين والمسيحيين على السواء فى مصر. وهكذا يسهم اليهود فى الحركة الوطنية المصرية، ويؤسسون صحيفة الحرية La Liberte باللغة الفرنسية، وشعارها حماية مصالح مصر، وأخذت تدافع عن سعد زغلول والوفد.

أما فيما يتعلق بالجالية اليونانية فى الاسكندرية، فهذه كانت باستمرار أكبر الجاليات عددا. وحسب تعداد عام ١٩٤٧ كانت نسبتهم فى المدينة تبلغ حوالى نصف عدد الأجانب بها، وقد بدأت العائلات اليونانية تستقر فى الاسكندرية فى عهد محمد على. ومنذ حوالى عام ١٨٣٠ اندمج اليونانيون فى المدينة فى جالية، بمعنى أنهم كونوا منظمة كبيرة قوامها القومية اليونانية ولها نظامها التعليمى ونشاطها الخاص بالخدمات والمشروعات. وفى مدى قرن من الزمان استطاع اليونانيون بكثير من الجد والمثابرة التأثير فى المدينة التى اعتبروها وطنهم الثانى، واحتلت جاليتهم مكانة مرموقة بين الجاليات الأوروبية الأخرى، وتضاعفت مؤسساتهم المالية بالمدينة مثل .alvago Benachi. Cozzika. Tozziza.. الخ. كذلك شهدت المدينة منهم العلماء والأدباء ورجال المال والأعمال.

واليونانيون بالمدينة ـ إلى جانب نشاطهم التجارى والاجتماعى ـ قاموا بنشاط علمى واعلامى بعيد المدى، وتعدى تأثير هذا النشاط الأخير الجالية اليونانية إلى الجاليات الأخرى، كالفرنسية والايطالية بل وصل أحيانا إلى أهل المدينة باللغة العربية. وفى خلال الفترة ما بين عامى ١٨٦٢، ١٩٧٢ أصدر يونانيو الاسكندرية وحدها ٢٥٣ جريدة ومجلة، أغلبها باللغة اليونانية، والبعض منها كان باللغة العربية أو الفرنسية أو الانجليزية، وكان البعض منها بعدة لغات فى نفس الوقت، وذلك كما يذكر الدكتور أوجين ميخائيليدس فى مؤلفه سجل مصور للصحافة اليونانية فى الديار المصرية (١٨٦٢ ـ ١٩٧٢).

وهذه هى الصحف التى ظهرت فى هذه الفترة بغير الغة اليونانية: La Larquette (بالفرنسية ١٨٩٩) ـ La Phare d'Alexandrie (الفرنسية ١٨٧٤) ـ Arrivi (بالفرنسية والعربية ١٨٨٢) Arrivage du Jour (بالفرنسية ١٨٨٨) ـ المخبر المصرى (بالعربية ١٨٨٨) ـ النور التوفيقى (بالعربية ١٨٨٨) ـ المنارة (بالعربية ١٨٨٨) أنيس الجليس (بالعربية ١٨٩٨) ـ La Vallee du Nil (بالفرنسية ١٩٠٨) Journal du Commerce et de la Ma-rine (بالفرنسية ١٩٠٩) L'Elpidée (بالفرنسية واليونانية ١٩١٢) ـ Courier des Bourses (بالفرنسية ١٩٢٢) Grammata (بالفرنسية ١٩٢٢) ـ Athletic News (بالانجليزية ١٩٢٤) ـ Scuentifique Egyptienne (بالفرنسية ١٩٢٤) Cinema (الفرنسية ١٩٢٤) Maa lesh (بالفرنسية ١٩٢٤) ـ Le Phare Egyptien (الفرنسية ١٩٢٥) ـ اليونانى المتمصر (بالعربية واليونانية ١٩٣٢) ـ الراعى الصالح (العربية ١٩٤٠) ـ Gymnase Averoff (بالفرنسية ١٩٤٠) ـ The Nile (الانجليزية ١٩٤٧) ـ بريد الشركات (بالعربية ١٩٥٠) ـ مجلة الرابطة اليونانية (بالعربية ١٩٥٠) ـ قبرص Chypre (باللغات العربية واليونانية والفرنسية والانجليزية ١٩٥٠).

وهناك الكثير من أهل الاسكندرية من اليونانيين ممن قدموا دراسات لكل من الجالية اليونانية والمصرية أو للأجانب بها فى مجالات متعددة، كالتاريخ والأدب واللغة... الخ. تتعلق بمصر عامة والاسكندرية خاصة. كذلك أخرجت مطابع الاسكندرية كتبا ليونانيين تتعلق بقضايا مصرية ـ ومن هؤلاء على سبيل العد لا الحصر:

١ـ جيراسيموس بنداكس (١٨٣٨ ـ ١٨٩٩) وله معجم فى اللغتين العربية واليونانية وترجمة للقرآن الكريم إلى اللغة اليونانية. ٢ـ سكوتيدس، وكتب عن أزمة الاحتلال البريطانى. ٣ـ الدكتور أوليمبوس، وكان يصدر مجلة طب الأسنان. ٤ـ كرينوس دى كاسترو وكان فنانا موسيقيا. ٥ـ الدكتور نيوقولا مافريس الذى كتب «أغانى مصرية شعبية». ٦ـ اثناسيوس بوليتس وله كتاب «اليونانيون ومصر الحديثة.» ٧ـ ومن العلماء اليونانيين المعاصرين الدكتور أوجين ميخائيليدس وكان يشغل منصب مدير معهد الدراسات اليونانية بالاسكندرية وتوفى منذ عهد قريب، وله مجموعة كبيرة من المصنفات يربو عددها على الألف مصنف، وأكثر من مائتى بحث علمى، وكتب عن تاريخ دير طور سيناء، وعلى عبدالرازق، وثورة عرابى وطه حسين والصحافة اليونانية فى مصر... الخ.

اضافة إلى ذلك، فهناك دوريات يونانية لاتزال تصدر إلى الآن منها الكثير عن الأبحاث الخاصة بمصر، مثل نشرة معهد الدراسات الشرقية لمكتبة دار بطريركية الروم الأرثوذكس بالاسكندرية، والمسمى أنا لكتا أى المنتخبات من عام ١٩٥٢ وكذلك نشرة معهد الدراسات اليونانية بالاسكندرية.

كذلك شهدت الاسكندرية شعراء يونانيين أثرت بيئة الاسكندرية فيهم، وأثروا هم بالتالى فى مجتمع المدينة. وأنتجت مطابع الاسكندرية ترجمات عربية من أشعار اليونانيين. ومن الشعراء اليونانيين من أهل الاسكندرية، قسطنطين كفافيس (١٨٦٣ - ١٩٣٣) وكان ضجرا بالاحتلال البريطانى للبلاد وأسهمت مشاعره فى اذكاء الروح الوطنية لأهل المدينة. وكان كفافيس يقطن منزلا - لايزال موجودا للآن - فى حى كوم الدكة، حتى وفاته عام ١٩٣٣، وهو نفس الحى الذى أنجب فى هذا الأثناء أيضا فنان الشعب سيد درويش.

وقد عاصر كفافيس عدد من شعراء الاسكندرية اليونانيين مثل (قسطنطين قسطنطينيدس) الذى كان يجيد العربية. ونظم هذا الأخير الشعر عن الريف والفلاح وأرض الفراعنة، وأنشأ مع زملائه الأدباء ناديا أدبيا أسموه «نادى الحياة الجديدة» وأصدروا (١٩٠٤) مجلة الحياة الجديدة التى ظلت تصدر حتى عام ١٩٢٧ ومن قصائد قسطنطين ما يحمل هذه العناوين: متحف الاسكندرية - كليوباترا - الاسكندر الأكبر يخاطب مصر، الفلاح المصرى - قبرص الثائرة على الاستعمار.... الخ.

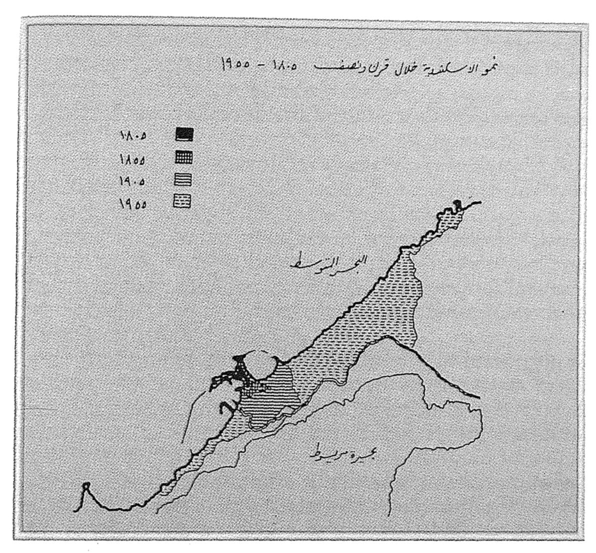
وخلال النصف الأول من القرن العشرين توالى أيضا ظهور الشاعرات الأوربيات الاسكندريات، وجلهن من اليونانيات، ونشرن أشعارهن فى الصحف والمجلات فى المدينة، ومنهن فيجى باليولوغو بترونده.. وفى قصائدها نرى مناجاة الاسكندرية وأمجادها ومصر وأهلها وكفاحها.. وهناك «اليزابيث تشاراس»، وكانت تعمل محررة بجريدة «تشيدروموس» التى أخرجت مجموعتها الشعرية المسماة» (الاسكندرية المكافحة) كذلك كتبت عن الأغانى المصرية الشعبية وترجمت نماذج منها للغة اليونانية.

هؤلاء الأدباء والشعراء كانوا، كما نرى، حلقة وصل بين البيئة المصرية والثقافة اليونانية، وأسهموا فى ظهور حركة أدبية نشيطة بالمدينة، وكتبوا عن الاسكندرية، وترجموا من العربية إلى اليونانية. ولكن يمكن أن يقال على أية حال أن تأثر هؤلاء بالبيئة الاسكندرية كان أقوى من تأثر البيئة بهم. من ناحية أخرى، فهم بلاشك قد أثروا فى المجتمع السكندرى الأوروبى أكثر من تأثيرهم بالنسبة للغالبية العربية من ذلك المجتمع.

خاتمة:

لقد ترك الأوروبيون بصماتهم على كثير من مظاهر الحياة فى الاسكندرية وفى مبانيها وحدائقها وشواطئها... الخ. فالاسكندرية وقد ضمت سكانا من مختلف بلاد أوروبا قد اكتسبت صفة المدينة متعددة الجنسيات cosmpolitan وفشلت فى أن تجعل لها طابعا محليا فى العمارة مثلا تتسم به.. فالانجليز فى ضاحية الرمل قد بنوا لأنفسهم منازل خاصة على الطراز الانجليزى تحوطها مساحات من السندس الأخضر. والايطاليون قد زينوا منازلهم بشرفات Pergolas على الطراز الفلورنسى، وشيد اليونانيون والمعجبون بالفن الاغريقى المدارس والعمائر وقد جعلت واجهتها على الطراز الاثنينى. وعلى هذا الطراز أقامت منظمة الصحة العامية مقرها فى المدينة.

وفى شارع شريف (صلاح سالم الآن)، وهو الحى التجارى فى المدينة، كنت ترى أعلام الدول ترفرف أيام الأحد والعطلات على كل باب وشرفة بالطريق. فهذا حانوت يعرض منتجات باريس، وبجانبه مكاتب لويد فلسطين للملاحة، وبائع كتب اغريقى بجوار تاجر السجاد من القسطنطينية، وهناك حانوت (بقال) من نابلى وبجواره دانمركى يعرض أطباقا من (البورسيلين) ومنتجات بلاده من الجبن والزبد، وآخر من بلغاريا يصنع (الزبادى) Yoghurt الذى كان أهل الاسكندرية يعرفونه باسمه الأوروبى... الخ. هذا بجوار حوانيت الزهور والحلاقة والمجوهرات والحلوى والمصارف وشركات التأمين... الخ. وإذا طرحنا هذه الصفة (الدولية) لذلك الشارع جانبا، كان شارع شريف نموذجا لأى شارع تجارى فى جنوا أو مرسيليا. وفى ذلك، كان ينافس ذلك الشارع شارعا



فؤاد (طريق الحرية الآن)، وسعد زغلول. وشواطىء الاسكندرية فى الصيف كانت تبدو وهى تكاد تجعل المرء يعتقد أنه انما يقضى الصيف فى مصيف أوروبى مثل Cannes.. وحتى اليوم لاتزال أماكن من المدينة تحمل أسماء أوروبية مثل كامب شيزار واسبورتنج وستانلى وجليمونوبولو وزيزينيا.. الخ.

وصار الرجل السكندرى معروفا بأنه ـ أولا وقبل كل شىء ـ رجل أعمال يهدف إلى تكوين ثروة... وكان لمضاربات (بورصة) القطن والأوراق المالية فى المدينة أثرها على المجتمع السكندرى.. أما المرأة السكندرية، فقد شهرت بالفتنة والجمال والجرأة وحب الحياة والفطنة واللباقة. وقد جذبت هذه الصفات لنساء الاسكندرية انتباه الكتاب الأوروبيين. وكانت أجمل نساء المجتمع السكندرى اليونانيات واليهوديات.

وحب العمل والمغامرة بالنسبة لأهل الاسكندرية كان لابد أن يصحبه ميل مقابل إلى اللهو والاستمتاع بالسرور واتخاذ أوقات للاسترخاء والراحة سعيا لصحة الأعصاب. لذلك فهم ينهمكون أحيانا فى ممارسة الرياضة وتنظيم الرحلات واقامة المعسكرات فى الصحراء.

أخيرا، نرى البعض يود ـ فى وصفه للحياة فى مدينة الاسكندرية فى أواخر الثلاثينات من القرن وكما يود Chidiac Bey فى كتابه Axandrie أن يعيد قول الشاعر الاغريقى القديم Herondas عن الاسكندرية، ويؤكد أنها حينئذ تشبه تماما ما وصفها به هيرونداس من قبل حين قال: .

(ان الاسكندرية اليوم لتشبه بيت افروديتى. ففيها يجد المرء كل شىء: الثروة، الرياضة وسماء ندية، ومناظر جميلة، وشبابا وفتية وساما، ونساء جميلات على درجة من الجمال بحيث يمكن مقارنتهن فقط بالالاهات اللاتى يختارهن الآله Paris الذى اختار افروديتى من قبل...).

المتحف اليونانى الرومانى

أ. أحمد عبدالفتاح

مدير عام المتحف

أنشىء المتحف اليونانى الرومانى فى البدء عام ١٨٩١م داخل مبنى بشارع رشيد (جمال عبدالناصر حاليا) وذلك لحفظ آثار مدينة الاسكندرية التى كانت تظهر من أعماق الأرض مع أعمال الحفر لمنازل ومنشآت المدينة المختلفة، فضلا عما كانت تقوم به الجمعية الملكية الأثرية للمدينة من أعمال التنقيب - وكذا بعض هواة البحث عن الحضارة القديمة للمدينة.

وبازدياد حركة العمران والاهتمام بالآثار القديمة للمدينة ظهرت الحاجة إلى إنشاء المتحف الحالى وفى عام ١٨٩٥ بدىء بالجناح الغربى.. واكتمل بناء المتحف بشكله العام سنة ١٩٠٤.

وقد تكونت مجموعات المتحف الأثرية من إهداءات كل من المعهد المصرى ومتحف القاهرة - وكذا المواطنين الأجانب المقيمين بالاسكندرية فى هذا العهد البعيد مثل زيزينيا وجليمونوبلو وكان أكثرهم إهداء للمتحف هو الثرى اليونانى جون أنطونيادس صاحب القصر والحدائق الرائعة على ضفة ترعة المحمودية والذى أدى اهتمامه بإهداء المتحف بالآثار إلى اطلاق اسمه على القاعة رقم (١٠) بالمتحف والتى يعرض بها جانب كبير من القطع الأثرية المهداة منه للمتحف.

وقد أدار هذا المتحف منذ إنشائه وحتى قيام ثورة يوليو عام ١٩٥٢ عدد من المديرين الأجانب والذين قاموا بحفائر فى مواقع عديدة بحثا عن الآثار اليونانية والرومانية سواء داخل نطاق مدينة الاسكندرية أو فى مدن مصرية مختلفة جرت بها وقائع التاريخ اليونانى الرومانى مثل الفيوم والبهنسا والصحراء الغربية كما كان المتحف يراقب حفر أساسات منازل المدينة ومنشآتها والتى كان لها أكبر الأثر فى تزويد المتحف بالعديد من القطع الأثرية والكشف عن معالم جبانات الإسكندرية الغربية والشرقية وجانب من بقايا أحياء المدينة القديمة وفى مقدمتها الحى الملكى.

ومن أهم المواقع التى كشف عنها المتحف خلال ما يزيد عن قرن مضى مناطق جبانات الشاطبى ومصطفى كامل والحضرة التى ترجع للعصر البطلمى أساسا - وكذا البقايا المطمورة تحت الأنقاض والرمال السافية حول عامود دقلديانوس بمعبد السيرابيوم - وكذا كوم الشقافة وجبانة اللاتين ومنطقة كوم الدكة الأثرية الحافلة التى عثر بها على جانب من معالم الحياة الدينوية/ للمدينة القديمة خلال العصور اليونانية والرومانية والاسلامية المبكرة ومن أهمها المدرج الرخامى والحمامات، والمنازل والفيلات الرومانية والشوارع القديمة.

كذلك كشف حفائر المتحف عن معبد التمساح بالفيوم وتم نقل هيكل المعبد وبواباته ومحتوياته للمتحف، كذلك كشفت حفائر المتحف بكانوب القديمة (أبى قير) عن مجموعة هامة من تماثيل (رمسيس الثانى) والملوك السابقين له من الجرانيت والكوارتيزايت وكذا أرضيات من الفسيفساء الملون وأحواض وأعمدة وتماثيل لكاهنات ايزيس من البازلت الأسود والصلب.

كما أدت المراقبة الأثرية إلى الكشف عن العديد من التحف الفنية من تماثيل مصرية ويونانية ورومانية ونقوش وبقايا حياة يومية بمنطقة المعمورة بأرض الأمير السابق عمر طوسون.

كذلك كشفت حفائر المتحف بالبهنسا عن تماثيل لكاهنات من العصر الرومانى وبقايا بازيليكا مسيحية هامة من الحجر الجيرى - كما أدت المراقبة الأثرية للمتحف للكشف عام ١٩٣٦ عن معبد رومانى من الطراز الأيونى يرجع للقرن الثانى داخل محجر للرمال بمنطقة الرأس السوداء، وجد به مجموعة من تماثيل رخامية لأرباب

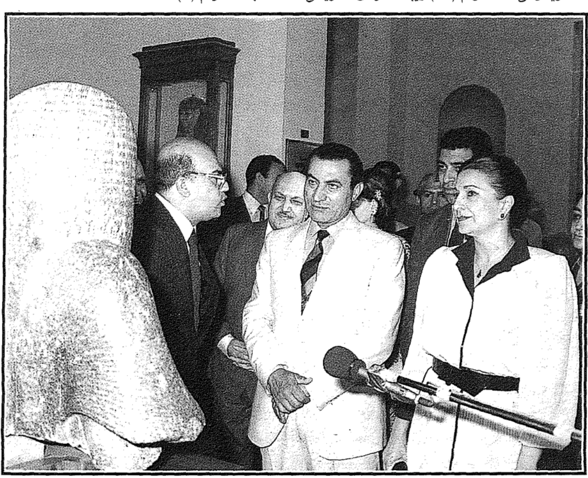
الاسكندرية القديمة ايزيس - أوزوريس كانوب - حريوقراط وهيرمانوبيس داخل احدى قاعات هذا المعبد فضلا عن تمثال لقدم نذرى أعلى قاعدة تحمل نصا اغريقيا يكشف عن طبيعة هذا المعبد واسم الشخص الذى قام بالاهداء.

كذلك كشف عام ١٩٦٠ عن جانب من مقبرة هامة من الجبانة الغربية القديمة للاسكندرية بمنطقة الورديان تصور للمرة الأولى مشهدا ريفيا خلويا أو ضيعة قديمة بتخوم المدينة يظهر بها لأول مرة مشهدا لساقية يجرها ثوران ممتلئان وطيور مائية وراعى وأحد التماثيل الخاصة بتزين الحدائق والحقول القديمة والمعروف باسم تمثال (هرمس) فضلا عن تصوير الروح أمام مائدة قربان وقد صورت هذه الرسوم طبقا للتقاليد المصرية البطلمية الرومانية فى الرسم مجتمعة.

كذلك كشف المتحف عن مقبرتين هامتين احداهما من العصر البطلمى عثر عليها بمنطقة سوق الورديان وهى نموذج للمقابر القديمة للاسكندرية فى ذلك العصر والأخرى بمنطقة الورديان وترجع للعصر الرومانى، وقد تم قطعهما ونقلهما وإعادة بنائهما بالحديقة القبلية للمتحف.

وأيضا كشف بجبانات الشاطبى والأنفوشى وأسفل قصر رأس التين عن مقابر هامة زودت المتحف بروائعه الأثرية من الذخائر الفنية.

وقد تأثر تاريخ المتحف بالأحداث العالمية والمحلية التى شهدتها مصر وخاصة خلال فترات الحربين العالميتين وعودة مصر للسيادة القومية، وقد تم تطوير المتحف عام ١٩٨٤ فى عهد الرئيس/ محمد حسنى مبارك والذى يعد أول حاكم مصرى صميم يولى هذا المتحف عناية منذ عام ١٨٩١ إذ قام بزيارته وبإفتتاح أعمال التطوير التى تمت فى عهده حيث تم وصل الجناحين الغربى والشرقى وأضيف جناح جديد للعملات الأثرية وهى القاعة رقم (٢٤) ويبدأ العرض التاريخى للمتحف بالقاعة رقم (٦).



السيد الرئيس محمد حسنى مبارك رئيس الجمهورية
عند زيارة سيادته للمتحف اليونانى الرومانى بعد تطويره فى عهده عام ١٩٨٤

وقد تم تنظيم معروضات المتحف بقاعاته المختلفة على النحو التالي:

القاعات من (١ : ٤) :

توجد بهذه القاعات مجموعات هامة من العصر القبطى عثر عليها بالاسكندرية ومواقع عديدة بمدن القطر المختلفة مثل الشيخ عبادة والأشمونين وأخميم وأسوان.

- ومن بين تلك المجموعات لوح رخامى مصور عليه بالبارز القديس أبومينا واقفا بين جملين رابضين - وكذا عامودان رخاميان وجانب من حجاب هيكل رخامى وهى جميعا من منطقة الدخيلة غرب الاسكندرية حيث كان يوجد الدير المعروف بالهيناتون.

- قاعدة تمثال رخامى عليها نص يخلد تطهير ترعة الاسكندرية القديمة (المحمودية حاليا) فى عصر الامبراطور البيزنطى ليو الأول (٤٥٧ - ٤٧٤م) ويوجد أعلى النص تصوير لاكليل نباتى يتخلله علامة الصليب وهو من شارات الدولة البيزنطية.

- مجموعة من الأوانى الفخارية الجميلة التى تصور الفن المصرى بعضها على هيئة طيور داجنة مصورة فى اطار فنى شعبى.

- وسادة مصنوعة من الصوف الملون عثر عليها بإحدى مقابر جبانة أنطونوى بالشيخ عبادة بمحافظة المنيا.

تيجان فخمة من الرخام على هيئة سلال من الخوص المجدول وقد زينت الجوانب بأطر بداخلها رسم بالبارز لنبات اللوتس النيلى - وهى مجوفة من الداخل لاستعمالها للتعميد ويعتقد أنها بقايا كنيسة القديس مرقص القديمة بالاسكندرية.

- مومياء تحمل على العنق علامة الصليب وهى توضح تمسك المصريين بتقاليد التحنيط بالرغم من اعتناق المسيحية وهو موقف انسانى مؤثر.

- تمثال للراعى الصالح يرمز للسيد المسيح يرجع للقرن السادس الميلادى وهو أثر نادر عثر عليه بالصحراء الغربية.

- قدر كبير من الفخار عليها رسوم بسيطة لسمكة وحمامة وعليها رسم لأحد القديسيين يحيط برأسه هالة عثر عليه فى وادى النطرون.

- مجموعة من المنسوجات الجميلة تمثل الفن الشعبى القبطى وهو من بقاع شتى بمصر.

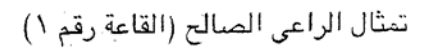
- مجموعة من شواهد القبور تحمل نصوص ورموز مسيحية وهى من الحجر الجيرى.

- بقايا جصية لدير قديم من منطقة أبو جرج غرب الاسكندرية - وهى تحمل رسوما لمسيحية ملونة من أهمها منظر البشارة داخل محراب.



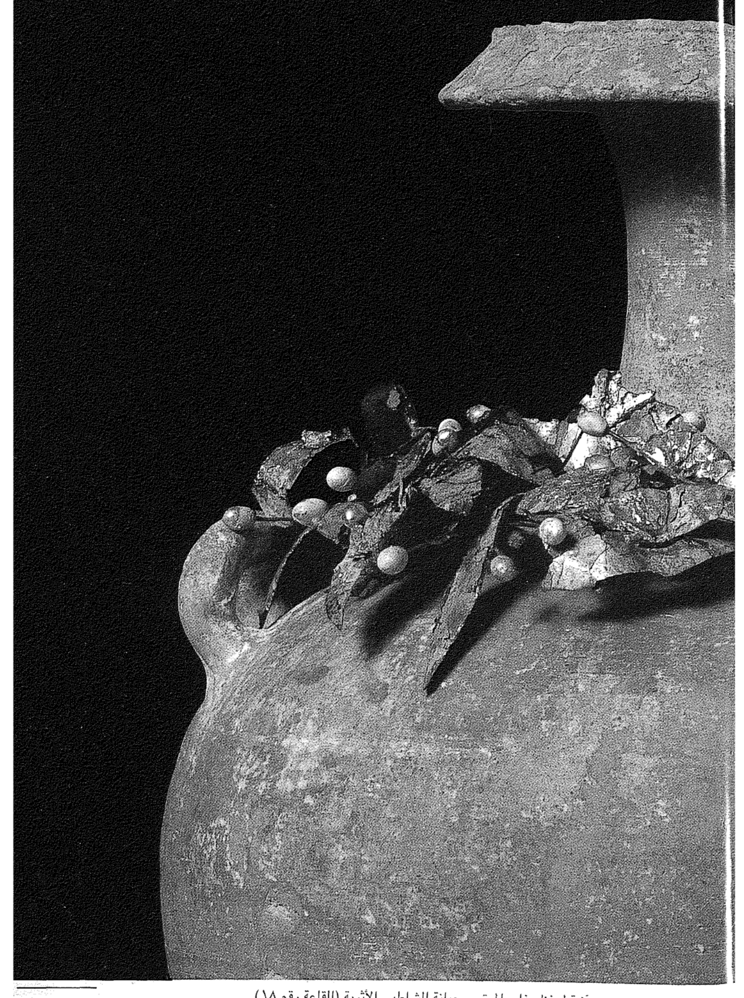
إبريق من فخار ملون عصر قبطى (القاعة رقم١)





تمثال الراعى الصالح (القاعة رقم ١)





آنية لحفظ رفات الموتى - جبانة الشاطبى الأثرية (القاعة رقم ١٨)

القاعة رقم (٥) :

يوجد بهذه القاعة مجموعة من الحلى الذهبية والتماثيل وودائع أساس معبد السيرابيوم والتحف الفنية التى عثر عليها بالمناطق الأثرية الهامة سواء بالاسكندرية أو البحيرة أو المهداه أو المشتراه، ومن أهم المجموعات المعروضة:

ـ لوحات ودائع أساس معبدا السيرابيوم وصربوقراط من الذهب والفضة والبرونز والزجاج وطمى النيل، وهى مجموعة جميلة من اللوحات والبيادق مكتوبة بالخطين الهيروغليفى والاغريقى بالطرق والكتابة.

ـ مجموعة من الصفائح الذهبية تكسو أجزاء مختلفة من المومياء من بينها أغلفة أصابع وعيون ولسان عثر عليها عام ١٩٤٢ بمقبرة نمسيس بكتاكومب كوم الشقافة.

ـ مجموعة من الحلى الذهبية كشف عنها عام ١٩٨٣ داخل تابوت من الجرانيت أثناء حفر أساس احدى عمائر اسكان ضابط القوات المسلحة بالطرف الشرقى من معسكر منطقة مصطفى كامل القديم.

ـ مجموعة من الحلى الذهبية عثر عليها بتل النجيلى الأثرى مركز المحمودية بمحافظة البحيرة من بينها أقراط ذهبية بعضها مطعم بالزجاج ولوحة مربعة تحمل صور أشخاص اسطورية وقرص ذهبى.

ـ جذع تمثال رائع لافروديت ألهة الحب والجمال الاغريقية من الفضة الخالصة يبلغ ارتفاعه ٢٥سم وكان هذا التمثال مكونا فى الأصل من أجزاء مختلفة مثل الرأس والساقين ويعد هذا التمثال من التماثيل النادرة حيث أنه يرجع للعصر البطلمى فضلا عن إنه من النادر العثور على تماثيل من الفضة للإله افروديت.

ـ كأس مصور عليه بالبارز طقس اعداد الخمر بمعرفة أعوان اله الجمر ديونيسوس وقد صور اله الخمر بين أغصان الكرم وهو من الفضة وقد موهت أجزاء كثيرة من الرسوم البارزة بالذهب.

القاعة رقم (٦) :

يعرض بهذه القاعة رأس جميل للاسكندر الأكبر من الرخام الأبيض يتميز بقوة التعبير بإرتفاع ٣٢سم عثر عليه بالقرب من مسار شارع كانوب القديم.

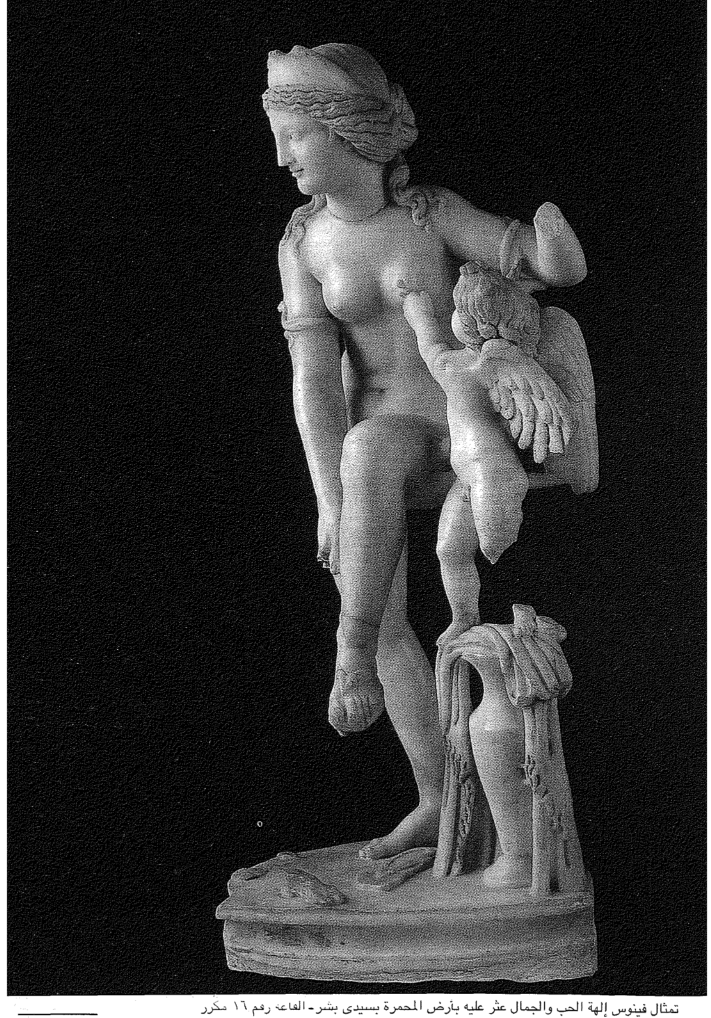
ـ قطعتين من الفسيفساء الملون على الجدارين الشرقى والغربى عثر عليها بشرق الدلتا وهما يصوران سيدة ترتدى على رأسها خوذة على شكل مقدمة سفينة حربية ويعتقد البعض أنها تمثل مدينة الاسكندرية، ويعتقد البعض من العلماء المحدثين أنها تمثل الملكة برنيكى الثانية زوجة بطليموس الثالث (٢٤٦ ـ ٢٢١ ق.م) عثر على هاتين الأرضيتين بشرق الدلتا.

تمثال جميل للمعبود حربوقراط يمثله عاريا ووجهه يطفح بالبشر والسرور عثر عليه ضمن المجموعة الأثرية الرخامية بأرض المحمرة بسيدى بشر.

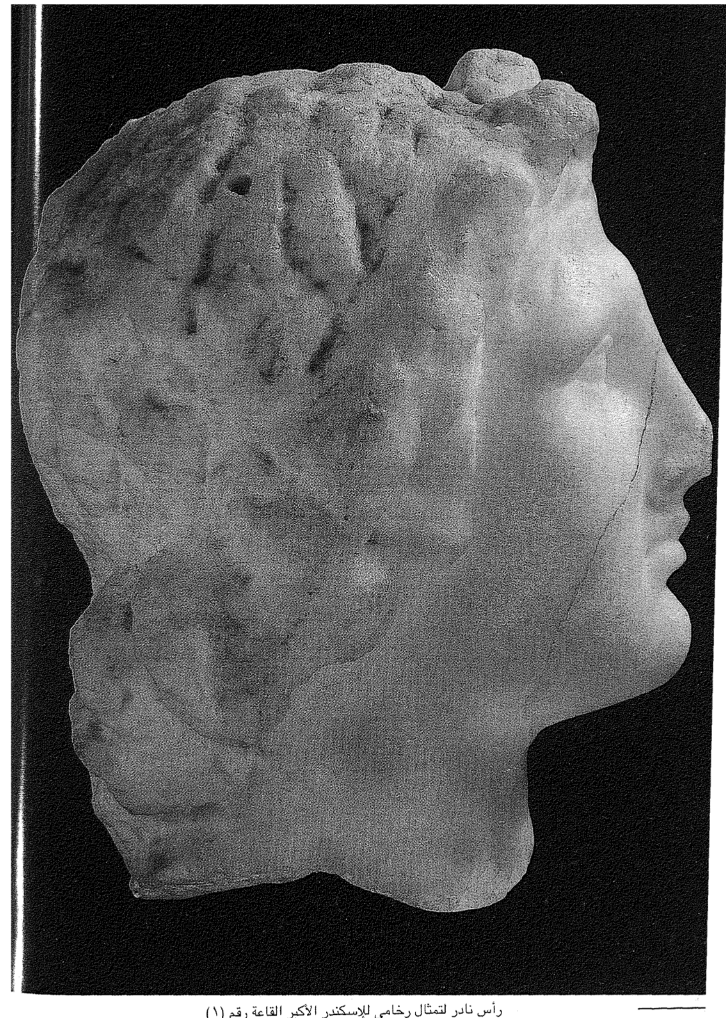
تمثال يجسد الصورة المصرية للإله سيرابيس معبود دولة البطالمة الرسمى فى هيئة ثور أسود وقد وجد على الركيزة التى توجد أسفل بطن التمثال بقايا كتابة يونانية محفورة تؤكد أن الذى أقام هذا التمثال هو الامبراطور الرومانى هدريان (١١٧ ـ ١٣٨) والذى كان مولعابشكل خاص بحضارة مصر القديمة وقد عثر على هذا التمثال بأنقاض معبد السيرابيوم القديم عام ١٨٩٥ ويعنى العثور عليه بهذا المعبد أن هذا الامبراطور قد أجرى أعمال توسعة لهذا المعبد فى عهده.

تمثال نصفى رخامى مجوف للمعبد سيرابيس على هيئة انسان وتحمل ملامح هذا المعبود المميزة فى هذه الهيئة وهى ـ سلة الأسرار المقدسة أعلى الرأس وخمسة خصلات من الشعر على الجبهة وشعر غزير ولحية وشارب مفتول والفم منفرج والشفاه مختلفة وكان الوجه مموها بالذهب ويبلغ ارتفاعه ٨١سم عثر عليه بمعبد السيرابيوم.

رأس من الجرانيت الأحمر للاسكندر الأكبر بارتفاع ٣٤سم وهى من القطع النادرة للإسكندر من الحجر



تمثال فينوس إلهة الحب والجمال عثر عليه بأرض المحمرة بسيدى بشر - القاعة رقم ١٦ مكرر



رأس نادر لتمثال رخامى للإسكندر الأكبر القاعة رقم (١)

المصرى المقطوع من محاجر أسوان والعيون مجوفة بعد أن اختفت مادة التطعيم وتوجد أعلى الرأس آثار علامة الحية الملكية.

تمثال هام للألهة إيزيس بملامح رومانية تمسك بيدها اليسرى إناء لحفظ مياه النيل المقدسة، واليد اليمنى منفصلة كان يلتفت حولها أفعى ويعلو الرأس تاج يتوسطه قرص الشمس ويعلوه ريشتان، وتطأ المعبودة بقدمها اليسرى تمساحا نيليا صغيرا وهذا التمثال ومجموعة تماثيل للألهة حربوقراط، وهرمانويس، وأوزوريس كانوب، ومذبح، وقدم نذرى كل هذه القطع عثر عليها بمعبد الرأس السوداء وترجع للعصر الرومانى وهى من الرخام وبالغة الصقل وتوجد هذه التماثيل الأخيرة بالقاعة رقم "G" المواجهة لمدخل المتحف.

القاعة رقم (٧) :

تضم هذه القاعة مجموعة من القطع الأثرية ترجع لعصور مختلفة أقدمها عصر الدولة الوسطى، وقد كشف عن هذه القطع الأثرية بمنطقة طابية التوفيقية وحتى نهاية العصر الرومانى ومن بين هذه القطع بوسط القاعة تمثال ضخم من الجرانيت الوردى لرمسيس الثانى (١٢٩٨ - ١٢٨٣ ق.م) وقد صورت احدى بناته إلى جانب التمثال والتى يعتقد أن لها علاقة بانتشال النبى موسى عليه السلام من الماء وتربيته فى قصر فرعون مصر.

ويعتقد أن هذا التمثال كان لأحد الفراعنة السابقين وأعاد رمسيس الثانى استعماله بتحوير الوجه وكتابة النقوش، وتمثالين لأبا الهول من الكوارتيزايت أحدهما يحتمل أن يكون من عهد أمنمحات الرابع (١٨٠٠ - ١٧٩٢ ق.م) والتمثال الآخر يحتمل أن يكون لنفس الملك وأعاد استخدامه رمسيس الثانى وقدمه لآلهة مدينة منف، يوجد بالمحاريب الموجودة بالقاعة تماثيل من البازلت الأسود يعتقد أنها للمعبودة المصرية إيزيس خلال العصر الرومانى أو إحدى كاهناتها - كذلك يوجد بالمحراب الشمالى الشرقى للقاعة النصف العلوى من تمثال من الجرانيت الوردى لرمسيس الثانى يمثله بملامحه الأصلية فى طور الشباب والقوة.

القاعة رقم (٨) :

يعرض بهذه القاعة ثلاث مومياوات بطلمية ورومانية وهى توضح مدى ازدياد الاهتمام بدءا من العصر البطلمى بالشكل الخارجى للمومياء، مع تراجع فى مستوى إتقان التحنيط، وقد لون غلاف المومياء البطلمية أساسا باللون الأخضر وبخطوط حمراء على أرضية بيضاء وقد زينت هذه المومياء بمناظر أرباب العالم الآخر والأطوار المختلفة لمحاكمة صاحبة المومياء فى العالم الآخر والتى من أهمها وزن القلب أمام أوزيريس، وقد عثر على هذه المومياء بالدير البحرى.

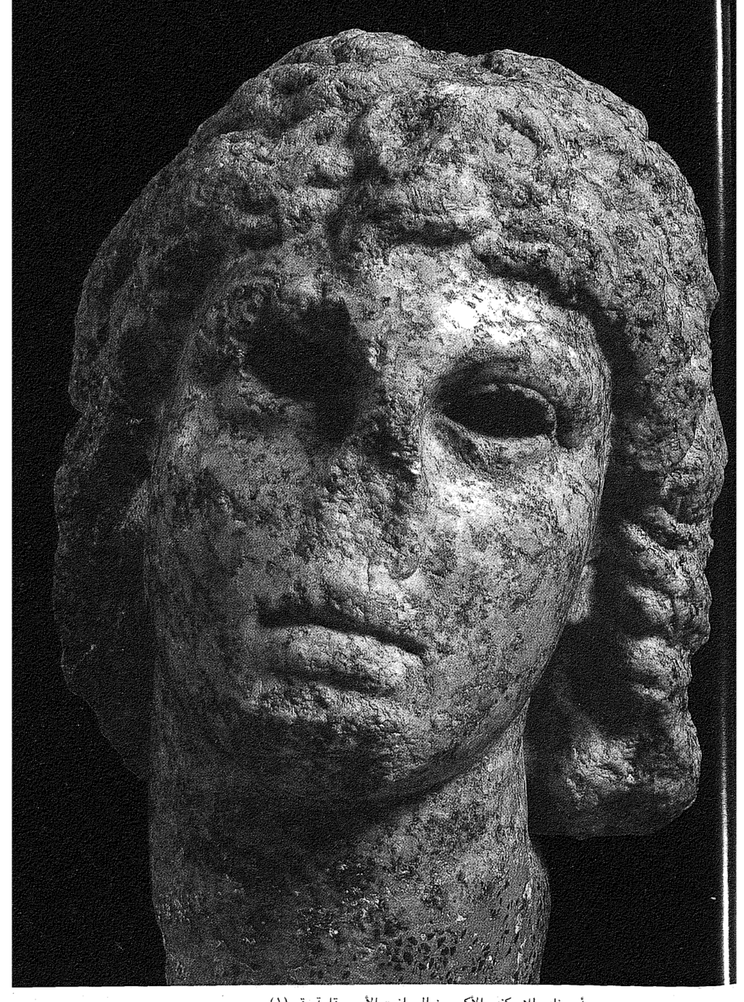
وترجع المومياوان الأخريان للعصر الرومانى وتتميز إحداهما بوجود صورة صاحب المومياء بالألوان على لوح أدمج داخل لفائف المومياء ويعد الرسم المصور على اللوحة بمثابة صورة واقعية لصاحب المومياء وهو أسلوب فنى عرف باسم لوحات الفيوم، كما تتميز هذه المومياء بإتقان لفائفها وقد عثر على هذه المومياء بهوارة بالفيوم.

والمومياء الأخرى المجاورة تتميز بالغلاف الجصى المذهب والمصور عليه بالبارز أرباب مصر خلال العصر الرومانى - ومن أهمها أوزيريس، وأبيس وقد صور ثعبانان هائلان على جانبى المومياء، وقد نزع الوجه بمعرفة لصوص الآثار - وقد عثر على هذه المومياء بواحة الأعرج بالصحراء الغربية.

يوجد بالخزانتين الزجاجيتين بالجدار الغربى للقاعة مجموعات من الأقنعة الجميلة الملونة المعروفة باسم أقنعة الفيوم، وتتميز هذه الأقنعة بعيونها الواسعة المرسومة وبنظراتها العميقة، وهى مصدر هام للوقوف على طبيعة السلالات من السكان التى قطنت البقاع المختلفة من وادى النيل وأساليب حياتها ووسائل ذلك من حلى للزينة وطرق تصفيف الشعر المختلفة خلال القرن الثانى الميلادى.



تمثال رعمسيس الثانى من الجرانيت الوردى قاعة رقم (٧)



رأس نادر للإسكندر الأكبر من الجرانيت الأحمر قاعة رقم (١)

ـ أغطية توابيت من الحجر الجيرى من العصر البطلمى توضح صفحة جديدة لفن نحت الملامح للمومياء على التوابيت الحجرية ووسائل الدمج بين النحت والتلوين.

القاعة رقم (٩) :

تضم هذه القاعة جانبا من الآثار التى عثر عليها داخل معبد التمساح بقرية بطن هريت بالفيوم، وحول هذا المعبد، وقد عثر على هذا المعبد إيفاريستوبريتشيا مدير المتحف عام ١٩١٢ بهذه القرية، والتى تمثل أطلال المدينة القديمة ثيادلفيا خلال العصر البطلمى، وقد كان التمساح هو الإله الرئيسى لتلك المدينة خلال تلك الحقبة ومن أهم المعروضات بهذه القاعة مومياء للتمساح داخل خزانة زجاجية فى الجانب الشرقى من القاعة تعلو المحفة الخشبية التى كان يطوف بها كهنة المعبد قديما بمومياء التمساح داخل المعبد خلال طقوس العبادة الخاصة به، وتستقر هذه المحفة الآن على ركيزة خشبية رشيقة كانت تستعمل قديما لحفظ هذه المحفة بالمعبد.

وفى الجانب الغربى من القاعة يوجد باب المعبد الخشبى وتعلوه كتابة يونانية بخط رشيق تعلن عن أن مواطنا من الإسكندرية، قد قدم هذا الباب للمعبد تكريما للملك بطلميوس الثامن (١٤٥ ـ ١١٦ ق.م) وكل من زوجته وأخته المعروفتين باسم كليوباترا كذلك تعرض بالقاعة لوحتان من الحجر الجيرى مكتوبتان باللغة اليونانية بالحفر ويعلوهما مناظر للتماسيح، ويبين النص المكتوب على اللوحتين حق معبد التمساح فى حماية اللاجئين إليه وقد كان هذا الحق من الامتيازات ذات الصفة القانونية التى كان الملوك البطالمة يمنحونها لبعض معابد مصر خلال ذلك العهد البعيد ضمن سياستهم فى السيطرة على كافة مصادر القوة فى البلاد بالمهادنة، وقد كان فى مقدمة هذه المصادر طائفة الكهنة المصريين فى طول البلاد وعرضها.

ويوجد بالركن الشمالى الغربى من القاعة جزء من جذع مسلة من الكوارتزيت نقشت بالكتابة الهيروغليفية بالحفر الغائر، وهى للملك سيتى الأول (١٣١٢ ـ ١٢٩٨ ق.م) والد رمسيس الثانى، ويلاحظ أنه قد كشف فى الآونة الأخيرة عن العديد من آثار هذا الملك سواء غارقة داخل الميناء الشرقى وأسفل قلعة قايتباى، أو على سطح الأرض غرب ميدان المنشية وقد عثر على هذا الأثر بمنطقة اللبان بالإسكندرية.

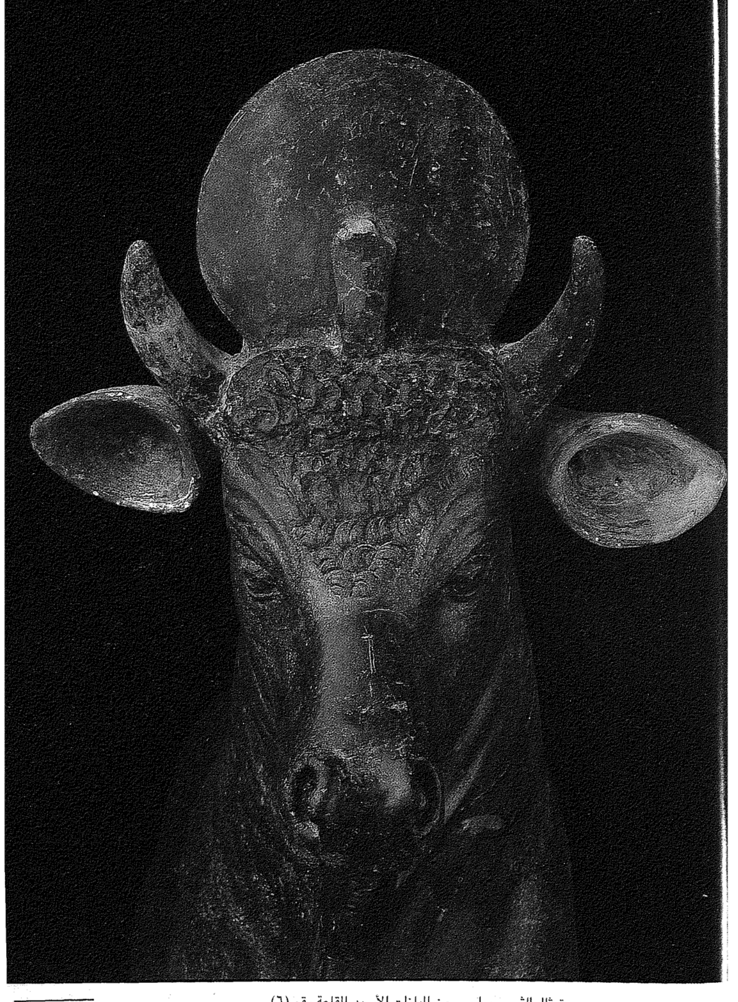
وتوجد بالقاعة خزانتان توجد بهما مجموعة من الأوانى، وتماثيل الأرباب المصرية واليونانية ومن أجملها تمثال خشبى لرأس التمساح، وتمثال للمعبودة هيكاتى المنتحوت من الخشب، وهو من القطع النادرة التى عثر عليها لهذه المعبودة الإغريقية بمصر، وقد عثر على هذه القطع بداخل المعبد، والأبنية المحيطة به والمتصلة بشعائر عبادة التمساح فى أعياده والمناسبات المختلفة، وقد تم نقل بوابات هذا المعبد والتماثيل التى تحيط بها والهيكل الخاص به من الفيوم، وأعيد إقامتها بالجانب الغربى من الحديقة البحرية للمتحف.

القاعة رقم (١٠) :

كانت هذه القاعة تعرف فى الماضى بقاعة جون أنطونيادس وهو من مواطنى المدينة اليونانيين وكان ذا ولع خاص بحضارتى مصر واليونان، وقد أهدى المتحف جانباً كبيراً من مجموعاته الأثرية تعرض بهذه القاعة، وهى الآثار المصرية التى ترجع للعصر المتأخر من تاريخ مصر القديمة باستثناء توابيت من عصر الدولة الحديثة.

ومن أهم معروضات هذه القاعة مجموعات ضخمة من البرونز لتماثيل الأرباب المصرية فى العصور المتأخرة واليونانية ـ الرومانية ـ وهى أوزيريس، وإيزيس ترضع حربوقراط، ونفراتوم وإيمحتب وأبيس، وتحوت، وبتاح، وأنوبيس، وسمخمت وأسماك مقدسة.

وكذا الأوانى البرونزية الخاصة بعبادة إيزيس والتى كانت تملأ بمياه النيل وصور عليها من الخارج بالبارز مناظر خاصة بعبادة إيزيس، وكذا قنينة جميلة عدسية الشكل والمقبضين على هيئة قردين جالسين على جانبى العنق وتحمل هذه القنينة نقشا يتضمن ضراعة لكل من الإلهين بتاح ونيت، وكان هذا النوع من القنينات بمثابة هدية فى بداية السنة المصرية الجديدة والتماثيل المعروفة بتماثيل الأوشبتى وكانت هذه التماثيل على هيئة مومياء وذات وجوه مصرية واضحة وهى تشف عن روح البيئة النيلية الزراعية المصرية فى قالب سحرى



تمثال للثور سيرابيس من البازلت الأسود القاعة رقم (٦)

الطابع، وكانت هذه التماثيل تودع المقابر للخدمة فى العالم الآخر بدلا من الموتى، وكان يدون عليها نص الفقرة السادسة من كتاب الخروج من القبر نهارا المعروف بكتاب الموتى والذى يتضمن هذا المعنى، وكان يخصص لكل من أيام العام تمثالا (أوخادما) وكان للخدم مشرفون، ولذا فقد عثر فى المقابر المصرية القديمة على المئات من هذه التماثيل، وكانت هذه التماثيل تصنع من العديد من المواد ومن أهمها الخشب، والبرونز.. والمجموعة المعروضة بالقاعة عثر عليها بالدير البحرى بالأقصر وكذا توجد مجموعة مختلفة من الجعارين وكانت تستعمل فى العديد من الأغراض الدينية، وخاصة تلك المتعلقة بالحياة الأخرى، وكذا فى الحياة الدنيوية، وكان نوع منها يوضع فى موضع القلب بداخل المومياء ويكتب عليه الفقرة الثلاثون من كتاب الموتى التى توضح *سلوك القلب* أثناء *الحساب فى الآخرة* ووزن *القلب* وكانت هذه *العبارات* تردد *يا قلبى يا* أكمل جزء من كيانى لا تقف شاهدا ضدى أمام المحكمة وقد نحتت المجموعة المعروضة بالقاعة من أحجار جميلة مختلفة الألوان بالغة الصقل وأحدها مجنح.

ويعرض بهذه القاعة أيضا مومياء لطفل من سلالة أسرة من كهنة مصر، ورأس مومياء جانب منها مغطى بلفائف كتانية - وكذا رأس مومياء أخرى مغطاة بقناع رقيق مذهب.

كذلك تعرض القطع الآتية: أربع جرار من حجر الألباستر لحفظ الأحشاء أغطيتها على التوالى على هيئة رأس ادمى، ورأس قرد، وابن أوى، وصفر، وهم الأربع كائنات الخرافية المعروفة فى العقائد الجنائزية المصرية القديمة باسم أبناء حورس وعددهم أربع - تمثال من الخشب الملون لبقرة راقدة على الأرض تحيط برجليها الأماميتين بحوض، والتمثال يحمل كتابة باسم المشرف على تربية قطعان ماشية الاله أمون - سلة مجدولة من نبات السمار وعليها بعض اللون وكانت تحوى الدوم والبيض، وبعضه معروض خارجها - نموذج بالغ الندرة لمنزل مصرى قديم مقام على النيل، والنموذج من الحجر الجيرى - مجموعة من التماثيل.

ويعرض بالقاعة النصف العلوى من تمثال من البازلت الأسود لأحد ملوك البطالمة المتأخرين على الأغلب وقد عثر على هذا التمثال أثناء حفر منزل بمنطقة ميامى بشرق الإسكندرية.

القاعة رقم (١١) :

تعرض بهذه القاعة أساسا القطع الأثرية التى توضح التأثيرات الإغريقية الفنية التى طرأت على مدرسة الفن المصرى طبقا لما ارتاه الفنان المصرى القديم من حاجة للأخذ من الجديد لتلبية متطلبات ذوق العصر مع الحفاظ على القواعد الأساسية للفن المصرى وتقاليده الراسخة.

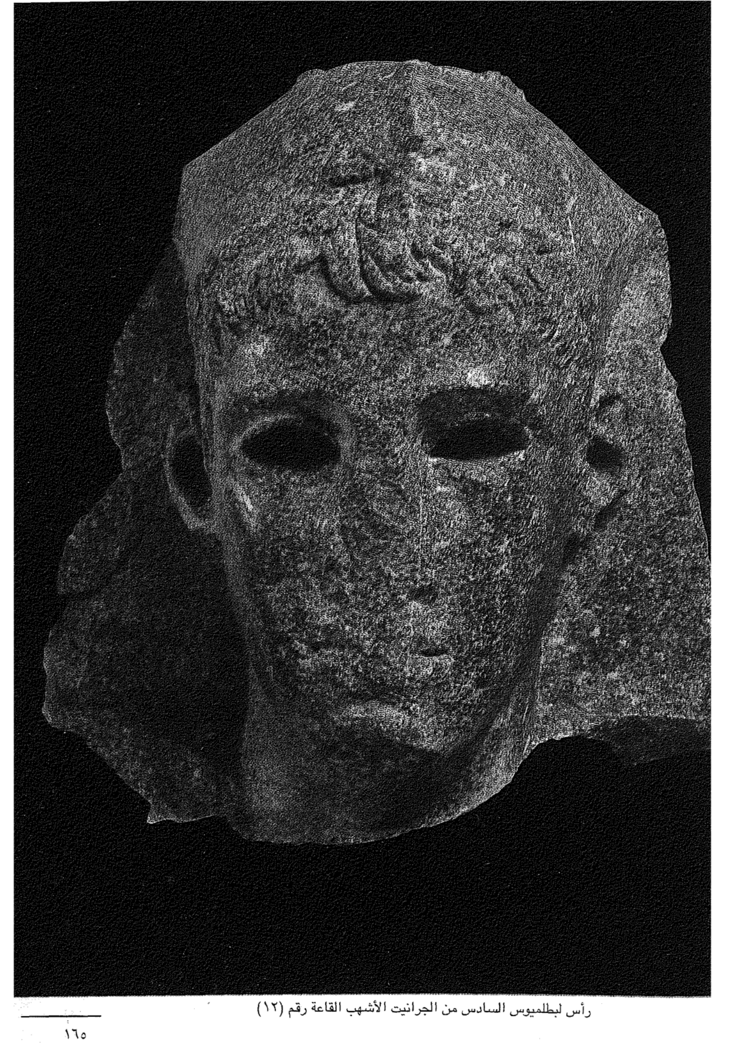
يوجد على جانبى مدخل هذه القاعة قطعتان مستطيلتان من الحجر الجيرى نحت عليهما آثار أقدام كبيرة الحجم وكانت تلك عبارة عن تقدمة فى معابد الآلهة سيرابيس وايزيس كان يقدمها زوار معابد هذين الإلهين للتعبير عن زياراتهم لتلك المعابد والشكر على (استجابة) هذه الآلهة لتوسلاتهم.

ويتوسط القاعة أرضية فسيفساء مستديرة ملونة مصور عليها أشكال هندسية ينبثق منها وحدات تمثل ريش الطيور، وهى من بقايا إحدى قاعات قصر أو منزل أو معبد زالت معالمه منذ القدم وهى توضح مستوى العمران فى المنطقة الواقعة بين الحى الملكى من الجنوب وقناة الإسكندرية قديما فقد عثر عليها فى منطقة محرم بك.

على الجدار الجنوبى من القاعة مجموعة من شواهد المقابر بجبانة الإسكندرية الغربية القديمة، وهى تمثل ذخائر من بقايا العقائد الجنائزية القديمة بالإسكندرية وتصور لوحة بالنحت البارز ثعبانين يتوسطهما مذبح ويجسد هذين الثعبانين الإلة سيرابيس والآخر الإلهة إيزيس واللوحة من الحجر الجيرى الأبيض.

على الجدار الشمالى المقابل يوجد جانب من بقايا جدار من الحجر الجيرى من معبد صور عليه بالبارز إله يرتدى تاجا غريبا يتصل به مجموعة من الأرباب القديمة كالإله بس (الذى يتوسط الأرباب) والإيبس، والتمساح والكبش، وعلى اليسار إله الشمس برأس صقر وجسد إنسان، ويتوسط الإلهين تمثالان لأبى الهول وأمامه صقر يرتدى تاج الوجهين.

ويعبر هذا الأثر عن طبيعة العقائد المصرية خلال العصور المصرية المتأخرة.



رأس لبطلميوس السادس من الجرانيت الأشهب القاعة رقم (١٢)

ويوجد تمثال رائع يمثل سيدة، والتمثال ذو خطوط مصرية غير أنها تتسم بالليونة والميل للتعبير عن تفاصيل الجسد أسفل الرداء تأثراً بالفن الإغريقى والتمثال فاقد الرأس بارتفاع ٢ - ٥٠سم حجر جيرى ضارب للاصفرار ويرجع للقرن الثالث ق. م.

تماثيل لكهنة من البازلت الأسود وجدت بمعبد شمال غرب بحيرة قارون بالفيوم وهى توضح مدى تأثر الفن المصرى بالفن الإغريقى الرومانى بواحة الفيوم وهى ترجع للقرن الأول الميلادى.

القاعة رقم (١٢) :

يتوسط هذه القاعة تمثال ضخم للامبراطور الرومانى ماركوس أوريليوس (١٦١ - ١٨٠م) ويصوره التمثال واقفا بميل قليلا ناحية اليسار، ويرتدى الزى العسكرى الإمبراطورى، ويرتكز على الساق اليمنى وتنثنى الساق اليسرى وتنسحب للخلف قليلا.

ويضع الإمبراطور يده اليمنى على قرن الوفرة الذى ينبثق من جانب الساق اليسرى للإمبراطور وينظر الامبراطور فى شرود يتفق وطبيعة الفلسفة الأخلاقية حيث كان يعتنق الفلسفة الرواقية ويبدو أن الطبيعة الأخلاقية للإمبراطور قد أحدثت انطباعا لدى المسيحيين باعتناق هذا الإمبراطور للعقيدة المسيحية مما دفع البعض إلى إزالة النسر الإمبراطورى أسفل الدرع الذى يرتديه الإمبراطور وحفر علامة الصليب فى موضعه، ويضيف وجود هذه العلامة قيمة أثرية خاصة لهذا التمثال من بين تماثيل الامبراطور الأخرى التى عثر عليها بمصر. وقد عثر على هذا التمثال أثناء حفر أساس مسرح سيد درويش، وهو أكمل تمثال عثر عليه لإمبراطور بالإسكندرية حتى الآن ويبلغ ارتفاعه ٢,١٥م وهو من الرخام الأبيض.

رأس ضخم لبطلميوس الرابع (٢٢٢ - ٢٠٥ ق.م) ويصور هذا الرأس الملك البطلمى بملامحه المعتاد مشاهدتها فى صورة على عملاته، الرأس الأقرب للشكل المربع والخدور الممتلئة وخصلات الشعر مجعدة والوجه بدون لحية أو شارب والعيون مجوفة كانت مطعمة بأحجار ملونة فى القدم تمثل العيون ويعلو الرأس التاج المزدوج الارتفاع ١٥٠م.

جرانيت وردى .. عثر عليه بأبى قير (كانوب).

- رأس لبطلميوس السادس (١٨٠ - ١٤٥ ق.م)، توجد بقايا الحية الكبرى الملكية أعلى الرأس ولا يوجد التاج الملكى، والعيون مجوفة كانت مطعمة بأحجار ملونة الارتفاع ٦١سم جرانيت رمادى عثر عليه بأبى قير (كانوب) وهو من القطع التى توضح امتزاج كل من الفنين المصرى والإغريقى.
- رأس تمثال لبطلميوس السادس أيضا، ولكن قد تم اخراجه فى قالب اغريقى، وتتطابق ملامح هذا التمثال مع التمثال السابق بالرغم من اختلاف أسلوبى النحت للتمثالين غير أن كلا التمثالين يشتركان فى ابراز الطبيعة النفسية للملك المذكور التى تتمثل فى غرابة الأطوار والخلل فى السلوك.
- تمثال من الرخام لسيدة ويتميز هذا التمثال بوجود توقيع المثال الذى نحته على الركبة.
- تمثالين لإله الخمر باكوس، وأحد أتباعه متخاصرين، وقد أصاب التلف التمثالين ولم يؤثر ذلك فى التعرف على الكائنين الأسطوريين، ويتميز التمثالان بالتصوير الواقعى للجسد الانسانى، والطفل البالغ لهما، وقد عثر على هذا الأثر بالبحيرة الموجودة بحديقة الشلالات البحرية بمنطقة باب شرقى.
- رأس يعتقد أنه لإحدى ملكات البطالمة، وهو من أجمل التماثيل التى عثر عليها فى الإسكندرية لسيدة من العصر الهيلنستى - فهو يتميز بقوة التعبير عن المشاعر الرقيقة الباطنة فى أغوار النفس لصاحبة التمثال فضلا عن الصقل البارع لسطحاته، وكان هذا التمثال فى القدم ملونا - وماتزال تشاهد عليه بقايا الألوان، وقد عثر عليه بين أنقاض معبد السيرابيوم فى مطلع هذا القرن - الارتفاع ٤٦سم رخام ملون ضارب للون الرمادى جانب كبير منه أصابه التلف.
- رأس للإسكندر الأكبر عثر عليه فى قاع خليج أبى قير بمعرفة كل من: الأمير عمر طوسون ومدير المتحف الأسبق إيفاريستو بريتشيا - وقد طمست المياه ملامحه عبر القرون يبلغ ارتفاعه حوالى قدم - وهو من الرخام الأبيض ويبدو من هيئته أنه كان عنصراً من تكوين معمارى لاصق به.

- تمثال لالهة النيل ترتكز على تمثال لأبى الهول، وتمسك بيدها قادوسا للماء ويحيط بها أطفال صغار رمزا لأذرعة مقياس النيل، وقد صورت هذه الآلهة بالأسلوب الرومانى - وقد وضع المثال عنصر تمثال أبى الهول للتعبير عن مصر، ويوجد تمثال لإله النيل بجوار هذا التمثال والتمثالان من الرخام.

القاعة رقم (١٣) :

يتوسط هذه القاعة تمثال لإمبراطور رومانى يرتدى حلة عسكرية غير أن الرأس لتمثال آخر للإمبراطور الرومانى سبتميوس سفيروس (١٩٣ - ٢١١م) رخام أبيض.

توجد بهذه القاعة بالجدران أربعة محاريب يوجد بها أربعة تماثيل رخامية من النوع المعروف بتماثيل الخطباء أو الفلاسفة - وهى تصور شخصا واقفا متشحا بالمعطف المعروف بالهيماتيون وكأنه يلقى بخطاب وإلى جانبه صندوق للفائف البردى وأحيانا يمسك باحدى يديه بلفافة بردى، وقد جمعت هذه التماثيل بين خاصية العبقرية الرومانية فى الخطابة والإلقاء (أو الفكر الفلسفى).

ومادة الكتابة والفكر للعالم وهى لفائف البردى المصرية من نباتات النيل النافعة للحضارة الذهنية واللازمة لرقى الإنسان.

القاعة رقم (١٤) :

تضم هذه القاعة مجموعة نادرة من تماثيل أباطرة روما وأقربائهم من الرخام وهى لكل من الأباطرة أوغسطس (٢٧ ق.م ١٤ بعد الميلاد) تيبيريوس (١٤ - ٣٧).

أجريبينا أم نيرون كلوديوس (٤١ - ٥٤) فسباسيان (٦٩ - ٧٩) ماركوس أوريليوس (١٦٧ - ١٨١م) هادريان (١١٧ - ١٣٨) دوميتا لونجينا زوجة الامبراطور دوميتيان (٨١ - ٩٦م) ماركوس أوريليوس (١٦١ - ١٨٠م) سبتميوس سفيروس (١٩٣ - ٢١١م).

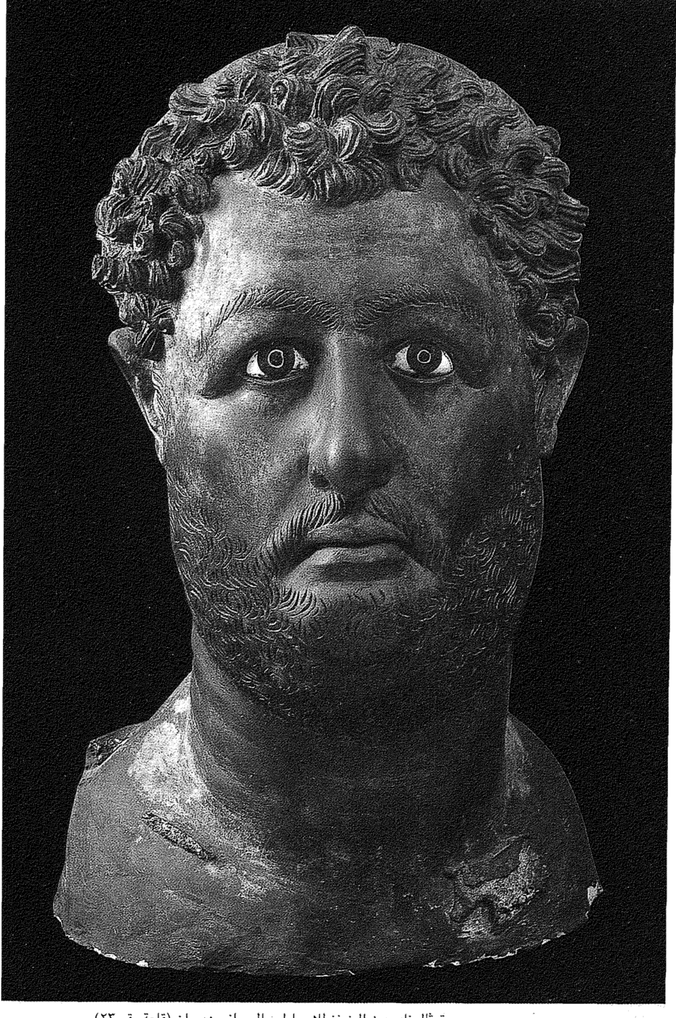
ويتوسط هذه المجموعة جذع تمثال ضخم من الرخام هو تمثال الامبراطور كومودوس (١٨٠ - ١٩٢م) من اهداء الملك السابق فاروق عام ١٩٣٨م.

القاعة رقم (١٥) :

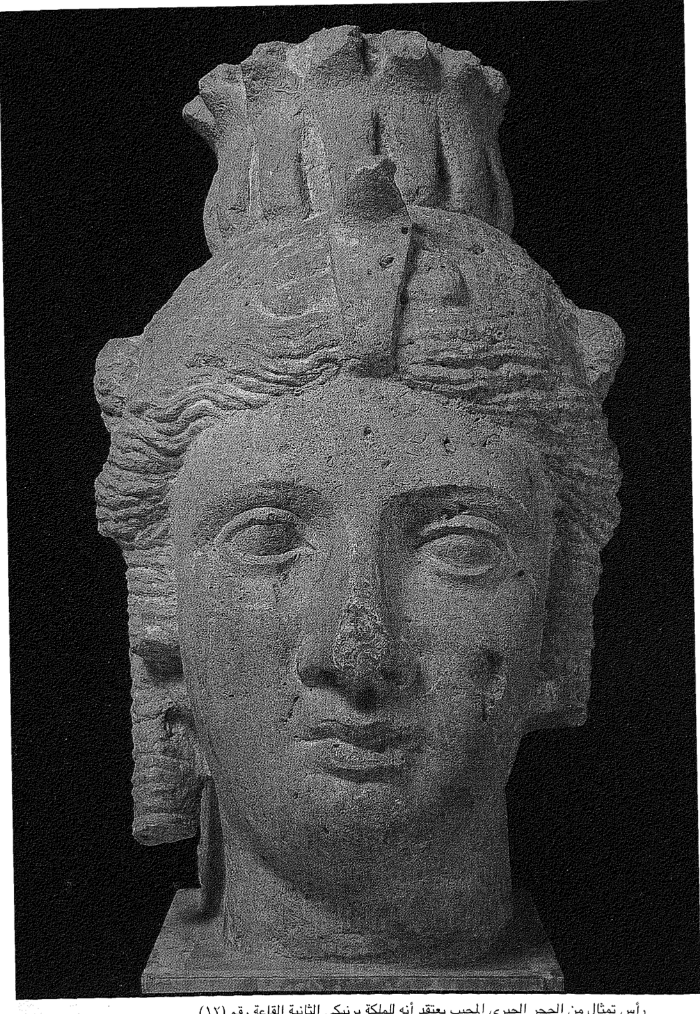
تضم هذه القاعة فى الأصل عناصر معمارية من بقايا مبانى ومقابر الإسكندرية القديمة ذات الطابع المصرى اليونانى المختلط وبعضها مازال عليه آثار الألوان القديمة ومن بين هذه العناصر جزء من حائط قديم لمقبرة عثر عليها أسفل قصر رأس التين مرسوم عليه بالألوان للبطل الإغريقى بأسلوب شعبى الطابع.

ويتوسط هذه القاعة حائط صخرى ضخم من مقبرة عثر عليها فى صيف عام ١٩٦٠م بالجبانة الغربية للإسكندرية أثناء حفر أساس حوض جاف، وترجع أهمية الجدار إلى المشهد الريفى المصور عليه، والذى تظهر به أسفل تكعيبة نباتية مورقة ساقية يجرها اثنان من الثيران القوية الممتلئة لحما وينساب الماء من الساقية إلى حوض تعمره الطيور المائية وقد صور صبيا يعزف على المزمار لحن الحيوانين على الدوران والعمل، كما صور على الجانب الأيمن تمثال نصفى صغير من التماثيل المعروفة بتمثال (هرمس) والتى كانت لتزين الحدائق والحقول، ويوجد على جدار آخر رسما بالألوان لطائر ذى رأس آدمى يمثل روح صاحب المقبرة وأمامه مائدة قربان.

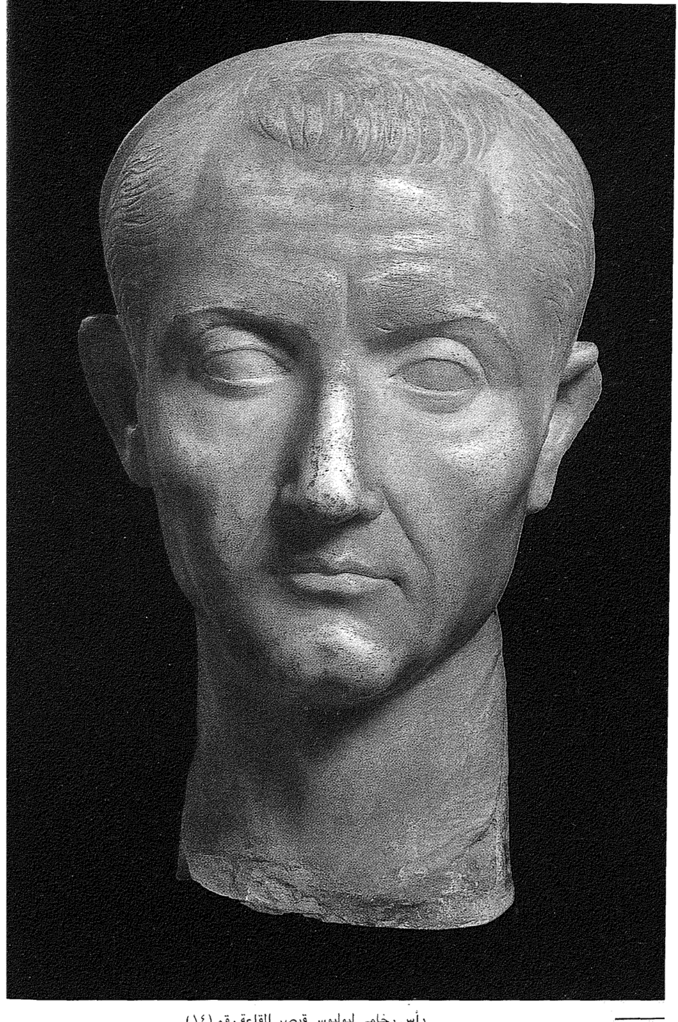
ويعد هذا المنظر بمثابة كنز فنى يكشف عن صفحة مجهولة من الفن الإسكندرى القديم وتتمثل فى أسلوب التعبير عن الطبيعة وتصوير مناظر البيئة المصرية الطبيعية والمناظر الخلوية والأسلوب الفنى للتصوير بالألوان المستعملة فى إخراج تلك المشاهد فضلا عما تصوره من مستوى الثروة الحيوانية وأسلوب تزيين الحدائق والحقول وتنسيقها والهندسة المائية من أجل توفير مادة الحياة الأساسية فى كل العصور - الماء، ويبدو أن المكان المصور يقع داخل الاسكندرية أو تخومها ويعبر عن مدى تأثر العقائد الجنائزية اليونانية الرومانية بالبيئة المصرية النيلية خلال ذلك العصر.



تمثال نادر من البرونز للإمبراطور الرومانى هدريان (قاعة رقم ٢٣)



رأس تمثال من الحجر الجيرى المحبب يعتقد أنه للملكة برنيكى الثانية القاعة رقم (١٢)



رأس رخامى ليوليوس قيصر القاعة رقم (١٤)



رأس ضخم من الرخام لتمثال الإمبراطور أوغسطس القاعة رقم (١٤)



ذراع تمثال ضخم من الرخام الأبيض القاعة رقم (١٦)

القاعة رقم (١٦) :

ـ ساعد ضخم يمسك بكرة، ويوضح هذا العمل الفنى مدى إلمام الفنان القديم بتفاصيل تشريح الجسد الإنسانى الظاهرة والمهارة فى التعبير عنها فى مادة الرخام ـ عثر على هذا الأثر فى بنها.

ـ تمثال لنهر النيل على هيئة رجل مترهل نصف عار يجلس على صخرة ويتكىء بيده اليسرى على فرس النهر وأسفله تماثيل لأطفال ترمز لاذرعة قياس ارتفاع نهر النيل زمن الفيضان وعلى الجانب الأيسر للعرش توجد ثلاث سطور يونانية من الرخام الأبيض ـ عثر عليه بالمنيا.

ـ شاهد قبر على هيئة رجل مسن جالسا مطرقا فى هدوء عميق ويمسك بيده اليمنى زهوراً وبيده اليسرى كأسا من رخام أبيض ـ عثر عليها بأبى قير ـ عصر رومانى.

ـ غطاء ضخم لتابوت على هيئة كاهنة مضطجعة فى استرخاء وترهل على سرير وأسفل قدمها ثعبان يسعى، يوضح التمثال مدى ثراء العمل الفنى بتفاصيل الثوب وطياته وإستاتيكية حركة الجسد وأسلوب التعبير عن أجزائه المختلفة وهو من الرخام الأبيض عثر عليه بالبهنسا بمصر العليا.

ـ تمثال كيريس إلهة الزراعة الرومانية تقف وتمسك بيدها سنابل القمح، وهى من الرخام الأبيض المعرق بعروق رمادية..

ـ تمثال لنسر ضخم ربما يمثل الإله حورس واقفا بهدوء فى حالة هجوع وقد صور ريش النسر بأسلوب اصطلاحى أخاذ وهو من الرخام الأبيض ـ عثر عليه بجزيرة تاشموس ببلاد اليونان.

ـ أرضية فسيفساء ملونة مصور عليها صائد يحمل درعا ورمحا تحيط به من الجوانب مجموعة من الحيوانات الأسطورية وقد شيدت هذه الأرضية من الزلط وهو أقدم أسلوب استعمل فى إقامة أرضيات الإسكندرية القديمة ـ عثر عليها بالقرب من شارع شامبليون ـ عصر بطلمى.

ـ تمثال للإلهة تيخى يمسك بيده اليسرى قرن الوفرة ـ أجزاء منه مفقودة، وهو من الرخام الأبيض..

ـ تمثال طريف للإلهة فينوس ـ إلهة الحب والجمال يصورها عارية وتقف على استحياء تحاول ستر صدرها بيدها اليسرى بينما تمد يدها اليمنى ترفع بها الرداء.

ـ تمثالين لإله الطب إسكليبيوس وابنته هيجيا من الرخام الأبيض من بين مجموعة التماثيل التى عثر عليها بموقع أرض المحمرة بسيدى بشر عام ١٩٧٣م.

ـ يوجد بمدخل القاعة تمثال لفينوس إلهة الحب والجمال ـ عثر عليه ضمن مجموعة تماثيل أرض المحمرة بسيدى بشر عام ١٩٧٣م ويصورها التمثال داخل الحمام وقد نضت عنها الثوب الذى وضعته أعلى إناء للعطر أسفلها من اليسار يعلوه كيوبيد ابنها، وقد فقد الساق الأيسر لكيوبيد..

وقد خلعت النعل من القدم الأيمن وأخذت فى خلع النعل الأيسر الذى مازال لاصقا بقدمها وتوجد قدم أخرى أعلى القاعدة على يمينها والتمثال من الرخام الأبيض بالغ الصقل.

ـ تمثال الإله أبوللو إله الغناء والموسيقى الذى توجد أشهر معابده بدلفى ببلاد اليونان جالسا على صخرة.

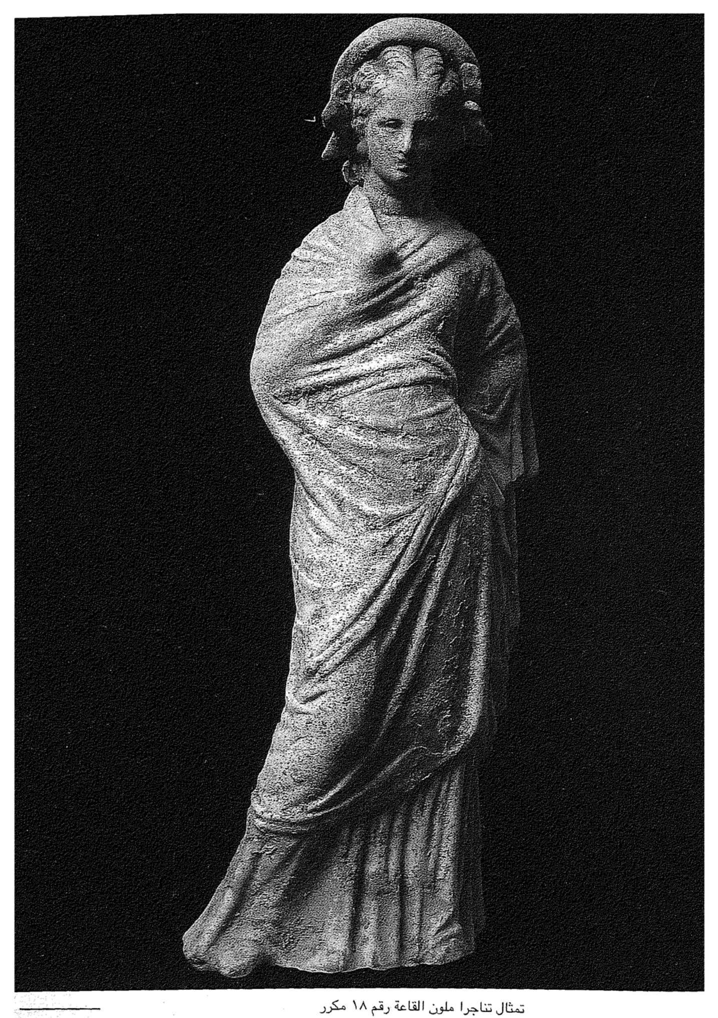
ـ تمثال ضخم غريب الهيئة يصور سيدة جالسة فى حالة أسى وبجانبها طفلة يعتقد بأنها الملكة برنيكى زوجة بطلميوس الثالث (٢٤٦ ـ ٢٢١ ق.م) وابنتها التى قضيت وخلدها مرسوم كانوب الأشهر حجر جيرى أبيض صلب.

ـ تمثال نصفى للإلهة ديمترسلينى ويبرز من أعلى الرأس قرنان وانسان العين محفور بالحدقة والتمثال ذو حضور مؤثر.

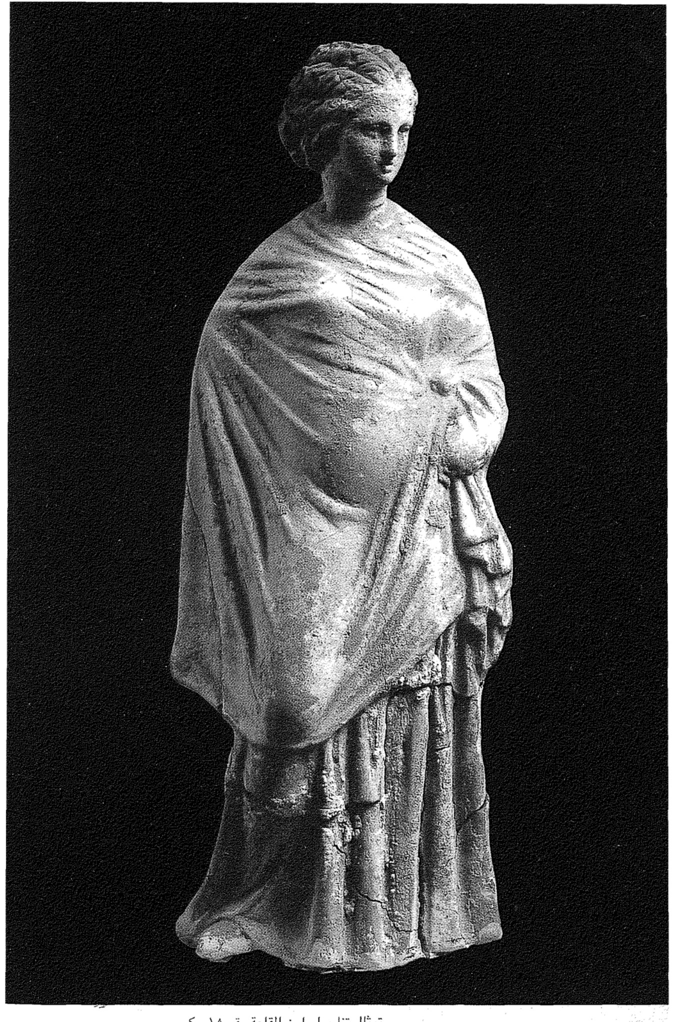
** رأس للإسكندر الأكبر من الرخام الأبيض.



تمثال تناجرا ملون القاعة رقم ١٨ مكرر



تمثال تناجرا ملون القاعة رقم ١٨ مكرر



تمثال تناجرا ملون القاعة رقم ١٨ مكرر

رأس لإسكليبيوس ناقص وكانت الأجزاء الثانوية كالشعر واللحية تصنع من الجص وتثبت بالتمثال ويمثل هذا الأسلوب أحد أساليب مدرسة الإسكندرية فى نحت التماثيل من الأحجار النادرة والاقتصاد فى تمثيل التفاصيل..

ـ الجزء الأسفل للمعبود سيرابيس ـ جوبيتر جالسا على عرش ويعبر هذا التمثال عن القدرة الخارقة للمثال فى ابراز طيات الثوب بشكل بالغ التعقيد والصعوبة ـ وهو ينافس بذلك أساطير النحت فى الفن الحديث مع تقدم آلات الطرق والنحت والثقب.

ـ خمسة تماثيل من الرخام للإله أبوللو توضح الصفات التشريحية للجسد الإنسانى ترجع للفترة من القرون الثانى والثالث قبل الميلاد.

ـ تمثال لإلهة الحب «أفروديت» ترتدى ثوبا شفافا ذا أربطة تتناثر أسفل الصدر والتمثال قطعة فنية بالغة الإتقان..

القاعة رقم (١٧) :

تتميز هذه القاعة بأنها أكثر قاعات المتحف رحابة وتعرض مجموعة من الآثار الرومانية من توابيت من النوع المعروف بتوابيت أكاليل الزهور أو [ظهر الحمار] لشكل الغطاء الجمالونى الذى يماثل ظهر الحمار، وكذا أقراص من البازلت الأسود أعيد استعمالها كتوابيت، وكذا تمثال هائل من البروفير الأحمر، وكذا تمثالين لسيرابيس وهيراقل، وأرضيات فسيفساء على الأرض.. ومعلقة على الجدران وكذا نصب جنائزية على هيئة تماثيل ويمكن العرض لبعض هذه القطع على النحو التالى.

تتوسط القاعة ـ أرضية فسيفساء ملونة لقاعة ضخمة صور عليها مشهد الحياة فى مصر خلال العصر الرومانى حيث صور أشخاص داخل سرادق وأمامهم مائدة مثقلة بالطعام والشراب وتدور أمامهم راقصة لتدخل السرور والبهجة على نفوسهم ـ وقد صور خارج السرادق منظرا نيليا (كان هناك ولع خلال العصر الرومانى بتصوير المناظر النيلية وعجائب مصر من الحيوانات والطيور وكذا الدور والمعابد التى كانت توجد حول النيل).

وتبدو فى هذا المنظر حيوانات نهر النيل من تماسيح وأسماك ـ كما يقوم أقزام بالصيد لهذه الكائنات.

وجدت هذه الأرضية بتمى الأمديد بشرق الدلتا.

تمثال ضخم لشخص جالس على عرش يعتقد أنه الإمبراطور الرومانى دقلديانوس، وقد عثر على هذا التمثال أمام مسجد العطارين وهو فاقد الرأس ومنحوت من حجر البروفير الأحمر النادر وكان للرومان ولع خاص بنحت تماثيلهم من هذا الحجر الذى يوجد بمحاجر جبل الدخان بالبحر الأحمر.

تابوت من الرخام عثر عليه بالجبانة الغربية بالإسكندرية صورت عليه أسطورة أدريادنى ونادرا ما يعثر على توابيت مصور عليها أساطير بالإسكندرية وعلى هذا النحو.

تمثالان من الرخام ضخمان لكل من الإلهين سرابيس وهيرقل عثر على الأول بشارع أديب وتكاد ملامحه تتطابق مع تمثال سيرابيس القديم بمعهد السيرابيوم الذى ورد وصفه بالمصادر الكلاسيكية والثانى يمثل هيرقل جالسا فى استرخاء وفى جانبه هراوته الشهيرة وفاقد الرأس وبحجم أكبر من الطبيعى عثر عليه شمال تل كوم الدكة القديمة وربما كان يوجد داخل معبد قديم لهذا البطل الخارق فى هذه المنطقة.

القاعة رقم (١٨) :

تعرض بهذه القاعة العديد من الأوانى الإغريقية والرومانية المستعملة فى الحياة اليومية فى الإسكندرية وفى

المعابد والمناسبات والأعياد المختلفة كذلك التماثيل المعروفة بتماثيل التركورتا لأشخاص ودمى على هيئة حيوانات للعب الأطفال ومصابيح وفوانيس بعضها على هيئة عمائر الإسكندرية القديمة ومن بينها الفنار، وكذلك قوالب صب التماثيل وبعض من آثار جبانة الشاطبى الأثرية من أوانى الحدراء من الفخار والرخام المصرى ووحدات زخرفية مختلفة مكتشفة بهذه الجبانة وأوانى للحدراء أخرى كشف عنها فى أجزاء أخرى من جبانات الإسكندرية القديمة.

- اثنان من كؤوس الفوز فى الألعاب الأوليمبية القديمة ببلاد اليونان وكانت تملأ بالزيت وتمنح للفائزين فى الألعاب المختلفة وقد زينت بصور ونقوش تمثل لنا مصدرا عن الألعاب الأوليمبية القديمة وأسماء الرياضيين العالميين والحكام - وكذا صوّر الأرباب المتصلة بالرياضة فى العصور القديمة وفى مقدمتها أثينا ونيكى.

- إناء إغريقى مصور عليه الملكة برنيكى فيما يعتقد.

- إناء جميل من القشانى الأزرق مصور عليه وحدات على هيئة وجه الإله (بس).

- دمى للعب الأطفال على هيئة حيوانات من بينها حصان يسير على عجل وتماثيل من الفخار لكلاب، وطيور، وأبى الهول.

- سلطانية مرسومة بالألوان محلاة بزخارف الأساس عبارة عن قناع لسيدة تصور من الجانب الأيسر ومدلى بحبل بين غصنين من أغصان نبات الغار كما توجد رسوم لورود بالمنظر - وقد عثر عليه بين أنقاض معبد السيرابيوم.

ويرجح أن له علاقة بطقوس العبادة بالسيرابيوم خلال المناسبات والأعياد المختلفة.

- نموذج معبد من التراكوتا لأفروديت إلهة الحب، وقد صور تمثال الالهة بالداخل ويبدو من الباب الذى يحيطه أعمدة تيجانها على شكل وجوه نساء وهى من القرن الثانى الميلادى.

- فانوس صغير من التراكوتا على هيئة فنار الإسكندرية الشهير فاروس يوضح الطوابق التى كان يتكون منها الفنار الشهير بشكل فنى صالح لدراسة الفنار علميا.

- تماثيل التناجرا تعد مجموعة تماثيل المعروضة بهذه القاعة بمثابة ذاخائر الاسكندرية القديمة بالمتحف لندرتها أثريا وجمالها وهى مصدر اجتماعى للتعرف على سيدات الإسكندرية خلال العصر البطلمى ومستوى الجمال البشرى والطبقة الاجتماعية والأزياء وأساليب تصفيف الشعر فضلا عن أنها أحد الينابيع الرئيسية للفن الإسكندرى وقد صنعت هذه التماثيل من الفخار الملون وقد عثر عليها بجبانة الإسكندرية الشرقية أساسا ذات الطابع الإغريقى السائد وذلك فى كل من مناطق الشاطبى والحضرة والإبراهيمية وقد قاومت هذه التماثيل الوسط المحيط بها داخل المقابر منذ بداية العصر البطلمى وحتى عصرنا على نحو يبعث على الدهشة ومن النماذج الجميلة لهذه القطع الفنية الأثرية الفذة (القطعة رقم ٩٠٤٢) وقد صفف الشعر بالأسلوب المعروف (بشرائح البطيخ) ويغطى الرأس قبعة على جانبها أوراق نبات الغار ويبلغ ارتفاع القطعة ٢٢,٥سم.

والتمثال الآخر رقم ٩٠٥١ لفتاة صغيرة والرأس عار وتتشح بقميص ملون باللون الأزرق والوردى يعلوه معطف جميل فضفاض ملون بنفس اللونين المذكورين والقطعتين نموذج مثالى لتماثيل التناجرا ببلاد اليونان والتى كشف بجباناتها الأثرية لأول مرة عن هذا النوع غير أن مجموعة تماثيل الإسكندرية تعد من أجمل مجموعات العالم.

- تماثيل التراكوتا تحتوى القاعة أيضا على مجموعات من التماثيل من الفخار المحروق لكائنات وأشخاص تصور الحياة الشعبية الواقعة بالإسكندرية خلال العصر البطلمى من أطفال ورجال ونساء فى سن الطفولة والشباب والشيخوخة - وكذا أصحاب المهن المختلفة من زراع وصائدى أسماك وموسيقيين ومهرجين كما تصور

ملامحهم طبيعة الشخصية الإسكندرية خلال العصر البطلمى من فردية ونشاط وحدة طباع وتمرد كما تتميز بعض التماثيل بالسمة الهزلية المجونية والتى تقابل فن الكاريكاتير الحديث ولكن فى الطين قديما وهى تعبر فى نفس الوقت عن روح الإسكندرية الخفيف المرح المولع بالحياة.

** كذلك صورت الحيوانات من دجاج وخراف وأبقار ودلافين وصورت المعبودات كسيرابيس والسيرينات وأفروديت وتوجد أشكال للقوارب - وهى جميعا تصور الحياة فى الاسكندرية القديمة بصورة مجسدة فى الفن التشكيلى وعلى نحو ينافس السطور المكتوبة عن التاريخ والحياة فى المدينة القديمة.

ومن النماذج المعروضة بهذه القاعة:

- ثلاث مصابيح من التراكوتا على شكل ثلاثة عبيد يتكئون على المصابيح من القرن الثالث الميلادى.

- تمثال لطالبة تجلس وتضع لوح الكتابة المصنوع من الخشب المغطى بالشمع على ركبتها وتمسك بالقلم للتدوين على اللوح - وهى من التراكوتا الملونة من القرن الثالث ق.م.

القاعة رقم (١٩) :

يتوسط هذه القاعة أرضية فسيفساء ملونة مزخرفة بوردة متفتحة ويحيط هذه الوردة بكل من الأركان الأربع للمنظر كأس ذو أياد حلزونية ويتصل بالإطار من الجانبين الزخرفة المعروفة بالميناندر - وهى تعبير اغريقى عن موج البحر.

يوجد بالمحاريب الأربع المحيطة بالقاعة أربعة تماثيل رخامية نادرة لأشخاص من أجملها التمثال الموجود بالمحراب الجنوبى الشرقى للقاعة الذى يصور فتاة حيث إنه ينبض بالحياة وينبىء على أنه قد صيغ على مثال بشرى واقعى عاش قديما فى ذلك العصر وتتجلى مهارة الفنان القديم فى إخراج هذا التمثال - على هذا النحو فى الرخام الصلب البارز الأبيض.

القاعة رقم (٢٠) :

توجد بهذه القاعة مجموعات من القطع الأثرية المكتشفة بكل من جبانات الشاطبى والحضرة والابراهيمية الأثرية.

وهى عبارة عن صحاف وأكواب وكؤوس وأباريق من الفخار المصرى والإغريقى - وكذا أدوات موسيقية وتماثيل وشواهد قبور وأوان جنائزية.

- مجموعة رائعة من قوارير العطور من الألباستر المصرى كبيرة الحجم تعرف باسم آنية الألباسترون.
- مزمار من العظم.
- علبة فخارية إغريقية المعروفة باسم بيكسيس لحفظ الحلى.
- أباريق من النوع المعروف بالاسكوس وهو من الفخار المحلى.
- كأس إغريقى (كنثاروس).
- تمثال لخنزير من الفخار.
- أوانى الحدراء لحفظ رماد الموتى.
- شاهد قبر يتميز بالمستوى الفنى المرتفع مصور عليه موسيقى يعالج بأنامله قيثارا - رخام.
- تمثال للإله بس إله المسرح.

القاعة رقم (٢١) :

تعرض بهذه القاعة مجموعة رائعة من المسارح والأوانى والكؤوس من العصور البطلمية والرومانية وأوانى حفظ رماد الموتى من نفس العصر.

ـ وعاء لصب زيت المسارج من العصر البطلمى.

ـ مسرجة على هيئة حذاء من العصر البطلمى.

ـ مقابض مسارج مصور عليها الأرباب سيرابيس والنيل [عصر بطلمى].

ـ مسرجة على شكل شيطان على مستوى بالغ من الجمال فى قوة التعبير عن الفكرة بالكؤوس الاغريقية المعروفة بالكنثاروس والكبلبكس فخار وإناء على هيئة هراوة.

ـ أوان نادرة لحفظ رماد الموتى من بينها النوع المعروف باسم أوانى الحدراء إحداها مصور عليه مشهد اسطورى.

ـ مسرجة من الفخار البرتقالى مصور عليها سمكة كبيرة تتميز بطابع فنى مسيحى وقد كانت السمكة من الرموز الرئيسية فى العقيدة المسيحية.

القاعة رقم (٢٢) :

توجد بهذه القاعة مجموعة متنوعة وجميلة من القطع الأثرية بكانوب القديمة (أبى قير والمعمورة) وهى مهداة من الأمير عمر طوسون الذى كان يمتلك أراضى شاسعة بهاتين المنطقتين تضم أجزاء من مدينة كانوب القديمة ـ وكذا ضاحيتها مينوتيس، كذلك توجد بهذه القاعة مجموعة مهداة من الملك السابق فؤاد الأول ومجموعة مكتشفة بالإبراهيمية ومن بين هذه القطع:

ـ تمثال نادر من الرخام الأبيض يصور المعبود الإسكندرى حربوقراط على هيئة طفل عار سمين بادى الصحة والحيوية.

ـ رأس رخام للمعبود الآسيوى أتيس يرتدى قلنسوة مخروطية مميزة له.

ـ مجموعة من الأباريق الفخارية لحفظ الماء والقوارير الزجاجية الملونة لحفظ العطور وسوائل أخرى.

** ومن بين قطع المجموعة المهداة من الملك فؤاد:

ـ بورتريه جانبى لبطلميوس الأول وزوجه برنيكس.

ـ النصف العلوى للبطل الإغريقى هيراقل ممسكا بهراوته الخشبية.

ـ المعبود حربوقراط من القيشانى.

ـ مجموعة أقراص عادية صغيرة كانت تستعمل للعب قديما ومن بينها القرص رقم ٢٤٤٠٠ مصور عليها تمساح، وقرص رقم ٢٤٤٠١ مصور عليه سمكتان والقرص رقم ٢٤٣٩٥ مصور عليه النصف العلوى من هيكل عظمى وقرص رقم ٢٤٤٠٤ مصور عليه معابد قديمة.

ـ قطع جصية ملونة كشف عنها بالإبراهيمية.

ـ تمثال نصفى لديونوس اله العالم الآخر والخمر يظلل رأسه الإكليل.

ـ جزء من وجه رقيق لميدوزا.

ـ تمثال للاله مين بين جرتين تمثلان كلاً من الإلهين ـ أوزيريس ـ كانوب وإيزيس.

ـ تمثال لحربوقراط برأس حليق يعلوه التاج المركب.

ـ تمثال إيروس إله الحب.

مجموعة من الصحاف والسلاطين والقوارير من الزجاج الأخضر والبنى و الزجاج الأزرق بينها قارورة على



صور لعملات ذهبية بالمتحف اليونانى الرومانى

شكل بطة. توجد بمنتصف القاعة داخل خزانة زجاجية أفقية وشذرات رائعة من الزجاج الملون توضح مستوى صناعة الزجاج فى الإسكندرية القديمة والذوق الرفيع فى التصميم والإخراج الفنى للوحدات المختلفة.

القاعة رقم ٢٣ :

تضم هذه القاعة مجموعات نادرة من العملات الثمينة الذهبية والفضية والبرونزية التى ترجع للعصر البطلمى وما قبله والرومانى والإسلامى المبكر.

ـ عملات من الفضة ترجع للفترة المبكرة من عصر بطليموس الأول (٣٠٤ ـ ٢٨٢ ق.م) صور على وجه رأس الإسكندر، وعملات من فترةً تالية من عهد بطلميوس الثالث تحمل صورته على الوجه، كذلك مجموعة ذهبية من فئة البنتادراخمة.

عملات ذهبية وفضية من عصر بطلميوس الثالث تحمل صورة الملكة أوسينوى الثانية يعلو رأسها الخمار والرأس يعلوه التاج.

ـ عملات ذهبية من فئة الثمانى درخمات من عصر بطلميوس الرابع (٢٢٢ ـ ٢٠٥) ق.م) تحمل صوراً لبطلميوس الثالث [٢٤٦ ـ ٢٢١ ق.م].

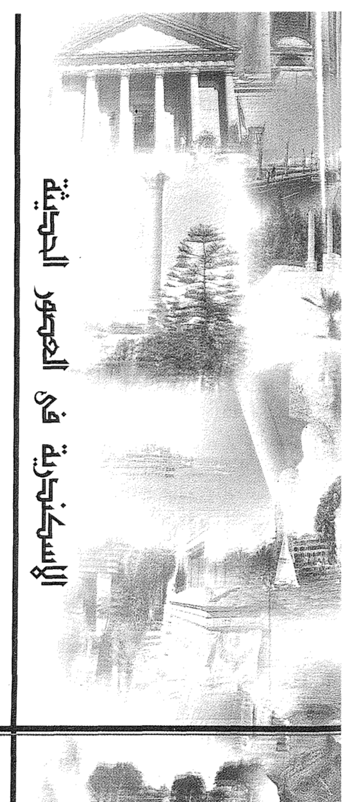
ـ كذلك عملات برونزية من عهد كليوباترا السابعة تحمل صورة هذه الملكة.

ـ كما يوجد مجموعة من العملات التى سكت بالاسكندرية أثناء عصر الإمبراطورية الأعلى والمعروفة باسم العملة السكندرية Nammi Augustarum Alexandria وقد اختصت الإسكندرية القديمة وحدها بسك هذا النوع من العملات وهى تمثل معينا لا ينضب للمعرفة بالديانة المصرية وأربابها خلال الفترة الوثنية من عصر الإمبراطورية بالمدينة ـ وكذا مبانى المدينة التى اندثرت ومن أهمها المعابد كمعبد كانوب واسكلبيوس والسيرابيوم وفنار الإسكندرية القديم ومن بين تلك القطع قطعة من عهد الإمبراطور الرومانى كومودوس يبلغ قطرها ٢سم (١٦١ ـ ١٨٠) مسجلة تحت رقم N.Alex 796 تحمل على الوجه صورة الإمبراطور كومودوس وعلى الظهر صورة فنار الإسكندرية القديم.

حديقة المتحف :

تتكون هذه الحديقة من فناءيها البحرى والقبلى ويوجد بالفناء البحرى رأس تمثال ضخم لمارك أنطونيو من البازلت الأسود وبوابات وهيكل معبد التمساح وعتب من الجرانيت منقوش بالهيروغليفية يعلوه أكاليل نباتية يتوسطها الصليب منحوت بالبارز وكذا قاعدة من الرخام تحمل باللاتينية أسماء المحاربين القدامى منَ العصر الرومانى عثر عليها بمنطقة مصطفى كامل.

كذلك يوجد بالفناء القبلى مقبرتان مقطوعتان من الصخر من بقايا جبانة الإسكندرية الغربية القديمة إحداهما ترجع للعصر البطلمى وجدت بسوق الورديان (المكس) وتمثل أقدم وسائل الدفن بالإسكندرية القديمة حيث تحوى تابوتا على هيئة سرير وعلى طرفيه وسائد حجرية والمقبرة الأخرى ترجع للعصر الرومانى وهى ذات واجهة علوية على هيئة صدفة بحرية رشيقة وقد صفت التوابيت على جوانب الغرفة من الداخل ـ كذلك يوجد مذبح من الجرانيت صورت على جوانبه إلهة الأوليمبس يتوسطها الإله زيوس جالسا على العرش وقد عثر على هذه القاعدة بمنطقة الأزاريطة بتقاطع شارعى الإسكندر الأكبر وشامبليون وأيضا تابوت عثر عليه بطابية صالح نهاية القرن الماضى من الحجر الجيرى على هيئة إنسانية (أنثروبويد) عثر بها على مومياء.



الجزء الرابع

الفصل الأول :

الاسكندرية منذ الاحتلال البريطانى حتى قيام ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢.

الفصل الثانى :

الاسكندرية فى ظل ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢.

الفصل الثالث :

آثار الاسكندرية القديمة الغارقة.

خاتمة

الاسكندرية منذ الاحتلال البريطانى حتى قيام ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢

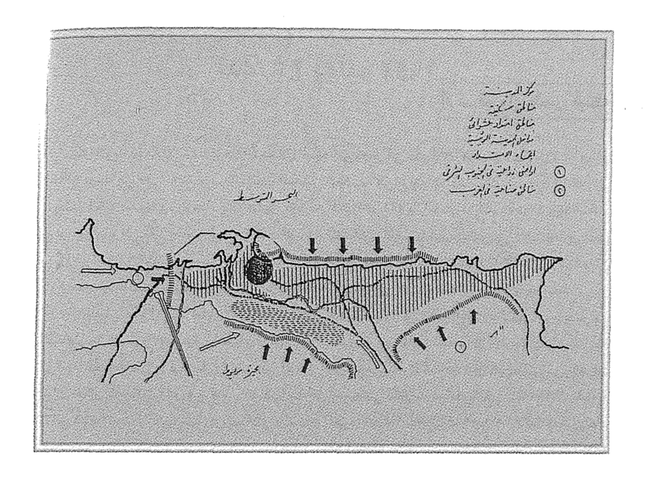
أ. د. فاروق عثمان أباظه

يشكل تاريخ مدينة الاسكندرية منذ الاحتلال البريطانى لمصر فى عام ١٨٨٢م وحتى قيام ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢م مرحلة هامة فى تاريخ مصر الحديث والمعاصر، انعكست على مدينة الاسكندرية كل الأحداث الهامة التى شهدتها مصر خلال هذه المرحلة، وتأثرت بها، كما كان للاسكندرية أثرها الفاعل فى تلك الأحداث. وقد انتقلت مصر عبر هذه المرحلة من حكم الخديوية تحت السيادة العثمانية وتعرضها للتدخل الأوروبى الاستعمارى الذى وصل إلى الاحتلال الفعلى فى سنة ١٨٨٢م، لتتحول بعد قرابة سبعين عاما حتى قيام ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢م إلى بزوغ فجر عهد جديد سقط فيه النظام الملكى وأعلن النظام الجمهورى، كما نالت مصر استقلالها وحريتها.

وقد شهدت هذه المرحلة قيام الثورة العرابية التى كانت تعبيرا عن رغبة الجيش والشعب فى مصر فى التخلص من الظلم والاستبداد والتدخل الأجنبى فى شئون البلاد. كذلك شهدت تلك المرحلة تجدد الحركة الوطنية المصرية على يد مصطفى كامل عقب إخماد الثورة العرابية وتحكم الاحتلال البريطانى فى مقدرات البلاد. وكان للاسكندرية دورها الفاعل آنذاك حيث ألقى مصطفى كامل بالاسكندرية فى سنة ١٨٩٦م خطبته الأولى ضد الاحتلال. كما شهدت الاسكندرية أحداث الحرب العالمية الأولى (١٩١٤م - ١٩١٨م) حيث رزحت البلاد تحت وطأة الأحكام العرفية طوال فترة الحرب، وما أعقبها من قيام ثورة ١٩١٩م، التى شاركت فيها الاسكندرية بكل فعالية واقتدار، واستجابت بريطانيا فى أعقابها لبعض المطالب المصرية بشروطها فى تصريح ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢م. كما تعرضت الاسكندرية لضغوط الاحتلال البريطانى فى فترة ما بين الحربين العالميتين على الرغم من عقد المعاهدة البريطانية المصرية فى سنة ١٩٣٦م التى حاولت من خلالها بريطانيا أن تمهد الموقف فى مصر لدخول الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩م - ١٩٤٥م) ورفعت بعدها الأحكام العرفية فى أكتوبر ١٩٤٥م وتنفست البلاد الصعداء.

وقد شهدت الاسكندرية مولد جامعة الدول العربية حيث عقد فيها «بروتوكول الاسكندرية» الخاص بمشروع الجامعة العربية فى ٧ أكتوبر سنة ١٩٤٤م. بل أن الاسكندرية طالبت مع مصر كلها بالجلاء، حيث قررت المنظمات الشعبية تحديد يوم ٢١ فبراير سنة ١٩٤٦م للقيام باضراب عام وأطلق على هذا اليوم «يوم الجلاء» وأنزل شعب الاسكندرية العلم البريطانى من على سارية فندق «أطلانتيك» الذى كان يقيم فيه رجال البحرية الانجليزية، وتصدوا لرصاص الانجليز فيما عرف «بيوم الشهداء» فى ٤ مارس سنة ١٩٤٦م.

كما كان للاسكندرية دورها الفاعل فى الدفاع عن القضية الفلسطينية حيث عقد «بجامعة فاروق الأول» (جامعة الاسكندرية حاليا) فى ١٩ يناير سنة ١٩٤٨م مؤتمر مزق فيه الطلاب صور الملك فاروق، وأشعلوا فيها النار، وساروا فى مظاهرة كبيرة، كانت أول هجوم سافر ضد الملكية. وعندما ألغت مصر معاهدة ١٩٣٦ فى ٨ أكتوبر سنة ١٩٥١م فقد أيدت الاسكندرية هذا القرار. كذلك عندما أدى تدهور الحياة السياسية فى مصر إلى قيام ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢م، فقد كانت الاسكندرية فى مقدمة المؤيدين للثورة، حيث صدرت من جامعتها أول برقية تأييد. وبذلك تنتقل الاسكندرية ومصر كلها فى نهاية تلك المرحلة إلى ميلاد عهد جديد للحركة الوطنية المصرية حل فيه النظام الجمهورى محل النظام الملكى، وتحقق فيه لمصر الحرية والاستقلال. وسوف نتتبع فيما يلى بإيجاز أبرز أحداث تلك المرحلة فى الاسكندرية منذ الاحتلال البريطانى لمصر وحتى قيام ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢م.



مقاومة الاسكندرية لعدوان الأسطول البريطاني:

يعتبر يوم الثلاثاء الموافق الحادى عشر من يوليو سنة ١٨٨٢م من الأيام المشهودة فى تاريخ مصر بوجه عام، وتاريخ مدينة الاسكندرية بوجه خاص. إذ شهد هذا اليوم قيام بوارج الأسطول البحرى البريطانى بالعدوان على مدينة الاسكندرية، وضربت بمدافعها حصونها المختلفة، مما مهد السبيل إلى بدء مرحلة خطيرة فى تاريخ مصر الحديث والمعاصر، وهى مرحلة الاحتلال البريطانى التى امتدت بين عامى (١٨٨٢م - ١٩٥٤م). وفى هذا اليوم المشهود قام الجيش المصرى المرابط فى هذه الحصون بواجبه الوطنى فى الدفاع عنها بكل بسالة وشجاعة حتى النفس الأخير، وسانده فى ذلك شعب الاسكندرية بكل طاقاته وامكاناته، وظهرت بطولات رائعة بين صفوف الجيش والشعب فى مقاومة هذا العدوان، وحال دون النصر يومها الفارق الهائل فى العتاد والسلاح بين المعتدِى والمعتدَى عليه.

وكانت مصر تشهد آنذاك قيام الثورة العرابية بكل ما كانت تعبر عنه من رغبة الجيش والشعب فى التخلص من الظلم والاستبداد ومن التدخل الأجنبى فى شئون البلاد. وكانت الأمور قد تأزمت بين العرابيين والخديو توفيق وخاصة بعد المظاهرة الوطنية التى قام بها الجيش المصرى بقيادة أحمد عرابى فى التاسع من سبتمبر سنة ١٨٨١م. إذ انتهزت الدولة العثمانية هذه الفرصة للتدخل فى شئون مصر آنذاك للانتقاص مما تتمتع به من الامتيازات التى حصلت عليها فى عهد الخديو اسماعيل. ولهذا أرسلت لجنة تحت اشراف على نظامى باشا سر ياور السلطان عبدالحميد لدراسة الأوضاع القائمة فى مصر، وقد وصلت اليها فى السادس من أكتوبر سنة ١٨٨١م ومرت بالاسكندرية ثم اتجهت إلى القاهرة. غير أن انجلترا وفرنسا اعتبرتا أن مجيء اللجنة العثمانية تدخل فى شئون مصر الداخلية لا تقره الفرمانات، مما دفعها إلى الاتفاق على أن ترسل كل

ء هما بارجة إلى مياه الاسكندرية للقيام بمظاهرة بحرية للضغط على السلطان العثمانى، بحيث لا تغادرا الميناء إلا بعد رحيل اللجنة العثمانية. ولاشك أن هذا الحادث يعتبر تهديدا غير مباشر للاسكندرية ويظهر مدى ضعف الذى وصلت اليه الدولة العثمانية آنذاك.

وفى أثناء الخلاف بين الخديو توفيق ووزارة محمد محمود التى تألفت فى الخامس من فبراير سنة ١٨٨١م، والتى سينتهى هذا الخلاف باستقالتها، فضلا عن انتهاء الدورة البرلمانية لمجلس النواب الذى سبق له أن أقر الدستور فى السابع من فبراير من نفس السنة، وأعقبته فترة تمتعت مصر خلالها بالهدوء والسكينة، ولم تكد تنتهى الدورة النيابية حتى اكفهر جو الصفاء وأخذت الأحداث تتوالى على البلاد. وكانت الدوائر السياسية الانجليزية والفرنسية قد استقبلت اعلان الدستور بالسخط والاستياء، وبدت هذه المظاهر على شدتها من الرقيبين الأوروبيين اللذين أرسلا معا مذكرة مشتركة إلى قنصليهما فى السادس من فبراير فى السنة المذكورة، أى عقب تولى البارودى بيومين، وقبيل اعلان الدستور بيوم واحد، اعترضا فيه على هذا الانقلاب، وتجلت فى مذكرتهما روح التبرم بالنظام الدستورى بأكمله، والنقمة من تخويل مجلس النواب حق تقرير الميزانية، وتحريض حكومتيهما على محاربة هذا النظام ومواجهة الثورة.

وكانت التقارير التى تصل إلى وزارتى الخارجية الانجليزية والفرنسية من مصر مفعمة بالتشاؤم، وتبالغ فى وصف سوء الحالة هناك، فمثلا «ادوارد مالت» قنصل انجلترا فى مصر، كان كثير التحدث عن الفوضى التى ضربت أطنابها فى البلاد من وجهة نظره، ويصف سيطرة الجيش المصرى على كل الأمور بما ينذر بالخطر الشديد على المصالح الأوروبية بصفة عامة، والمصالح الانجليزية بصفة خاصة. وكان يحض حكومته على انتهاز فرصة هذه الفوضى لحل المشكلة المصرية حلا نهائيا حاسما. هذه الصورة القاتمة التى رسمها «مالت» كانت ذات أثر كبير فى توجيه السياسة الخارجية الانجليزية. ولم يكن موقف المراقبين الانجليزى والفرنسى بمختلف عن موقف «مالت» فكلاهما كانا يريان فى نمو الرأى العام المصرى والمطالبة بالنظم النيابية خطرا كبيرا على المصالح الأوروبية يهددها من أساسها.

وعندما زاد الخلاف حدة بين الوزارة المصرية والخديو توفيق وتحدت الوزارة سلطة الخديو ودعت مجلس النواب إلى الاجتماع دون أمره، فقد اعتبرت انجلترا وفرنسا هذا العمل تهديدا لمصالحهما الحيوية بمصر وقررتا ارسال اسطولهما إلى الاسكندرية على أثر ما بلغهما من اشتداد الخلاف الذى اعتبر من جانبهما ثورة من قبل العرابيين تستدعى التدخل. وقد أفضى «لورد جرانفيل» وزير خارجية انجلترا آنذاك بهذه الفكرة فى اليوم الثانى عشر من مايو سنة ١٨٨٢م إلى «مسيو بيسو» سفير فرنسا فى لندن بأن الحاجة ماسة للقيام بمظاهرة حربية فى مياه الاسكندرية، وقد صادفت هذه الفكرة قبولا من الحكومة الفرنسية، وصوغت الدولتان هذا العمل بأن الغرض منه حماية رعاياهما من الأخطار التى يتعرضون لها، ولم تكن هذه سوى حجج مصطنعة تخفى الغرض الحقيقى وهو خلق الذرائع للتدخل المسلح فى شئون مصر آنذاك، وقررتا التدخل العسكرى المشترك على أن ترسل كل منهما ست بوارج إلى ميناء الاسكندرية. ويؤكد قائد الاسطول الانجليزى «سيمور Seymour» بأنه لم تكن لديه ولا لدى القائد الفرنسى البحرى أى فكرة فى ذلك الوقت عن انزال جنود إلى مصر أو القيام بأعمال عسكرية.

وقد أدى تتابع وصول البوارج الانجليزية إلى ميناء الاسكندرية إلى قلق الرأى العام المصرى وأحدث هزة عنيفة فى أرجاء البلاد. وقد أخطر قنصلا انجلترا وفرنسا الخديو توفيق بصفة رسمية بنبأ وصول بوارج الدولتين إلى مياه الاسكندرية فى صباح الأربعاء السابع عشر من مايو سنة ١٨٨٢م، كما أعلن القنصل البريطانى بأن الأسطول الانجليزى سيزور الاسكندرية زيارة ودية. وقد اعتمدت حكومة العرابيين على هذه التصريحات المضللة من قبل القنصل البريطانى، فأرسل محمود سامى البارودى إلى محافظ الاسكندرية

برقية هذا نصها: «ستحضر إلى الاسكندرية مراكب حربية أجنبية وحضورها هو بطريقة سلمية فلا يحصل بجهتكم أدنى توهم ولا تشويش فكر. إن المودة والألفة بين حكومتنا السنية وبين الدول المتحاربة أكيدة». وكان من المفارقات المحزنة أن يقترن دخول البوارج الانجليزية والفرنسية ميناء الاسكندرية فى يوم الجمعة التاسع عشر من مايو سنة ١٨٨٢م باطلاق المدافع من طوابى الاسكندرية تحية لها وتقديرا لزيارتها. وما أن استقرت قوة الدولتين البحرية داخل الميناء إلا وأخذتا تتدخلان تدخلا سافرا فى شئون البلاد، وتفرضان ما تراه من حلول تتفق مع مصلحتهما ووجهة نظرهما. كما كانت تلك المطالب مشفوعة بالتهديد والوعيد اعتمادا على ضعف الدولة العثمانية من جهة، والخديو توفيق من جهة أخرى، وكذلك على خلو الاسكندرية من وسائل الدفاع وضعف الجيش المصرى وقلة عدد جنوده.

إذ قام القنصل الفرنسى فى اليوم الثانى والعشرين من مايو ١٨٨٢م أى بعد وصول الاسطول الانجليزى بيومين بزيارة محمد سلطان رئيس مجلس النواب حاملا اليه مطلب الحكومتين الانجليزية والفرنسية باستقالة وزارة البارودى، وإخراج عرابى من مصر على أن تضمن له انجلترا وفرنسا راتبه ورتبته وأوسمته، وتحديد إقامة على فهمى وعبدالعال حلمى فى ريف مصر وتضمن لهما الدولتان رتبهما ومرتباتهما، وتسريح الجيش المصرى فلا يبقى منه سوى عدد قليل للمحافظة على الحدود الجنوبية. وهنا رفضت الوزارة المصرية هذه المذكرة على أساس أنها قد تضمنت مطالب فيها اعتداء على الفرمانات والمعاهدات الدولية، ولأن الوزارة ترى أن هذه المطالب متعلقة بمسألة سياسية عمومية فالواجب عرض هذه المسألة على الدولة العثمانية صاحبة السيادة الشرعية على مصر آنذاك. ولهذا قام رئيس مجلس النظار ومعه وزير الخارجية بزيارة الخديو توفيق وأبلغاه قرار المجلس برفضه المذكرة وطلبا منه أن يتضامن مع حكومته فى رفضها. غير أن الخديو أجابهما بأنه قد قبل مطلب الدولتين بالفعل، ومن ثم استقالت وزارة البارودى احتجاجا على مطلب الدولتين وعلى قبول الخديو إياهما، فقبل الخديو استقالتها. وقد أدى الموقف بين الحكومة التى تدافع عن حقوق مصر ومكانتها وبين الخديو إلى هياج الرأى العام المصرى واشتد السخط على الخديو، وارتفعت الأصوات فى كل مكان بالدعوة إلى خلعه عن عرش البلاد.

وتجدر الإشارة إلى أن الاسكندرية كان لها موقف حازم فى تأييد الثورة العرابية بكل ما كانت تعبر عنه من رغبة الجيش والشعب فى التخلص من الظلم والاستبداد ومن التدخل الأجنبى فى شئون البلاد، وذلك قبل أن يضرب الأسطول البريطانى المدينة فى الحادى عشر من يوليو سنة ١٨٨٢م. ولهذا فإن الخديو توفيق بعد أن استند على مذكرة انجلترا وفرنسا للإطاحة بوزارة البارودى والتخلص منها بمساعدة القوى الأجنبية، وأصر على قبول مطلب الدولتين فى ضرورة إبعاد عرابى عن البلاد، فإن موقف الاسكندرية الحازم وتهديد قوات الجيش والبوليس بالمدينة فى برقية بعثوا بها إلى الخديو، بأنهم لا يرضون عن عرابى بديلاً، وأنه إذا مضت اثنتا عشرة ساعة ولم يعد عرابى إلى منصبه أصبحوا غير مسئولين عما يترتب على هذا الرفض من نتائج، فقد أدى هذا الانذار الصريح من قوات الاسكندرية إلى الإحجام عن تنفيذ مطلب الدولتين، واضطر الخديو توفيق بعد رفضه الأول إبقاء عرابى ناظرا للجهادية أن يوافق على ابقائه، وأن يستجيب أيضا لذلك تحت ضغط عدد من النواب مؤلف من سلطان باشا، وحسن باشا الشريعى، وسليمان باشا أباظه، وأصدر أمرا إلى عرابى فى الثامن والعشرين من مايو سنة ١٨٨٢م بإعادته إلى نظارة الجهادية.

وبعد استقالة وزارة البارودى وجدت انجلترا وفرنسا ضرورة التدخل فى شئون مصر بالقوة إذا إرادتا المحافظة على نفوذهما السياسى ومركزهما الاقتصادى، وكان وجود الأسطولين الانجليزى والفرنسى فى مياه الاسكندرية مثيرا للقلق والاضطراب فى النفوس، فتدخل الدولتين السافر جعل الأهالى يوجسون خيفة من غدرهما، كما أن وجود عرابى على رأس الجهاز الحربى للبلاد لم يكن من عوامل الاطمئنان بالنسبة للدولتين

وللرعايا الأجانب على السواء. وفي هذا الجو المضطرب المشحون بالشائعات والأراجيف أخذ الأجانب ينزحون من داخل البلاد ويتدفقون على الاسكندرية ليكونوا فى حمى البوارج الحربية الانجليزية من ناحية، وعلى مقربة من الميناء من ناحية أخرى، حتى إذا ما تأزمت الأمور وخشى الأجانب على أرواحهم وممتلكاتهم أمكنهم أن ينزلوا إلى البحر عائدين إلى بلادهم. وكان من الطبيعى فى هذه الظروف المضطربة أن يتوجس الأجانب شرا من المصريين، كما أن المصريين بدورهم كانوا حانقين على هؤلاء لما جروه على البلاد من تدخل أجنبى، فلولاهم لما أتت سفن انجلترا وفرنسا تتهددهم. كما أن الأجانب لم يكونوا بعيدين عن الشبهات فأظهر بعضهم روحا عدائيا إزاء أهل الاسكندرية، ولم يفعلوا هذا من تلقاء أنفسهم بل كانت تشجعهم السلطات الأجنبية المسئولة، فالقنصلية الانجليزية كانت تقوم بتوزيع الأسلحة والذخيرة على رعاياها تحسبا لوقوع أى صدام بين الوطنيين والأجانب.

وكانت قد تألفت وزارة راغب باشا فى اليوم العشرين من يونيو سنة ١٨٨٢م ولم يكن فى استطاعتها أو استطاعة وزارة أخرى انقاذ البلاد من الأزمة التى تعانيها أو منع التدخل الأوروبى. فقررت الدول الكبرى عقد مؤتمر دولى فى الآستانة ينظر فى أمر مصر دون أن تستشار مصر فى ذلك ودون أن تأبه الدول لمشيئة الباب العالى. وكانت الدولة العثمانية فى ذلك الوقت مستعدة لأن تأخذ على عاتقها مسألة حفظ النظام وتهدئة الخواطر، فمصر فى نظرها لازالت ولاية عثمانية، وإن كانت تتمتع بمركز ممتاز، وهى تريد أن تستفيد من تعقد الموقف فى مصر لصالح الدولة الخاص. ومن المرجح أن الانجليز كانوا يميلون فى أول الأمر بعض الميل إلى تعضيدها، فى وقت كان فيه الموقف السياسى فى وادى النيل معقدا تعقيدا شديدا. غير أن «فريسنيه» وزير خارجية فرنسا كان يناهض فكرة تدخل الدولة العثمانية فى مصر عن طريق إرسال جنود عثمانيين اليها، ولهذا رأى من الأفضل مناقشة مسألة مصير مصر فى مؤتمر دولى فى الآستانة. غير أن فكرة عقد مؤتمر دولى فى الآستانة لم ترق لدى السلطان العثمانى عبدالحميد الثانى الذى كان يرى الخطر فى جعل مسألة مصر مسألة دولية، فهذا يؤثر بالضرورة على تبعيتها للسيادة العثمانية. كما خشى السلطان فى نفس الوقت من تقدم الشعور بالحرية فى مصر، فأسرع بارسال بعثة درويش باشا إلى مصر للتحقيق فى أمورها، ورفض الاشتراك فى المؤتمر.

على أن مجىء الأسطولين الانجليزى والفرنسى إلى مياه الاسكندرية لم يكن باعثا على انتشار السكينة فى البلاد أو اطمئنان الأهالى، إذ كان من الطبيعى أن تقوم نتيجة لذلك مظاهرات عديدة وسخط عام على الأجانب. واستدعى الموقف أن يمسك عرابى بزمام الحكم فى البلاد، وأن يعمل على الاتصال بالسلطان العثمانى ليساعده فى إنقاذ البلاد، وأخذ يستعد لإعداد البلاد للدفاع عن كيانها، وانتشرت الأراجيف من كل جانب، وشاعت الإشاعات التى تقول بأن السفن الأجنبية المرابطة فى مياه الإسكندرية تنوى القيام بأعمال حربية تهدد استقلال البلاد، وأخذ الفزع من الأجانب كل مأخذ، فبدأوا يهاجرون من مصر، وازداد اللاجئون إلى السفن الانجليزية، وبالغت التقارير الانجليزية فى ذلك كل المبالغة. ولم يكد يستقر المقام بالوفد العثمانى فى مصر حتى حدثت مذبحة الاسكندرية التى عانى فيها الأجانب وسكانها على السواء، وكثر القتلى من الجانبين. وتعزو الوثائق الألمانية السياسية التى نشرتها الحكومة الألمانية عقب الحرب الكبرى الأولى سبب المذبحة المباشر إلى وجود الأساطيل الانجليزية والفرنسية فى ميناء الاسكندرية، الأمر الذى أدى إلى هياج الشعور وإثارة الأحقاد وإلهاب العواطف، وانتهت تلك الحادثة المروعة أخيراً بتدخل الجيش المصرى وإرجاع النظام. وتتلخص أحداث مذبحة الاسكندرية فى أنه وقع شجار بين مكارى وأحد الأجانب من المالطيين لاختلافهما على أجر حمار، فطعن المالطى المكارى بسكين فأرداه قتيلا، وفر ملتجئاً إلى أحد بيوت أصدقائه، فثار زملاء القتيل وتتبعوا القاتل، فتصدى لهم المالطيون واليونانيون وأخذوا يطلقون النار على الوطنيين من

النوافذ والأبواب، فحدثت مذبحة كان ميدانها حي الجمرك واللبان. واستمرت أعمال العنف حوالى ثلاث ساعات قبل أن تتدخل السلطات المسئولة عن الأمن لوقف تلك المذبحة، حتى بلغ عدد القتلى والجرحى من الطرفين حسب أقرب الإحصاءات إلى الدقة ٤٩ قتيلا منهم ٣٨ من الأجانب و١١ من الوطنيين، وعدد الجرحى ٧١ منهم ٣٨ من الأجانب و٣٣ من الوطنيين ومن الأتراك المقيمين بالمدينة. وقد أثارت تلك الحادثة اهتمام قناصل الدول الأجنبية فعقدوا اجتماعا فى مساء ذلك اليوم حضره محافظ الاسكندرية وأحد ضباط البحرية الانجليزية لدراسة تفاصيل الواقعة، واتخاذ الاجراءات الكفيلة بحفظ النظام وإرجاع الأمور إلى نصابها. وقد طالب ضباط الجيش المصرى فى هذا الاجتماع بعدم تدخل الأسطولين الانجليزى والفرنسى فى الأمر على أن يتولوا وحدهم حفظ الأمن والنظام بالمدينة. ولكن هذا القول لم يجد صداه فى نفوس الانجليز الذين كانوا يضمرون ضرب المدينة، ويبدو هذا واضحاً من نقلهم الأجانب من النساء والأطفال إلى البوارج الحربية قبيل الضرب.

أدى هذا الحادث إلى استياء العرابيين استياءا شديدا لأنه منح انجلترا وفرنسا فرصة التدخل فى شئون البلاد بحجة حماية أرواح وممتلكات رعاياهما بعد أن عجزت الوزارة العرابية عن حفظ الأمن والنظام. ولهذا فقد حاولت الوزارة تدارك هذا الموقف الخطير، فبعثت بلجنة تحقيق اجتمعت بكبار ضباط الجيش المصرى وقناصل الدول الأجنبية فى دار المحافظة للوصول إلى أفضل السبل المؤدية إلى استقرار الأمور وبث الطمأنينة فى النفوس. واتفق رأى المجتمعين أخيرا على أن يتولى الجيش وحده حفظ النظام دون تدخل من قبل الأسطولين الانجليزى والفرنسى، بينما قاطع القنصل الانجليزى وتابعه قنصل فرنسا جلسات اللجنة خلال انعقادها حيث كانت البوادر كلها تنبىء بأن أحداثا جساماً على وشك الوقوع، وأن جميع التدابير التى اتخذت لم تستطع أن تهدىء من روع السكان من وطنيين وأجانب. بل إن إدراك قناصل الدول الأجنبية لخطورة الموقف وعلمهم بنوايا انجلترا العدوانية جعلهم ينصحون رعاياهم بضرورة مغادرة البلاد. وقد تدفق على الاسكندرية عشرات الآلاف منهم، حتى بلغ عددهم فى ١٨ يونيو سنة ١٨٨٢م ستين ألفا، وغادر منهم الديار المصرية ٩٩٪ من مجموع الأجانب الموجودين بمصر، مما كان ينذر بقرب حدوث عدوان على المدينة.

بل إن الخديو توفيق انتقل من القاهرة إلى الاسكندرية حتى لا يكون تحت طائلة العرابيين من جهة، وليكون فى حماية البوارج الحربية الانجليزية والفرنسية من جهة أخرى، وكان علماء الأزهر بالقاهرة قد طلبوا من درويش باشا مندوب السلطان عبدالحميد خلع الخديو توفيق والمطالبة بعزله لاتهامه بأنه باع البلاد للأجانب.

وقد درس الانجليز بعناية خطوات تدخلهم المسلح ضد مصر وبحثوا عن المبررات، ولم تكن الديون وحدها كافية لأن تحارب بلد بلداً آخر، ولهذا فليكن الباعث للتدخل هو اضطراب الأمن وتعريض الأجانب للخطر. واحتاج الانجليز إلى شهر كامل لعمل المناورات السياسية والعسكرية اللازمة وتجميع الجنود من قواعدهم فى قبرص ومالطة. ومنذ أواخر مايو سنة ١٨٨٢م بدأت انجلترا تعلن عن نيتها الانفراد بالتصرف فى شئون مصر، وبدأت فى حشد القطع البحرية بناء على طلب قائد أسطولها، بحجة أن المصريين ينشئون مواقع لبطاريات المدفعية الساحلية تجاه البوارج البريطانية. ورغم أن مؤتمر الآستانة أبرم العهد المشهور «بميثاق النزاهة» فى ٢٥ يونيو ١٨٨٢م الذى جاء فيه: «تتعهد الحكومات التى يوقع مندوبوها على هذا القرار بأنها فى كل اتفاق يحصل بشأن تسوية المسألة المصرية ألا تبحث عن احتلال أى جزء من أراضى مصر ولا الحصول على امتياز تجارى لرعايا الحكومات الأخرى قد وقع عليه أعضاء المؤتمر جميعاً». إلا أن المؤتمر ظل يعقد جلساته على غير طائل، بينما تعد إنجلترا المعدات للقتال، ولم يكن أسهل عليها من أن تخترع الوسيلة لإثارة القتال فى الوقت الذى حددته آنذاك.

فقد أرسل الأميرال سيمور فى ٦ يوليو سنة ١٨٨٢م بلاغه الأول إلى طلبه عصمت قومندان موقع الاسكندرية بالكف عن أعمال التحصين الجارية فى الحصون آنذاك. فأجابه طلبه فى اليوم ذاته بأنه لم يوضع أى مدفع جديد فى الحصون ولم يجر فيها أى عمل جديد. وقد ذاع بلاغ الأميرال سيمور فى المدينة وتناقله الناس وأيقنوا أنه نذير شر وأن الحرب واقعة لا محالة. وأوعز قنصلا انجلترا وفرنسا إلى رعاياهما الباقين فى المدينة لمغادرتها، وهاجر كثير من أغنياء المدينة إلى داخل البلاد، على أن معظم السكان الوطنيين بقوا بالمدينة. وكانت انجلترا تستعد للحرب قبل مؤتمر الآستانة وخلال اجتماعاته وقبل أن يقر قراره بدعوة الدولة العثمانية إلى ارسال جيش لها إلى مصر، ولهذا أخذت تدبر الأسباب والدوافع للتعجيل بضرب الاسكندرية لكى تضع المؤتمر أمام الأمر الواقع. بينما قررت الحكومة الفرنسية عدم مشاركة انجلترا فى خطتها، وحجتها فى ذلك أن هذه الخطة تجر فرنسا إلى عمل عدائى هجومى ضد مصر، وهذا يخالف تعهد الدول فى مؤتمر الآستانة. وتدل الدلائل على أن الحكومة البريطانية كانت مبيتة نيتها على ضرب الاسكندرية واحتلال البلاد مهما كانت الأسباب والملابسات، وذلك قبل اختلاق مسألة ترميم الحصون. وفى اليوم الثانى والعشرين من يونيو سنة ١٨٨٢م عرض سفير انجلترا فى باريس على الحكومة الفرنسية الاشتراك فى اتخاذ وسائل عاجلة بقصد حماية قناة السويس، ورفضت فرنسا ذلك باعتبار أن احتلال القناة عمل لا مسوغ له. وأكد «بلنت» أن وزارتى الحربية والبحرية فى انجلترا عقدتا النية منذ أوائل سنة ١٨٨٢م على مهاجمة مصر من ناحية قناة السويس، وأنه شاهد بنفسه الاستعدادات الحربية فى انجلترا فى شهر يونيو سنة ١٨٨٢م، وكان يعتقد أن الغرض منها تقوية مركز انجلترا فى مؤتمر الآستانة، ولكن تبين له فيما بعد أن الغرض منها مهاجمة مصر. كما نقلت القنصلية البريطانية فى الاسكندرية أرشيفها وما بقى من موظفيها إلى إحدى البواخر فى الميناء فى أول يوليو سنة ١٨٨٢م، وتدفق اليها الرعايا البريطانيون الذين اضطرتهم أعمالهم إلى البقاء فى مصر. وفى نفس اليوم أبرق الأميرال سيمور إلى مجلس الأميرالية البريطانية بأن بالحصون والثكنات المصرية بالاسكندرية أكثر من عشرة آلاف جندى، وأن عرابى يسعى إلى إيقاع الأسطول البريطانى فى الشراك بغلق مدخل الميناء، وأن المصريين يقومون ببعض الترتيبات فى الحصون ويركبون بطاريات جديدة تجاه بوارجه.

وعندما علم قناصل الدول بالاسكندرية بأن ضرب المدينة واقع لا محالة فقد اجتمعوا فى اليوم السابع من يوليو ١٨٨٢م لمنع القتال بأية وسيلة، ورفض نائب القنصل البريطانى حضور الاجتماع، وقرر الحاضرون إرسال خطاب إلى الأميرال سيمور يسألونه إذا كان قد اقتنع بجواب الحكومة المصرية أم لم يقتنع وأنهم فى استطاعتهم أن يطلبوا من الحكومة تعديل الجواب المذكور بحيث يرضيه ويقنعه، ولكن سيمور رد عليه بجواب جاف يدل على تصميمه على ضرب الاسكندرية. وقد استدعى الخديو توفيق سير «أوكلاند كولفن» المراقب المالى البريطانى وذكر له أنه قد أقر عزمه فى حالة ضرب الاسكندرية على الاعتصام مع درويش باشا بقصره على ترعة المحمودية، وأضاف قوله أنه كلما تمت العملية على وجه السرعة كلما قل الخطر المحيق بشخصه.

وفى اليوم التاسع من يوليو أبرق الأميرال سيمور إلى الأميرالية البريطانية عن عزمه على اتخاذ الخطوات الايجابية وفقا للخطة الموضوعة. وفى هذه البرقية يقول: «إيماء إلى برقيتى المؤرخة فى ٤ يوليو سنة ١٨٨٢م أقول أنه ليس هناك أى شك فى الاستعدادات الحربية، وقد ركبت مدافع جديدة فى طابية السلسلة وسأرسل فى صبيحة الغد إخطاراً إلى قناصل الدول الأجنبية وأبدأ فى ضرب الاسكندرية بعد أربع وعشرين ساعة ما لم تسلم إلىَّ الحصون القائمة فى شبه جزيرة رأس التين، والحصون المشرفة على مدخل الميناء». وقد استند سيمور فى برقيته الكاذبة العدوانية هذه على تصريح كاذب «للفتنانت دورين» يدعى فيه رؤيته بعض الاستعدادات فى طابية السلسلة. وفى اليوم العاشر من يوليو أبرقت الأميرالية إلى سيمور طالبة منه استبدال كلمة «تسلم» بكلمات «تسلم مؤقتا لنزع تسليحها». وفى نفس اليوم أرسل سيمور إلى طلبه باشا إنذاراً نهائيًا

يطلب فيه تسلم البطاريات المنصوبة فى الحصون القائمة بشبه جزيرة رأس التين على ساحل ميناء الاسكندرية الجنوبى. وكان سيمور يعلم أن الاستعدادات المصرية مهما بلغت قوتها لن تهدد أسطوله القوى بالخطر، وإنما كان هذا التدبير سبيلاً إلى احتلال مصر وتدمير القوات المصرية الموجودة فى تلك الآونة فى منطقة الاسكندرية.

وقد اجتمع مجلس الوزراء المصرى عقب تلقيه انذار الأميرال سيمور ورأس الخديو هذا الاجتماع فى قصر رأس التين، وتقرر ارسال وفد إلى الأميرال البريطانى لإبلاغه بأنه لم تركب أية مدافع جديدة فى الحصون، ولإبلاغه وديا بأن المصريين ليسوا أعداء للانجليز وأنه لا يمكن سد البوغاز بالأحجار كما قيل، وأما إنزال المدافع فهذا أمر لا يمكن قبوله وإنما يمكن إجابة لطلبه وإنهاء للنزاع، إنزال ثلاثة مدافع من ثلاثة طوابى وهى طابية المكس وطابية صالح وطابية السلسلة، وأن له إذا أراد إرسال أحد ضباطه للتأكد من صحة هذا البيان. ورجع الوفد بعد مقابلة الأميرال الذى أصر على تجريد جميع الحصون، وأضاف إلى طلبه من الحكومة المصرية اصدار أمر صريح بتسليم حصون المكس والعجمى وباب العرب وما راء طابية المكس من الأراضى لاتخاذها معسكراً للجنود الانجليز، وأنه ان لم يجب إلى طلباته باشر القتال عند طلوع شمس اليوم التالى. وقد عاود مجلس الوزراء اجتماعه فى المساء وقرر أن طوابى السلسلة وفاروس (قايتباى) وما بهما من مدافع على الميناء الشرقية لا تهدد بحال قطع الأسطول الموجودة فى الميناء الغربى، كما قرر مجلس الوزراء ارسال الخطاب التالى إلى الأميرال الانجليزى ومراعاة عدم تبادل النيران مع الأسطول البريطانى إذا بدأ عدوانه إلا بعد انطلاق القذيفة الخامسة منه، وفيما يلى نص هذا الخطاب:

«لم تعمل مصر شيئا يقضى بارسال هذه الأساطيل المتجمعة، ولم تعمل السلطة المدنية ولا السلطة العسكرية أى عمل يسوغ مطالب الأميرال إلا بعض إصلاحات اضطرارية فى بنية قديمة، والطوابى الآن على الحالة التى كانت عليها عند وصول الايطاليين، ونحن هنا فى وطننا وبيتنا، فمن حقنا بل من الواجب علينا أن نتخذ عدتنا ضد كل عدو مباغت يقدم على قطع أسباب الصلات السليمة التى تقول الحكومة الانجليزية انها باقية بيننا. ومصر الحريصة على حقوقها الساهرة على تلك الحقوق وعلى شرفها لا تستطيع أن تسلم أى مدفع ولا أية طابية دون أن تكره على ذلك بحكم السلاح، فهى لذلك تحتج على بلاغكم الذى وجهتموه اليوم وتوقع مسؤليات جميع النتائج المباشرة وغير المباشرة التى تنجم إما عن هجوم الأساطيل أو عن اطلاق المدافع على الأمة التى تقذف فى وسط السلام القنبلة الأولى على الاسكندرية المدينة الهادئة مخالفة بذلك لأحكام حقوق الانسان ولقوانين الحرب».

ولم يجسر أحد ممن حضروا اجتماع مجلس الوزراء فى قصر رأس التين عقب تلقى انذار الأميرال سيمور حتى الخديو توفيق نفسه الذى رأس هذا الاجتماع والذى ألقى بنفسه فى أحضان الانجليز على أن يصرح علانية بأنه كان هناك جواب آخر ممكن خلاف الرفض لمطالب سيمور المستحيلة. وعقب هذا الاجتماع تلقى عرابى أوامر الخديو باعداد الحصون للقتال واجابة مدفعيتها على مدفعية الأسطول البريطانى بمجرد بدئها فى فتح النيران، كما أرسلت التعليمات إلى وكيل وزارة الحربية فى القاهرة بأن يعلن فى جميع المديريات أن الحرب قد تقررت، والمبادرة إلى استدعاء الاحتياطى وانشاء كتائب جديدة من المستجدين، ولم يكن الخديو أمينا فى سياسته الحربية التى انتهجها فى المجلس، ولم يتخذ هو وسلطان باشا هذا المظهر الوطنى إلا ذراً

للرماد وتغطية لنفسيهما أمام الشعب إذا صمدت الحصون أمام الأسطول، ولهذا كان هدف توفيق هو البقاء مع الجانب الأقوى. وفى اليوم السابق لضرب الأسطول البريطاني للاسكندرية قام القائم بأعمال القنصل البريطانى بزيارة الخديو وحثه على الانتقال إلى سرايا الرمل الواقعة على مسافة ثمانية أميال شرق الاسكندرية، وبالفعل انتقل الخديو بموكبه إلى سراى الرمل ليكون فى مأمن عن ضرب الأسطول البريطانى وبقى بها حتى نهاية هذا الضرب. وقد ذكر الخديو إلى اللورد شارلز برسفورد الذى قاد المدرعة كندور، والذى تولى إدارة البوليس فى مدينة الاسكندرية عقب احتلالها، بأنه لجأ إلى قصر الرمل ليراقب سير القتال وليرى بعينه من المنتصر، وأنه قد بقى نهب الذعر والشك طوال يوم الضرب، وعندما تبين له فى المساء أن الأسطول البريطانى ظل سليما وأن الحصون المصرية قد دمرت، قرر أن يضع نفسه تحت حماية سيمور.

واستعدادا لتنفيذ المخطط البريطانى، نصح الانجليز جميع القناصل الأجانب بمغادرة المدينة هم ورعاياهم، ولجأ القائم بأعمال القنصل العام إلى البارجة مونارك، كما لجأ بقية الرعايا البريطانيين إلى البوارج البريطانية الجاثمة أمام الاسكندرية، وكذلك غادرت الميناء جميع السفن التجارية. وما أن هبط الليل حتى كانت البوارج الحربية البريطانية هى الوحيدة الباقية فى الميناء، وكانت تتكون من ثمانى مدرعات كبيرة هى ألكسندرا Alex-andra وهى مدرعة الأميرال، وانفلكسيبل Inflexible، وسلطان Sultan، وسوبرب Superb، وتمرير Teme-raire، وانفنسيبل Invincible، ومنارك Monarch، وبنلوب Penelope، وخمس سفن صغيرة (مدفعيات) وهى بترن Bittern، وكندور Condor، وبيكن Beacon، وسينت Cygnet، ودكوى Decoy.

وكان بهذه السفن نحو ٨٨٠ جنديا من مشاة البحرية مما وصل بقوة الأسطول البريطانى إلى ٥٧٢٨ فردا.

أما بالنسبة للحصون المصرية بالاسكندرية والتى كانت تسمى «طوابى» فقد امتدت على ساحل البحر من ناحية العجمى غربا إلى أبى قير شرقا. وكانت تلك الحصون تهدف إلى وقاية المدينة من أى هجوم بحرى وبرى من اتجاه بحيرة مريوط، وقد وضع تصميمها فى باريس وتم تنفيذ بنائها تحت إشراف مهندسين فرنسيين، وقد كانت أصلا قلاعا حصينة، غير أنها لم تكن آنذاك على شىء من القوة أو المنعة لقدمها، وكانت مبنية من الحجر الجيرى الذى لا يقاوم المدفعية الحديثة. وكان بيان تلك الحصون على النحو التالى:

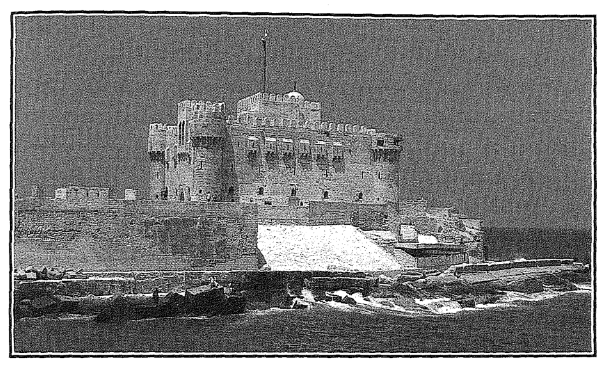
أولا: ففى غرب الاسكندرية كانت تقع طوابى مارابوط أو المرابط، وطابية العجمى البحرية، وطابية العجمى القبلية، ومرسى القناة، ثم يليها شرقا طابية الدخيلة.

ثانيا: وفى جنوب غرب الاسكندرية كانت تقع قلعة المكس وكانت من أمنع القلاع ومهمتها الدفاع عن مدخل الميناء وطابية المكس القديمة وخطوط المكس.

ثالثا: وفى جنوب الاسكندرية كانت تقع طابية القمرية وأم كبيبة وصالح أغا وبطارية صغيرة بين البطاريتين الأخيرتين.

رابعا: وفى شمال الاسكندرية كانت تقع طابية رأس التين وخطوط رأس التين (بما فيها بطارية الاسبتالية) وطابية الأطة وطابية قايتباى (فاروس) وطابية السلسلة.

وكانت مهمة هذه الطوابى حماية المدينة من الجهة الشمالية الشرقية وحماية الميناء الشرقى. ويلى طابية السلسلة قلاع أبى قير. ولم تشترك قلاع أبى قير من الجهة الشرقية وقلعة العجمى من الجهة الغربية فى أعمال حربية آنذاك. كما كانت توجد بداخل مدينة الاسكندرية طابية كوم الناضورة وطابية كوم الدكة.



قلعة قايتباى

وقد أنشئت هذه الحصون فى عهد محمد على، ماعدا طابية كوم الناضورة وكوم الدكة اللتان أنشئتا فى عهد الحملة الفرنسية، وقلعة قايتباى المنشأة فى القرن الخامس عشر والتى لم تكن فى حالة حربية تجعلها نداً للأسطول البريطانى، حيث أن أعمال الترميم المختلفة التى أجريت بها لم تكن كافية.

وتجدر الاشارة إلى أن حامية الحصون بالاسكندرية آنذاك كانت مؤلفة من آلاى طوبجيه سواحل قوامه ١٧٦٢ جنديا بقيادة الأميرالاى اسماعيل صبرى، ولم يزد عددهم يوم الضرب عن سبعمائة. كما كانت بالمدينة حامية مكونة من أربعة آلايات، اثنان منها فى المدينة نفسها وهما الآلاى الخامس مشاة بقيادة الأميرالاى مصطفى عبدالرحيم برأس التين، والآلاى السادس بقيادة الأميرالاى سليمان بك سامى داوود، ويتألف من هذين الآلايين اللواء الثالث بقيادة خورشيد طاهر باشا، والجميع بقيادة الفريق اسماعيل كامل باشا، وأضيف اليهما آلايان بعد مذبحة الاسكندرية، وهما الآلاى الثانى بقيادى خليل كامل باشا، والآلاى الرابع بقيادة عيد بك محمد. ويتألف من هذين الآلايين اللواء الثانى بقيادة طلبة عصمت باشا الذى عينه عرابى قائدا لموقع الاسكندرية وحاميتها. وكان كل آلاى من المشاة يتكون من ثلاثة آلاف مقاتل، وبذلك يكون مجموع حامية الاسكندرية يوم تعرضها لعدوان الأسطول البريطانى مكونا من اثنى عشر ألفا من المشاة، وسبعمائة من المدفعية. ورغم تفوق الجنود المصريين من الناحية العددية إلا أنهم كانوا يفتقرون إلى معرفة حقيقة قوة العدو. كما كان الأسطول البريطانى أقوى سلاحا من الحصون، وكان يفوقها فى سرعة المناورة، على خلاف مدافع الطوابى الثابتة، وهى هدف واضح يسهل تدميره، وهذا يدل على أن كفة الأسطول البريطانى كانت أرجح بكثير من كفة الحصون المصرية، التى كانت تفتقر إلى التعاون فيما بينها، علاوة على القدرة على المناورة، فضلا عن بعد مدى المدفعية البريطانية. وكان فى استطاعة الأسطول البريطانى أن يحرك بوارجه بسرعة ويحشدها ويصوب جميع نيرانها على حصن واحد فيقوضه ويدمره بدون أن يستطيع حصن آخر أن ينجده، وهكذا يهاجم الأسطول حصناً بعد آخر فيصيبها التلف جميعا، وهذا ما حدث فعلاً.

وفى الساعة السابعة من صباح يوم الثلاثاء ١١ يوليو سنة ١٨٨٢م أمر الأميرال سيمور بضرب الاسكندرية، فأخذ الأسطول البريطانى يقذف حممه على القلاع والحصون فى شدة وعنف وبصورة لم يعهدها أهل الاسكندرية من قبل. واستمر القصف من مدافع الأسطول من الساعة السابعة صباحاً حتى السادسة

مساء مع توقفها فترات قصيرة خلال الضرب. وكانت قذائف الأسطول محكمة وذات قوة تدميرية كبيرة، بينما نجد أن القنابل التى كانت تطلقها مدافع الطوابى والاستحكامات الساحلية كانت ضعيفة وقصيرة المدى، وسقط معظمها فى البحر قبل الوصول إلى الهدف. ومما يدل على عدم استعداد العرابيين وتراخيهم فى تزويد بطاريات مدفعية الطوابى بما تحتاج اليه من أسلحة ومعدات، أن العدد القليل من مدافع أرمسترونج التى زودت بها بعض الحصون، والتى كانت تعتبر من أقوى أنواع المدافع المعروفة فى ذلك الحين، والمماثلة لمدافع الأسطول الانجليزى، لم تكن معدة الإعداد الفنى للاستعمال، وبذلك أصبحت عديمة الفائدة شأنها فى ذلك شأن المدافع القديمة. ورغم تفوق الأسطول البريطانى الساحق فإن ذلك لم يفت فى عضد الجنود والأهالى، فإذا كانت تنقصهم الأسلحة والعتاد، فلم تكن تعوزهم الشجاعة ولا الإيمان. فالجنود المصريين قد أدوا ما عليهم من واجب بكل همة ونشاط وبكل أمانة وإخلاص فى تلك الظروف القاسية التى اجتازوها. ولم يكن الجنود وحدهم فى الميدان إنما شاركهم فى عبء الدفاع أهالى الاسكندرية من رجال ونساء وأطفال كل بقدر استطاعته وفى حدود إمكانياته، فقام الرجال بإمداد حامية القلاع والاستحكامات بما تحتاج اليه من ذخائر وبتشجيعها على مواصلة القتال والعمل على راحتها. أما النساء فقد قمن بأعمال الإسعاف الأولية للجرحى والمعاونة فى خدمتهم، كما أسهم أئمة المساجد والوعاظ فى تشجيع الجنود على القتال وحث الأهالى على مؤازرتهم لصد هذا العدوان البريطانى الغاشم.

ولم يقتصر الأسطول البريطانى على توجيه ضرباته إلى الحصون العسكرية، بل امتد العدوان إلى مدينة الاسكندرية نفسها عن طريق قصفها بالمدافع، وكان هدف البريطانيين تدميرها وإلحاق أبلغ الضرر بدورها ومنشآتها، فأخذت قنابلهم تحصد الأهالى حصداً وتدمر البيوت فوق رؤوسهم، وليس لهم من جريمة اقترفوها سوى رغبة انجلترا فى احتلال بلدهم وتحقيق أطماعها فى السيطرة على مقدراتها. ولم يتوقف ضرب الأسطول البريطانى لمدينة الإسكندرية إلا فى مساء اليوم الحادى عشر من يوليو بعد أن استمر طوال اليوم، وأتى على جميع حصون المدينة واستحكاماتها ومنشآتها. وفى خلال هذا اليوم هاجر أهالى الاسكندرية تاركين دورهم وأمتعتهم، وانتشروا على ضفاف ترعة المحمودية والقرى الواقعة على طريق الاسكندرية - القاهرة، وقد بلغ عددهم ١٥٠ ألفا وكانوا فى حالة يرثى لها لما حل بمدينتهم الجميلة ودورهم وأسرهم من خسائر وضحايا.

وفى صباح اليوم التالى، الأربعاء ١٢ يوليو ١٨٨٢م، استأنفت البوارج البريطانية ضرب مدينة الاسكندرية من جديد، ولما كانت حالة المدينة لا تسمح بمواصلة القتال بعد أن دمرت قلاعهم وطوابيها وأصبح نزول القوات البريطانية لاحتلالها أمرا محتوما ومتوقعا بين لحظة وأخرى، فقد رفعت الأعلام البيضاء فوق مبنى نظارة البحرية وعلى حصون قايتباى والأطة ورأس التين طلباً للهدنة، فتوقف الأسطول البريطانى عن الضرب وذهب طلبه لمقابلة الأميرال سيمور للتفاوض فى وقف النار بناء على قرار مجلس الوزراء، فطلب مندوب الجانب البريطانى السماح للقوات الانجليزية بالنزول إلى المدينة واحتلال قلاع العجمى والدخيلة والمكس كشرط أساسى لوقف القتال وإلا استؤنف الضرب من جديد فى الساعة الثانية بعد ظهر ذلك اليوم.

وعندما عرض مطالب البريطانيين على مجلس الوزراء لم يوافق أغلب الحاضرين ومن بينهم أحمد عرابى عليها، وكلفوا طلبه وعبدالرحمن رشدى وزير المالية وتيجران سكرتير مجلس الوزراء إبلاغ هذا القرار إلى القائد البريطانى، ولكن تعذر على هؤلاء أداء هذه المهمة، فاستؤنف الضرب من جديد فى الساعة الرابعة بعد الظهر، فعادت الأعلام البيضاء مرة ثانية للظهور، فتوقف الضرب. وكان العرابيون فى ذلك الوقت قد حزموا أمرهم على إخلاء المدينة والتخلى عنها وإقامة استحكامات منيعة على مشارفها قرب كفر الدوار. ولذلك عندما أرسل الأميرال أحد الضباط الانجليز لاعادة فتح باب المفاوضات وجد المدينة خالية.

وعلى الرغم من أن الاسكندرية قد أصيبت بأضرار كبيرة نتيجة لقصف مدافع الأسطول البريطانى، وفقد المصريون فى هذه المعركة حوالى ألفى جندى - فيما عدا الأهالى - فلم يزل تحت يد العرابيين قوة كبيرة تبلغ العشرة آلاف جندى كان فى الإمكان استخدامها فى إعاقة نزول القوات البريطانية إلى البر، أو على الأقل تكبيدهم خسائر فادحة قبل أن يتمكنوا من احتلال المدينة، وخصوصاً إذا علمنا أن عدد قوات جنود الأسطول لم يكن يزيدون عن ٧٥٠٠ جندى وهو عدد قليل يبلغ قرابة نصف عدد القوات المصرية المرابطة فى الاسكندرية آنذاك. وقد ادعى البريطانيون بالنسبة لعمليات ضرب الاسكندرية أن هذه العملية تمت نتيجة للأخطار الجسيمة التى كان أسطولهم معرضا لها مما لم يترك مجالا لأى إجراء آخر، وأن الاضطراب الذى ساد المدينة آنذاك قد دفع البريطانيين دفعا إلى احتلالها، وإن كنا نرى من استقراء أحداث عدوان الأسطول البريطانى على الاسكندرية آنذاك - من خلال الوثائق المعاصرة - وتدمير المدينة فى هذا اليوم المشهود إنما جاء نتيجة لدوافع تاريخية كانت تسيطر على الانجليز وهم يقومون بارتكاب جريمتهم النكراء. فمنذ خمسة وسبعين عاما قبل هذا التاريخ وبقيادة الجنرال فريزر احتل الانجليز الاسكندرية، ثم حاولوا احتلال رشيد والوصول إلى القاهرة نفسها، ولكن الشعب المصرى أوقع بهم هزيمة ضخمة تجلت فيها بسالة أبناء مصر وصمودهم مما اضطر الانجليز إلى الانسحاب من الاسكندرية بخفى حنين. ومن ثم لم ينس الانجليز درس رشيد، وما لم يتم تنفيذه فى عام ١٨٠٧م خططوا لتنفيذه فى عام ١٨٨٢م، وهو تدمير الاسكندرية. ولهذا فإن عملية تدمير الاسكندرية كانت فى حقيقة الأمر عملية انتقامية، وليست عملية حربية لاحتلال مصر، إذ كان مخططا أن يتم هذا الاحتلال عن طريق اقتحام قناة السويس، أى من شرق الدلتا وليس من غربها، كما أيدت ذلك تقارير المخابرات البريطانية آنذاك والتى تم نشرها فيما بعد، إذ أن تلك العملية أدت إلى ترك لواء بريطانى كامل معطلا فى الاسكندرية أثناء سير الحملة فى الصحراء الشرقية لاحتلال مصر.

على أن مقاومة الاسكندرية للعدوان البريطانى فى يومى الثلاثاء والأربعاء ١١ - ١٢ يوليو ١٨٨٢م اعترف به الأعداء أنفسهم، فقد ذكر الأميرال سيمور نفسه فى ختام تقريره عن تلك المعركة: «لقد قاتل المصريون قتال الأبطال بأقدام ثابتة، وكانوا يجاوبون النيران الشديدة التى على حصونهم من مدافعنا الضخمة، إلى أن قتل عدد كبير منهم»، كما شاهد «ولتر جودسول Walter goodsall» الانجليزى قومندان الباخرة «شلترن Chiltern» إحدى سفن شركة «التلغراف الشرقية Eastern Telegraph» مقاومة حصن الأطة ودفاع قائده وأعجب بهما وقال: «لقد عجبت من هذه البطولة التى كان يتحلى بها الجنود الذين يطلقون مدافع حصن الأطة، كما أعجبت كل الإعجاب بموقف قائد هذا الحصن قرب سارية علمه وهو قائم وحده والمنظار فى يده يراقب الآثار التى تركتها القذائف فى الحصن. لقد كان هذا القائد فى الحقيقة رجلا شجاعا لا يعبأ بعدد المقذوفات التى كانت تنهمر على حصنه، ثم أخذت البارجة انفلكسيبل تصوب مدافعها الضخمة نحو هذا الحصن إلى أن دكت أسسه ودمرته تدميراً، وفى منتصف الساعة الثانية بعد الظهر صوبت قنبلة إلى مستودع البارود بالحصن، وأصابته فانفجر، ولابد أن كثيرا من الجنود قد قتلوا، فإن عددا منهم طار فى الفضاء، وكذلك الضابط الباسل الذى كان واقفا كالأسد فى عرينه طار فى الهواء هو وسارية علمه».

وبعد تحطيم هذا الحصن اتجهت البوارج الانجليزية إلى بقية الحصون الأخرى، وقاومت الحصون جميعا مقاومة عنيفة لا تقل بطولة عن مقاومة حصن الأطة، وأثبت الضابط والجنود المصريون من المهارة فى القتال ما أثار إعجاب الانجليز أنفسهم، وكان «ماجور تلك Major Tullock» أحد رجال المخابرات على ظهر السفينة «انفنسيبل» أثناء ضربها لحصن المكس، وقد قال: «لقد كان مما يثير عجبى حقيقة أن أرى هؤلاء الجنود - رغم عنف الضرب - واقفين فى أماكنهم حريصين على ملازمة مدافعهم. وكنت أرى فى أكثر من مرة قذيفة من قذائفنا تدخل فى إحدى كوات مدافعهم، وكنت أقول لنفسى: هذا المدفع قد انتهى وأصبح فى حيز العدم، ولكنه كان يعود لاطلاق قذائفه فى الوقت المناسب، وقد أتت قذائف أحد المدافع المصابة مرة بسرعة فائقة جدا حتى أننى لم

أتمالك نفسى ووثبت إلى حافة السفينة، ورفعت يدى صائحا: لقد أجدت العمل أيها الجندى المصرى».

ولقد شهد المعركة «جون نينيه» عميد الجالية السويسرية فى مصر ووصفها فى كتابه «عرابى باشا» وقال: «يجب أن نعترف بأن هذه مجزرة همجية لا ضرورة لها، ولم يكن لها أى مصوغ، وليس الباعث عليها سوى الشهوة الوحشية المتعطشة إلى القتل وسفك الدماء، ولقد كان بودى أن أسأل أولئك الضباط الذين كانوا يباشرون الضرب ويقذفون قنابل المتراليوزات، هل يستطيعون حينما يعودون إلى بلادهم ويجلسون حول موائد الشاى فى بيوتهم أن يتحدثوا إلى ذويهم عن آثار الفتك والتدمير التى أحدثت تلك المجازر البشرية؟ انى أشك فى ذلك، فليت شعرى أى إهانة لحقت الأمة البريطانية حتى تثأر لنفسها بهذه الفظائع!!؟». ويستطرد «جون نينيه» فيصف بطولة المصريين فى طوابى الاسكندرية وهم يدافعون عن بلادهم فيقول: «ومع ذلك فما كان أبدع هذا المنظر، منظر الرماة المصريين، الذين كانوا قائمين على مدافعهم وهى مكشوفة فى العراء، وكأنما هم فى استعراض حربى لا يرهبون الموت الذى يكتنفهم، إذ لم يكن لهم دروع واقية ولا متاريس، وكانت معظم الحصون بلا ساتر، ومع ذلك فؤلاء الشجعان من أبناء النيل كنا نلمحهم وسط الدخان الكثيف كأنهم الأبطال الذين سقطوا فى حومة الوغى، ثم بعثوا ليكافحوا العدو من جديد ويستهدفوا لنيران مدافعه. وكان الأئمة يزورون الحصون ويشجعون المقاومة، وقام الجميع بواجبهم من جند ورجال ونساء وصغار وكبار، ولم يكن ثمة أوسمة ولا مكافآت تستحث أولئك الفلاحين على أداء واجبهم، بل إن عاطفة الوطنية والثورة على الفظائع التى استهدفوا لها كانت تستثير الحماسة فى صدورهم، وهم أولئك الشجعان المجهولون الذين لم يفكر أحد فى آلامهم».

وفى منتصف الساعة السادسة مساء يوم الأربعاء ١٢ يوليو ١٨٨٢م، عجزت حصون الاسكندرية عن الاستمرار فى المقاومة فسكتت، وأعطى الأميرال «سيمور» أوامره بالكف عن ضرب الاسكندرية التى أصيبت بالخراب والدمار، فيذكر «جون نينيه»: «وأقفلت الدكاكين والنوافذ والأبواب والبيوت فى المدينة كلها، وخيل إلى أننى فى بلدة قضى عليها الخراب النهائى. وكانت قنابل الأسطول الضخمة تنهال على المدينة وتخترق أحياءها فى كل جهة، وتدور فوق رؤوسنا وهى تدوى دويها المفزع، فكانت تدمر المنازل فى ناحية، وتشعل النيران فى ناحية أخرى، وترسل الموت فى كل مكان. وقد مرت فوق رأسى خمس قذائف من (رسائل الانسانية الغربية) على حد تعبير أحد الضباط، على سطح المنزل الذى كنت أقيم فيه تجاه حمامات (كارتونى) بالقرب من محطة الرمل، فأصابت إحداها مدرسة فدمرتها، وأصابت ثلاث أخرى بعض المنازل من قصور الأغنياء بالقرب من شارع باب شرقى فخربتها، والخامسة قتلت أحد عشر شخصا وجوادين بأول شارع محرم بك، ولم يكن لهذه القذائف القتالة التى أصابت قلب المدينة ما يقابلها من جانب المصريين، فإن عرابى قد ارتأى منعا للدمار أن لا تشترك قلعتا كوم الناضورة وكوم الدكة فى الضرب لوجودهما وسط المدينة».

ولم ينفرد الضباط والجنود المصريين ببطولة الدفاع عن الاسكندرية وإنما شاركهم فى هذه البطولة أهالى الاسكندرية الذين لهم فى تاريخ الوطنية المصرية صفحات مجد مشرقات، فقد تطوع السكندريون وقدموا ما إستطاعوا من معونة وخدمات للجند المحاربين، شهد بهذا الشيخ محمد عبده حين قال: «فكان الرجال والنساء تحت مطر الكلل ونيران المدافع ينقلون الذخائر ويقدمونها إلى بقايا الطوبجية الذين كانوا يضربونها، وكانوا يغنون بلعن الأميرال سيمور ومن أرسله». كما أكد هذا عرابى فقال فى مذكراته: «وفى أثناء القتال تطوع كثير من الرجال والنساء فى خدمة المجاهدين ومساعدتهم فى تقديم الذخائر الحربية وإعطائهم الماء وحمل الجرحى وتضميد جروحهم ونقلهم إلى المستشفيات».

كان ذلك شأن الضباط والجنود وأهالى الاسكندرية من رجال ونساء فى مقاومة عدوان الأسطول البريطانى على مدينتهم، أما بالنسبة للخديو توفيق فقد ظل يقيم فى سراى مصطفى باشا بالرمل أثناء الضرب، ويقيم معه بعض الأجانب وبعض الأمراء ونفر من الخائنين أمثال سلطان باشا. وفى صباح يوم الخميس الثالث عشر من يوليو ١٨٨٢م بعد انتهاء الضرب أوفد الخديو زهران بك إلى الأميرال سيمور يستأذنه فى الانتقال إلى سراى

رأس التين ليستقبله بها سيمور بساحتها ومعه بعض الضباط الانجليز وفرقة من جنوده، ومنذ تلك اللحظة ظهر انضمام توفيق، السافر إلى الانجليز وكان هذا بداية انقسام الأمة على أمرها وظهور معسكرين متنافرين، معسكر ضئيل يؤازر الخديو، ومعسكر الثورة الذى يضم إليه غالبية الشعب. ووصلت برقية إلى سيمور تخوله نزول بحارته ومشاة بحريته إلى المدينة لإعادة النظام بها، كما نزل فى المساء إلى البر مشاة البحارة من المدرعات سويرب وانفلكسيبل وتمرير وأشيلز وسلطان، وتولى الكابتن فيشر من المدرعة انفلكسيبل قيادة القوة كلها فى المدينة، وتركت المدرعات انفلكسيبل، وتمرير، وأشيلز فى مكان من البحر يواجه الرمل للسيطرة على طرق الاقتراب الأرضية المؤدية إلى الاسكندرية من الجنوب والغرب.

وفى اليوم السادس عشر من يوليو ١٨٨٢م أرسل الأميرال سيمور بناء على اقتراح من الخديو توفيق سفينتين إلى أبى قير للسيطرة على منطقتها إذا حاول عرابى هدم سدها وغمرها بمياه البحر، وأصدر الخديو فى اليوم العشرين من يوليو ١٨٨٢م أمرا بعزل عرابى من وزارة الحربية والبحرية وتعيين عمر باشا لطفى محافظ الاسكندرية بدلا منه، وبنى أمر العزل على مخالفة عرابى لأوامره ومداومة الاستعدادات الحربية، وأذاع هذا الأمر على شعب الاسكندرية وأهالى مصر بوجه عام، وناشد الشعب بالانضمام تحت لوائه لمناصرة الجيش البريطانى والامتناع عن معاونة العرابيين، فلم يؤثر ذلك على مشاعر الأمة التى انضمت كلها إلى جانب عرابى وأيدت الحكومة الثورية الشرعية. وقد استمرت التعزيزات البريطانية ترد إلى الاسكندرية، كما بدأت المخابرات البريطانية فى تجميع المعلومات عن الدفاعات المصرية بكفر الدوار. وقدرت حجم القوات بنحو عشرة آلاف مقاتل مدعمة بست بطاريات مدفعية، وبطارية «جاتلنج» وعدد ٣٠٠ جندى بحرى. وقد قامت عدة معارك فى الميدان الغربى بين الانجليز والعرابيين، كانت فى جملتها فوزا للعرابيين، لأن الانجليز لم يحققوا من خلالها أى نجاح، وفشلوا دائما، وكانوا يرتدون بعد كل فشل إلى الاسكندرية. حتى تمت عملية الغزو من الجبهة الشرقية والتى ترتب عليها احتلال بريطانيا لمصر فى عام ١٨٨٢م.

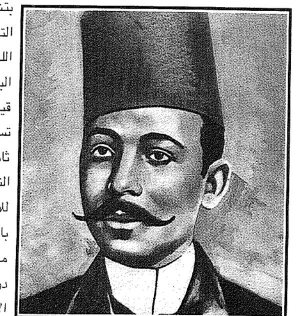
لقد أصيبت الاسكندرية فى تلك المعركة بأضرار كبيرة، وفقد المصريون حوالى ألفى جندى، فضلا عن الذين استشهدوا من الأهالى. وقد عز على سليمان داود قائد الآلاى السادس أن يترك الاسكندرية تسقط فى يد الانجليز لقمة سائغة فأصدر أوامره إلى الجنود باضرام النار فى المناطق التى لم تصل اليها الحرائق التى أشعلتها قنابل العدو دون إذن من قيادة الجيش حتى لا تستفيد منها قوات الانجليز. ولم تكن الضرورة العسكرية تدعو لمثل هذا العمل الذى يفتقر إلى الحكمة وبعد النظر. وما درى سليمان داود أنه بعمله هذا قد أسهم فى تدمير ما بقى بالمدينة من بيوت الأهالى وأمتعتهم، بينما قد أتاح الفرصة للأجانب كى يطالبوه بتعويضات باهظة عما فقدوه، وقامت سلطات الاحتلال بدفع تلك التعويضات من أموال المصريين. وفى نفس الوقت لم يعوض الوطنيين عن خسائرهم لأنها من صنع بنى جلدتهم وعليهم أن يتحملوا تبعة أعمالهم. هذا بالاضافة إلى أن الحريق لم يعق نزول القوات البريطانية إلى المدينة أو يحول دون الاستيلاء عليها. وقد اشترك فى هذا العمل الطائش أيضا نفر من الانتهازيين من الأوروبيين وخصوصا الأروام والمالطيين فقاموا بنهب المتاجر وإحراقها لإخفاء معالم جريمتهم، أو إشعال النار فى متاجرهم بعد أخذ ما بها من سلع وبضائع، رغبة فى الحصول على تعويضات عنها. هذا فضلا عما أحدثته قنابل الأسطول البريطانى من حرائق وما تعرض له أهالى الاسكندرية من تشريد، بل ان ميادينها الجميلة وشوارعها النظيفة المنسقة ومصابيحها المتلألئة وبساتينها الفيحاء قد أصبحت كلها أثرا بعد عين.

وقد بذل البريطانيون جهودا كبيرة فى إطفاء الحرائق وفى إرجاع الحياة اليومية إلى مجراها الطبيعى بالاسكندرية، فوضعوا على إدارة البوليس «سير شارل برسفورد» أحد ضباط الأسطول البريطانى، وكان عليه إقرار الأمن والنظام فى المدينة، وإيقاف أعمال السلب والنهب، وتشجيع من بقى من الأهالى والأجانب على مزاولة أعمالهم، وأقاموا لهم مساكن خشبية حول ميدان محمد على تشتمل على بعض الحوانيت والمطاعم. كذلك شجع

الانجليز القنصليات الأجنبية والشركات على ممارسة نشاطها. فلم تمض أسابيع قلائل حتى تمكنت سلطات الاحتلال من إزالة الأنقاض من الشوارع، ومن دفن الموتى، وتطهير الشوارع وإنارتها من جديد ولكن رغم تلك الجهود كانت المدينة مازالت شبه خالية. كذلك لم تعرف المدينة الاستقرار وقوات العرابيين على مشارفها، وخصوصا قبل وصول الإمدادات الحربية التى طلبها الأميرال سيمور لإتمام إحتلال البلاد. فكانوا يتوقعون مهاجمة العرابيين لهم بين لحظة وأخرى، ولذا لم يدخروا وسعا فى تحصينها وتشديد قوات الدفاع على مداخلها. ومن أكبر العوامل التى أسهمت فى خلق حالة عدم الاستقرار فى نفوس قوات الاحتلال والمقيمين بالاسكندرية آنذاك حجز المياه الصالحة للشرب عن المدينة، فقد أقام العرابيون طبقا لخطتهم سدا على ترعة المحمودية عند مركز القيادة بكنج عثمان يمنع جريان ماء الترعة إلى الاسكندرية، وبهذا قل ورود الماء إلى المدينة إلى حد كاد يهدد حياة المدنيين فيها، واضطرت سلطات الاحتلال إلى الاقتصاد فى توزيع المياه وقصره على من يحملون بطاقات معينة.

وقد ركز العرابيون أفضل قواتهم الضاربة وأكفأ ضباطهم فى استحكامات كفر الدوار، ورغم جهود البريطانيين لمهاجمتهم عدة مرات، فقد أسفرت جميعها عن صمود العرابيين وتقهقر القوات البريطانية إلى ما وراء تحصينات الإسكندرية. وبتولى الجنرال ولسلى قيادة الحملة البريطانية فقد أصدر فى ١٩ أغسطس ١٨٨٢م منشورا من معسكره بالاسكندرية يعلن فيه أن هدف الحملة الانجليزية هو تأييد سلطة الخديو ضد الخارجين عليه، وبأنه يهيب بمشايخ البلاد وغيرهم معاونته على تحقيق هذا الهدف. وقد بدأ القائد العام الانجليزى تنفيذ خطته الحربية فى مهاجمة القناة واحتلالها، ولكنه تظاهر بعزمه على مهاجمة أبى قير. وبالفعل أقلعت قواته على البوارج الحربية من ميناء الاسكندرية ورست فى أبى قير إلى أن أرخى الليل سدوله، فانسحبت إلى عرض البحر حيث واصلت سيرها إلى بورسعيد فاحتلتها فى ٢٠ أغسطس ١٨٨٢م، ثم اقتحمت القناة واحتلت الاسماعيلية واتخذتها قاعدة لعملياتها الحربية فى شرق الدلتا. وفى موقعتى القصاصين فى ٩ سبتمبر ١٨٨٢م والتل الكبير فى ١٣ سبتمبر تقرر مصير الثورة العرابية. وعندما علم ضباط وجنود استحكامات كفر الدوار بنبأ الهزيمة ألقوا ما بأيديهم من أسلحة وعادوا إلى بلادهم.

وقد بقى الخديو توفيق بالاسكندرية يتلقى تهانى الوفود لمدة عشرة أيام بعد موقعة التل الكبير، كما أصدر أمرا فى ١٩ سبتمبر ١٨٨٢م بتأليف لجنة للتحقيق بالاسكندرية تختص بنظر كل ما يتعلق بأعمال القتل والنهب والحرق التى حدثت بالمدينة فى الفترة ما بين ١١-١٦ يوليو ١٨٨٢م، كما أصدر أمرا آخر فى ٢٨ سبتمبر بتشكيل محكمة عسكرية بالاسكندرية للحكم فى القضايا التى تحال عليها من لجنة التحقيق بالاسكندرية وكذلك اللجنة الخاصة بمدينة طنطا. وعلى الرغم من الاحتلال البريطانى لمدينة الاسكندرية ورغم ما فرضه عليها من قيود، فقد استطاعت أن تنهض من جديد بعد الكارثة، وأن تستعيد مركزها كأهم ميناء تجارى فى مصر وكعاصمة ثانية للبلاد. أما من الناحية القومية فعلى الرغم من ازدياد النفوذ الأجنبى بالمدينة، وبالرغم من اتخاذها قاعدة حربية للأسطول الانجليزى فى البحر المتوسط، فقد قوى الشعور بالقومية لدى أهلها، وأصبحت من أكبر معاقل حركة مصطفى كامل ونضاله من أجل الاستقلال، كما كان لها دورها الفاعل فى الحركة القومية فى أعقاب الحرب العالمية الأولى.



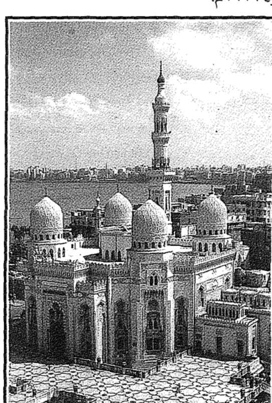
الزعيم مصطفى كامل

تأييد الاسكندرية لحركة مصطفى كامل الوطنية:

تجددت الحركة الوطنية المصرية على يد مصطفى كامل عقب إخماد الثورة العرابية وتحكم الاحتلال البريطاني فى مقدرات البلاد. وكان للاسكندرية دورها الفاعل آنذاك حيث ألقى مصطفى كامل بالاسكندرية فى ٣ مارس سنة ١٨٩٦م خطبته الأولى ضد الاحتلال وسط جمع غفير من المصريين والأجانب الذين عبروا عن إعجابهم وتقديرهم وتأييدهم له فى المطالبة بالجلاء. وعندما عقد الاتفاق الودى بين انجلترا وفرنسا فى سنة ١٩٠٤م وتخلت فرنسا عن معارضتها للاحتلال البريطانى لمصر، والتى كان يستثمرها المصريون لصالح قضيتهم، فقد أصيب الرأى العام المصرى بصدمة عنيفة لافتقاد مناصرة فرنسا آنذاك. ولهذا قدم مصطفى كامل إلى الاسكندرية وألقى خطبة فيها فى ٧ يونيو سنة ١٩٠٤م نادى فيها بضرورة اعتماد المصريين على أنفسهم فى تحرير بلادهم. كما ألقى مصطفى كامل خطبته الأخيرة بالاسكندرية فى ٢٢ أكتوبر ١٩٠٧م عقب استقالة لورد كرومر نتيجة للحملة القوية التى شنها ضده بعد حادثة دنشواى، وقد نادى فيها بضرورة استمرار الكفاح الوطنى حتى تحقيق الجلاء.

ولهذا كانت الاسكندرية معقل كفاح مصطفى كامل وملهمته بأسمى الشعارات الوطنية التى عبر فيها عن اعتزازه بمصر وشعبها العريق.

الاسكندرية أثناء الحرب العالمية الأولى ودورها فى ثورة ١٩١٩م:


مسجد أبو العباس المرسى

شهدت الاسكندرية أحداث الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ - ١٩١٨م) حيث رزحت البلاد تحت وطأة الأحكام العرفية طوال فترة الحرب، كما استنزفت بريطانيا الموارد المصرية وحكمت البلاد حكما عسكريا بغيضا قائما على التعسف والبطش طوال فترة الحرب، وانتهكت بريطانيا حرية البلاد وكرامتها وسخرت جهود مصر وطاقاتها لخدمة أغراضها الحربية ومصالحها وأهدافها الاستعمارية. كما شاركت الاسكندرية بكل فعالية واقتدار فى أحداث ثورة ١٩١٩م حيث يسجل تاريخ مدينة الاسكندرية انطلاق المظاهرات من مسجد أبى العباس المرسى مرارا عديدة واتجاهها صوب مبنى المحافظة القديم بشارع رأس التين هاتفة بالحرية والاستقلال. وقد استجابت بريطانيا فى أعقاب تلك الثورة لبعض المطالب المصرية بشروطها فى تصريح ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢م، وكان لأحداث الاسكندرية أكبر الأثر فى تحقيق ذلك. كما تعرضت الاسكندرية لضغوط الاحتلال البريطانى فى فترة ما بين الحربين العالميتين على الرغم من عقد المعاهدة البريطانية - المصرية فى سنة ١٩٣٦م التى حاولت من خلالها بريطانيا أن تمهد الموقف فى مصر لدخول الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩ - ١٩٤٥م).

الاسكندرية أثناء الحرب العالمية الثانية وبروتوكول الاسكندرية:

عندما قامت الحرب العالمية الثانية فى سنة ١٩٣٩م، فقد أصبحت الاسكندرية قاعدة للأسطول البريطانى فى

البحر المتوسط، بل وأكبر قاعدة عسكرية فى نطاقه، كما استخدمت بريطانيا المطارات المصرية، وأصبح خط حديد الاسكندرية - مرسى مطروح من أهم الخطوط الحربية بالنسبة لبريطانيا، وكذلك الطريق البرى الذى يصل بين المدينتين، فضلا عن الطريق الصحراوى الموصل بين الاسكندرية والقاهرة. وكانت الاسكندرية تشكل مركز العمليات الحربية لبريطانيا فى الصحراء الغربية، حيث كانت تخرج منها القطارات ليل نهار حاملة المؤن والذخيرة إلى القوات البريطانية المرابطة فى الصحراء. وقد تعرضت الاسكندرية لغارات الايطاليين والألمان نظرا لموقعها الاستراتيجى الممتاز، فدمرت بعض مرافقها، كما نسفت بعض الدور ودفن من بها تحت الأنقاض، وذهب ضحية هذه الاغارات عدد غير قليل من المواطنين الأبرياء. وعندما اشتد هجوم الألمان غربى مصر ودفعوا أمامهم القوات البريطانية فى الصحراء الغربية على الطريق المؤدى إلى الاسكندرية، فقد أصبح مركز القوات البريطانية بالاسكندرية دقيقا، حيث وصلت قوات المحور إلى موقع العلمين الذى لا يبعد عن الاسكندرية غربا أكثر من ١٢٨ كيلو مترا. غير أن الزحف الألمانى توقف عند استحكامات العلمين أمام قوى الحلفاء المستندين إلى القاعدة البريطانية فى الاسكندرية آنذاك، حتى اندحرت قوات المحور فى سنة ١٩٤٣م.

وقد شهدت الاسكندرية بعد ذلك مولد الجامعة العربية فى نهاية الحرب العالمية الثانية، حيث وقعت بها الوثيقة الأولى فى بناء الجامعة فى ٧ أكتوبر ١٩٤٤م فيما عرف «ببروتوكول الاسكندرية»، فارتبط اسمها - وهى معقل النضال الوطنى والقومى - ببدء تنفيذ هذا المشروع القومى الهام.

وبعد انتهاء الحرب العالمية الثانية، فقد رفعت بريطانيا الأحكام العرفية التى سادت مصر فى أكتوبر سنة ١٩٤٥م مما جعل البلاد تتنفس الصعداء. وأخذت الحكومات المصرية المتعاقبة تطالب الحكومة البريطانية بالجلاء ووحدة وادى النيل، فضلا عن تعديل معاهدة سنة ١٩٣٦م. وقد قررت المنظمات الشعبية تحديد يوم ٢١ فبراير ١٩٤٦م للقيام بإضراب عام إعرابا عن تصميمها على التمسك بالجهاد، وأطلق على هذا اليوم «يوم الجلاء»، وشهدت الاسكندريةُ المظاهرات الشعبية المؤيدة لذلك كغيرها من مدن مصر، وراح ضحيتها الكثيرون وخاصة بعد إنزالهم العلم البريطانى من على سارية فندق أطلانتيك الذى كان يقيم فيه رجال البحرية البريطانية. كما شهدت الاسكندرية مظاهرات عديدة لمناصرة شعب فلسطين خاصة بعد أن أصدرت الأمم المتحدة قرارا بتقسيمها بين العرب واليهود فى عام ١٩٤٧م.

وعندما ألغت وزارة الوفد معاهدة سنة ١٩٣٦م فى ٨ أكتوبر سنة ١٩٥١م، والتى أعقبها سحب العمال المصريين البالغ عددهم ما يربو على مائة ألف عامل كانوا يعملون فى خدمة القوات البريطانية بمنطقة القناة، وكذلك حرمت على المتعهدين تزويدهم بالمواد التموينية، فقد اعتدت بريطانيا على دار محافظ الاسماعيلية ودكتها بالقنابل رغم أن عدد من كانوا بها من الجنود لم يزد عن الثمانين. وكان من نتيجة هذا الاعتداء الغاشم ثورة الرأى العام فى مصر كلها، وخاصة فى القاهرة يوم ٢٦ يناير ١٩٥٢م، وانتهز بعض المتآمرين هذه الفرصة لإشعال حريق القاهرة وذلك للتخلص من الوزارة. وقد أعلنت الأحكام العرفية وأقيلت وزارة الوفد على أثر هذا الحادث، وخلفتها وزارة على ماهر باشا، غير أنها قدمت استقالتها فى أول مارس ١٩٥٢م، بعد أن أيقنت تكاتف كل من الملك والانجليز على وضع العراقيل فى طريقها. وقد تولى نجيب الهلالى باشا رئاسة الوزارة، وانحصرت مهمته آنذاك فى القضاء على حزب الوفد وتنفيذ سياسة الملك، غير أنه قدم استقالته فى ٢٧ يونيو ١٩٥٢م عندما علم بإشاعة اتصال الوفد بالسفارة الأمريكية واتفاقه معها على العودة إلى الحكم على أن تنضم مصر لهيئة الدفاع المشترك وأن الملك قد وافق على ذلك. وقد تولى حسين سرى باشا الوزارة مؤقتا ريثما يتمكن الملك من الاتفاق مع نجيب الهلالى باشا لتكملة السياسة التى بدأها من قبل. وبمجرد أن تم الاتفاق فقد استقال حسين سرى باشا فى ١٨ يوليو ١٩٥٢م، وتولى نجيب الهلالى باشا تأليف وزارته الثانية يوم ٢٢ يوليو ١٩٥٢م، أى قبل قيام الثورة بساعات يوم ٢٣ يوليو ١٩٥٢م مؤذنة بميلاد عهد جديد.

الاسكندرية فى ظل ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢

أ. د/ محمد محمود السروجى

زاد عدد الأجانب فى الاسكندرية زيادة كبيرة فى ظل الاحتلال الانجليزى، وفى النصف الأول من القرن العشرين على وجه الخصوص. وقد ساعد على ذلك حماية بريطانيا لمصالح هؤلاء الأجانب من ناحية، ووجود الامتيازات الأجنبية من ناحية أخرى. ومن ثم فكانت الأسكندرية ذات طابع أوروبى عند قيام ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢.

وتأتى الجالية اليونانية فى مقدمة الجاليات الأجنبية من حيث العدد والنشاط الاقتصادى والثقافى والاعلامى، فأصدروا الكثير من الجرائد باللغة اليونانية، وبلغات أخرى أوروبية، بالاضافة إلى العربية. ومن الناحية الثقافية صدرت الكثير من الكتب اليونانية فى مختلف فروع المعرفة، ومنها ما يتناول بعض القضايا المصرية. وقد تركز هؤلاء فى منطقة الرمل عامة وفى الابراهيمية وكامب شيزار على وجه الخصوص.

وكانت لهم مؤسساتهم الاقتصادية والمالية والصناعية والثقافية، كما كانت لهم مدارسهم الخاصة وأبنيتهم، وجمعياتهم الخيرية ومدافنهم وكنائسهم. وبمعنى آخر أنهم كانوا يكونون مجتمعا يونانيا، له عاداته وتقاليده داخل المجتمع السكندرى.

ويأتى الايطاليون فى المرتبة الثانية بعد اليونانيين من الناحية العددية، وكانوا يماثلون اليونانيين من ناحية النشاط الاقتصادى والاجتماعى، والثقافى. فلهم مؤسساتهم الاقتصادية والمالية، ولهم مدارسهم ونواديهم، ومستشفياتهم.

وإذا انتقلنا إلى الجالية الانجليزية، فنجد أن معظمهم ليسوا من الانجليز الخلص، ولكن من المالطيين والقبارصة، وكانت لهم مؤسساتهم الاقتصادية مثل الغرفة التجارية الانجليزية، والثقافية والتعليمية مثل كلية فيكتوريا، ومدرسة البنين British Boys School ومدرسة البنات English Girls College. وكان نشاطهم الرياضى والاجتماعى يتمثل فى نادى سبورتنج، ونادى الاتحاد ونادى اليخت.

أما الجالية الفرنسية فكان لها نشاطها الواسع، ولاسيما فى مجال التعليم، إذ كانت اللغة الفرنسية أكثر انتشارا فى الاسكندرية من اللغة الانجليزية. وكان يشرف عليها ثلاثون مؤسسة فرنسية، ومن أشهر مدارسها: مدرسة الليسيه، ومدرسة الفرير، وكلية سانت كاترين، وكلية سان مارك.

ويمكننا القول بأن عدد المدارس الأجنبية فى الاسكندرية كان كبيرا، ومن حسنات هذه المدارس أنها استطاعت أن تخرج جيلا من شباب الاسكندرية يتقن اللغات الأجنبية اتقانا تاما، ولاسيما اللغتين الفرنسية والانجليزية، وأن هذا الأمر مطلوب، بشرط ألا يكون ذلك على حساب اللغة العربية، لغة البلاد القومية. فقد وجدنا أطفالا يدخلون هذه المدارس فى سن الرابعة ليتعلمون لغة أجنبية أو أكثر دون أن يتعلموا لغة بلدهم بشىء من الاتقان.

كما أن هذه المدارس كانت توجه الشباب الوجهة التى تريدها دولها، لتحقيق أهداف سياسية أو دينية أو اجتماعية، عن طريق الكتب التى تفرض عليهم دراستها، والمدونة بطريقة استعمارية لا تتفق مع الأهداف القومية والوطنية للمجتمع.

ومن خطورة التعليم فى هذه المدارس تدريس كل ما يتعلق بالدولة التابعة لها المدرسة بشكل مستفيض، وبتمجيد ما قاموا به من أعمال، مع اهمال تدريس تاريخ مصر وجغرافيتها ومواردها بصورة مماثلة، والنتيجة الحتمية لذلك أن الخريج، يخرج للحياة العامة بمعلومات سطحية عن بلده وعن أمجادها وتراثها الحضارى والثقافى.

ومن بين الجاليات الأجنبية التى كان لها نشاطها الاقتصادى والمالى الكبير، الجالية اليهودية التى كانت تضم جنسيات مختلفة، وقد زاد عددهم فيما بين الحربين العالميتين وتعددت مؤسساتهم الاقتصادية والمالية والاجتماعية والتعليمية.

وخلاصة القول فمما لاشك فيه أن هذه الجاليات قد تركت بصماتها على مختلف مظاهر الحياة فى المدينة، سواء فى ذلك المبانى المتباينة الطراز، والحدائق العامة، والشواطىء التى أطلقت عليها أسماء أوربية، مثل كامب شيزار واسبورتنج وستانلى وجليمونوبولو، وفيكتوريا وغيرها، كما أن هذه الجاليات سكنت فى رمل الاسكندرية بعيدا عن الأحياء الوطنية التى يسكنها الوطنيون، فيما عدا بعض اليونانيين.

أما بالنسبة للوضع السياسى فى مصر، ومنذ بداية عام ١٩٥٢، فقد تدهورت الحياة السياسية، ولم تعد وزارة الوفد بقادرة على مواجهة الأحداث بعد الغاء معاهدة ١٩٣٦، وما ترتب على ذلك من قيام القوات الانجليزية بأعمال وحشية ضد المدنيين العزل فى البلاد دون أن تستطيع الوزارة وضع حد لها. ولذا لم يكن هناك مناص من سقوطها.

وتوالت على مصر أربع وزارات فى فترة لا تتجاوز ستة شهور وان دل ذلك على شىء، فإنه يدل على مقدار ما تعانيه البلاد من اضطراب سياسى، واقتصادى، وعجز هذه الوزارات عن مواجهة هذا الموقف الخطير، فهى وزارات أقلية لا تستند على تأييد شعبى أو برلمانى. وقد استغلت الملكية هذا الضعف بزيادة تدخلها فى شئون البلاد، واستحواذها على السلطة.

وفى الوقت نفسه لم تستطع الأحزاب أن تتناسى خلافاتها، وأن ترتفع إلى مستوى المسئولية، وأن تتحد لمواجهة الخطر الداخلى المتمثل فى قوات الاحتلال، والملكية.

وأيقن الشعب أن تجربته مع النظام الدستورى فى مدى ثمانية وعشرين عاما قد أثبتت فشلها وعجزها عن تحقيق حياة أفضل، أو استكمال حرية البلاد، والحصول على استقلال حقيقى. ووجد أن خير وسيلة ـ بعد أن كفر بتلك الأحزاب ـ أن يعتمد على نفسه فى استخلاص حقوقه من أيدى الملكية المستبدة، وفى تحقيق جلاء القوات الانجليزية عن أرض مصر.

كان هذا الوضع الخطير يلقى بظلاله على مدينة الاسكندرية التى كانت تتركز فيها المصالح الأجنبية بصفة خاصة، والتى يعيش فى كنفها الأعداد الكبيرة من الأجانب الأوروبيين، الذين ارتبطت مصالحهم بالوجود الانجليزى فى مصر، وبالامتيازات الأجنبية، وأن أية حادثة قد تقلب الأمور فيها رأسا على عقب، لاسيما فى هذا الجو المشحون بالتوتر والاضطراب. ولكن يقظة السكندريين وحسن ادراكهم للأمور قد حال دون حدوث ما نخشاه.

لم يكن ضباط الجيش ببعيدين عن تلك الأحداث، لاسيما المتمركزين منهم فى القاهرة والاسكندرية، وقد عاشوها فى حرب فلسطين، وشاهدوها فى حريق القاهرة، وفى ما تعانيه البلاد من فساد لم تبرأ منه أحزابها السياسية التى عجزت عن تطهير نفسها، وأن تكون على مستوى المسئولية الخطيرة التى تمر بها البلاد. بل وجدناها تنقاد للملكية تكالبا على كراسى الحكم التى أصبحت هدفا فى حد ذاته. لم يجد هؤلاء الضباط سبيلا لانقاذ البلاد سوى الاعتماد على النفس وعلى وعى الشعب المصرى، وعلى ما يصدرونه من منشورات سرية تفضح نظام الحكم، وتدعوا الناس على الثورة.

وقد حرصت خلايا الضباط الأحرار التى تكونت بصفة سرية بين ضباط الجيش أن يكون لها ممثلين فى كل الأسلحة. وفى كل المدن الرئيسية ومنها الاسكندرية، حيث كان لها ممثلون فى سلاح البحرية وفى الدفاع الجوى والطيران وفى غيرها من الأسلحة.

كانت الحالة السيئة التى وصلت اليها البلاد تدعو إلى القيام بعمل حاسم وسريع، فاتفق الضباط الأحرار على القيام بالثورة فى تمام الساعة الواحدة والنصف من صبيحة يوم الأربعاء ٢٣ يوليو ١٩٥٢. وبعد أن نجحوا فى السيطرة على القاهرة، أعلنوا بيان الثورة الأول.

عمت الفرحة أرجاء البلاد، واستبشر الناس خيرا بقيام الثورة وامتلأت الشوارع بالمظاهرات ابتهاجا بهذه المناسبة السعيدة. ورغم وجود الملك والوزارة بالاسكندرية، فقد خرج أهلها إلى الشوارع والطرقات هاتفين بحياة الثورة، منادين بنصرتها، غير مبالين بما قد يحيق بهم من أضرار وأخطار.

كانت جامعة الاسكندرية أولى الهيئات التى أرسلت تأييدها للثورة، ثم تلتها مختلف الطوائف والهيئات الأخرى. فأثبتت الاسكندرية بذلك أنها كانت دائما سباقة إلى مناصرة كل الحركات التحريرية، وأنها لم تتخلى عن ماضيها الطويل فى الجهاد من أجل تحرير الوطن، وتحقيق استقلاله، والعمل على رفعة شأنه منذ أن وطئت أقدام الفرنسيين أرضها فى نهاية القرن الثامن عشر.

وفى ذلك الوقت كان الملك والوزارة والقائد العام للقوات المسلحة بالاسكندرية لا يدرون شيئا عما يحدث بالقاهرة. وعندما علمت الوزارة فى صباح يوم ٢٣ يوليو بنبأ الثورة، اجتمعت بمقرها الصيفى ببولكلى، لدراسة الموقف على ضوء التطورات الأخيرة. ثم اتصل رئيسها نجيب الهلالى بعد ذلك بقيادة الثورة بالقاهرة لابلاغها استعداد وزارته لاجابة مطلب الجيش. ولكن قيادة الثورة لم تكن على استعداد للتفاوض معه، ولذا فقد بادر بتقديم استقالته.

فوجىء الملك بقيام الثورة وبهذا التأييد العارم من اجماع الشعب، وخشى على حياته، فبعث برسول من قبله إلى سفير الولايات المتحدة الأمريكية جيفرسون كافرى JEEFERSSON CAFFERY لمقابلته بقصر المنتزه. وفى هذه المقابلة طلب الملك من السفير أن تتوسط حكومته بينه وبين زعماء الثورة.

وفى ٢٤ يوليو أرغم الملك على تكليف علي ماهر بتشكيل الوزارة الجديدة تلبية لرغبة رجال الثورة. وكان قد تم الاتفاق بينه وبين زعماء الثورة على تأليف الوزارة من قبل، ورغم سيطرة رجال الثورة على مدينة القاهرة، فالموقف كان لايزال حرجا طالما وجد الملك ورجال حاشيته وأعوانه بالاسكندرية بعيدا عن قبضة قوات الثورة، ولم تكن حامية الاسكندرية بكافية لمواجهة مثل تلك الظروف الخطيرة. ومن ثم كان هم رجال الثورة الأول هو تعزيز حاميتها بقوات اضافية. ولكن مما طمأن رجال الثورة فى ذلك الوقت اعلان القوات البحرية ولاءها للثورة، ووقوفها إلى جانبها. وقد وضعت كل القوات الموالية للثورة فى منطقة الاسكندرية تحت قيادة زكريا محى الدين.

وجدت قيادة الثورة أن من الحكمة التدرج فى مطالبها من الملك حتى لا يضطر إلى رفضها إذا ما قدمت له دفعة واحدة، مما قد يضطر رجال الثورة إلى الدخول فى مصادمات هم فى غنى عنها، لاسيما وأنهم كانوا حريصين على أن تكون ثورتهم ثورة بيضاء بعيدة عن سفك الدماء.

بعد أن أجيبوا إلى طلبهم بتكليف على ماهر بتأليف الوزارة، انتقلوا إلى مطلب آخر هو ابعاد ستة من حاشيته الملك ممن ساعدوا على افساده وهم: أنطون بوللى مدير الشئون الخصوصية للملك، والياس اندراوس المستشار الاقتصادى للخاصة الملكية، ويوسف رشاد كبير أطباء اليخوت الملكية، والاميرالاى محمد حلمى حسين مدير ادارة السيارات الملكية وحسن عاكف طيار الملك الخاص، ومحمد حسن أمينه الخاص. وقد نفذ طلبهم هذا وبعد أن اطمأن رجال الثورة على مركزهم الحربى بالاسكندرية، وكانت جميع المطارات قد أصبحت فى أيديهم، أصدروا أوامرهم إلى جميع السفن الراسية فى الميناء بعدم التحرك من أماكنها بما فيها الباخرة المحروسة، اتجهوا إلى هدفهم الأساسى الذى يمثل الحلقة الأخيرة فى سلسلة المطالب، ألا وهو خلع الملك.

وفى يوم السبت ٢٦ يوليو ١٩٥٢ توجه القائد العام وبرفقته أنور السادات إلى مقر الوزارة بالاسكندرية، وقابل على ماهر رئيس الوزراء فى الساعة التاسعة صباحا، واتفقا معه على أن يقوم بتقديم انذار إلى الملك فاروق بالتنازل عن العرش وهذا نصه:

«من الفريق محمد نجيب باسم ضباط الجيش ورجاله إلى جلالة الملك فاروق الأول. انه نظرا لما لاقته البلاد فى العهد الأخير من فوضى شاملة عمت جميع المرافق نتيجة سوء تصرفكم وعبثكم بالدستور، وامتهانكم لادارة الشعب، حتى أصبح كل فرد من أفراده لا يطمئن على حياته أو ماله أو كرامته».

«ولقد ساءت سمعة مصر بين شعوب العالم من تماديكم فى هذا المسلك حتى أصبح الخونة والمرتشون يجدون فى ظلكم الحماية والأمن والثراء الفاحش، والاسراف الماجن على حساب الشعب الجائع الفقير».

«ولقد تجلت آية ذلك فى حرب فلسطين وماتبعها من فضائح الأسلحة وما ترتب عليها من محاكمات تعرضت

لتدخلكم السافر، مما أفسد الحقائق وزعزع الثقة فى العدالة، وساعد الخونة على ترسم هذه الخطى، فأثرى من أثرى، وفجر من فجر، وكيف لا والناس على دين ملوكهم».

«لذلك قد فوضنى الجيش الممثل لقوة الشعب أن أطلب من جلالتكم التنازل عن العرش لسمو ولى عهدكم الأمير أحمد فؤاد، على أن يتم ذلك فى موعد غايته الساعة الثانية عشر ظهر اليوم، ومغادرة البلاد قبل الساعة السادسة من مساء اليوم نفسه والجيش يحمل جلالتكم كل ما يترتب على عدم النزول على رغبة الشعب من نتائج».

وفى الساعة العاشرة من صباح اليوم نفسه ذهب على ماهر لمقابلة الملك بقصر رأس التين، وكان قد انتقل اليه مساء ٢٥ يوليو ظنا منه بأنه أكثر أمنا من قصر المنتزه. وفى هذه المقابلة أبلغ رئيس الوزراء الملك شفويا انذار قيادة الثورة، وأشار عليه بضرورة قبوله، وقد تردد الملك فى بادىء الأمر فى قبول النصيحة وفكر فى المقاومة، ولكنه وجدها غير مجدية، فالشعب والجيش أصبحا يدا واحدة ويحيط بالقصر فاضطر مرغما على النزول على مشورة رئيس وزرائه.

وفى حوالى الساعة الثانية عشرة ظهرا توجه سليمان حافظ وكيل مجلس الدولة إلى قصر رأس التين ومعه وثيقة التنازل، وقدمها إلى الملك فاروق لتوقيعها، وهذا نصها:

أمر ملكى رقم ٦٥ لسنة ١٩٥٢.

« نحن فاروق الأول ملك مصر والسودان».

لما كنا نطلب الخير دائما لأمتنا ونبغى سعادتها ورقيها.

«ولما كنا نرغب رغبة أكيدة فى تجنيب البلاد المصاعب التى تواجهها فى الظروف الدقيقة ونزولا على إرادة الشعب».

«قررنا النزول عن العرش لولى عهدنا الأمير أحمد فؤاد، وأصدرنا أمرنا بهذا إلى حضرة صاحب المقام الرفيع على ماهر باشا رئيس مجلس الوزراء للعمل بمقتضاه».

صدر بقصر رأس التين فى ٤ ذى القعدة ١٣٧١ / ٢٦ يوليو ١٩٥٢.

وفى الموعد المحدد توجه الملك فاروق إلى رصيف الميناء وبرفقته جيفرسون كافرى سفير الولايات المتحدة الأمريكية ليكون فى حماه. وبمجرد مغادرة القصر أنزل العلم الخاص به من فوق سارية القصر وسلم اليه.

وقبل الساعة السادسة استقل الملك فاروق لنشا إلى اليخت المحروسة، حيث تبعه قائد القوات المسلحة وقائد الجناح جمال سالم، والبكباشى (المقدم) حسين الشافعى، واليوزباشى (النقيب) اسماعيل فريد لتوديعه على ظهر اليخت. وفى تمام الساعة السادسة مساءا غادرت المحروسة الميناء فى طريقها إلى ميناء نابولى. كما غادرتها من قبل مقله جده الخديو اسماعيل بعد عزله عن حكم مصر فى منتصف عام ١٨٧٩. وقد صحبته زوجته ناريمان وبناته. وتشاء الظروف أن تشاهد الاسكندرية رحيل فاروق آخر من حكم مصر من سلالة الأسرة العلوية، كما شاهدت مجىء محمد على قبل ذلك بقرن ونصف من الزمان كجندى فى الجيش العثمانى الذى جاء إلى مصر لاخراج الفرنسيين منها، وأن تكون الاسكندرية نقطة البداية والنهاية.

الاسكندرية وتأميم قناة السويس

واجهت الثورة المشكلات الداخلية والخارجية فى وقت واحد فبعد أن نجحت فى القضاء على الاقطاع باصدار قانون الاصلاح الزراعى فى ٨ سبتمبر ١٩٥٢، وتوقيع اتفاقية السودان فى ١٢ فبراير ١٩٥٣ مع انجلترا التى تهدف إلى تمكين السودانين من تقرير مصيرهم بأنفسهم، وكذلك توقيع اتفاقية الجلاء عن مصر فى ١٩ أكتوبر ١٩٥٤، أخذت تولى عنايتها بتحرير آخر موقع من مواقع تغلغل النفوذ الأجنبى فى مصر، وأن تسترد القناة التى حفرت بأيدى الآلاف من أبناء مصر، والذى قدموا من التضحيات ما يفوق التصور من أجل شق هذا الممر الحيوى لخدمة مصالح الدول الكبرى وعلى رأسها انجلترا، ولتدر عليها وعلى فرنسا على وجه الخصوص أرباحا طائلة لا يعود على مصر منها الا النذر اليسير.

جرى بين مصر والبنك الدولى للانشاء والتعمير اتفاقا فى أوائل عام ١٩٥٦ على منح مصر قرضا بمبلغ ٢٠٠ مليون دولار لانشاء السد العالى، وكذلك تعهدت الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا بتقديم ٧٠ مليون دولار مساعدة لمصر فى تنفيذ المشروع.

ونظرا لاتباع مصر سياسة الحياد وعدم الانحياز، وهى السياسة التى لا ترضى عنها الدولتان، فقد سحبتا عرضيهما بعد أن شككت الولايات المتحدة فى قدرة مصر الاقتصادية والمالية على تنفيذ المشروع.

وقد استغلت مصر هذه الفرصة لتضرب ضربتها لتأميم القناة للصرف من دخلها على هذا المشروع.

كانت الاسكندرية دائما فى بؤرة الأحداث، فإذا كانت قد شاهدت من قبل نزول الفرنسيين إلى أرضها فى بداية يوليو ١٧٩٨، وانسحابهم من مصر عن طريقها فى عام ١٨٠١، وضرب الأسطول البريطانى لها فى يوليو ١٨٨٢، فقد شاهدت حدثا آخر لا يقل خطورة عن سابقيه، ألا وهو اعلان الرئيس جمال عبدالناصر فى خطبته السنوية فى الحفل الذى أقيم بميدان المنشية بالاسكندرية فى ٢٦ يوليو ١٩٥٦: تأميم الشركة العالمية لقناة السويس البحرية، وانتقال جميع ما لها من أموال وحقوق وما عليها من التزامات إلى الدولة، وتعويض المساهمين عما يملكونه من أسهم. فكان هذا الحدث من أعظم الأحداث التى مرت على مصر بصفة عامة وعلى الاسكندرية بصفة خاصة.

وتخصيص الاسكندرية بالذات لاعلان جمال عبدالناصر فى خطبته هذا النبأ الخطير يعيد إلى الذاكرة ما كان يفعله مصطفى كامل قبل ذلك، إذ كان يشعر من حين إلى آخر بأنه فى حاجة إلى الاتصال بمواطنيه عن كثب وخصوصا أهل الاسكندرية، لاستعراض تطورات القضية المصرية فى ضوء الأحداث الدولية. ففى يوم ٢ يونيه ١٩٠٠ اجتمع بأهل الاسكندرية من وطنيين وأجانب فى مسرح زيزينيا وبدأ خطابه بقوله: «كلما جئت إلى الاسكندرية رأيت هذه الحياة الحقيقية التى جعلت لكم مقاما محمودا بين بنى وطنى، أعود شاعرا بأن لى فى هذه المدينة الزاهرة أساتذة فى الوطنية، عنهم تؤخذ دروس محبة الأوطان، ومنهم تعرف الأمة حقوقها وواجباتها».

لقد ترسم جمال عبدالناصر خطى الزعيم مصطفى كامل الذى كان يخص الاسكندرية بأهم خطبه وأحاديثه مع الفارق بطبيعة الحال بين شخصية كل من الزعيمين وبين الظروف الدولية التى أحاطت بكل منهما، وبين الفارق الزمنى بينهما.

تطورت قضية تأميم شركة القناة بسرعة كبيرة، والتجأت بريطانيا وفرنسا إلى مجلس الأمن لجذب أنظار مصر اليه، ريثما تتمكنان من استكمال استعدادتهما العسكرية لمفاجأتها بالهجوم. وحينما تم لهما ما أراداه اتفقتا مع اسرائيل أن تبدأ بالهجوم، ثم يتقدمان بانذار مصر واحتلال القناة، وكان لجوء الدولتين لاستخدام القوة ضد مصر هو خشيتهما من تأثير قرار التأمين على احتكاراتهما الاستعمارية فى المنطقة العربية، أن تلجأ دولها إلى أن تحذو حذو مصر.

هاجمت القوات الاسرائيلية شبه جزيرة سيناء، وفى الوقت نفسه بدأت قوات انجلترا وفرنسا ضرب منطقة القناة، وركزتا هجومهما على بورسعيد والاسكندرية والقاهرة، لضرب المناطق الاستراتيجية بها. خاصة الاسكندرية باغاراتها الجوية لضرب الاسطول المصرى الرابض بالميناء، حيث كانت المدينة القاعدة البحرية الرئيسة للأسطول المصرى. وإذا ما قدر لها النجاح تكون قد استطاعت بذلك القضاء على الأسطول المصرى الناشىء، ليخلوا لها شرق البحر المتوسط من القوة البحرية المصرية الضاربة. ولكن بفضل قوة وشجاعة الدفاع الجوى بالثغر لم تتحقق للدول الثلاث ما أرادت.

قابل أهل الاسكندرية غارات الطائرات المعادية بثبات ورباطة جأش، وبروح وطنية عالية، وبتصميم أكيد للدفاع عن مدينتهم مهما كلفهم هذا من تضحيات. وعندما بدأت الحكومة فى إنشاء جيش التحرير من المتطوعين، تقدم للالتحاق به عدد كبير من شباب الاسكندرية، تدفعهم الرغبة فى الانتقام من أعداء الوطن، والزود عن حياضه.

لم يقتصر حمل السلاح على الشباب فحسب، بل شاركهم الشيوخ والفتيات. واتخذوا من المدارس والكليات مراكز للمقاومة.

كما قامت الحكومة من جانبها بتوزيع الأسلحة على كل قادر على حملها، فكان الاقبال على التطوع هائلا، وهو أن دل على شيء فإنما يدل على فهم صحيح لحقيقة الموقف وخطورته، وادراك للمسئولية الملقاة على عاتق كل فرد من أبناء الاسكندرية فى مثل هذه الظروف العصيبة التى يمر بها الوطن.

وبفضل هذه العزيمة التى لا تعرف الكلل، وبفضل مؤازرة الشعوب العربية، وتأييد الرأى العام العالمى لموقف مصر واستنكارها للاعتداء الغاشم عليها انتصرت مصر وشارك أهالى الاسكندرية فى الفرحة بانسحاب المعتدين من بورسعيد ٢٢ ديسمبر ١٩٥٦. وترتب على هذا العدوان أن أصدرت مصر فى أول يناير ١٩٥٧ قرارا بالغاء اتفاق الجلاء الموقع بينها وبيّن بريطانيا فى ١٩ أكتوبر ١٩٥٤. وكان هذا الاتفاق يتيح لبريطانيا حق العودة إلى القناة فى حالة وقوع هجوم مسلح من أى دولة خارجية على أى بلد يكون طرفا فى معاهدة الدفاع المشترك من دول الجامعة العربية أو على تركيا، ويكون لها الحق فى استخدام الموانىء المصرية بما فى ذلك ميناء الاسكندرية. هذا الالغاء قد حرم بريطانيا من استخدام قاعدة قناة السويس، ومن حرمانها من القاعدة البحرية لميناء الاسكندرية التى كانت القاعدة الرئيسية للأسطول البريطانى فى الحرب العالمية الثانية.

ومن النتائج الهامة التى ترتبت على فشل هذا العدوان تأميم مصر للمؤسسات الأجنبية الأساسية التابعة لانجلترا وفرنسا على وجه الخصوص مثل البنوك وشركات التأمين والموسسات الصناعية، وكان عدد كبير منها موجود بمدينة الاسكندرية، فأصبحت هذه المؤسسات ركيزة الاقتصاد الوطنى، وتمكنت مصر من تحقيق استقلالها الاقتصادى. وظهرت آثار تلك الخطوة واضحة فى مجتمع الاسكندرية.

نمو المدينة وزيادة العمران

بلغت مدينة الاسكندرية فى القرن العشرين شأوا بعيدا فى النمو والازدهار. وقد اتجهت فى نموها نحو الجنوب والشرق والغرب.

فالاتجاه نحو الشرق والجنوب أدى إلى شغل الأراضى الفضاء بحى محرم بك، ثم ترعة المحمودية وامتداد العمران فى حى غيط العنب بصورة مكثفة.

أما الاتجاه نحو الشرق فكان أكثرها نشاطا وتقدما، فأخذ العمران يزداد فى منطقة الرمل، وذلك بفضل سكة حديد الرمل التى ربطت هذه المنطقة بقلب المدينة بمواصلات سهلة ومنتظمة. واستمر زحف عملية البناء فى تقدمها حتى وصلت إلى منطقة سيدى بشر، وتعدتها إلى المندرة والمنتزه والمعمورة، ومنها التحم العمران بحى أبى قير.



صورة مدخل استاد الإسكندرية



صورة تمثال الخديو إسماعيل فى موقعه الجديد

وقد بدا الاتجاه نحو الغرب بطيئا، أى فى اتجاه المكس والدخيلة والعجمى، ولكنه نشط نشطا كبيرا على امتداد شريط ساحلى يبلغ طوله حوالى ٧٠ كليو مترا غرب الاسكندرية، وتضم منطقة الهانوفيل و(أبوتلات)، وسيدى كرير، والعديد من القرى السياحية، والضواحى مثل كنج مريوط، والعلمين، أما امتداد العمران فقد شمل منطقة سموحة التى كانت تشغلها بحيرة الحضرة، حيث قام يوسف سموحة بتجفيفها عن طريق تصريف مياهها إلى بحيرة مريوط فى حوالى عام ١٩٢٥، وقد بلغت المساحة المجففة نحو ٦٠٠ فدان، خططت وبنيت فيها أجمل العمارات الشاهقة. ويعتبر حى سموحة الآن من أحدث أحياء الإسكندرية.

ويرجع السبب فى إطراد نمو المدينة، وانتشار العمران على النحو السابق ذكره إلى أربعة عوامل هى:

أولاً: احتفاظ الإسكندرية بمركزها كميناء مصر الأول.

ثانياً: انشاء طريق الكورنيش.

ثالثاً انشاء جامعة الإسكندرية.

رابعا: مركز الاسكندرية الصناعى

فإذا تناولنا العامل الأول، فالاسكندرية تعتبر بحق ميناء مصر الأول، ومن أكبر الموانىء المطلة على البحر المتوسط، وترتبط بموانيه بخطوط ملاحية منتظمة. وقد ازدادت صلتها بأوروبا على وجه الخصوص، وتركزت حركة التجارة والنقل فى الميناء الغربى منذ أن فتحه محمد على أمام سفن الدول الأجنبية وخصص الميناء الشرقى لعمليات الصيد والنزهة فحسب. ونظرا لاهتمام حكومة الثورة بهذا الميناء أن أصبح نصيبه من صادرات مصر لا يقل عن ٩٤٪ من الصادرات المصرية.

أما العامل الثانى هو انشاء طريق الكورنيش فى عام ١٩٣٤ الذى يمثل الواجهة البحرية لمدينة الاسكندرية والذى يمتد من قصر المنتزه شرقا إلى قصر رأس التين غربا. وقد ساعد هذا الطريق على امتداد العمران نحو الشرق بسرعة كبيرة، وقامت على جانبه أجمل المبانى وأضخم العمارات فى تنسيق هندسى بديع. وباتمام هذا المشروع أصبحت الاسكندرية بحق مصيف مصر الأول. وقامت المحافظة باستغلال هذا الطريق ببناء أكشاك

الاستحمام والكازينوهات السياحية التى انتشرت على جانبه والتى امتدت شرقا فيما يلى المنتزه فى المعمورة وأبى قير، وغربا إلى شواطىء العجمى وهانوفيل وسيدى كرير.

ويعتبر قصر المنتزه تحفة معمارية رائعة، وكان المقر الصيفى للملك وأسرته، تحيط به حديقة غناء، وتبلغ مساحته بما يحيط به من الغابات والحدائق نحو ٣٧٠ فدانا. وعندما قامت الثورة فتحت هذا القصر أمام المواطنين لزيارته، كما جعلت من مبنى السلاملك فندقا سياحيا رفيع المستوى. وتنشيطا لحركة السياحة فى المدينة بنت فى حديقة القصر فندق فلسطين فى عام ١٩٦٤ كما استغلت الشواطىء فى بناء الكبائن الفاخرة.

أما منطقة المعمورة فكانت عبارة عن غابات ملحقة بالقصر، وقد رؤى اقامة مدينة سياحية متكاملة فيها، تتكون من عمارات فخمة ذات تنسيق معمارى بديع، وفيلات أنيقة، تتوافر بها كل الخدمات، ولم يقتصر استخدامها كمصيف فحسب، بل أصبحت مدينة سكنية يقيم فيها المواطنون اقامة دائمة طوال العام.

وإذا انتقلنا إلى العامل الثالث وهو انشاء جامعة الاسكندرية، فهو بلا ريب من العوامل التى ساعدت على اطراد نمو حركة العمران بمدينة الاسكندرية منذ افتتاحها فى عام ١٩٤٢ خلال الحرب العالمية الثانية، وأثناء وجود قوات المحور فى العلمين غرب المدينة.

وترتب على ذلك زيادة الهجرة إلى الاسكندرية طلبا للعلم، والحاجة الماسة إلى المساكن لايواء هذا العدد الضخم الوافد من مختلف المحافظات، فضلا عن أعضاء هيئة التدريس الذى تضخم عددهم بازدياد عدد الكليات، وازدياد عدد الطلبة بعد سنوات قلائل من انشائها. ولم تمنعها حداثتها من أن تتبادل الأساتذة مع غيرها من الجامعات العربية والأجنبية.

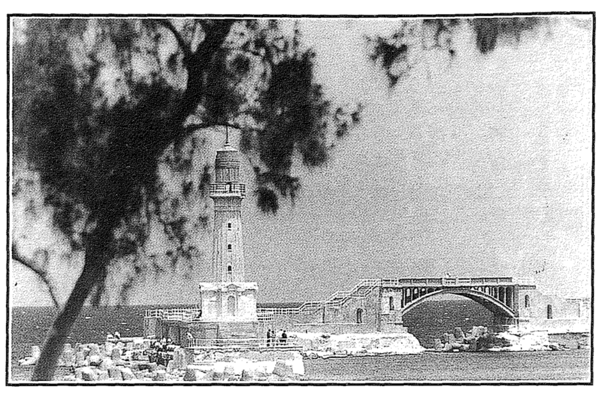
ومما لاشك فيه فإن انشاء الجامعة قد خلق وعيا ثقافيا وقوميا فى المدينة. وجعلها تحمل مشعل العلم والثورة فى الوقت نفسه.

ويكفى جامعة الاسكندرية فخرا أنها كانت أولى الهيئات الحكومية التى أيدت الثورة فى بدء قيامها.

أما العامل الرابع، فالاسكندرية تعتبر بحق من أكبر المراكز الصناعية فى مصر. وقد ساعد على قيام



صورة لشاطىء استانلى



صورة من قصر المنتزه

الصناعة ونجاحها عدة أسباب أهمها: سهولة الاتصال بالاسكندرية عن طريق ترعة المحمودية أو السكك الحديدية أو الطرق البرية، سواء من الداخل أو من الخارج. كذلك لتركيز صادرات القطن بها، وهو المحصول الرئيسى للبلاد والذى تعتمد عليه الدولة فى اقتصادها، كما تعتمد عليه صناعة غزل القطن ونسجه، ومن ثم قامت العديد من مصانع الغزل والنسج. أضف إلى ذلك وفرة الأيدى العاملة الرخيصة، وتوافر المواد الخام الأولية، ولوجود عدد كبير من الأجانب من ذوى الخبرة فى الصناعة. هذا فضلا عن ازدياد عدد السكان بالمدينة، مما جعلها سوقا استهلاكية رائجة للمنتجات الصناعية.

وقد أسهم قيام الحرب العالمية الأولى، وانقطاع الواردات من المنتجات الصناعية إلى انتعاش الصناعات المحلية، وخصوصا صناعة الغزل والنسيج. وبانتهاء تلك الحرب تتدفق الواردات الأجنبية، وتعود المنافسة غير العادلة بينها وبين المنتجات المحلية، مما اضطر الحكومة إلى اصدار تشريع برفع الرسوم الجمركية على المنتجات الأجنبية المماثلة، وذلك لحماية المنتج المحلى وكان ذلك فى عام ١٩٣٠. ومنذ ذلك الوقت تمتعت الصناعة بالحماية الجمركية، مما يساعد على تقدمها وازدهارها، وزيادة عدد المشتغلين فيها من العمال والموظفين.

ومن الصناعات التى تركزت فى الاسكندرية مصانع الغزل والنسيج، والورق، والسماد، والأسمنت وتكرير البترول والطباعة. وقد استوعبت تلك الصناعات عددا كبيرا من العمال.

ومن الصناعات الحديثة بالاسكندرية مجمع حديد التسليح بالدخيلة، والذى يبلغ انتاجه حوالى ٧٥٠ طن من حديد التسليح.

ويمثل عمال الاسكندرية ما يقرب من ٢٢٪ من جملة عمال الصناعة فى مصر. وتتركز الصناعة فى العامرية والدخيلة والمكس وسموحة، والسيوف، وأبى قير.

مشروعات الاسكندرية فى عهد الثورة

سأتعرض هنا لأهم تلك المشروعات ـ لا على سبيل الحصر، وإنما على سبيل المثال. يأتى فى مقدمتها المدخل البحرى لمدينة الاسكندرية.

وجد المسؤولون أنه رغم كون الاسكندرية الميناء الأول لمصر، فإنها تفتقر إلى مدخل لمحطة الركاب البحرية يليق بمكانتها العريقة. فمما يحمر له الوجه خجلا أن يضطر الزائرون من الأجانب إلى ارتياد أزقة ضيقة ملتوية، لا تتوافر فيها الشروط الصحية أو النظافة وهم فى طريقهم إلى قلب المدينة. فكان أول ما يقع عليه نظر السائح عند خروجه من الميناء مناظر البيوت المهدمة، والآيلة للسقوط، والأزقة القذرة، فكانت هذه المشاهد القبيحة تترك - دون شك - انطباعات غير ساره فى نفوس الزائرين، قد تضطرهم إلى الانصراف كلية عن مشاهدة معالم المدينة، والتوجه رأسا إلى القاهرة.

وإذا كانت الحاجة ماسة إلى هذا المدخل الذى يتفق ومكانة الاسكندرية، خصوصا وأن هذا المشروع قد وجد اهتماما من بلدية الاسكندرية منذ فترة غير قصيرة، وصدر به مرسوم فى ٣٠ يونية ١٩٢٩، ولكنه ظل حبرا على ورق، ولم يجد طريقه إلى التنفيذ لعقبات مالية واقتصادية، إلى جانب تدخل الأهواء والنزاعات السياسية.

أعادت حكومة الثورة المشروع إلى دائرة الضوء بعد دراسته من جديد، بصورة تحتفظ ما أمكن بالحى التجارى القديم بعكس المشروع القديم. ونص المشروع الجديد على شق هذا الطريق بعرض ٣٠ مترا، يبدأ بميدان أمام باب خروج الركاب، وينتهى بميدان المنشية، مع نزع ملكية شريطين على جانبى الطريق بعرض ٢٠ مترا، لاقامة مبانى حديثة ذات طراز معمارى خاص وموحد استكمالا لروعته.

وقد تم شق الطريق بسرعة كبيرة فى أواخر عام ١٩٥٥، وأطلق عليه اسم طريق النصر. ومما لاشك فيه فقد أدى هذا الطريق خدمة جليلة للمدينة، وأمكن للمسافرين والزوار أن يقطعوا المسافة من الميناء إلى وسط المدينة فى مدة لا تزيد عن دقيقتين. اضافة إلى الحوانيت التى اصطفت على جانبى الشارع فى العمارات الجديدة، التى تمتلىء بالبضائع اللازمة لهؤلاء الزوار من هدايا، وتحف، وبضائع مختلفة.

ويرتبط مشروع شق طريق النصر بمشروع آخر، ظل حلما يراود أذهان المسؤولين عن شؤون الميناء أمدا غير قصير، الا وهو انشاء محطة للركاب على أحدث طراز تليق بمكانة الميناء الأول لمصر، خصوصا إذا ما علمنا أن عدد من يفد عليها من السياح يقدر وقتئذ بنحو ربع مليون سائح سنويا، وأن دخل الدولة منهم حوالى ٢٥ مليون جنيه.



صورة من شاطىء استانلى



صورة لطريق الكورنيش بمحطة الرمل

وقد أنشئت المحطة على هيئة مجمع يضم بين جنباته جميع الادارات التي سيتعامل معها الراكب مرتبة بشكل يؤدى إلى سرعة انجاز العمل وتوفير الراحة للمسافرين. وقد استغرق بناؤها ثلاث سنوات وبلغت تكلفتها مليون جنيه بما في ذلك الجسور العلوية الموصلة لشارع النصر.

وبالمحطة أرصفة حديثة يمكنها استقبال خمس سفن من عابرات المحيطات الكبيرة في وقت واحد. وقد بنيت على أحدث النظم العالمية، وجاء بناؤها مزيجا من الفن الفرعوني والعربي الحديث.

طريق مصر اسكندرية الزراعي

كان الطريق الصحراوى الذى يربط الاسكندرية بالقاهرة هو الطريق الرئيسى الوحيد بين البلدين، ونظرا لازدياد العمران فيهما، وازدهار حركة النقل بينهما، ونظرا لضيق هذا الطريق، وكثرة التواءاته وانخفاضاته، ولكثافة حركة المرور عليه، أن أصبح عاجزا عن الوفاء بمتطلبات المدينتين الرئيسيتين. هذا فضلا عن كثرة حوادث المرور، وتعرض سلامة المسافرين للخطر.

لهذا كله أصبحت الحاجة ملحة إلى انشاء طريق آخر لمعاونته، ولتخفيف الضغط عليه، ولخدمة المناطق الزراعية المنتجة للمحاصيل والبعيدة عن الطريق الصحراوى.

وقد امتاز الطريق الجديد باتساعه، وانقسامه إلى طريقين: أحدهما للذهاب والآخر للاياب منعا للحوادث. كما روعى فى تصميمه إنشاء ممرات سفلية وعلوية حتى لا يعترض طريقه المجارى المائية والخطوط الحديدية.

إعادة تخطيط تل كوم الدكة

يعتبر تل كوم الدكة من المعالم الرئيسية فى العصر الحديث، فقد أنشأه الفرنسيون عند احتلالهم للمدينة، لاقامة استحكاماتهم العسكرية فوقه، ليكون قلب المدينة فى قبضتهم، وتحت رحمة قنابلهم، إذا ما حاول أهلها شق عصا الطاعة أو التمرد على سلطة الفرنسيين. لهذا رأت حكومة الثورة ازالة هذا الأثر البغيض الذى يذكر السكندريين بالاحتلال الفرنسى، وبما ارتكبه الفرنسيون من فظائع.

تبلغ مساحة الأرض التى يشغلها التل بنحو ١٨ فدانا تتوسط المدينة، وتطل على أهم ميادينها الذى تتوسطه

حديقة منسقة، أصبحت المتنفس والرئة لهذه المنطقة المزدحمة بالسكان. وقد عنى به سيادة المحافظ الجديد محمد عبدالسلام محجوب، فأخلاه من مواقف سيارات نقل الركاب ـ المصدر الرئيسى للتلوث والزحام ـ فأصبح الميدان متعة للنظارين، ومكانا للترويح.

اذاعة الاسكندرية المحلية

تعتبر اذاعة الاسكندرية المحلية أولى المحطات الاذاعية المحلية فى منطقة الشرق الأوسط، بدأت المحطة بداية متواضعة فى أول أمرها، فقد كانت مجرد فكرة نبتت فى أذهان المسؤولين بالاذاعة فى أوائل عام ١٩٥٤. ولكن هذه الفكرة الوليدة، لم تلبث أن أصبحت حقيقة واقعة فى عيد الثورة الثانى.

اتخذت المحطة احدى شقق عمارات شارع شريف مقرا لها، وبدأت تبث اذاعتها لمدة ساعتين يوميا: ساعة باللغة العربية، وساعة بلغة أوربية.

أصبح لهذا الوليد الجديد عشاقه ومستمعوه، وأخذت البرامج تتنوع وتزداد وتطول مدة الارسال إلى ثلاث ساعات باللغة العربية يوميا. وظل صوت الاسكندرية يدوى فى أرجاء الاسكندرية وضواحيها، إلى أن حدث الاعتداء الثلاثى على مصر، فتوقفت عن البث، إلى أن ارتد المعتدون على أعقابهم خاسئين، فبدأت المحطة تباشر عملها من دارها الجديدة التى بنيت بحى باكوس على طراز نموذجى حديث، وذلك فى شهر يونية ١٩٥٧.

ونظرا للإمكانيات الجديدة التى زودت بها المحطة استطاعت أن تزيد من نشاطها الإذاعى فى خدمة أهل الاسكندرية بقوة إرسال ١٠ كيلو وات بدلا من اثنين. كما زادت مدة البث إلى ست ساعات يوميا، وهكذا أصبحت الإذاعة بمرور الزمن تغطى معظم ساعات اليوم.

ومما لاريب فيه، فإن إذاعة الاسكندرية قد أشاعت الوعى الإذاعى بين سكان المدينة. كما أصبحت المدرسة الأولى لتدريب المؤلفين والملحنين والمغنيين، ففيها ظهرت مواهبهم، ومنها شقوا طريقهم إلى إذاعة القاهرة، حيث أصبحوا من كبار الفنانين.

ترسانة الاسكندرية

ومن المشروعات الهامة التى أولتها حكومة الثورة عنايتها تجديد وتطوير ترسانة الاسكندرية التى أنشئت فى عهد محمد على، والتى استطاعت أن تلبى معظم حاجياته من السفن التجارية والحربية، وكان الهدف من ذلك أن تعتمد مصر على نفسها فى إصلاح وإنشاء السفن الحربية والتجارية، وقد بلغت مساحتها ٤٠٠ كيلو مترا مربعا. وبها حوضان جافان الأول صغير لإصلاح السفن التى لا تزيد حمولتها عن عشرة آلاف طن. والأخر كبير يتسع لحمولة خمسة وثمانون ألف طن، وبالرغم من ذلك فما زالت الميناء فى حاجة إلى المزيد، فعلى سبيل المثال يوجد بمينائى مرسيليا وطولون سبعة أحواض، وفى ميناء جنوة خمسة أحواض، وفى استنبول أربعة أحواض، فإذا ما قارنا حجم الاسكندرية بحجم هذه الموانىء نجد أنها توازى بعضها، وتكبر بعضها الآخر.

ولايفوتنا أن نذكر مدى الفائدة التى تعود على الدولة من العملات الصعبة، إذا ما قامت فيها هذه الصناعة.

ويجب ألا ننسى أن إسرائيل قد حصلت من ألمانيا فى عام ١٩٥٤ على ترسانة كبيرة لبناء السفن، كجزء من التعويضات الألمانية المستحقة لها، ولهذا كان إنشاء الترسانة ـ بالنسبة لنا ـ ضرورة حربية أولا وقبل كل شىء. وهذا فضلا عما أحدثه إنشاء الترسانة بالاسكندرية من إنتعاش اقتصادى، وفتح لمجال العمل أمام أبنائها من العمال والصناع المهرة.

إنشاء المنطقة الحرة

يرجع التفكير فى إنشاء هذه المنطقة إلى فترة ما قبل الثورة، وعلى وجه التحديد فى عام ١٩٤٦ حيث أصدرت الحكومة وقتذاك قرارا بتخصيص قطعة من الأرض داخل الميناء لهذا الغرض. ولكن الروتين الحكومى أعاق تنفيذ هذا المشروع، وظلت الاسكندرية دون منطقة حرة، متخلفة فى ذلك عن مينائى حيفا وبيروت.

والهدف من إنشاء المنطقة الحرة تسهيل وتبسيط العمليات التجارية الخارجية، والعمل على الاستفادة من تجارة العبور (الترانسيت)، وإقامة بعض الصناعات المعفاة من القيود الجمركية، بشرط ألا يؤدى هذا العمل إلى التأثير على الصناعات المحلية. ومما لاشك فيه فإن وجود هذه المنطقة الآن قد عاد على الاسكندرية بالنفع الكثير.

من المشروعات الهامة التى تمت فى ظل حكومات الثورة، قاعة المؤتمرات بالشاطبى، فمدينة الاسكندرية كانت تفتقر إلى مثل هذه القاعة لإقامة المؤتمرات فيها. هذا من ناحية ومن ناحية أخرى، فإن وجودها يساعد على تنشيط سياحة المؤتمرات بالمدينة، وفى الوقت نفسه التخفيف عن القاهرة التى تتكدس فيها كل نشاطات الدولة. ومنذ إنشائها إلى الآن عقدت فيها العديد من المؤتمرات المحلية والدولية.

ومن المشروعات الثقافية الهامة، والتى أسهمت فيها العديد من الدول، بالإضافة إلى منظمة اليونسكو، مكتبة الاسكندرية، إحياء لمكتبتها القديمة التى كانت مركز إشعاع علمى وحضارى فى العالم الهلينستى وفى نفس المكان تقريبا الذى كانت تشغله المكتبة القديمة. وقد صممت على أحدث طراز معمارى، وستزود بكل تقنيات العصر. ويجرى العمل فيها على قدم وساق للإنتهاء منها فى عام ١٩٩٩ وسيكون لهذه المكتبة بعد إتمامها تأثير كبير على الحركة العلمية والثقافية فى مصر بصفة عامة، والاسكندرية بصفة خاصة.

كما أقيمت حديقة دولية عند مدخل الاسكندريةالزراعى على مساحة كبيرة من الأرض، لتكون متنفسا لأهل الاسكندرية التى ازدحمت بالسكان بصورة كبيرة، مع تناقص فى المساحة الخضراء. فالحديقة بالإضافة إلى كونها مكان للترويح عن النفس، ولقضاء وقت جميل فى أحضان الطبيعة الخضراء، فهى تمثل الرئة لمدينة الاسكندرية، وعاملا من عوامل تنقية البيئة من التلوث.

عرفنا من قبل كيف أن إنشاء طريق الكورنيش فى عام ١٩٣٤ قد أحيا مدينة الاسكندرية، وجعلها المصيف الأول فى مصر، إلا أن هذا الطريق لم يطرأ عليه أى تغيير منذ إنشائه، مع أن كل شىء حوله قد تغير. ونظرا لكثرة عدد السيارات فى المدينة بشكل لم يسبق له مثيل، فقد ضاق الطريق عن استيعاب هذا الكم الهائل من وسائل المواصلات مع بقاء عرضه كما هو عليه.

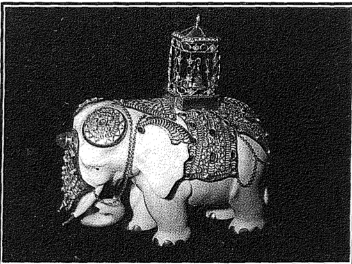
ولذا فقد تطلب الأمر زيادة عرض الشارع بدأ من المنتزة إلى منطقة سيدى بشر بطول خمسة كيلومترات كمرحلة أولى، تتبعها مراحل تالية حتى تصل التوسعة إلى قصر رأس التين. وهو مشروع ضخم يحتاج لتمويل كبير.

كما أزيلت أكشاك الاستحمام التى كانت تحول بين مرتادى هذا الطريق وبين التمتع برؤية البحر، والجلوس على المقاعد المخصصة لذلك. بالإضافة إلى طلاء المبانى المطلة عليه باللون الأبيض، وذلك للقضاء على تنافر الألوان التى أساء أصحاب تلك البيوت استخدامها.

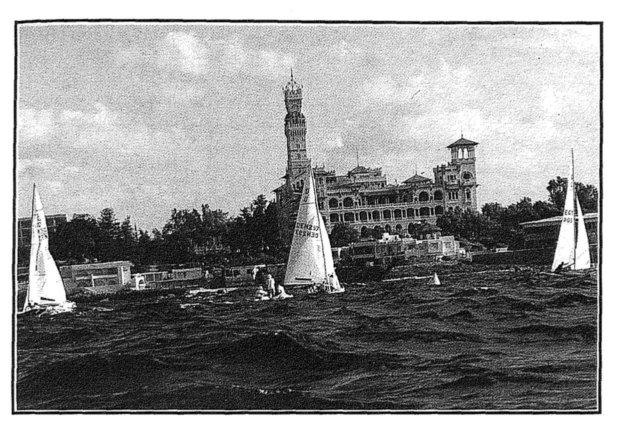
ويوجد بالاسكندرية العديد من المتاحف القديمة التى طورت مثل المتحف اليونانى الرومانى، ومتحف الأحياء المائية ومتحف التاريخ الطبيعى، ومتحف محمود سعيد، والمتحف البحرى، وقصر المجوهرات.

كذلك رممت قلعة قايتباى، وعرض بداخلها ما انتشلوه من أبى قير من مخلفات أسطول نابليون بونابرت، كما اتخذت كخلفية تاريخية للحفلات التى أقيمت فى ساحتها عن سكندريات العالم.

هذه نبذة مختصرة عما تم فى مدينة الاسكندرية من قيام الثورة لم أقصد الحصر، وإنما أردت تقديم نماذج لأهمها



قطعة نادرة من المعروض بمتحف المجوهرات الملكية



صورة لشاطىء بقصر المنتزه

الميناء الشرقى ومحطة الرمل ليلاً

آثار الإسكندرية القديمة الغارقة

أ. أحمد عبدالفتاح

مدير عام المتحف

خلال أحداث جيولوجية تتمثل فى سلسلة عنيفة من الزلازل ـ وكذا أحداث تاريخية تأثرت الأجزاء الشمالية من المدينة وهبطت تحت أعماق البحر المتاخم ولقد أدى هذا إلى احتواء الماء على ثروة هائلة من تراث المدينة الغارقة سواء فى المنطقة المتاخمة لحى الملكى أو الابراهيمية أو مصطفى كامل ويمكن أن نتخيل الأهمية الفائقة للآثار الغارقة إذا ما وضعنا فى الاعتبار الميناء الهائل الغارق والموجود أسفل صخرة جزيرة فاروس والجنوب الغربى منها، ويضاف إلى ذلك إن مستوى البحر الأبيض قد ارتفع مترين منذ العصر الرومانى.

ومن مفارقات الأقدار أن تبدأ أعمال التعرف والانتشال للآثار الغارقة بمصر بخليج أبو قير ١٩٣٣. ولم يبدأ العمل الفعلى فيما يختص بالتعرف على آثار اسكندرية الغارقة بمنطقة الحى الملكى حتى عام ١٩٦١م الا حينما أبلغ الغواص الراحل المعروف كامل أبو السعدات عن مشاهدة كتل أثرية غارقة فى أعماق البحر بمنطقة الميناء الشرقى أمام كل من لسان السلسلة وقلعة قايتباى.

وقد انتشل هذا الغواص بضع أوانى فخارية وقام بتسليمها للمتحف اليونانى الرومانى عام ١٩٦١ تلى ذلك انتشال قطعة عملة ذهبية ترجع للعصر البيزنطى وتسليمها للمتحف. ثم أدلى بعد ذلك بمعلومات بوجود تماثيل ضخمة وعناصر أثرية أخرى شاهدها تحت الماء وقامت مصلحة الآثار بمعاونة القوات البحرية وللمرة الأولى بشكل رسمى بانتشال تمثال من الجرانيت لرجل يرتدى عباءة تغطى معظم بدنه ويبلغ طوله ١٧٠سم وذلك فى النصف الأول من نوفمبر ١٩٦٢م.

وفى النصف الثانى من نوفمبر من نفس العام تم انتشال التمثال الضخم المعروف لدينا الآن بتمثال ايزيس وهو من الجرانيت الأحمر ويبلغ طوله حوالى ٧,٥م ومشطور نصفين وتم نقله وهو حاليا بحديقة المتحف البحرى وفى عام ١٩٦٨ أى بعد ٦ سنوات من انتشال هذين التمثالين طلبت الحكومة المصرية معاونة هيئة اليونسكو الدولية فى عمل خريطة للآثار الغارقة بمنطقة الميناء الشرقى تحت الماء فأوفدت الغواصة العالمية/ أونورفروست التى تمكنت عام ١٩٧٥ من وضع خريطة للاثار الغارقة فى حوض الميناء الشرقى والتى أصبحت مرجعا للعمل الآن فى تلك المنطقة.

وفى عام ١٩٩٢م قامت بعثة معهد أوروبا للبحار برئاسة/ فرانك جوديو خبير الكشف عن الاثار فى أعماق البحار بالعمل فى كل من منطقتى الميناء الشرقى وأبى قير.

وقد تمكن بفضل خبرته وتقدم أجهزته من سبر ورصد البيانات التى حصل عليها من الكشف عن الكثير من الأسرار الغامضة للاسكندرية الغارقة فى اليم.

وفى أكتوبر ١٩٩٥ بدأت بعثة المركز الفرنسى القومى للدراسات بالاسكندرية بأعمال المسح لأعماق البحر والبعثة مكونة من ثلاثين غواصا مصريا وفرنسيا متخصصين فى المسح الطبوغرافى والتصوير تحت الماء والرفع المعمارى والترميم، وذلك فى منطقة يبلغ مداها حوالى ٢,٥ ـ ٢ فدانا أمام قلعة قايتباى، وقد كشف ذلك عن وجود آلاف القطع الأثرية أسفل قلعة قايتباى من أبدان أعمدة وتيجان وقواعد وتماثيل وعناصر معمارية مصرية واغريقية ورمانية وقد لوحظ أن قطر أحد الأعمدة من أعلى ٤سم ـ ٢م وهو يتطابق مع قطر عامود السوارى من أعلى ويذكر ذلك بواقعة إلقاء أعمدة وأحجار السيرابيوم فى قاع البحر فى عهد صلاح الدين الأيوبى عام ١١٦٧

ميلادية لصد هجوم الصليبيين - كما لوحظت ظاهرة أثرية غريبة تحت الماء عبارة عن صف كتل حجرية هائلة من جرانيت أسوان الأحمر منتشرة فى صف واحد شمال القلعة وتبلغ أوزانها من ٥٠:٧٠ طنا وتتميز هذه الكتل بشكلها التجريدى واسلوب انتشارها يشير إلى سقوطها من مكان عالى إثر أحداث عنيفة.

وقد فسر/ جان ايف امبرير العالم الفرنسى أن هذه الكتل من بقايا فنار اسكندرية القديم ويلاحظ أن آخر بقايا من فنار القلعة هو الطابق الأول والذى دمره زلزال القرن ١٤. وربما كانت تلك القطع بقايا هذا الطابق التى سقطت فى الماء إما نتيجة الزلزال أو أعمال التحصين التى تمت للاسكندرية من جهة البحر للموقع والتى يمكن أن يكون من أسبابها حملات الصليبيين على مصر وغزو ملك قبرص، ويلاحظ أن القلعة بها العديد من العناصر الجرانيتية الجيرية المعاد استعمالها.

كذلك عثر على أضخم تمثال لملك بطلمى بقاع البحر (ويعتقد أنه للملك بطليموس الثانى) طبقا لأحدث الآراء. وهو عبارة عن جزع التمثال ويبلغ طوله حوالى ١,٥م وعثر على أجزاء منه وقد تم عرضه فى متحف (مجد الاسكندرية) بباريس عام ١٩٩٨م.

كذلك عثر على مجموعة تماثيل لأبى الهول منقوشة مختلفة الأحجام والأحجار ودرجات الحفظ طبقا لظروفها الزمنية وهى تثير التساؤل لطبيعتها الأثرية. ومن بينها تمثال لبسماتيك الثانى وستى الأول ورمسيس الثانى.

ويثير وجود هذه العناصر الأثرية هنا سؤالا هاما فهى تتشابه مع نظائرها التى ترجع لنفس الملوك تقريبا ومن نفس العصور التى عثر عليها بالسيرابيوم وفى أجزاء أخرى بالمدينة.

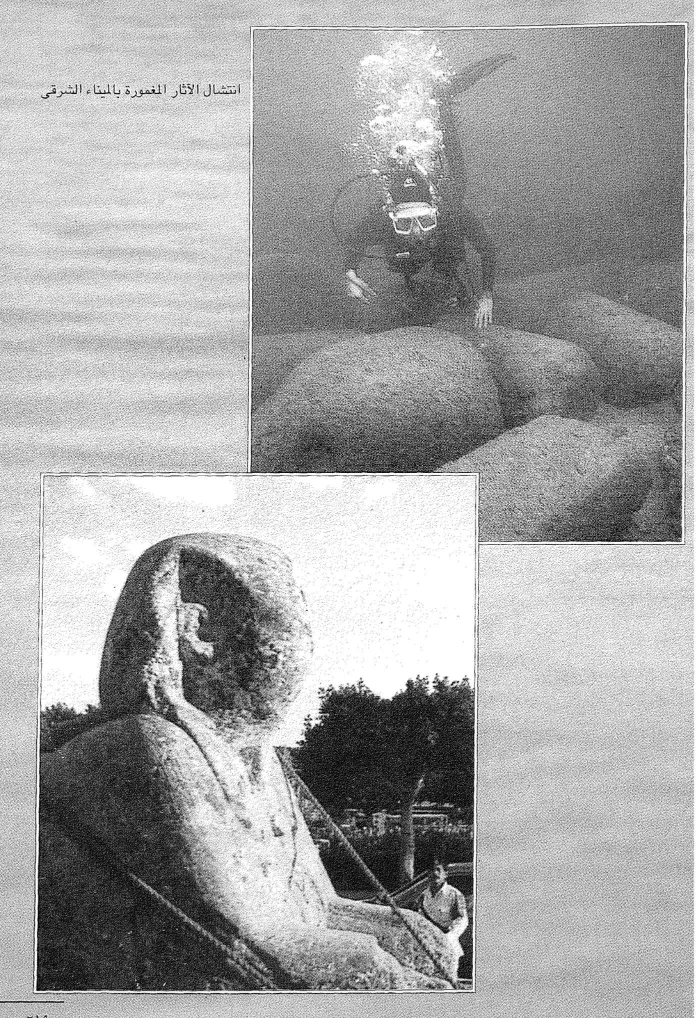
وقد آثار رجال الحملة الفرنسية فى الماضى مسألة أنه كان من عادة البطالمة تزيين المدينة بالاثار الفرعونية من بقاع مصر القديمة المختلفة وفى مقدمتها منف هليوبوليس، وقد ظل هذا معتقدأثريا للباحثين عن تاريخ المدينة وحضارتها زمنا طويلا، غير أن الأمر يقتضى اعادة النظر الآن فى هذا المعتقد حيث أنه ما كشف عنه فى أعماق الماء من العصور المصرية القديمة يثير دهشة الكثيرين. وتوحى أحيانا أن مدينة الاسكندرية قد أنشأت أصلا فى عهود ملوك الدولة الحديثة والعصر الصاوى وقد عثر على نقوش من عصر الامبراطور كراكلا (١١ - ٢١٧م) بأعماق الميناء الشرقى تكشف عن صفحة مجهولة من تاريخ مصر فى عصر الامبراطورية الأعلى وطبوغرافية الاسكندرية ويلاحظ أن ما عثر عليه من الآثار غارقة يرجع طبقا لما تم التعرف عليه وانتشاله الآن من الفترة من عصر الدولة الحديثة وحتى العصر البيزنطى حيث عثر على عامود تاجه على هيئة نبات البردى وثنى يحمل علامة الصليب وقد تم انشاء ادارة للآثار الغارقة بالمجلس الأعلى للآثار للمرة الأولى برئاسة الأثرى ابراهيم درويش - رائد الغوص فى أعماق البحر من الأثريين المصريين عام ١٩٩٦م.

وقد قامت البعثة المصرية اليونانية مؤخرا بالعمل فى أعماق البحر فى المنطقة الواقعة من الشاطبى إلى سيدى جابر حيث عثرت فى أعماق الماء على خزانات منحوتة فى الصخر فى منطقة عميقة من البحر وقد عثر على أهم هذه الخزانات فى منطقة الابراهيمية، وكذا على أحواض منحوتة فى الصخر.

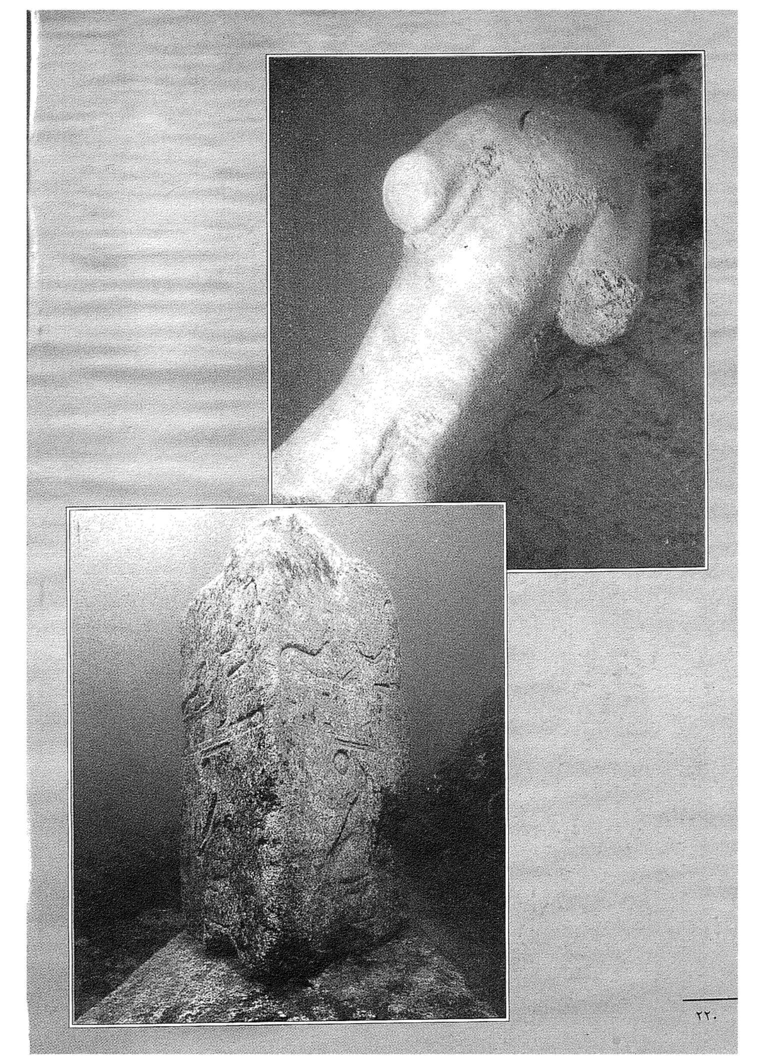
كذلك عثر هنا على قناة ممتدة فى الصخر وأقرب هذه الأحواض للشاطىء كانت قليلة العمق وتبلغ أبعادها ١٠ × ٥م فى عمق ١,٥م.

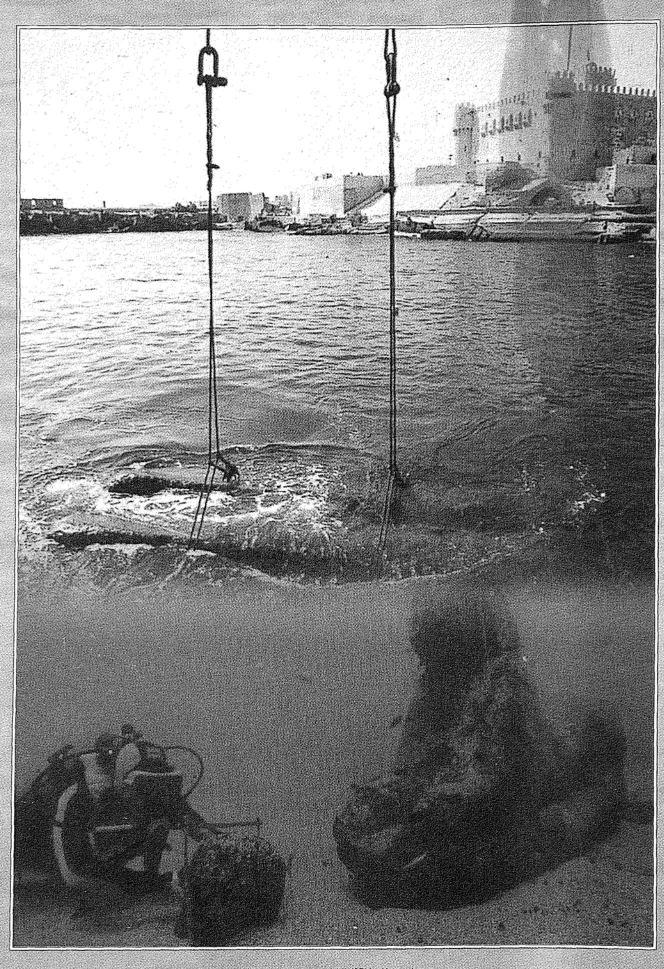
ويعتقد طبقا للدراسات المبدئية أن هذه المنشآت الغارقة تحت الماء تمثل طبقا لمفهومنا المعاصر مزارع سمكية، وهى ظاهرة جديدة يكشف عنها العمل تحت الماء فى المنطقة من البحر الواقعة قبالة ضاحية اليوزيس من الشمال.

وسوف تكشف الأعمال المستمرة تحت الماء عن التاريخ المجهول لدينا عن المدينة وتخومها بشكل سيزداد وضوحا مع الزمن.

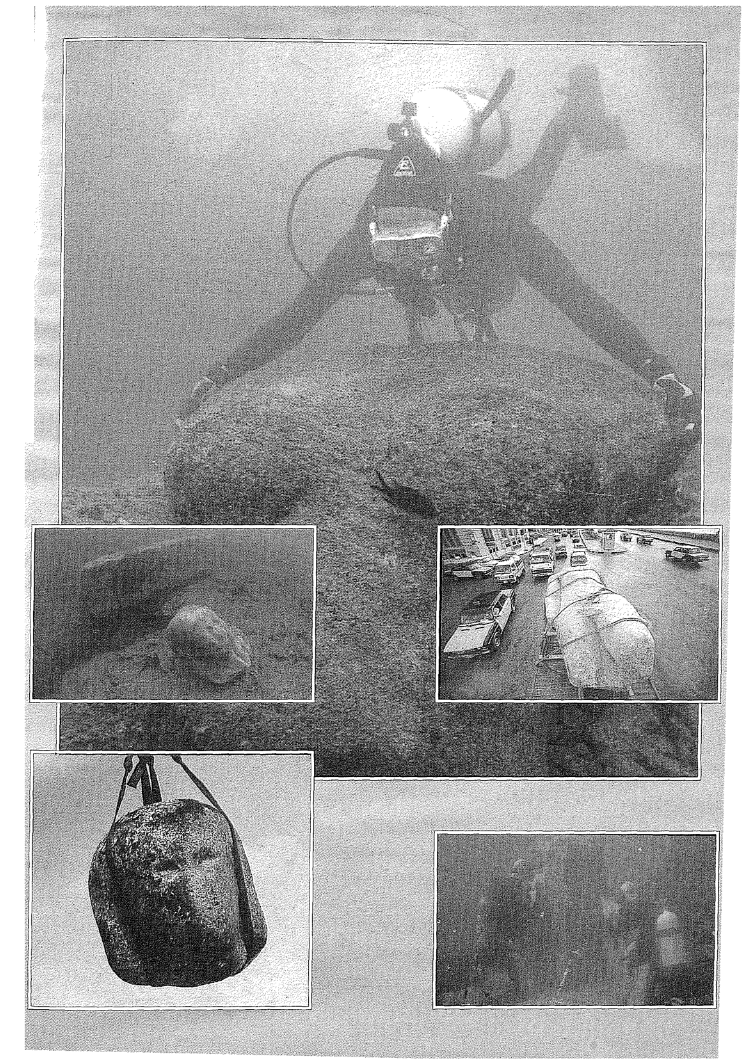


انتشال الآثار المغمورة بالميناء الشرقى





صورة انتشال الآثار المغمورة بالميناء الشرقى



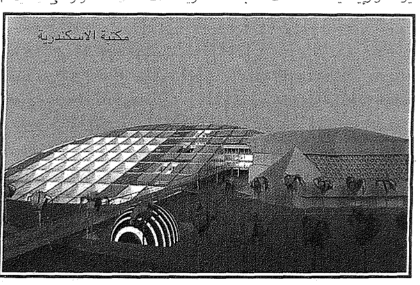
إحياء
مكتبة الإسكندرية
(ألكسندرينا)

* الاسكندرية ....

تلك المدينة الساحرة التى تأسر قلب كل من يشاهدها بعطرها وجمالها وبحرها ونسماتها التى تحمل لكل زائر عبق الماضى الغنى بالتاريخ والحضارة والثقافة، إنها المدينة التى جذبت أكبر أدباء العالم وكانت مصدر إلهام ساحر وأخاذ.. فكتبوا أجمل إبداعاتهم أمثال (أناتول فرانس ، ولورانس داريل، ونجيب محفوظ، وإدوارد خراط) كما ألهمت الشعراء مثل (كفافس ونقل وأبو سنه وأونجاريتى) أجمل وأرق قصائدهم الشعرية، وبإحياء مكتبة الاسكندرية هذا المشروع العالمى الضخم الذى يتكلف ملايين الدولارات، ويضم أكثر من ثمانية ملايين كتاب وقاعة للقراءة تحتوى على ألفى مقعد، وتعد واحدة من أضخم قاعات القراءة فى العالم ، وقد أراد السيد الرئيس/ محمد حسنى مبارك - بهذا المشروع العالمى إعطاء الاسكندرية الثقل الثقافى الذى تستحقه، وجعل المكتبة جسراً يربط بين الشرق والغرب والشمال والجنوب، كما أدى الدور الثقافى الريادى للسيدة/ سوزان مبارك - فى مشروع القراءة للجميع بالإضافة إلى رئاستها اللجنة الدولية لمشروع مكتبة الاسكندرية.

هذه المكتبة فى بداية افتتاحها سيتوفر بها حوالى أربعمائة ألف مجلد تقليدى وإلكترونى، ومصممة لاستيعاب أربعة ملايين مجلد تقليدى وألكترونى. وفى المستقبل سوف يصل الاستيعاب إلى ثمانية ملايين باستخدام نظام التخزين المكثف، وبإحياء هذا المشروع الذى ستكون فنارا لإشعاع العلم بالإضافة إلى أنه سيتم تزويد المكتبة بمتحف ملحق به القطع الأثرية التى تم اكتشافها بموقع المكتبة عام ٩٣ - ٩٤ أثناء أعمال التنقيب بمعرفة خبراء هيئة الآثار المصرية، وترجع إلى العصور الفرعونية واليونانية والرومانية، وسيتم وضع تمثال الإله إيزيس الموجود بالمتحف البحرى والثانى تمثال بطليموس الثانى... المصنوعان من الجرانيت.

وجارى استكمال الوثائق والمستندات المتعلقة بشركة قناة السويس، وبالتعاون مع اليونسكو قامت مكتبة الاسكندرية بإصدار أول أسطوانة مدمجة (عن ذاكرة مكتبة الإسكندرية) ستكون إضافة جديدة لبرنامج ذاكرة العالم الذى بدأته المنظمة، وفى إطار إسهام ودعم اليونسكو وإيطاليا فقد استلمت مكتبة الاسكندرية أحدث معمل تصوير رقمى، وسيدعم هذا العمل بمعمل تصوير ميكروفيلم، وأعمال الحفاظ الجارية حاليا فى المكتبة للثروة الفكرية النادرة فى مكتبة البلدية ومكتبة جامع أبى العباس المرسى، وجارى الإعداد لافتتاح هذا المشروع الضخم فى نهاية عام ١٩٩٩، والذى سوف يكون احتفالا عالميا.



خاتمة

أ.د. محمد محمود السروجى

إن دراسة تاريخ المدن من الدراسات التاريخية الممتعة التى تجذب إليها الباحثين، خصوصا إذا كان لها موقع جغرافى أو استراتيجى هام، أهلها لأن تلعب دورا متميزا فى تاريخ الدولة التابعة لها من النواحى السياسية والاقتصادية والثقافية. وتزداد أهميتها إذا ما كانت جذورها تضرب فى أعماق الماضى السحيق مثل مدينة الاسكندرية التى بناها الاسكندر فى عام٣٣١ق.م. والتى مازالت قائمة حتى يومنا هذا، أى أنها عمرت أكثر من ألفين وثلاثمائة عام، مرت عليها حقب تاريخية متتالية، وحضارات متباينة من أغريقية ورومانية، وبيزنطية وإسلامية وأوروبية، تأثرت بها وأثرت فيها، وهضمت هذا كله، وأخرجت لنا حضارة لها سماتها الخاصة فى عصر معين. ومن ثم فإن التأريخ لمدينة الاسكندرية لايعد تأريخا لمدينة، إنما هو تأريخ لعصر بأكمله.

بنيت الاسكندرية على هيئة رقعة الشطرنج، وقسمت إلى خمسة أحياء، أهمها الحى الملكى الذى يضم المتحف أو دار الحكمة، ومكتبة الاسكندرية العظيمة، ومنارة الاسكندرية، والسيما وهو المعبد الجنائزى الذى دفن فيه الاسكندر.

وسرعان ما إزدهرت المدينة، ولاسيما فى حكم البطالمة الذى امتد ثلاثة قرون، وأصبحت من أعظم المدن اليونانية القديمة، حتى أنها فاقت أثينا وكورنثا، وقد اتخذها البطالمة حاضرة لمصر. وهى بحكم موقعها كانت نقطة إشعاع والتقاء حضارتين مختلفتين : إحداهما شرقية لها نظمها وقيمها ومعتقداتها، وتمثل معظم المناطق الأسيوية والأفريقية المجاورة للحوض الشرقى للبحر المتوسط. والأخرى غربية تختلف إختلافا بينا عن الأولى فى كل شىء.

ومن الناحية الثقافية كانت دار الحكمة والمكتبة مركز إشعاع ثقافى للعالم الهلينستى، ومركز إلتقاء للعلماء والمفكرين والأدباء الذين يفدون إليها من مختلف البلدان. ومن علماء الاسكندرية هيروفيلوس Herophilus الجراح الكبير، وهيبارخوس Hipparchos أعظم علماء الفلك فى العصر القديم، وأرخميدس Archi-mides العالم الطبيعى وغيرهم.

وقد فاقت شهرة المكتبة شهرة دار الحكمة، إذ كانت تضم حوالى ٩٠٠ ألف لفافة، وهى أول مكتبة عامة تملكها الدولة فى العالم القديم.

ويمكننا القول أن الاسكندرية قد احتلت مركز الصدارة فى العلم والأدب والفن فى العالم الهلينستى خلال ثلاثة قرون فى عهد البطالمة.

إنطوت هذه الصفحة بزوال دولة البطالمة على يد الامبراطور أغسطس بعد معركة أكتيوم سنة ٣٠ق.م. وأصبحت الاسكندرية مقرا للوالى الرومانى حتى الفتح العربى فى القرن السابع الميلادى.

ونظرا لأهمية الاسكندرية ولخشية الأمبراطور أغسطس من قيام ثورات بها ضد الحكم الرومانى، قد تؤدى إلى عدم تصدير الغلال لروما، فقد وضع فيها حامية رومانية كبيرة العدد، شددت قبضتها على المدينة، وسلبتها سيادتها وأهميتها السياسية. وما أن غادر أغسطس مصر حتى ثارت الاسكندرية. فأخضعت بكل شدة وعنف.

ومن الأساليب التى اتبعها السكندريون لمقاومة الحكم الرومانى، أسلوب السخرية والفكاهة. ولذا اشتهر أهلها فى العالم القديم بالفكاهة اللاذعة والسخرية القاتلة.

ولم يقف دور أهل الاسكندرية عند حدود الثورة والسخرية، بل كان لهم دور لايستهان به فى مؤازرة المتمردين، وأدعياء الحكم ضد الامبراطور، فساعدوا فسباسيان على الوصول إلى العرش فى فى عام ٦٩

ميلادية. وإذا ما فشل المتمردون، كان الأباطرة ينتقمون من السكندريين شر إنتقام، كما حدث أثناء حكم ماركوس أوريليوس (١٦١ ـ ١٨٠)، وسيفيروس (١٩٣ ـ ٢١١).

وقد ظل التأثير اليونانى باقيا خلال الحكم الرومانى، فكانت اللغة اليونانية هى اللغة الرسمية فى مصر. ومن الناحية الدينية ظل الثالوث السكندرى المكون من سرابيس، وايزيس، وهربوكراتيس الذى وضعه البطالمة، فى مكان الصدارة بين الآلهة فى العصر الرومانى.

ومن الناحية الثقافية فقد حافظ الرومان على المؤسسات الثقافية فى الاسكندرية، وأسبغوا عليها رعايتهم، فبقيت المكتبة ودار الحكمة يؤديان دورهما. بالإضافة إلى المنح والعطاءات التى كان الأباطرة الرومان يمنحونها للعلماء تشجيعا لهم على مواصلة بحوثهم. وقد انتشرت المسيحية فى مصر فى تلك الفترة، وعانى الأقباط الشيء الكثير من الاضطهاد الدينى الذى بلغ ذروته فى عهد الامبراطور دقلديانوس الذى أطلق على عصره عصر الشهداء.

وما إن انتهى عصر الاضطهاد الدينى حتى اشتبكت كنيسة الاسكندرية مع الامبراطورية فى صراع مذهبى لايقل حدة عن الصراع الدينى.

ومن آثار الاسكندرية فى العصر الرومانى، مدينة النصر Nicopolis شرق الاسكندرية، ومعبد الرأس السوداء، والحمامات الرومانية، وحمام كوم الدكة، وحمام تابوزيريس (أبوصير الشرقية)، وحمام كانوب، وصهاريج المياه، وعامود السوارى، ومقابر الاسكندرية فى العصر الرومانى، وجبانة الأنفوشى، وجبانة كوم الشقافة.

وفى النصف الأول من القرن السابع الميلادى فتح العرب مصر، حيث بدأت البلاد تدخل عصرا جديداً، فلم تعد الاسكندرية عاصمة للبلاد بعد إنشاء الفسطاط، وسيترتب على ذلك أن تفقد الاسكندرية أهميتها القديمة. بانفصالها عن العالم الرومانى الذى ارتبطت به. وإذا كانت قد فقدت أهميتها السياسية، فقد احتفظت بأهميتها العسكرية وذلك لكونها أهم ثغور مصر. كما احتفظت أيضا بأهميتها التجارية، بحكم موقعها، وبحكم كونها أهم محطة برية بين الشرق والغرب. فكانت ممر عبور للتجارة العالمية. فكثرت بها البيوت والقصور، والمساجد الجامعة، والمدارس، والأضرحة المعروفة. ومن ثم كانت مركز إشعاع علمى بفضل فقهائها وعلمائها الذين وفدوا إليها من الشرق والغرب.

وفى خلال عهود الاستقلال الثلاثة عن الدولة العباسية والتى تمثلت فى الدولة الطولونية (٢٥٤ ـ ٢٨٢هـ / ٨٦٨ ـ ٩٠٥م)، والدولة الأخشيدية (٣٢٣ ـ ٣٥٧هـ / ٩٩٥ ـ ٩٦٨م) ، والدولة الفاطمية (٣٥٨ ـ ٥٦٧هـ/ ٩٦٩ ـ ١١٧٢م)، استطاعت مصر أن تحقق كيانها الذاتى الذى بلغ اكتماله فى عهد الفاطميين، وكان للاسكندرية نصيب من اهتمامات أحمد بن طولون، فجدد أسوارها، ورمم منارها، وحفر خليج الاسكندرية.

وباستيلاء الفاطميين على مصر، اهتموا اهتماما كبيرا بالاسكندرية التى جعلوها قاعدة بحرية لأسطولهم فى البحر المتوسط، وللأساطيل الإسلامية التى تجوب هذا البحر من ثغور الشام شرقا إلى ثغور المغرب والأندلس غربا. كما أنها ظلت تحتفظ بمركزها التجارى كأكبر ثغر لمصر على هذا البحر، حيث تتدفق عليه التجارة من الشرق، ومن الغرب، فانتشر الرخاء، وازدهرت المدينة، واستطاعت أن تستعيد مركزها الذى فقدته منذ أواخر العصر البيزنطى، وأوائل العصر الإسلامى.

ونظرا لبعد الاسكندرية عن مركز الحكم فى القاهرة أن أصبحت مأوى لغلاة أهل السنة والمعارضين للحكم الفاطمى، والخارجين على سلطان الدولة والراغبين فى التخلص منها. واستمرت الاسكندرية مركز المعارضة طوال الحكم الفاطمى. وكان من الطبيعى أن يكون لها دور فى الأحداث التى عجلت بسقوط الدولة الفاطمية.

رحب أهل الاسكندرية بقيام الدولة الأيوبية السنية، حيث كان أهل السنة يتخذون منها قاعدة لمناهضة

التشيع الفاطمى، والقيام بالعديد من الانتفاضات. ومن ثم كان صلاح الدين الأيوبى يعرف قدرها، ويعترف بشجاعة أهلها الذين ساندوه وآزروه أثناء حصار الصليبيين للاسكندرية. وكذلك ما بذلوه من جهد وتضحيات فى صد هجوم الفرنج الذين قدموا من صقلية فى عام ٥٦٩ هجرية.

تمتعت الاسكندرية بالإزدهار حيث ظلت تحتفظ بمركزها كسوق هامة للتجارة العالمية، مما حدا بالجمهوريات الإيطالية ببناء فنادق لإقامة تجارها أثناء وجودهم بالاسكندرية.

ومن الناحية الثقافية أقام صلاح الدين مدرسة على نظام المدارس السلجوقية، وألحق بها مدرستين، كما أنشأ دارا للمغاربة، وجدد حفر خليج الاسكندرية.

وقد بلغت الاسكندرية ذروة تقدمها وازدهارها فى عصر دولة المماليك البحرية، بسبب النشاط التجارى الكبير الذى مارسته والذى در عائدا ضخما من الرسوم الجمركية التى كان يفرضها سلاطين المماليك على التجارة العابره. وبدأ هذا واضحا فى التقدم العمرانى الذى شاهدته المدينة من بناء الحصون والمساجد والأربطة والخوانق.

واستمر هذا الازدهار فى عصر دولة المماليك الشراكسة حيث كان ميناء الاسكندرية تتكدس فيه الحاصلات بكميات كبيرة ومحط أنظار التجار من الشرق والغرب، وانعكس هذا الرخاء على العمران، فنجد قلعة قايتباى، ومسجد أبا العباس المرسى، ومسجد الشيخ ياقوت العرش، ومسجد الشيخ البوصيرى، والأربطة، ودار الحديث التكريتية، ودار الحديث النبهية.

فوجئت مصر فى أواخر القرن الخامس عشر بكشف طريق رأس الرجاء الصالح الذى حول التجارة العالمية من طريقها التقليدى القديم المار بمصر (السويس ـ القاهرة ـ الاسكندرية) إلى هذا الطريق الجديد، فأصيب الاقتصاد المصرى بخساره كبيره، ظهر أثرها فى التدهور الاقتصادى، والانكماش العمرانى بمدينة الإسكندرية.

لم يمض على كشف طريق رأس الرجاء الصالح أكثر من عشرين عاما إلا ووقعت مصر فريسة الاحتلال العثمانى فى عام ١٥١٧. وبذلك تنطوى صفحة مجيدة من صفحات التاريخ، لتصبح مصر مجرد ولاية تابعة للدولة العثمانية. وينتقل مركز السلطة والثقل السياسى من القاهرة إلى الاستانة، ويخيم على البلاد نوع من الخمول دام ثلاثة قرون، وبلغ مداه فى أواخر القرن الثامن عشر.

كان طبيعيا أن ينعكس هذا الوضع على مدينة الاسكندرية، فيتضاءل مركزها التجارى وتضعف صلتها بالخارج، ولاسيما بمدينتى جنوه والبندقية.

ولم تساعد ظروف الاحتلال العثمانى للبلاد وشبه العزلة التى فرضت عليها مدينة الاسكندرية على النمو أو مجرد الاحتفاظ بوضعها الذى كانت عليه فى ظل حكم سلاطين المماليك. فقل عدد سكانها، واقتصرت المنطقة المأهولة بالسكان على المستطيل الممتد بين الميناءين الشرقى والغربى.

وكان يقوم على حكم المدينة وقتذاك قبودان عثمانى خاضع للسلطان العثمانى مباشرة ويمكننا القول بأن حكم بكوات المماليك فى ظل السيادة العثمانية لم يكن عاملا على إحياء المدينة، وذلك لافتقاره إلى الاستناره والاستقرار، ولهذا ظلت الاسكندرية مدينة صغيرة لاتمر بها أحداث ذات شأن اللهم عند قدوم الوالى العثمانى الجديد.

عندما جاءت الحملة الفرنسية إلى مصر نزل نابليون بونابرت بقواته البالغة ٣٦ ألف جندى بمنطقة العجمى ليلا فى ٢ يوليو ١٧٩٨، كان عدد سكان الاسكندرية حسب تقدير جومار Jomard ـ أحد علماء الحملة ـ حوالى ثمانية آلاف نسمة، يخيم عليهم الفقر والتأخر، كما كانت استحكاماتها فى غاية الضعف والوهن.

وما إن أصبح الصباح إلا وكانت القوات الفرنسية تحاصر المدينة كالجراد المنتشر، وفى مواجهتهم

اعتصم أهلها بالقلاع والتحصينات القديمة، وحمل السلاح كل قادر على حمله من الرجال والنساء. وتداعت الأسوار القديمة تحت ضربات المدفعية الفرنسية، واقتحم الجنود الشوارع والأزقة ناشرين الذعر والاضطراب، حتى كاد نابليون نفسه أن يلقى حتفه.

أبلى السكندريون بلاء حسنا فى الدفاع عن مدينتهم بأسلحة بدائية أمام عدو مدجج بأحدث الأسلحة، وتحت أكبر قيادة عرفها العالم وقتذاك. فأسفر القتال على قتل ما بين سبعمائة وثمانمائة من أهل الاسكندرية، وما بين ثلاثين وأربعين من الجنود الفرنسيين.

وعين السيد محمد كريم حاكما مدنيا للاسكندرية إلى جانب الحاكم العسكرى الفرنسى، ولكن سرعان ما اكتشفوا تعاونه مع المجاهدين المصريين، فحوكم وأعدم فى ٦ سبتمبر ١٧٩٨ بميدان الرميلة.

شاهدت الاسكندرية أكبر معركة بحرية لم تر لها مثيلا من قبل، حيث داهم الاسطول الإنجليزى بقيادة نلسون، الاسطول الفرنسى بقيادة الأميرال دبرويس فى خليج أبى قير فى أول أغسطس ١٧٩٨، وانتهت معركة أبى قير البحرية بعد أن كبدت الفرنسيين خسائر فادحة، فقتل منهم أربعة آلاف جندى بما فيهم القائد البحرى. ولم ينج من السفن الفرنسية سوى أربع سفن، وفقد الإنجليز ١١٨ جنديا وجرح ٦٧٨ جنديا.

وضعت هزيمة أبى قير الفرنسيين فى موقف حرج، فمالوا إلى استمالة أهل الاسكندرية خوفا من التمرد والثورة. وقد ساءت الحالة الاقتصادية فى مدينة الاسكندرية لحصار الاسطول الإنجليزى للسواحل المصرية، فتوقف الصادر منها والوارد إليها.

وفى منتصف عام ١٧٩٩ شاهدت الاسكندرية معركة أبى قير البرية بين القوات العثمانية والقوات الفرنسية، ودارت الدائرة على العثمانيين فقتل وغرق منهم نحو ثمانية آلاف، وأسر نحو ثلاثة آلاف بينما لم يقتل من الفرنسيين سوى ٢٥٠ جنديا وجرح ٧٥٠ جنديا.

وفى أعقاب تلك المعركة رحل نابليون من الاسكندرية فى مساء ٢٢ أغسطس ١٧٩٩ تحت جنح الظلام وإلى غير رجعة، دون أن يعلم برحيله أحد من الأهالى.

حدثت حول مدينة الاسكندرية فى عام ١٨٠١ معركتا نيكوبوليس وكانوب (معركة الاسكندرية) أسفرتا عن خروج الفرنسيين من مصر. وفى خلالها قطع قائد الحملة الإنجليزية التى أتت لإخراج الفرنسيين من مصر سد أبى قير الذى يفصل بحيرة أبى قير عن بحيرة مريوط، والذى تجرى فوقه ترعة الاسكندرية، فحرمت المدينة من المياه العذبة ثلاث سنوات (١٨٠١ـ ١٨٠٤) عانت منها الشىء الكثير، ولاقت من النكبات مالم تره من قبل، ففتكت بأهلها الأمراض، واشتدت بهم المجاعة حتى أكل الناس لحوم الخيل.

وبعودة النفوذ العثمانى بعد خروج الفرنسيين، خشى العثمانيون من أن يمتد نفوذ المماليك إلى الاسكندرية، ولكى يعوق الوالى حدوث ذلك قام بقطع سد أبى قير مرة ثانية، مما كان له أسوأ الأثر على المدينة والقرى والمزارع المحيطة بها.

وفى مارس ١٨٠٧ جاءت حملة فريزر الإنجليزية إلى الاسكندرية للضغط على السلطان العثمانى للابتعاد عن فرنسا، وكانت الاسكندرية حتى ذلك الوقت خارجة عن سلطان محمد على، فسلم قائد حاميتها التركى أمين أغا المدينة دون مقاومة. وبعد هزيمة الإنجليز فى رشيد والحماد أنسحبت الحملة فى ١٩ سبتمبر ١٨٠٧. ومكافأة لمحمد على قرر السلطان فى عام ١٨٠٩ ضم الاسكندرية لولايته.

بعد أن دخلت الاسكندرية فى حوزة محمد على، أدرك مدى أهمية المدينة من الناحية العسكرية، فهى مدخل الغزاة لمصر، فعلى شواطئها نزلت الحملة الفرنسية، وكذلك نزلت القوات العثمانية لطرد الفرنسيين، وجاءت حملة فريزر. فلا غرابة إذا ما أولاها محمد على من العناية ما تستحقه، فقفزت فى فترة قصيرة من مدينة صغيرة لايزيد عدد سكانها عن سبعة آلاف نسمة إلى مدينة كبيرة، وعاصمة ثانية لمصر، وذلك بفضل المشروعات العمرانية التى كان لها أبلغ الأثر فى نمو المدينة وتطورها، وأهمها ترعة المحمودية، وإنشاء دار

الصناعة، وإصلاح الميناء وتعميقه، وإنشاء لجنة التنظيم وما قامت به من اصلاحات وخدمات ساعدت على زيادة عدد السكان. فضلا عن تركيز النشاط التجارى فى المدينة، وجعلها قاعدة للأسطول المصرى فى البحر المتوسط، ومركزا صناعيا لبناء السفن التى منحت مصر التفوق البحرى والسياسى فى شرق البحر المتوسط.

وإذا كان شق ترعة المحمودية يعتبر بداية لتطور المدينة فى النصف الأول من القرن التاسع عشر، فإن مد الخط الحديدى بينها وبين السويس، مرورا بالقاهرة، كان البداية لتطور المدينة فى النصف الثانى من هذا القرن.

كما ساعد مد سكة حديد الرمل من محطة الرمل إلى ضاحية الرمل على نمو المدينة واتساعها فى اتجاه الشرق، فزاد عدد السكان زيادة كبيرة، ولاسيما الأجانب، ويعتبر مجلس بلدى الاسكندرية أول مجلس أنشىء فى مصر، ويرجع إليه الفضل فيما وصلت إليه المدينة من تقدم وعمران.

وعندما تأزمت الأمور بين الوزارة الوطنية المصرية، التى كان يشغل فيها الزعيم أحمد عرابى ناظر الجهادية (وزير الدفاع)، وخشيت الدولتان بريطانيا وفرنسا على مصالحهما فى مصر، أرسلت كل منهما ست بوارج إلى ميناء الاسكندرية بحجة حماية رعاياها من أخطار متوقعة.

كان من مطالب الدولتين إبعاد عرابى عن البلاد وعزم الخديو توفيق على تنفيذه لولا تهديد رجال الجيش والبوليس بالاسكندرية للخديو بأنهم لايرضون عن عرابى بديلا، وحملوه مسئولية رفض هذا الإنذار فاضطر إلى الاستجابة لمطالبهم ويدلنا هذا على موقف الاسكندرية الوطنى ومؤازرتها للثورة العرابية؛ وهو يشبه إلى حد ما مبادرة المدينة إلى تأييد ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ فى يومها الأول ومن هذا يتضح أن الاسكندرية كانت دائما سباقة إلى تأييد الثورات الوطنية التى قامت بمصر ولما كانت بريطانيا مصممة على احتلال مصر فقد دبرت مذبحة الاسكندرية التى حدثت بين الأجانب والسكندريين لتتخذها ذريعة للتدخل الحربى تحت ستار حماية أرواح الأجانب وفى ١١ يوليو ١٨٨٢ هاجم الأسطول البريطانى ميناء الاسكندرية ودمر تحصيناتها ورغم تفوق العدو الساحق فلم يفت هذا فى عضد الجنود والأهالى فإذا كانت تنقصهم الأسلحة والعتاد فلم تكن تعوذهم الشجاعة ولا الإيمان.

ولم يقتصر التدمير على التحصينات العسكرية فحسب بل امتد إلى تدمير البيوت وحصد الأهالى فهاجر الأهالى تاركين دورهم وامتعتهم وانتشروا على ضفاف ترعة المحمودية والقرى المجاورة لها وليت الأمر اقتصر على هذا الخطب فقام سليمان داود قائد الآلاى السادس بإشعال النار فى المناطق التى لم تصل إليها الحرائق التى اشعلتها قنابل العدو حتى لاتستفيد منها القوات الغازية فاتاح بذلك الفرصة للأجانب الذين أضيروا من الحريق بمطالبة سلطات الاحتلال بتعويضهم من أموال المصريين.

بدأ مصطفى كامل فى تبنى القضية الوطنية فسافر إلى أوروبا فى مايو ١٨٩٥ للدعاية لقضية بلده وعندما عاد إلى مصر رأى أن يبدأ كفاحة من حيث بدأ الاحتلال وقد رغبه فى هذا ما اتصف به أهل المدينة من شجاعة ووطنية وشاهد المسرح العباسى ومسرح زيزينيا صولات وجولات مصطفى كامل، منددا بالإحتلال، حاثا المصريين على مقاومته.

وبعد انتهاء الحرب العالمية الأولى، طالب سعد زغلول وزملاؤه بإلغاء الأحكام العرفية والإعتراف باستقلال البلاد، والسفر إلى فرنسا لعرض قضية بلادهم على مؤتمر الصلح فى فرساى ورفضت سلطات الاحتلال الاستجابة لمطالبهم فعمت مظاهرات الطلبة أرجاء البلاد. وأسهمت الاسكندرية فى هذه المظاهرات، لاسيما فى أيام الجمعة عقب الصلاة حيث يبدأون التجمع فى ميدان أبى العباس المرسى، ومنه تندفع المظاهرات إلى ميدان محمد على (المنشية) وكانت سلطات الاحتلال تعمل لهذا اليوم ألف حساب. وقد سقط فى هذه المصادمات شهداء كثيرون.

وفى خلال الحرب العالمية الثانية، وبعد زوال خطر قوات المحور عن البلاد، شاهدت الاسكندرية مولد

جامعة الدول العربية، حيث وقع بروتوكول الاسكندرية فى ٧ أكتوبر ١٩٤٤ من مصر وسوريا ولبنان وشرق الأردن والسعودية واليمن والعراق.

وعندما أصدرت هيئة الأمم المتحدة قرارها فى ٢٧ نوفمبر ١٩٤٧ بتقسيم فلسطين قام المتظاهرون فى الاسكندرية بتمزيق الشعار الأمريكى ووضعه تحت الأقدام، والمناداة بسقوط الصهيونية والولايات المتحدة الأمريكية. وبريطانيا، وتجددت هذه المظاهرات، وعقد مؤتمر فى ١٩ يناير ١٩٤٨، وزع فيه الطلبة صور الملك فاروق وأشعلوا فيها النار، ثم ساروا فى مظاهرة كبيرة يهتفون (لاملك إلا لله) وكان هذا أول هجوم سافر ضد الملكية.

عرفنا كيف كان الطابع الأوروبى هو الطابع الغالب على الاسكندرية عند قيام الثورة، لوجود العديد من الجاليات الأجنبية من يونانيين وإيطاليين وإنجليز وفرنسيين وغيرهم. وكانت لهم مجتمعاتهم التى ألغوها فى بلادهم الأصلية. كما كانت لهم مؤسساتهم الاقتصادية والمالية والصناعية والثقافية. وكيف كانوا يسيطرون على الحياة الاقتصادية فى المدينة، لما لهم من خبرات واسعة فى هذا المجال، ولما كانوا يتمتعون به من امتيازات أجنبية، وحماية بريطانية.

ولكن حدوث العدوان الثلاثى على مصر فى عام ١٩٥٦ قد غير الأوضاع فى الاسكندرية تغييرا كبيرا، فمصادرة ممتلكات بريطانيا وفرنسا، ونزوح الكثيرين من الأجانب عن مصر، ولاسيما عن الاسكندرية، بعد أن أدركوا أن المستقبل ليس فى صالحهم، وأن العنصر الوطنى سيحل محلهم، وأن أمور المصريين ستكون فى أيديهم وحدهم، هذا النزوح فجر طاقات الوطنيين، فحلوا محلهم فى تسيير عجلة الإنتاج، خصوصا وأنهم قد تعلموا الكثير من هؤلاء الأجانب خلال عملهم معهم،. ومن ثم اعتمدت حكومة الثورة على سواعد عمالها فى تنفيذ ما قامت به من مشروعات.

تطورت الاسكندرية تطورا كبيرا فى ظل الحكومات الوطنية، زاد العمران زيادة كبيرة، وارتفع عدد السكان ارتفاعا كبيرا، نتيجة الهجرة من الريف، طلبا للعمل والسعى وراء الرزق، فضلا عن الزيادة الطبيعية فى عدد السكان. فكانت الاسكندرية، وما زالت منطقة جذب شأنها فى ذلك شأن مدينة القاهرة.

وساعد على ذلك عدة عوامل، منها: احتفاظ الاسكندرية بمركزها كأكبر ميناء فى مصر، فمعظم صادرات مصر ووارداتها تأتى عن طريقها، بما يتيحه هذا من فتح أبواب الرزق أمام الكثيرين. وكذلك إنشاء طريق الكورنيش الذى جعل الاسكندرية المصيف الأول فى مصر. وما استتبعه من إنشاء الكثير من المبانى والمتاجر. وأصبح الصيف من مصادر الدخل الأساسية للمدينة.

كما لاننسى إنشاء جامعة الاسكندرية بكلياتها المتعددة، والتوسع فى إنشاء المعاهد ومراكز البحث التابعة لها. وما ترتب عليه من نزوح الكثيرين من أبناء المدن والقرى القريبة والبعيدة عنها، وما يلزمهم من مبان وخدمات، وخصوصا قبل إنشاء الجامعات الإقليمية. هذا فضلا عن كون المدينة مركزا صناعيا هاما تتركز فيها صناعات هامة، قابلة للتوسع والزيادة. كما لعبت سهولة المواصلات بينها وبين المدن الداخلية من انتقال هؤلاء إليها، بل والإقامة فيها بصفة دائمة.

وترتب على هذا امتداد العمران شرقا وغربا، فتكونت مجتمعات جديدة، وأحياء جديدة تحيط بها.

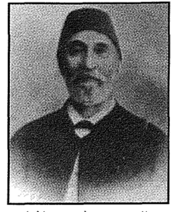
وإذا كانت الاسكندرية قد تألقت فى تاريخها القديم، فعلى أرضها تلاقت الحضارات اليونانية والرومانية والبيزنطية والإسلامية والأوروبية، وعلى أرضها التقت أجناس ولغات عديدة من الشرق والغرب، سواء عن طريق التجارة أو الهجرة أو الغزو، انصهرت فيها جميعا، فأصبحت لها خصوصية جامعة، جعلت منها اسكندرية الأمس واليوم والغد.

محافظو الاسكندرية

من سنة ١٨٤٠ إلى سنة ١٩٩٨



١ - خورشيد باشا
(تولى المنصب مرتين)
من ١٨٤٠ إلى ١٨٦٣



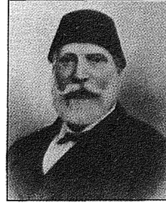
٢ - حسين شرين باشا
(تولى المنصب ثلاث مرات)
١٨٧٠/١١/٢٦ - ١٨٦٣/٨/٢



٣ - مراد باشا حلمى
١٨٦٦/١/٩ -١٨٦٤/١٠/٢٤



٤ - على ذو الفقار باشا
(تولى المنصب أربع مرات)
١٨٨٠/٧/١٤ - ١٨٦٦/١/١٠



٥ - حسن راسم باشا
(تولى المنصب ٤ مرات)
١٨٧٦/٦/٥ - ١٨٦٨/٩/١٠



٦ - محمد زكى باشا
(تولى المنصب مرتين)
١٨٧٩/٤/٧ - ١٨٧١/٦/٢١



٧ - محمد ثابت باشا
١٨٧٤/٣/١ - ١٨٧٣/١٠/٢٧



٨ - عمر لطفي باشا
(تولى المنصب ٣ مرات)
١٨٨٢/٧/٢٥ - ١٨٧٤/٤/٢٠



٩ - مصطفى فهمى باشا
(تولى المنصب مرتين)
١٨٧٩/٧/٢ - ١٨٧٤/٨/١١


١٠ ـ عبد القادر حلمى باشا
١٨٧٧/١٠/١٥ - ١٨٧٨/١٠/٢


١١ ـ على صادق باشا
١٨٧٩/٧/٣ - ١٨٨٧/٢/١٨


١٢ ـ أحمد رأفت باشا
١٨٨٠/٧/١٥ - ١٨٨٧/٢/١٨


١٣ ـ محمد ماهر باشا
١٨٩٢/٥/١٤ - ١٨٩٣/٩/٢٤


١٤ ـ إبراهيم نجيب باشا
١٨٩٣/١٠/٢ - ١٨٩٤/١٠/١٢


١٥ ـ أمين فكرى باشا
١٨٩٤/١١/١٥ - ١٨٩٦/٢/٢٩


١٦ - إسماعيل صبرى باشا
١٨٩٦/٣/١ - ١٨٩٩/١١/٥


١٧ ـ محمود صدقى باشا
١٨٩٩/١١/٦ - ١٩٠٦/٣/٢٥


١٨ ـ مصطفى عبادى باشا
١٩٠٦/٣/٢٦ - ١٩١٣/٣/٤

محافظو الاسكندرية

من سنة ١٨٤٠ إلى سنة ١٩٩٨



١٩ ـ أحمد زيوار باشا
١٩١٣/٣/٥ - ١٩١٧/١٢/٣٠



٢٠ ـ أحمد مدحت يكن باشا
١٩١٧/١٢/٣١ - ١٩١٩/٤/١٨



٢١ ـ حسن عبد الرازق باشا
١٩١٩/٥/٢ - ١٩٢٠/١١/٩



٢٢ ـ محمد حدايه باشا
١٩٢٠/١١/١٠ - ١٩٢٣/٣/٢٧



٢٣ ـ محمد مقبل باشا
١٩٢٨/٣/٢٨ - ١٩٢٤/٢/٩



٢٤ ـ محمد صدقى محمد باشا
١٩٢٤/٢/١٠ - ١٩٢٥/٣/١٧



٢٥ ـ حسين صبرى باشا
١٩٢٥/٣/١٨ - ١٩٣٧/١/١٠



٢٦ ـ محمد حسين باشا
١٩٣٧/٣/٣ - ١٩٤٢/٤/٢٤



٢٧ ـ محمد عبد الخالق حسونه باشا
١٩٤٢/٤/٢٥ - ١٩٤٨/٥/١٥

محـــافظو الاســـكـندرية

من سنة ١٨٤٠ إلى سنة ١٩٩٨



٢٨ - بدوى خليفه باشا
١٩٤٨/٥/١٩ - ١٩٤٩/٨/١٤



٢٩ - أحمد لطفى بك
١٩٤٩/٨/١٤ - ١٩٥٠/٤/٢٧



٣٠ - أحمد مرتضى المراغى باشا
١٩٥٠/٤/٢٧ - ١٩٥٢/١/٢٧



٣١ - محمد مصطفى كمال الديب
١٩٥٢/٤/١٠ - ١٩٥٧/١/٥



٣٢ - إسماعيل محمود مهنا
١٩٥٧/٣/٤ - ١٩٦٠/٩/١٠



٣٣ - صديق عبد اللطيف
١٩٦٠/١٠/٨ - ١٩٦١/١١/١٢



٣٤ - محمد حمدى عاشور
١٩٦١/١١/١٣ - ١٩٦٨/١٠/٢٧



٣٥ - أحمد كامل
١٩٦٨/١١/٦ - ١٩٧٠/١١/١٧



٣٦ - ممدوح سالم
١٩٧٠/١١/١٨ - ١٩٧١/٥/١٣

محافظو الاسكندرية

من سنة ١٨٤٠ إلى سنة ١٩٩٨



٣٧ - د. فؤاد محيى الدين
١٩٧١/٥/١٨ - ١٩٧٢/٩/٧



٣٨ - عبد المنعم وهبى
١٩٧٢/٩/٨ - ١٩٧٤/٥/٢٨



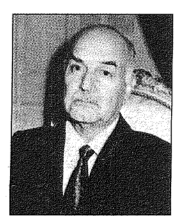
٣٩ - عبد التواب أحمد هديب
١٩٧٤/٥/٢٩ - ١٩٧٨/١١/٢٧



٤٠ - د. محمد فؤاد حلمى
١٩٧٨/١١/٢٨ - ١٩٨٠/٥/١٥



٤١ - د. م. نعيم مصطفى أبو طالب
١٩٨٠/٥/١٥ - ١٩٨١/٨/٢٣



٤٢ - فريق. محمد سعيد الماحى
١٩٨١/٨/٢٤ - ١٩٨٢/٥/١٧



٤٣ - اللواء. محمد فوزى معاذ
١٩٨٢/٥/١٨ - ١٩٨٦/٦/١٩



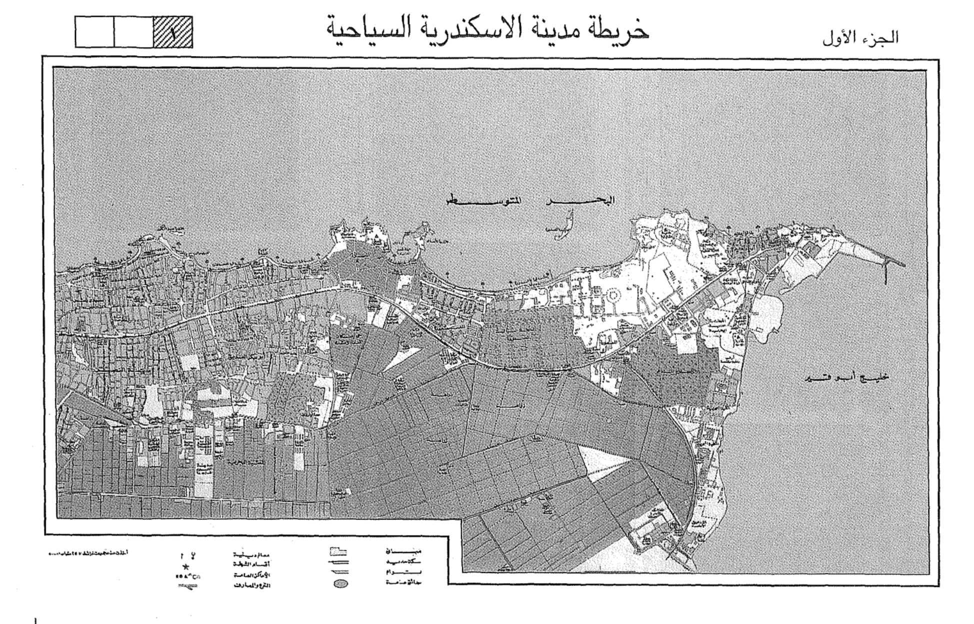
٤٤ - المستشار
السيد إسماعيل الجوسقى
١٩٨٦/٧/١٠ - ١٩٩٧/٧/٨



٤٥ - اللواء
محمد عبدالسلام المحجوب
١٩٩٧/٧/٩

خريطة مدينة الاسكندرية السياحية

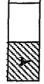
١



٢

البحر المتوسط

قسم الميناء



• فهرس الموضوعات •

رقم الإيداع ٧٨٩٤ / ١٩٩٩



مع تحيات
الهيئة الإقليمية لتنشيط السياحة
بالإسكندرية

تصميم مفتاح الاسكندرية

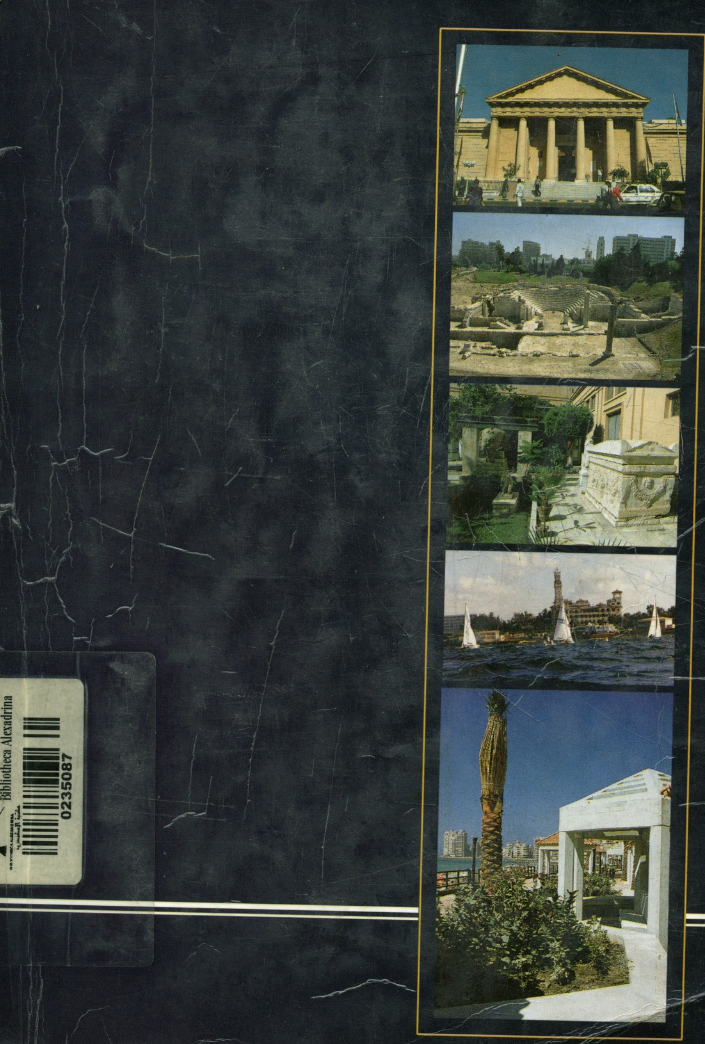
فكرة اللواء حازم أبو شليب

الصور بعدسة الفنان :

حسين فتحى حسين

طبعت بمطابع الأهرام التجارية - قليوب - مصر





مطابع الأهرام التجارية - قليوب - مصر